

النَهْضَةُ الْحُسَيْنِيَّةُ

ودورها في الحركة الثقافية

تأليف

د. السيد سعد شريف البخاتي

الإشرافُ العلوي

مؤسسة زوارث الأندياء

للدلائل التاريخية والنهضة الحسينية

بطاقة فهرسة

BP193.13 .B55 2024

البخاتي، سعد شريف - مؤلف.
النهضة الحسينية ودورها في الحركة الثقافية / تأليف د. السيد سعد شريف البخاتي - الطبعة الاولى.
- النجف، العراق : العتبة الحسينية المقدسة، مؤسسة وارث الانبياء للدراسات التخصصية في
النهضة الحسينية، ٢٠٢٤ / ١٤٤٥ للهجرة.
٤٤٥ صفحة ؛ ٤٢ سم. - (العتبة الحسينية المقدسة ؛ ١٤٢٢)، (مؤسسة وارث الانبياء للدراسات
التخصصية في النهضة الحسينية ؛).
يتضمن ارجاعات ببليوجرافية.
١. معركة كربلاء، ٦١ للهجرة -- تأثير. ٢. الدولة الاموية، ٦٦١-٧٥٠ -- احوال اجتماعية. ٣.
معركة كربلاء، ٦١ للهجرة -- نتائج وتأثيرات. أ. العنوان.

تمت الفهرسة قبل النشر في شعبة نظم المعلومات التابعة لقسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة.

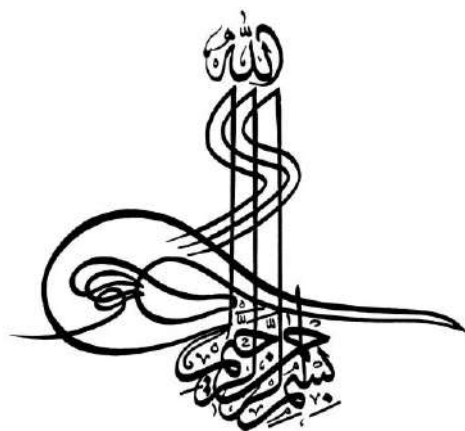
بطاقة الإيداع

٩٥٦/٠٤٢

ب ٤٢٢ البخاتي، سعد شريف.
النهضة الحسينية ودورها في الحركة الثقافية/ سعد شريف البخاتي. - ط ١ - النجف الأشرف:
مؤسسة وارث الأنبياء، ٢٠٢٤.
٤٤٥؛ ٢٤ سم.
١. التاريخ الإسلامي - العصر الأموي - دراسات. ٢. الثورة الحسينية. ٣. الحسين بن علي عليه السلام -
الإمام الثالث. ٤. الثقافة. أ. العنوان
رقم الإيداع ٢٤٦٣ / ٢٠٢٤

المكتبة الوطنية / الفهرسة أثناء النشر

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٢٤٦٣) لسنة ٢٠٢٤



الإهداء

إلى شموخ النبوة الذي تصدّع حزناً ولم يثنِ
إلى مجد ابن أبي طالب الذي استطال على خصومه
إلى خدر فاطمة بنت محمد ﷺ الثائر على أسّ الضلالة
إلى حكمة الحسن التي حاصرت أعداءها
إلى شجاعة الحسين التي أخرست مناوئها
إلى زينب بنت الرسالة والنبوة والإمامة
أهدي هذه الدراسة الخجلة أمام تلك العظمة، علّها وكاتبها تحظى بالقبول...

مقدمة المؤسسة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

إنَّ العلم والمعرفة مصدر الإشعاع الذي يهدي الإنسان إلى الطريق القويم، ومن خلّاهما يمكنه أن يصل إلى غايته الحقيقيّة وسعادته الأبديّة المنشودة، فبهما يتميّز الحقّ من الباطل، وبهما تُحدّد خيارات الإنسان الصحيحة، وفي ضوئهما يسير في سبل الهداية وطريق الرشاد الذي خُلق من أجله، بل على أساس العلم والمعرفة فضّله الله عزّ وجلّ على سائر المخلوقات، فبالعلم يرتقي المرء وبالجهل يتسافل، كما بالعلم والمعرفة تتفاوت مقامات البشر، ويتفوّق بعضهم على بعض عند الله عزّ وجلّ، وبهما تُسعد المجتمعات، وبهما الإعمار والازدهار، وبهما الخير كلّ الخير.

ومن أجل العلم والمعرفة كانت التضحيات الكبيرة التي قدّمها الأنبياء والأئمّة والأولياء عليهم السلام، تضحيات جساماً لا بدّ أن تُثمن وتُقدّس، والإمام الحسين عليه السلام تلك الشخصية القمّة في العلم والمعرفة والجهاد والتضحية والإيثار، أحد أصحاب الكساء الخمسة الذين دلّت النصوص على فضلهم ومنزلتهم على سائر المخلوقات، من سيرة هذه الشخصية العظيمة التي ملأت أركان الوجود، تعلّم الإنسان القيم المثلّي التي بها الحياة الكريمة، كالإباء والتحمّل والصبر في سبيل الوقوف بوجه الظلم، وغيرها من القيم المعرفيّة والعمليّة، التي كرّس علماءنا الأعلام جهودهم

وأفنوا أعمارهم من أجل إيصالها إلى مجتمعات كانت وما زالت بأمس الحاجة إلى هذه القيم، وتلك الجهود التي بذلت من قبل الأعلام جديرة بالثناء والتقدير؛ إذ بذلوا ما بوسعهم، وأفنوا أغلى أوقاتهم، وزهرة أعمارهم؛ لأجل هذا الهدف النبيل. إلا أن هذا لا يعني سدّ أبواب البحث والتنقيب في الكنوز المعرفية التي تركها عليه السلام للأجيال اللاحقة - فضلاً عن الجوانب المعرفية في حياة سائر المعصومين عليهم السلام - إذ بقي منها من الجوانب ما لم يُسلط الضوء عليه بالمقدار المطلوب، وهي ليست بالقليل، بل لا نجانب الحقيقة فيما لو قلنا: هي أكثر مما تناولته أقلام علمائنا بكثير، فلا بدّ لها أن تُعرّف لتُعرّف، بل لا بدّ من العمل على البحث فيها ودراساتها من زوايا متعدّدة، لتكون منهجاً للحياة، وهذا ما يزيد من مسؤوليّة المهتمّين بالشأن الديني، ويحتّم عليهم تحمّل هذه المهمّة الجسيمة؛ استكمالاً للجهود المباركة التي قدّمها علماء الدين ومراجع الطائفة الحقة.

ومن هذا المنطلق بادرت الأمانة العامّة للعتبة الحسينية المقدّسة لتخصيص سهم وافر من جهودها ومشاريعها الفكرية والعلمية حول شخصيّة الإمام الحسين عليه السلام ونهضته المباركة؛ إذ إنّها المعنية بالدرجة الأولى وبالأساس بمسك هذا الملف التخصّصي، فعمدت إلى زرع بذرة ضمن أروقتها القدسيّة، فكانت نتيجة هذه البذرة المباركة إنشاء مؤسسة وارث الأنبياء للدراسات التخصّصية في النهضة الحسينية، التابعة للعتبة الحسينية المقدّسة، حيث أخذت على عاتقها مهمّة تسليط الضوء - بالبحث والتحقيق العلميّين - على شخصيّة الإمام الحسين عليه السلام، ونهضته المباركة، وسيرته العطرة، وكلماته الهادية، وفق خطة مبرمجة، وآليّة متقنة، تمّت دراستها وعرضها على المختصّين في هذا الشأن؛ ليتمّ اعتمادها والعمل عليها ضمن مجموعة من المشاريع العلمية التخصّصية، فكان كلّ مشروع من تلك المشاريع متكفلاً بجانب من الجوانب المهمّة في النهضة الحسينية المقدّسة.

كما ليس لنا أن ندّعي - ولم يدّع غيرنا من قبل - الإمام والإحاطة بتمام جوانب شخصيّة الإمام العظيم ونهضته المباركة، إلّا أنّنا قد أخذنا على أنفسنا بذل قصارى جهدنا، وتقديم ما بوسعنا من إمكانيات في سبيل خدمة سيّد الشهداء عليه السلام، وإيصال أهدافه السامية إلى الأجيال اللاحقة.

المشاريع العلميّة في المؤسسة

بعد الدراسة المتواصلة التي قامت بها مؤسسة وارث الأنبياء حول المشاريع العلميّة في المجال الحسيني، تمّ تحديد مجموعة كبيرة من المشاريع العلميّة الأكثر أهميّة، وهي:

الأول: قسم التأليف والتحقيق

ويعنى هذا القسم بالكتابة في العناوين الحسينيّة التي لم يتمّ تناولها بالبحث والتنقيب، أو التي لم تُعطَ حقّها من ذلك، وكذا العمل قائم على جمع وتحقيق وتنظيم التراث الحسيني، خصوصاً فيما يرتبط بالمقاتل.

الثاني: قسم مجلة الإصلاح الحسيني

وهي مجلة فصليّة محوريّة متخصصة في النهضة الحسينيّة، تهتمّ بنشر معالم وآفاق الفكر الحسيني، وتسليط الضوء على تاريخ النهضة الحسينيّة وتراثها، وسائر أبعادها.

الثالث: قسم ردّ الشُّبهات عن النهضة الحسينيّة

إنّ العمل في هذا القسم قائم على جمع الشُّبهات المثارة حول الإمام الحسين عليه السلام ونهضته المباركة، ثمّ يتمّ الردُّ عليها بأسلوب علمي تحقيقي.

الرابع: قسم الموسوعة العلميّة من كلمات الإمام الحسين عليه السلام

وهي موسوعة علميّة تخصّصيّة مستخرّجة من كلمات الإمام الحسين عليه السلام في مختلف العلوم وفروع المعرفة، باللغتين العربيّة والفارسيّة.

الخامس: قسم دائرة معارف الإمام الحسين عليه السلام الألفبائيّة

وهي موسوعة تشتمل على كلّ ما يرتبط بالإمام الحسين عليه السلام ونهضته المباركة من أحداث، ووقائع، ومفاهيم، ورؤى، وأعلام، وبلدان، وأماكن، وكتب، وغير ذلك، مرتّبة حسب الحروف الألفبائيّة، على شكل مقالات علميّة رصينة.

السادس: قسم الرسائل والأطاريح الجامعيّة

يتمّ العمل على إحصاء وجمع الرسائل والأطاريح الجامعيّة التي كُتبت حول النهضة الحسينيّة، ورفع النواقص العلميّة وإدخال التعديلات وطباعتها، وكذلك إعداد موضوعات حسينيّة وخطط تفصيليّة تصلح لكتابة رسائل وأطاريح جامعيّة توضع في متناول طلاب الدراسات العليا.

السابع: الترجمة

وذلك لإثراء الساحة العلميّة بالتراث الحسيني وغيره عبر ترجمة ما كتب منه بلغات أخرى إلى اللغة العربيّة، ونقل ما كتب باللغة العربيّة إلى اللغات الأخرى.

الثامن: قسم الرّصد والإحصاء

في هذا القسم يتمّ رصد جميع القضايا الحسينيّة المطروحة في جميع الوسائل المتّبعة في نشر العلم والثقافة ضمن أرشيف كبير، ويتمّ إصدار مجلة شهرية لتغطية ذلك.

التاسع: قسم المؤتمرات والندوات والملتقيات العلميّة

يعمل هذا القسم على إقامة مؤتمرات وملتقيات وندوات علميّة فكريّة متخصصة في النهضة الحسينيّة.

العاشر: قسم المكتبة الحسينية التخصصية

يضمّ هذا القسم مكتبة حسينية ورقية تخصصية وأخرى إلكترونية تعمل على رفد القراء والباحثين في المجال الحسيني.

الحادي عشر: قسم الإعلام الحسيني

يتمّ العمل فيه على جهتين:

الأولى: إنشاء القنوات الإعلامية، والصفحات والمجموعات الإلكترونية في وسائل التواصل الاجتماعي كافة، وإنتاج مقاطع مرئية في الموضوعات الحسينية المختلفة، مختصرة ومطوّلة، وبصورة حلقات مفردة ومتسلسلة، فردية وحوارية.

الثانية: الموقع الإلكتروني ومن خلاله يتمّ إطلاع العلماء والباحثين والقراء الكرام على نتائج المؤسسة وإصداراتها، ونشر أخبار نشاطات المؤسسة وفعالياتها.

الثاني عشر: قسم إقامة الدورات وإعداد المناهج

يتكفّل هذا القسم بإعداد الدورات الحسينية في المباحث العقديّة والتاريخية والأخلاقية، كما يضطلع بمهمة كبيرة، بإعداد مناهج حسينية تعليمية وتنقيفية لمختلف الفئات وعلى عدّة مستويات.

الثالث عشر: القسم النسوي

يعمل هذا القسم من خلال كادر علمي متخصص وبأقلام علمية نسوية في الجانب الديني والأكاديمي على تفعيل دور المرأة المسلمة في الفكر الحسيني.

الرابع عشر: القسم الفني

إنّ العمل في هذا القسم على طباعة وإخراج التّأجّات التي تصدر عن المؤسسة.

وهناك مشاريع أخرى سيتمّ العمل عليها إن شاء الله تعالى.

وهذا الكتاب:

النهضة الحسينية ودورها في الحركة الثقافية

إنَّ كلَّ مجتمع من المجتمعات البشريّة تحكمه مجموعة من العادات والتقاليد والأعراف والقناعات التي يطلق على مجموعها بالثقافة، وهي تتكوّن وتتألف خلال فترات زمنيّة ليست بالقليلة، وبعضها يكون بشكل عفوي تراكمي، وبعضها يكون من خلال الإملاءات أو التعليم أو الترغيب والترهيب، هذه الثقافة تارة تكون بالنحو الإيجابي وأخرى بالنحو السلبي، وعادة ما يكون الواقع خليطاً منهما يغلب هذا تارة وذاك أخرى. من هنا يأتي دور المصلحين لترجيح كفة الجانب الإيجابي على الآخر بما يحقق العدالة ومصالح المجتمع والفرد المشروعة.

جاءت الرسالة الإسلامية وبقائدها العظيم الرسول محمد ﷺ لتغيير ثقافة مجتمع غلب عليه الظلم والحرمان وانتشار الباطل واندثار الحق، وقد أعاد الواقع الإيجابي للمجتمع من خلال إحلال العدالة وحفظ الحقوق ونبذ الظلم وإطاعة الخالق وعبادته وما إلى ذلك.

لكن وللأسف أن الواقع الثقافي الإيجابي الذي صنعه الرسول الأعظم ﷺ بدأ بالتغيّر شيئاً فشيئاً على يد بعض النفوس المريضة، وتغيّرت مبادئه وأبرز معالمه، فقد تغيّر جوهر التوحيد، وحقيقة النبوة وانتقص من شخص الرسول ﷺ، وزيف مبدأ الإمامة، كما قد عطّل مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأصبح الظلم مشروعاً، والظالم حاكماً والعاقل مشرداً، وأصبحت أموال المسلمين دولة بيد الحكّام الظلمة، وقد ارتكبت المحرّمات وعطّلت الواجبات، وسادت ثقافة جديدة باسم الإسلام لا تحمل منه إلّا الاسم، بل وحتى الاسم كان مستهدفاً.

في مثل هذه الظروف جاءت النهضة الحسينيّة لإصلاح هذا الواقع الثقافي

المأزوم الذي انقلب على الثقافة الإسلامية الصحيحة من خلال كلمات وتوضيحات ومواقف ودماء الإمام الحسين عليه السلام الذي أسس من جديد للثقافة الإسلامية التي جاء بها الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله.

هذا ما سلط الباحث الضوء عليه لبيان أبعاده وتفصيلاته بالأدلة والبراهين، وقد أجاد فيما أفاد من بحث وتنقيب وبيان للحقائق.

وفي الختام نسأل الله تعالى للمؤلف دوام السداد والتوفيق لخدمة القضية الحسينية، ونسأل الله تعالى أن يبارك لنا في أعمالنا إنه سميع مجيب.
نسأل الله تعالى أن يبارك لنا في أعمالنا إنه سميع مجيب.

اللجنة العلمية

في مؤسسة وارث الأنبياء

للدراستات التخصصية في النهضة الحسينية

مقدمة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عندما نريد أن نتعرّف على أيّ ظاهرة اجتماعية نحتاج إلى دراسة كلّ ما يحيط بها من ظروف وملابسات لمعرفة الأسباب الطبيعية التي أدّت إلى نشوئها؛ فإنّ الظاهرة الاجتماعية - الإيجابية منها والسلبية - لا يمكن أن تُولّد وتتجذّر في المجتمع، بحيث تصبح ظاهرة اجتماعية ما لم تتحقّق أسبابها وعللها.

وفي هذه الدراسة المتواضعة نريد أن نسلّط الضوء على الظواهر الاجتماعية في الأُمّة الإسلامية في زمن الإمام الحسين (عليه السلام)، والتي خرج لإصلاحها حينما قال: «إنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي»، أو التي استعان بها في نهضته؛ فإنّ هناك ظروفاً تهيأت في زمن الإمام الحسين (عليه السلام) مكّنته من الخروج لم تتوفّر لغيره من الأئمّة (عليهم السلام).

لذا فإنّ منحنى هذه الدراسة هو البحث عن الظاهرة الاجتماعية، لا عن شخصية المصلح (الإمام الحسين عليه السلام) إلّا بمقدار ما يرتبط بموضوع الدراسة، ومحلّ البحث. فجاء البحث عن ثقافة المجتمع بما هي ظاهرة اجتماعية، وعن أسبابها، وما هي الحلول التي افترضها المصلح المعصوم لعلاج تلك الظواهر، وما هي نتائج الإصلاح المفترض، وما هو تأثير هذه الحركة على ثقافة الأُمّة؟

وعلى هذا الأساس الذي انتهجناه هدفاً لدراستنا سيكون البحث متضمّناً لمقدمة وأربعة فصول وخاتمة.

أمّا المقدّمة، فتهدف إلى بيان المفردات المستعملة في البحث، وبيان أهمّية الثقافة في حركة الفرد والمجتمع.

بينما الفصل الأوّل مهمّته بيان الصفات والحالات الاجتماعية المتفشّية في المجتمع على الصعيد الديني بشقيه العقائدي والسلوكي، وعلى الصعيد السياسي بما هو ظاهرة اجتماعية قبل قيام الإمام الحسين عليه السلام.

ثمّ يشرع الفصل الثاني في بيان مقوّمات النهضة بشكل عام، ثمّ بيان توفّر هذه المقوّمات في حركة سيّد الشهداء عليه السلام.

وسيكون الفصل الثالث مخصّصاً لبيان أسباب تقاعس المجتمع عن نصرّة الإمام الحسين عليه السلام، وفشل المجتمع الكوفي في مواصلة النصرّة.

أمّا الفصل الرابع، فمعمود لبيان أهداف وثمار النهضة الحسينية التي خرج سيّد الشهداء لتحقيقها، وأسباب الخروج من المدينة، ثمّ الخروج من مكة باتجاه الكوفة دون غيرها من الحواضر الإسلامية. وما هي النتائج التي تحقّقت ببركة نهضة سبط رسول الله صلى الله عليه وآله؟

ثمّ ذكرنا في خاتمة المطاف موقف الإمام الحسين عليه السلام من المشروع الأموي في زمن معاوية، وفي زمن يزيد بن معاوية.

ولا بدّ من التنويه إلى أنّ المنهج المتّبع في هذه الدراسة هو التعاطي مع النصوص التاريخية، وذلك من خلال تجميع القرائن العقلية والنقلية التاريخية والروائية لمعرفة الحقّ فيها أو اكتشاف التفسير الصحيح لها.

كما لا يفوتني أن أتقدّم بالشكر والامتنان لجميع من ساهم في إنجاح هذه الدراسة، وأخصّ بالذكر اللجنة العلمية في (مؤسسة وارث الأنبياء عليه السلام للدراسات

التخصّصية في النهضة الحسينية)؛ لما بذلوه من دقة في المتابعة والمراجعة، وإبداء الملاحظات التي رفعت من مستوى الدراسة مضموناً وهيكله، وتنقيتها من بعض جوانب الضعف فيها.

وفي الختام نرجو من الله العليّ القدير أن يوفّقنا لإتمام هذا البحث، ويجعله خدمة في طريق دينه، ونصرة أوليائه.

سعد شريف البخاتي

٣٠ / ذي القعدة / ١٤٤٣ هـ

مقدمة البحث

وفيها مبحثان:

المبحث الأول: التعريف بمفردات البحث

المبحث الثاني: أهمية الثقافة

المبحث الأول

التعريف بمفردات البحث

أولاً: النهضة

النهضة لغة:

نهضة - بسكون الهاء - من نهض ينهض نهضاً ونهوضاً، أي: قام، وبرح عن موضعه. والنهضة: الطاقة والقوة. وانتهض القوم وتناهضوا بمعنى قاموا للقتال. وناهضه أي: قاومه. واستنهضه أي: أمره بالنهوض له. ونهض للعدو بمعنى أسرع إليه^(١).

النهضة اصطلاحاً:

من خلال ما تقدّم من معنى النهضة في اللغة يمكننا تعريفها بما يحاكي المفهوم المعاصر، ويلائم المعنى اللغوي إلى حدّ ما، فقد ورد تعريفها بالمعنى المتداول اليوم بما حاصله: «النهضة: هي اصطلاح حديث وُضِعَ للتعبير عن واقع معيّن هو: انتقال أمة أو شعب أو فرد من حال إلى حال أفضل»^(٢).

(١) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج ٧، ص ٢٤٥ - ٢٤٦. الأحمدي، موسى بن محمد الملياني، معجم الأفعال المتعدية بحرف: ص ٤٠١. الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين: ج ٣، ص ٤٠٨. ابن سيده، علي بن إسماعيل، المخصّص: ج ٣، ق ٣ (السفر الثاني عشر)، ص ١٠٦.

(٢) أنظر: صالح، حافظ، النهضة: ص ٤.

ومن هنا صحَّ تسمية خروج الإمام الحسين عليه السلام بالنهضة؛ لأنَّه أراد به إصلاح حال الأُمَّة من حال مأساوي إلى حال أفضل، كما ورد في وصيته لأخيه محمد بن الحنفية عليه السلام التي بيَّنت فيها أهداف ثورته، حيث قال عليه السلام: «إنَّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمَّة جدِّي» ^(١).

ثانياً: الثقافة

الثقافة بحسب الوضع اللغوي، من ثَقَف - بكسر القاف - هي الذكاء والفطنة وسرعة الفهم وجودته ^(٢).

وأما بحسب الاصطلاح فيُعنى بها: مجموعة من الأشكال والمظاهر لمجتمع معيَّن تشمل عادات، ممارسات، قواعد ومعايير كيفية العيش والوجود، من دين، ملابس، طقوس وقواعد السلوك والمعتقدات.

ومن وجهة نظر أخرى، يمكن القول: إنَّ الثقافة هي كلُّ المعلومات والمهارات التي يملكها البشر.

إلا أنَّ الثقافة اليوم لها معنى آخر غير موجود في كتب المتقدِّمين من العلماء والكتَّاب العرب، فهي معنى مستحدث. ويُعنى بها كلُّ القيم الماديَّة والروحية - ووسائل خلقها واستخدامها ونقلها - التي يخلقها المجتمع من خلال سير التاريخ.

ويرى بعض الباحثين أنَّ تحديدَها بشكل أدق يحتاج إلى تقسيمها قسمين: الثقافة الماديَّة والروحية. ويقصد بالثقافة الماديَّة: الآلات والخبرة في ميدان الإنتاج،

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٣٢٩.

(٢) أنظر: الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، ج ٥، ص ١٣٩. ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة: ج ١، ص ٣٨٣. الجوهرى، إسماعيل بن حماد، الصحاح، ج ٤، ص ١٣١٣.

وغير ذلك من الثروة المادية. وأمّا الثقافة الروحية: فهي المنجزات في مجال العلم والفن والأدب والفلسفة والأخلاق والتربية... وغير ذلك. والثقافة ظاهرة تاريخية يتحدّد تطوّرها بتتابع النظم الاقتصادية والاجتماعية^(١).

«والثقافة بالمعنى الخاص: هي تنمية بعض الملكات العقلية أو تسوية بعض الوظائف البدنية، ومنها تثقيف العقل، وتثقيف البدن. ومنها الثقافة الرياضية والثقافة الأدبية أو الفلسفية. والثقافة بالمعنى العام: هي ما يتصف به الرجل الحاذق المتعلّم من ذوق وحس انتقادي، وحكم صحيح، أو هي التربية التي أدّت إلى اكتسابه هذه الصفات. قال (روستان): (العلم شرط ضروري في الثقافة، ولكنه ليس شرطاً كافياً، إنّما يُطلَق لفظ الثقافة على المزايا العقلية التي أكسبنا إياها العلم، حتى جعل أحكامنا صادقة، وعواطفنا مهذبة). ومن شرط الثقافة بهذا المعنى الملاءمة بين الإنسان والطبيعة، وبينه وبين المجتمع، وبينه وبين القيم الروحية والإنسانية»^(٢).

كما أشار مؤلّف (المعجم الفلسفي) إلى أنّ لفظة الثقافة قد يُراد منها معنى الحضارة، حيث قال: «وإذا دلّ لفظ الثقافة على معنى الحضارة - كما في اللغة الألمانية - كان له وجهان: وجه ذاتي، وهو ثقافة العقل، ووجه موضوعي، وهو مجموع العادات، والأوضاع الاجتماعية، والآثار الفكرية، والأساليب الفنيّة والأدبية، والطرق العلمية والتقنية وأنماط التفكير، والإحساس، والقيم الذائعة في مجتمع معيّن، أو هو طريقة حياة الناس وكلّ ما يملكونه ويتداولونه اجتماعياً وبيولوجياً»^(٣).

(١) أنظر: لجنة من العلماء والأكاديميين السوفيتيين، ترجمة سمير كرم، الموسوعة الفلسفية: ص ١٥٣.

(٢) أنظر: صليبا، جميل، المعجم الفلسفي: ج ١، ص ٣٧٨.

(٣) المصدر السابق.

الظاهرة الاجتماعية

الظاهرة: من ظهر الشيء إذا انكشف وبرز، وكذا تُطلق على ما ظهر من الأرض وارتفع^(١).

وقد عرّفوها في علم الاجتماع بأنها: نوع من أنواع السلوك المجتمعي العام تجاه أمر أو قضية ما، حتى يصبح هذا السلوك كالعرف الذي يدفع أفراد المجتمع نحو سلوك ما. وتتّوع الظاهرة بحسب أثرها على المجتمع إيجاباً أو سلباً، فيقال: الظاهرة الإيجابية أو الظاهرة السلبية^(٢).

ثالثاً: نبذة من حياة سيّد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام

الإمام الحسين بن عليّ بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف. سادات العرب.

أمّه: الصديقة الكبرى سيّدة نساء العالمين فاطمة بنت محمد صلّى الله عليه وآله بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم.

فهو خير الناس أباً وأماً، وجداً وجدّةً، وأعمامه خير الأعمام وأخواله خير الأخوال، فقد روى الشيخ الصدوق عن الأعمش أنّه قال:

«اجتمع الناس عند رسول الله صلّى الله عليه وآله في المسجد، فقام على قدميه، فقال: يا معشر الناس، ألا أدلّكم على خير الناس جدّاً وجدّةً؟ قالوا: بلى يا رسول الله.

(١) أنظر: ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة: ج ٣، ص ٤٧١. الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس: ج ٢، ص ٣٦١.

(٢) أنظر: كايم، إدوار، قواعد المنهج في علم الاجتماع: ص ٥١ - ٥٦، وص ٦٣ - ٦٤. نجار، آية ياسر، تعريف الظاهرة الاجتماعية في علم الاجتماع. مقال على شبكة الإنترنت.

قال: الحسن والحسين؛ فإنَّ جدَّهما محمد، وجدَّتْها خديجة بنت خويلد. يا معشر الناس، ألا أدلَّكم على خير الناس أباً وأماً؟

فقالوا: بلى يا رسول الله. قال: الحسن والحسين؛ فإنَّ أباهما عليٌّ يحبُّ الله ورسولَه ويحبُّه الله ورسولُه، وأمُّهما فاطمة بنت رسول الله. يا معشر الناس، ألا أدلَّكم على خير الناس عمّاً وعمّة؟

قالوا: بلى يا رسول الله. قال: الحسن والحسين؛ فإنَّ عمَّهما جعفر بن أبي طالب الطيار في الجنة مع الملائكة، وعمتهما أم هانئ بنت أبي طالب. يا معشر الناس، ألا أدلَّكم على خير الناس خالاً وخالة؟ قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: الحسن والحسين؛ فإنَّ خالهما القاسم بن رسول الله، وخالتها زينب بنت رسول الله، ثمَّ قال بيده: هكذا يحشرنا الله.

ثمَّ قال: اللهمَّ إنَّك تعلم أنَّ الحسن في الجنة، والحسين في الجنة، وجدَّهما في الجنة، وجدَّتْها في الجنة، وأباهما في الجنة، وأمُّهما في الجنة، وعمَّهما في الجنة، وعمتهما في الجنة، وخالهما في الجنة، وخالتها في الجنة، اللهمَّ إنَّك تعلم أنَّ مَنْ يحبُّهما في الجنة، ومَنْ يبغضهما في النار»^(١).

اختلف في يوم وسنة ولادته وشهادته ﷺ، فقد قيل في ولادته إنَّها: أواخر شهر ربيع الأوَّل في السنة الثالثة من الهجرة. وقيل: لثلاث من شعبان في السنة الرابعة من الهجرة. وقيل: غير ذلك. ولكنَّ المشهور أنَّ ولادته في الثالث من شهر شعبان سنة أربع من الهجرة، وهو المروي والموافق للتوقيع الشريف الذي خرج من الناحية المقدَّسة إلى وكيل الإمام العسكري ﷺ القاسم بن العلا الحمداني ﷺ، من أنَّ مولانا

(١) الصدوق، محمد بن علي، الأمالي: ص ٥٢٣.

الحسين عليه السلام ولدَ يوم الخميس لثلاث خلون من شعبان، فُصم وادُع فيه بهذا الدعاء. وذكر الدعاء ^(١).

وذكروا في يوم شهادته عليه السلام أقوالاً، منها: يوم السبت، أو الإثنين، أو الأربعاء، أو الجمعة. وذكروا في سنة شهادته عليه السلام أقوالاً أيضاً، منها سنة: (٦٠هـ)، أو (٦١هـ)، أو (٦٢هـ)، أو (٦٣هـ).

كما اختلفوا في سنَّه الشريف عليه السلام، على أقوال، منها: (٥٦) سنة، و(٥٧) سنة، و(٥٨) سنة، وغيرها. وقد ذهب المشهور من مؤرّخي العامّة والخاصّة وعلمائهم إلى أن شهادته عليه السلام كانت في يوم الجمعة سنة (٦١هـ)، وكان عمره الشريف ستاً وخمسين سنّة وأشهرًا ^(٢).

قضى سبعةً منها مع جدّه رسول الله صلّى الله عليه وآله، ثمّ عاصر الظلم الذي انصبّ على أبيه بعد رحيل النبي المصطفى صلّى الله عليه وآله، حيث غُصبت منه الخلافة، وشاهد ما جرى على أمّه الزهراء عليها السلام حتى فارقت الحياة شهيدة بعد أبيها بأشهر قليلة. وبقي مع أبيه أمير المؤمنين عليه السلام وأخيه الإمام الحسن عليه السلام.

استلم مهام الإمامة سنة ٥١ هـ، بعد شهادة أخيه الإمام الحسن عليه السلام.

ألقابه: خامس أصحاب الكساء، السبط الثاني، الشهيد، الرشيد، الطيب، الوفي، التابع لرضا الله، الدليل على ذات الله، المطهر، السيّد، المبارك، البر، سبط

(١) أنظر: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٢٠١.

(٢) أنظر: الطبري، محمّد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٩٦. أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين، مقاتل الطالبين: ص ٥١-٥٢. المفيد، محمد بن محمد، مسرّ الشيعة: ص ٦١. الطوسي، محمد بن الحسن، مصباح المتعجّد: ص ٨٢٦. ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج ١٤، ص ٢٤٥-٢٥٨. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٢٠٠، حيث استعرض معظم الأقوال الواردة في ذلك. القمّي، عبّاس، الأنوار البهيّة: ص ٩٧. آل طوق القطيفي، أحمد، رسائل آل طوق القطيفي: ج ٤، ص ٧٣.

رسول الله، سيّد شباب أهل الجنة، سيّد الشهداء، وأحد الكاظمين.
اسمه في التوراة شبير، وقيل: إنّ النبي هارون بن عمران عليه السلام لمّا سمع في
التوراة أنّ الله سمّى الحسن والحسين سبطي النبيّ محمد شبراً وشبيراً، سمّى ابنه
بهذين الاسمين^(١).
يكنّى أبا عبد الله.
وكان له خاتمان: فصّ أحدهما عقيق نقشه: إنّ الله بالغ أمره. وعلى الخاتم الذي
أُخذ من يده يوم قُتل: لا إله إلاّ الله عدة لقاء الله.
له من الولد: عليّ الأكبر قُتل معه، والإمام عليّ زين العابدين، ومحمد قُتل مع
أبيه أيضاً، وعليّ الأصغر، وعبد الله قُتلا في حجر أبيهما، وجعفر مات في حياة أبيه
صغيراً. وله من البنات: زينب، وسكينة، وفاطمة^(٢).
وقد وردت روايات كثيرة في فضله طفحت بها كتب الفريقين، سيأتي بعضها
في مطاوي البحث.

(١) أنظر: الخصب، الحسين بن حمدان، الهداية الكبرى: ص ٢٠١. الطبري الشيعي، محمد بن جرير،
دلائل الإمامة: ص ١٨١.
(٢) أنظر: الطبري، محمد بن جرير، دلائل الإمامة: ص ١٨١. ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب
آل أبي طالب: ج ٣، ص ٢٣١.

المبحث الثاني

أهمية الثقافة

أولاً: كيفية تكوّن الثقافة ونشوءها

تقدّم أنّ الثقافة هي نسيج من المعارف والاعتقادات والأعراف والتقاليد والفنون. فمجموع هذه الأمور تسمّى ثقافة، إلّا أنّ هذه المكوّنات الثقافية ليست على حدّ سواء، بل بعضها متقدّم على البعض الآخر؛ فإنّ جميع هذه المكوّنات أساسها ومنشأ تكوّنهما هو العلم والمعرفة، فالاعتقاد - مثلاً - إنّها يحصل من خلال مجموعة قضايا ومواضيع تعلم بها وتعتقد بصحتها أو بطلانها. فأساسها العلم، بل هي علم قطعي بأمور خاصة.

وهكذا عندما نرجع إلى الأعراف والتقاليد الاجتماعية، فهي عبارة عن معرفة المجتمع بمنافع ومحاسن مجموعة أفعال، فيسعى زعماءهم وحكامهم إلى تطبيع الناس عليها - بوسيلة أو أخرى - حتى تتحوّل إلى ظواهر اجتماعية لها قدسيّتها ومكانتها في المجتمع.

ونجد نفس الشيء في الفن؛ فإنّه تابع لطبيعة المعرفة والعلم الذي يحمله الفرد أو المجتمع.

ومن هنا نجد أنّ علاقة المكوّنات الثقافية بطبيعة المعرفة التي تسود تلك الأُمّة، واضحة جداً لا تحتاج إلى دليل.

فثقافة المجتمع تنشأ من العلم والمعرفة السائدة فيه، فهي تابعة لطبيعة تفكيره والمناهج المعرفية التي يعتمد عليها في كسبه المعرفي، من الحسّ والتجربة والعقل والنقل والقلب.

ولذا تجد بعض المجتمعات يغلب عليها الطابع الحسي المادي، ويغلب على البعض الثقافة القلبية الروحية، بينما تجد مجتمعاً آخر يغلب عليه الثقافة النصية العقلية، ويغلب على مجتمع آخر الجانب العقلي.

إلا أن الفرد والمجتمع السويّ هو الذي يستفيد من جميع المناهج المعرفية، كلّ حسب دائرته. فيستفيد من الحس لمعرفة ما يحيط به من ظواهر حسية تدركها الحواس، ويستفيد من المنهج التجريبي لمعرفة القوانين التي تحكم الأشياء الحسية المادية، أمثال: الجاذبية، والحركة، وغيرها من قوانين الطبيعة التي تحكم ما يحيط بنا. ويستخدم المنهج العقلي النصي لمعرفة التشريعات السماوية والحوادث البعيدة عنه مكاناً أو زماناً. ويستفيد من المنهج القلبي لمعرفة القضايا المعنوية الروحية، كما يستفيد من المنهج العقلي لمعرفة القضايا والقوانين الكلية العقلية، ويستفيد منه أيضاً لتطبيق شروط المناهج الأخرى حين استخدامها^(١).

ثانياً: الثقافة بين التراكم والبناء

هناك نقطة مهمّة في البحث لا بدّ من الإشارة إليها والتركيز عليها، وهي الفرق بين التراكم الثقافي الذي يقوم على تجميع المعلومات وتكثيرها على القاعدة المتعارفة: «المثقف: هو مَنْ يعلم عن كلّ شيء شيئاً، ويعلم عن شيء كلّ شيء»^(٢)، وبين البناء الثقافي الذي تُبنى فيه الثقافة لبنة لبنة؛ فإنّ صاحبها يخطط لها ويتفحصها قبل أن يجعلها جزءاً من شخصيته.

(١) للتفصيل راجع كتاب (مناهج التفكير) للمؤلف بالاشتراك مع ساحة الشيخ فلاح العابدي.
(٢) ليس هذا تعريفاً للمثقف، بل هي قاعدة متناقلة على الأفواه. وأما معنى المثقف فقد ذكره واليه تعاريف كثيرة، قد تكون متباينة، فقد عرفه البعض بأنّه: الناقد المتطوّر، بينما عرفه آخر بصاحب المعرفة والكفاءة، أو مَنْ يحمل الإتيقان والإبداع والإنماء التخصصي من أصحاب التخصص في التعليم العالي. أنظر: العمر، معن خليل، علم اجتماع المثقفين: ص ٢٤ - ٢٩.

فالثقافة عند الثاني عبارة عن منظومة فكرية تأتيه تبعاً كحلقات السلسلة، تجدها عنده منتظمة ومنسجمة مع بعضها، بخلاف الحالة الأولى التي قد تتقاطع فيما بينها؛ ولذا تشاهد أصحابها تتضارب آراؤهم؛ لعدم انسجام خزينهم الثقافي، وأَنَّهُ مجرد تجميع معلوماتي معرفي غير قائم على أسس معيّنة؛ ممّا يسبب فوضى معرفية ثقافية في الوسط الثقافي العلمي.

وهذا ما تنبّهت له بعض الأمم منذ زمن بعيد، فأخذت بزمam الأمور في الجنبه الثقافية، وقننت أصول ثقافة شعوبها بما يخدم البلد والمجتمع، وعلى ضوئه وضعت سائر العلوم الإنسانية وغيرها^(١).

إنّ الشخصية المتزنة هي ما توازنت فيها الثقافة، وانسجمت أطرافها. والشخصية الواعية هي الشخصية التي رسمت الثقافة فيها طرق مداخلها ومخارجها، فهي على وعي بما ينفعها وما يضرّها، وكيف تصل إلى منافعها، وتتخلّص ممّا يهدّد سلامتها، وبأيّ أداة، وضمن أيّ برنامج ومخطط. وخلاصة ما نريد الوصول إليه: أنّ مفردة الثقافة يراد بها مجموعة الأعراف والتقاليد والفنون والمعارف والعلوم الحاصلة لدى شخص كيفما اتفق. وهذا ما يُعبّر عنه بالتراكم الثقافي.

أمّا البناء الثقافي فهو: عملية ممنهجة ومخطّط لها مسبقاً، يُراد منها أن تكون للفرد شخصية واعية حكيمة، تعي ما حولها، وتعرف ما يُحاك ضدها، وكيف ترسم دربها ودرب أمّتها.

وكلّما كانت أسس الثقافة محكمة، ومنهجها منظماً، كان وعي الأمة أشد، وقربها من الصواب أكثر.

(١) يحيى، لطفي عبد الوهاب، اليونان مقدمة في التاريخ الحضاري: ص ١٣٨ - ١٣٩.

وأما كيف يتم ترشيد الثقافة حتى نصل بثقافة أمتنا إلى مرحلة البناء الثقافي، فذلك ما يحتاج إلى تضافر جهود الخيرين، من مثقفين وعلماء، يدرسون حالة المجتمع وظروفه وما يعانيه من مشاكل، وما يطمح إليه من مستويات أفضل، ثم توضع الخطة اللازمة التي تتكفل بعلاج الأزمة، وبناء المجتمع وإيصاله إلى مقامه اللائق به، في شتى المجالات الفكرية والمعنوية والمادية. وهذا ما سنراه في حركة سيد الشهداء وسيد شباب أهل الجنة عليه السلام.

فالثقافة هي التي تتكفل سعادة الفرد والمجتمع على مستوى العقل والروح والجسد. لكن بشرط أن تكون ثقافة منسجمة مع بعضها البعض، فلا حيف على الجسد لأجل العقل والروح، ولا كبت ولا تضييع لهما لأجل ملذات الجسد، بل لتكون الثقافة في داخل الفرد والمجتمع رمز العدالة والحكمة والحنكة السياسة.

البناء الثقافي الصحيح هو الذي يخلق الثقافة الحكيمة والثقافة العادلة التي يسعد بفيئها العقل والروح والجسد، كل بما يستحق.

البناء الثقافي الممنهج هو الذي يفتح الطريق للخروج من ظلام الحيرة والغفلة، وهو ما لا يسمح به من أراد استغفالننا حقبة من الزمن.

البناء الثقافي هو الذي يوحد الجهود ويسعف الطاقات من الهدر؛ لتكون جميعاً في مصب واحد، وهو خدمة هذه الأمة وأبنائها. وهذا ما لا يرضي الكثير من أمثال بني أمية ممن يعيش على مستنقع جهل الأمة وسباتها.

إلا أن القرار لم يزل ولا يزال بيد أبناء الأمة أنفسهم، فما لم يرضوا بالهوان لم يحل ديارهم، وما لم يستسلموا أمام العدو لم يستعبدوا.. وما لم يرضوا بما يتخذ من قرارات في حقهم لم تطبق عليهم.. وما لم.. وما لم..

فلا بد أن تُبنى ثقافة المجتمع على أساس حرية الفكر، وما يرضاه العقل. لا بد أن يؤسس لثقافة - بقيادة العقل - تطهر المجتمع من ظلم نفسه أولاً؛ ليكون مؤهلاً

لتطهير نفسه من ظلم الآخرين ثانياً؛ ليعيش في ظل ثقافة لا تقبع المرأة - فيها - في ظل حيف الرجل، ولا الضعيف مستهلكاً في قدرة القوي، ولا الفقير مكدوداً في مشروع الأغنياء، بل ينعم الجميع بحقوقهم، ويؤدّون واجباتهم.

ثالثاً: دور الثقافة في صياغة السلوك

السلوك: هو الحركة الإرادية والفعل الاختياري الذي يفعله الإنسان بإرادته. وإذا أردنا أن نتمكّن ونحلل فكرة الفعل الإرادي نجد أن معناه هو السلوك الذي يريده الإنسان ويختاره من بين سلوكيات متعددة.

وقولنا: يريده ويختاره، يدلّ على عملية واعية ذات شعور يستعملها الإنسان عندما يقوم بعملية الاختيار، بمعنى أنّه ينظر في سلوكيات متعددة ثمّ يتفحصها، ويقوم بانتخاب أوفقها به وأقربها إلى أهدافه ومآربه. فالإنسان عندما يفعل يكون فعله مسبقاً بعملية نفسية، هي الإرادة والاختيار، فتحتم أن ننظر في عملية الاختيار والإرادة كيف تتمّ وعلى أيّ معيار تعتمد.

تتمّ عملية الاختيار والانتخاب أو ما يسمّى بالإرادة، على مبدأ العلم والوضوح، فعندما يعلم الإنسان ويتضح له - بحسب مدرّكاته - أن هذا الشيء ينفعه فإنّه ينتخبه ويقع عليه اختياره، فيريده، وعندما يريده يتحرّك نحوه. بخلاف ما لو علم بأنّ هذا الفعل فيه ضرره أو ضرر مجتمعه فإنّه يبتعد عنه ويتركه.

ومن هنا يتضح أنّ الإرادة والانتخاب متوقّفان على طبيعة العلم الحاصل له، فما كان - بحسب علمي وثقافتي - حسناً وجميلاً وفيه منفعة، أرادته النفس واختارته، وما كان قبيحاً وفيه مفسدة، أحجمت عنه ورفضته.

فطبيعة العلم بالأشياء، ونوعية الصورة المرتسمة عندنا عن تلك الأشياء هي التي تحسّنها أو تقبّحها.

فَمَنْ عَلِمَ أَنَّ السجائر - مثلاً - مسليّة وتريح له أعصابه، وتجعله يتحسس حريته ورجولته، وتخلّصه من الهم والغم، فسوف تتحرّك فيه الرغبة والإرادة لاختيار التدخين، بينما مَنْ يحصل له علم بأنّها مضرّة، وقد تودي بحياته، كما لو أخبره الطبيب بأنّ حالته الصحية لا تسمح له بالتدخين، أو يتصوّر رائجتها أو غير ذلك من منفّرات، فلا شك أنّه سيتركها ويبتعد عنها.

فطبيعة العلم الحاصل لدى الشخص له دور كبير في حصول الإرادة.. وبالإرادة يحصل السلوك.

ولو أردنا أن نتفحص هذا القانون ونجريه على الفرد أو المجتمع، لوجدنا له تطبيقات كثيرة، بل من خلاله يحصل لنا الربط بين سلوكيات مجتمع ما، وبين الثقافة التي يحملها.

فإنّ المجتمع عندما نجد فيه ظاهرة سلوكية معيّنة - سلبية أو إيجابية - نعلم بأنّ هذه الظاهرة هي نتاج طبيعي لثقافة ما جعلته يختار - وإرادته - هذا السلوك أو ذاك.

فظاهرة الغش أو الرشوة أو السرقة أو الجريمة أو... في مجتمع ما تدلّ على ثقافة معيّنة يحملها أبناء ذلك المجتمع.. بينما ظاهرة الأمانة والصدق والمحبة والتواصل والوحدة واحترام القانون تنبئ عن ثقافة أخرى يحملها أبناء المجتمع الآخر.

فمَنْ تربّى في بيئة تحمل ثقافة العفة والشرف والعزة لا تراه يقترب ممّا يتنافى مع هذه الأمور.. وهكذا أمثلة كثيرة.

وعليه، فمفتاح الإصلاح هو الثقافة، فإذا استطاع المصلح المثقف أن يبيّن ثقافته في وسط الأمّة بأساليب هادئة محبّبة، لا شك أنّه سيجني ثمارها، وسيرى أنّ المجتمع سيختب الأفعال التي يريدّها منه؛ لأنّه غرس فيه السبب، وإذا حصل السبب فلا يمكن عدم حصول المسبّب.

ولا شك أنّ هذا الأمر غير مختص بسلوك الفرد، بل هو جارٍ بعينه في سلوك المجتمع؛ لأنّ سلوك المجتمع أو ما يُعبّر عنها بالظاهرة الاجتماعية لا تعدو أن تكون إلّا فعلاً اختيارياً خرج عن دائرة الفردية وتحوّل إلى عادة وعرف، نهج عليه أبناء تلك الأمّة.

فلا بدّ من تطبيق قواعد الفعل الاختياري - المتقدّمة - على الظاهرة الاجتماعية؛ لمعرفة كيفية تكوّنها ونشوّتها.

وبالتالي فالمجتمع الذي يتكسّب بالربا - مثلاً - ما ذلك إلّا بسبب صورته الحسنة التي رسمتها ريشة الثقافة في نفسه، حيث ينظر إلى زوايا حسناتها فقط، وأنها تجلب له أرباحاً أوفر من دون تعب ومجهود منه.

بينما نجد مجتمعاً آخر يفرّ منه ويستقبحه، وما ذاك أيضاً إلّا بسبب نوعية المعرفة والصورة العلمية للربا عنده، من وجود المفاصد والمضار الاجتماعية والدينية على الفرد والمجتمع، وآثاره على حياة الفرد قبل وبعد الموت، فيحجم عنه.

فثقافة المجتمع هي التي ترسم صور الحسن والقبح في أذهان أبنائه. ولهذه أمثلة كثيرة يمكن الاستفادة منها في توضيح هذه الفكرة وإثباتها..

عندما ننظر إلى صحابة رسول الله ﷺ نجد الكثير منهم يسرون قبل إسلامهم في غير الوادي الذي ساروا فيه بعد اعتناقهم الإسلام. فما نجد من عمار بن ياسر رضي الله عنه إلّا عبداً لبني مخزوم لا همّ له إلّا خدمتهم؛ ليعود مساءً فيشبع بطنه، ولم يكن يهدف في سلوكه لشيء إلّا لتكوين مستقبله.

وعندما ننظر إليه في حقبة الأخرى التي اعتنق فيها دين الإسلام الجديد نجده إنساناً آخر، فنرى فيه المبدأ والهدفية والهموم الرسالية والكرامة التي لا يمكن أن يتنازل عنها.

وهذا ما نجده أيضاً في عينة أخرى، مثل: بلال الحبشي.. العبد الذي يُباع ويُشترى كمثل السلعة، ولا يحقّ له أن يتفوّه بشيء إلا بمقدار ما يسمح به مولاه، فلا يملك حتى سلوكه الشخصي، لكنّه تغير! وهكذا أبو ذر، وصهيب، وحنظلة،...

فما هو الشيء الذي أعطاه لهم رسول الرحمة بحيث تحوّلوا إلى شخصيات أخرى؟ إنّما أعطاهم الثقافة.. التي هي الغذاء الحقيقي للإنسان، فيها تحيا روحه وعقله أو تموت.

عندما كانت الثقافة التي تملأ زوايا نفوسهم هي ثقافة ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾^(١)، فإنّ ثقافة كهذه تزين لهم مجموعة من التصرفات والسلوكيات، فلا محيص لهم عن اختيار ما يناسب تلك المعرفة.

ولكن لما جاء الطبيب الدوّار بطبّه^(٢).. فشخص نوع المرض الذي نخر نفوس الأمة وعقلها قبل أن ينخر وضعها الاقتصادي والسياسي والاجتماعي، بدأ برسم خطّته في وضع دواء الأسقام المتفشّية، وبحكمته المؤيّدّة من السماء استطاع أن يضع يده على أساس المشكلة ليصلحها.

فاستبدل تلك الثقافة البائسة التي لا تعطي للإنسان قيمةً تُذكر، بل تجعله بمصافّ العجماوات التي همّها علفها، وما الدنيا عنده إلا مجموعة أيام يأنس بها البشر ثمّ يؤول مصيرهم إلى العدم.

(١) الجاثية: آية ٢٤.

(٢) قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) في وصف رسول الله (صلى الله عليه وآله): (طَبِيبٌ دَوَّارٌ بِطَبِّهِ، قَدْ أَحْكَمَ مَرَامَهُ، وَأَحْمَى مَوَاسِمَهُ. يَضَعُ ذَلِكَ حَيْثُ الْحَاجَّةُ إِلَيْهِ مِنْ قُلُوبٍ عُمِيٍّ وَأَذَانٍ صُمٍّ، وَالسِّنَّةُ بَيْنَهُمْ مُتَّبِعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ الْغَفْلَةِ، وَمَوَاطِنَ الْحَيْرَةِ). الواسطي، علي بن محمد الليثي، عيون الحكم والمواعظ: ص ٣١٩.

استبدلها بثقافة: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^(١)، فغرس في نفوسهم ثقافةً أخرى تُصوّر لهم أنّ الموت ليس نهاية الحركة الإنسانية، بل حركة الإنسان تستمر إلى ما بعد الموت.

فالدنيا - في ثقافة طيبب السماء - مدرسة للإنسان تظهر فيها النتائج بعد الموت، وهي مزرعة تجنى ثمارها في دار الآخرة، فكلّ عمل فيها إنّما هو نبتة لتلك الدار، فلا يأكل الإنسان في أخرها إلاّ ممّا زرعت يده، إن كان خيراً فخير وإن كان شراً فشر.

الإنسان في هذه الثقافة الجديدة خليفة الله تعالى في الأرض، وليس سلعة مهينة، ولا كائناً حيوانياً يحيا بلا هدف، بل هو خليفة في الأرض.. مُراقب ومسؤول من قبل مَنْ استخلفه ﴿وَفَقُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾^(٢)، ﴿إِن السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(٣).

فلما اختلفت الثقافة، فهذا يعني اختلفت الصور المرتسمة على لوح الذهن، فبعض ما كان حسناً تألفه النفس صار - بسبب هذه الثقافة الجديدة - قبيحاً تنفر منه، وبعض ما كان قبيحاً صار حسناً تعشقه النفوس.

وبدأت حركة المجتمع تسير باتجاه آخر، وتهدف إلى أمور لم تكن لتحلم بها حتى في عالم الرؤيا.

ذلك المجتمع الذي يتخطّفه الناس من حوله، صار ينظر إلى قصور كسرى وقيصر. المجتمع الذي يعلوه الهوان أمام صنم من حجارة صماء، صار يحمل رسالة السعادة إلى البشرية كافّة، ويشعر بالمسؤولية أمام إنقاذها من الشرك، حتى لو كلفه ذلك حياته وإراقة دمه.

(١) المؤمنون: آية ١١٥.

(٢) الصافات: آية ٢٤.

(٣) الإسراء: آية ٣٦.

ماذا صنع الحبيب المصطفى ﷺ؟ وماذا غير؟ فهل استبدل الآلات والمصانع، وأدخل إليها التكنولوجيا الحديثة؟ أم غير السياسة أم الاقتصاد؟
كلّا، وإنّما غير الدافع والمحرّك الذي من خلاله يتحرّك المجتمع.. إنّما غير ثقافة الأُمّة.

وما نريد أن نستخلصه هو أنّ الفارق الأساسي بين الإنسان الهادف وغير الهادف.. بين المجتمع المتحضّر الذي يبني مستقبله بيده، وبين غيره، إنّما هو العنصر الفكري، والمنظومة المعرفية، أو ما نعبر عنه بالثقافة، فإن صلّح واستقام صلّحت الأُمّة فرداً ومجتمعاً، وإن فسد فسدت الأُمّة.

وفي ضوء ذلك يمكننا أن نفهم مغزى الحكمة المشهورة التي تقول: (إذا فسد العالم فسد العالم).

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نفهم الانقلاب والتحوّل العظيم الذي حصل في شخصية ياسر، وسمية، وابنه عمار، وبلال، وأبي ذر الغفاري، وصهيب، وسلمان، وحنظلة، بل أغلب أبناء المجتمع العربي، أو ما يُنقل في تحوّل شخصية بشر الحافي بسبب كلمات معدودة صدرت من بيت الحكمة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «لو كان عبداً خاف من مولاه»^(١)، فإنّ هذه الكلمات استطاعت - بحكمة الإمام - أن تُغيّر الصورة التي اختزلها بشر الحافي عن العلاقة ونوع الرابطة بين الإنسان وربّه، فليست هي علاقة الحاكم والمحكوم، بل هي علاقة بين العبد ومولاه المطلع عليه، فعلى العبد أن يتحلّى بالحياء والخوف والاحترام في محضر المولى.

ويمكن أن تقيس حالات اختلاف البشر من حيث نظرهم للموت، فبعضهم يعتبره كملاً ولقاءً بالمحبوب الحقيقي، وهو الله تعالى، وبعضٌ يعتبره عين الحرمان والعدم وفقدان كلّ شيء، وما ذلك إلّا لاختلاف الثقافة، فثقافة الأوّل تُصوّر له الموت نوعاً من الحياة المطلقة التي يتحقّق له فيها كلّ ما يريد، وتشبّهه له بحالة

(١) العلامة الحلي، الحسن بن يوسف، منهاج الكرامة: ص ٥٩.

الانتقال من وعاء ضيق إلى وعاء أوسع، فهي شبيهة بانتقال الطفل من بطن أمه إلى عالم الدنيا؛ فإنّ رحم الأمّ أقلّ من الدنيا الخارجية حجماً وغذاءً وراحةً و...، فهكذا الدنيا بالنسبة إلى الآخرة، بخلاف ثقافة الآخر التي تشبّهها له بأنّه سينتقل من عمران إلى خراب أو حرمان وعدم.

فلثقافة دور بالغ الأهمّية في حركة المجتمع، وطريقة سلوكه. ومن خلال الظواهر الاجتماعية يتمّ معرفة ثقافة المجتمع المنتجة لهذه الظواهر من قبل الأخصائيين.

رابعاً: العقل العملي ودوره في السلوك

العقل: هو القوّة المدركة في النفس، وقد ذهب الحكماء إلى أنّه قوتان لا قوّة واحدة^(١)، كما يقول الأصوليون، وهما: العقل النظري: هو المدرك للقضايا الكلّية النظرية، من قبيل: استحالة اجتماع النقيضين، والقضايا العملية الكلّية، من قبيل: العدل حسن والظلم قبيح، والقضايا النظرية الجزئية، من قبيل: هذه القطعة من الحديد تتمدّد بالحرارة.

والعقل العملي: هو القوّة المدركة للقضايا الجزئية العملية التي تتعلّق بالفعل ومنافعه الجزئية، من قبيل: هذا الفعل حسن أو فيه منفعة، وهذا الفعل قبيح أو فيه مفسدة. وعليه فإنّ العقل العملي متأثر بالعقل النظري، فهو ينظر لمصاديق القضية العملية الكلّية التي أدركها العقل النظري.

ومن هنا؛ فإنّ الفعل الاختياري إذا نظرنا إلى مبادئه نرى أنّه ينشأ من العزم الصادر عن الشوق والإرادة الناشئة بدورها عن العلم الجزئي بحسن هذا الفعل ونفعه أو قبحه ومضرّته.

(١) أنظر: الفارابي، أبو نصر، السياسة المدنية: ص ٨٠. ابن سينا، أبو علي، النفس من كتاب الشفاء: ص ٢٨٤ - ٢٨٥. صدر الدين الشيرازي، محمد، الحكمة المتعالية: ج ٩، ص ٨٢.

والإرادة - كما تقدّم - متوقّفة على قضية كلّية مفادها: كون الفعل الكذائي حسناً أو قبيحاً. فالعقل العملي له دور أساس في نشوء الفعل الاختياري، ونشوء الظاهرة الاجتماعية باعتبارها فعلاً اختيارياً متجدّراً، فهو الحلقة المتوسطة بين العقل النظري والإرادة، بل هو علة الإرادة والشوق المولّدين للعزم على صدور الفعل أو تركه.

ومن هنا؛ فالعقل النظري يصوغ الثقافة بما هي مزيج من العقائد والمعارف والفنون والآداب التي تحوّلت إلى عادات وتقاليد، ومنها يستفيد العقل العملي؛ إذ على أساسها يشخّص المصالح والمفاسد الجزئية في الأفعال الخارجية، وأنّ هذا الفعل فيه مصلحة فيجب فعله، وذاك الفعل فيه مفسدة فيجب تركه، فيعطي الأوامر عن طريق الإشارات العصبية للعضلات بالفعل أو الترك.

فيتبيّن دور العقل العملي والنظري في صياغة الظاهرة الاجتماعية الإيجابية والسلبية، كما يتضح أهمّية الثقافة في حركة العقل، وبالتالي في صياغة الظاهرة السلوكية الفردية والاجتماعية.

وهذا ما يفسّر لنا التغيير الجذري الذي أوجده النبيّ المصطفى ﷺ في سلوك جملة من أبناء المجتمع، كعمار وبلال وأبي ذر والمقداد وراشد بن حفص وسائر أبناء المجتمع العربي القبلي في شبه الجزيرة، فإنّه ﷺ إنّما غيّر السلوك عن طريق تغيير الثقافة التي كانوا يتعاملون من خلالها مع الواقع الخارجي.

ونفس هذه الطريقة استعملها الإمام الحسين عليه السلام في نهضته الإصلاحية، حيث أراد تغيير ثقافة الأمة لتترك واقعها المريع، وتسمو بنفسها نحو خيرها، وتعيّن مصيرها السياسي والاجتماعي والاقتصادي.

الفصل الأول

الثقافة السائدة قبل ثورة الإمام الحسين عليه السلام

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: الثقافة السائدة قبل الإسلام

المبحث الثاني: نبي الإسلام ﷺ والإصلاح الثقافي

المبحث الثالث: الحالة الثقافية بعد رحيل النبي ﷺ

المبحث الرابع: نفوذ بني أمية إلى الحكم الإسلامي

المبحث الخامس: المجتمع الإسلامي في زمن معاوية

المبحث الأول

الثقافة السائدة قبل الإسلام

قبل بيان نهضة الإمام الحسين عليه السلام وأثرها في حركة الأمة، لا بدّ أن نقرأ - وبدقة - حالة المجتمع آنذاك؛ ليتسنى لنا إدراك ما تعاني منه الأمة وما تحتاج إليه في دواء دائها، ثم نقرأ النهضة الإلهية العظيمة التي أنجزت على يد الإمام الحسين عليه السلام. وهذا ما سيقوم ببيانه هذا الفصل.

الشعب العربي قبل الإسلام

يُعتبر العرب من أبرز الشعوب السامية، وقد سكنوا في منطقة واسعة تمتدّ من اليمن جنوباً وحتى لواء الأسكندرونة ومنطقة الرها (في تركيا) شمالاً. فبلاد العرب تشمل الجزيرة العربية وجنوب ووسط العراق والشام. وقد قسّم جغرافيو اليونان بلاد العرب إلى ثلاثة أقاليم رئيسية^(١):
أ) العربية البتراء: وتقع شمال شرق الجزيرة بين جنوب الشام وشرق فلسطين. وعاصمتها بُصرى.

ب) العربية السعيدة: وتقع جنوب الجزيرة العربية، اليمن وأجزاء من عمان وأجزاء من السعودية. وأسموها بالسعيدة؛ لخصوبة أرضها، وكثرة مياهها، ورغد عيشها.

ج) العربية الصحراوية: وتشمل بقية الجزيرة خصوصاً نجد.

(١) الملاح، هاشم يحيى، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام: ص ١٣.

وأما المؤرخون المسلمون فلهم تقسيم آخر^(١):

١. الحجاز: وهي الجزء الغربي من شبه الجزيرة.
٢. نجد: وهي هضبة واسعة في وسط الجزيرة، تغلب عليها الصحراء والمناطق الجبلية.
٣. البحرين القديمة: وهي الجزء الشرقي من الجزيرة، وتمتد من عمان وحتى البصرة شمالاً.

٤. اليمن: الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة، وتقع جنوب تهامة.
٥. حضرموت: وتقع بين رمال الأحقاف شمالاً والبحر العربي جنوباً، وبين عين بامعبد غرباً وظفار شرقاً.

٦. تهامة: وهي السهل الساحلي المحاذي للبحر الأحمر.
٧. الشام: وتمتد على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط إلى حدود بلاد الرافدين. فتشمل كل من: سوريا، ولبنان، والأردن، وفلسطين، بالإضافة إلى مناطق حدودية مجاورة مثل: منطقة الجوف، ومنطقة الحدود الشمالية في المملكة العربية السعودية، كما تشمل المناطق السورية التي ضُمَّت إلى تركيا إبان الانتداب الفرنسي على سوريا، وقسماً من سيناء.

٨. العراق: وهو بلاد ما بين النهرين كما كان يُعرف سابقاً.
- وبملاحظة هذه البقعة الجغرافية يتبين أنّ مناخ بلاد العرب متنوع ومختلف من منطقة إلى أخرى، وليس كما يقال بأنّه صحراوي جاف وبسببه غلب على أهله الغلظة والشدة؛ لقساوة مناخهم، بل تشتمل بلاد العرب على مناطق زراعية وفيرة المياه كالعراق والشام وبعض مناطق اليمن ويثرب، وغيرها من المناطق التي عُرفت

(١) محمود، محمود عرفة، العرب قبل الإسلام أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم: ص ١٨. الملاح، هاشم يحيى، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام: ص ١٤.

دول العرب وممالكهم قبل الإسلام

أقام العرب دولاً وممالك تدلّ على أنّهم لم يكونوا مجتمعاً جاهلاً ومتخلفاً وخالياً عن معالم التمدّن والتحضّر، كما يُكتَب عنهم، بل حالهم كحال سائر الشعوب، عاش بعضهم التمدّن والتحضّر، كما عاش بعضهم البداوة والجهل، بل لعلّ العرب أفضل حالاً من غيرهم في هذا المضمار؛ فإنّ بعض الشعوب لم يكن لها حقّ التعلّم والتملّك، بل قد حُكِم عليها بالعبودية لملوكها فهم والرقيق سواء^(١).

وهذه الحقائق نضعها أمام نظر الباحثين ليس من باب التعصّب لقومية معيّنة، بل من أجل قراءة الواقع الثقافي في تلك الحقبة بشكل دقيق أو قريب من الواقع؛ لنتمكّن من معرفة الواقع الثقافي للمجتمع العربي والشعوب المجاورة له قبل الإسلام، ومقدار تأثير الإسلام عليها.

ومن هنا تجدر الإشارة إلى الحكومات التي أقامها العرب في بلادهم على نحو الإجمال:

١. مملكة معين (١٣٠٠ ق.م - ٦٥٠ ق.م)

معين: قبيلة عربية يرجع نسبها إلى عمالقة العراق الذين عاشوا بين النهرين مع إخوانهم السومريين والآكديين، ولكن لما ضاقت بهم السبل - بسبب حكومة حمورابي - هاجروا إلى شبه الجزيرة العربية، فاستقروا في المنطقة الجنوبية بين نجران وحضرموت، وأقاموا دولتهم هناك.

واتخذوا من مدينة قرناو عاصمةً لهم منذ الألف الثاني قبل الميلاد. وقد عثر علماء الآثار على أسماء ٢٦ ملكاً من ملوك هذه الدولة. وكانت تعتمد على الزراعة

(١) أنظر: اليوسفي الغروي، محمد هادي، موسوعة التاريخ الإسلامي: ج ١، ص ١٥٦ - ١٥٧.

والتجارة، وقد وجدوا في بعض الآثار المصرية واليونانية ما يشير إلى وجود علاقات تجارية معهم.

كان الحكم فيها وراثياً، وللملك ولاية في المقاطعات المجاورة للعاصمة، كما كان فيها مجلس نيابي يُعرف عندهم بالسور، يتشاورون فيه حول مسائل الحرب والضرائب وما يهّمهم. وقد عمّروا البناء وبنوا القصور الضخمة^(١).

٢. مملكة حضرموت (١٠٢٠ ق.م - ٢٩٠ ق.م)

نشأت في جنوب شبه الجزيرة العربية شرق اليمن على ساحل بحر العرب. تحيط بها رمال الأحقاف. بُنيت حولها القلاع والقرى. كما شيّدوا الحصون والأسوار والأبراج العالية للأمن من الحملات الخارجية، والتي من أهمّها حملات الحميريين.

كانت لهم علاقات ودية مع دولة سبأ. كما كان لهم معابد يقيمون فيها احتفالاتهم. وقد أقاموا السدود الكبيرة لحفظ مياه الأمطار، ومن ثمّ توجيهها إلى المناطق البعيدة؛ ممّا يشير إلى ازدهار الزراعة عندهم. وكانت لهم تجارة مزدهرة^(٢).

٣. مملكة سبأ (٩٥٠ ق.م - ١١٥ ق.م)

تأسست في اليمن شمال مملكة معين وجنوب مملكة قتيبان. فلمّا قويت شوكتهم انتزعوا الملك من معين وسيطروا على مملكتهم. ذكر علماء الآثار أنّ الآثار تشير إلى كون مملكة سبأ تنقسم إلى حقبتين: الأولى تمتدّ من الفترة (٩٥٠ -

(١) أنظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام: ج ٧، ص ٢٦٧. محمود، محمود عرفة، العرب قبل الإسلام أحوالهم السياسية والدينية وأهمّ مظاهر حضارتهم: ص ١١٣.

(٢) أنظر: محمود، محمود عرفة، العرب قبل الإسلام أحوالهم السياسية والدينية وأهمّ مظاهر حضارتهم: ص ١١٥. اليوسفي، محمد هادي الغروي، موسوعة التاريخ الإسلامي: ج ١، ص ١٥٢.

٦٥٠ ق.م)، وعاصمتها مدينة صرواح غرب مأرب، والتي كان من جملة ملوكها بلقيس التي ذُكرت في القرآن الكريم، والتي كانت معاصرة لنبي الله سليمان على نبينا وآله وعليه السلام.

وقد اشتهرت ببناء السدود، كسدّ رحب، وسدّ هباز، وسدّ حبايض الذي اكتمل به نظام الري بحيث رويت به أراضي شاسعة لم تُروَ من قبل. ثم بنوا سدّ مأرب أشهر سدود العرب قبل الإسلام. وبسبب هذه السدود عُرفت اليمن عند مؤرّخي اليونان بـ(اليمن السعيدة).

الحقبة الثانية لمملكة سبأ: تبدأ من سنة (٦٥٠ - ١١٥ ق.م)، وبها قد تحوّل لقب الملوك من الملك الكاهن إلى الملك، ونُقلت العاصمة من صرواح إلى مأرب. وكان أهم أسباب زوالها هو انهيار سد مأرب^(١). ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ، بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿٢﴾﴾.

٤. مملكة قتبان (القرن السابع قبل الميلاد - القرن الثاني الميلادي)

في القرن السابع قبل الميلاد أو قبل هذا التاريخ تأسست مملكة قتبان، واستمرت حتى القرن الثاني الميلادي، أي ما يقرب من ٩٠٠ عام. نشأت في وادي بيحان ثم توسعت وامتدت أراضيها من وادي بيحان شرقاً إلى البحر الأحمر غرباً،

(١) أنظر: أبو الفداء، إسماعيل، المختصر في أخبار البشر: ج ١، ص ٦٦. الزركلي، خير الدين، الأعلام: ج ٢، ص ٧٣. محمود، محمود عرفة، العرب قبل الإسلام أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم: ص ١١٩ - ١٢٤. اليوسفي، محمد هادي الغروي، موسوعة التاريخ الإسلامي: ج ١، ص ١٥٢.

(٢) سبأ: آية ١٥ - ١٧.

ومن أنحاء مدينة ذمار شمالاً إلى البحر العربي جنوباً. وكانت عاصمتها مدينة (تمنع) اليمنية.

اشتهر القتبانيون في مجال العمارة، وخاصةً بناء المدن والمنشآت العامة وخاصةً الطرق، حيث يذكر أحد النقوش من القرن الثاني قبل الميلاد أنَّ الملك (المكرب يدع أب ذبيان) شقَّ نقيلاً^(١) (مبلقة)، وهو طريق جبلي صاعد يربط مناطق قُتبان بالمناطق السبئية، وكان له دور كبير في تسهيل سير القوافل التجارية المحملة بالبضائع.

كما تدلّ مباني ومعابد العاصمة (تمنع) على مهارة فائقة في مجال البناء. وأبدع القتبانيون أيضاً في المجال الحِرَفي، وخاصة صناعة التماثيل بمختلف أنواعها، وسكّ العملات الفضية والذهبية والتي كانت تحمل اسم القصر الملكي حريب في تمنع، وقد وجدوا فيها ٦٥ معبداً في العاصمة تمنع فقط.

ولا زالت آثارها قائمة والتي تدلّ على مهارتهم في الهندسة وال عمران. كما اهتمّوا بالزراعة وبناء شبكة من السدود تتصل بها قنوات وصهاريج لإرواء الأرض على طول السنة؛ ممّا جعل منها منطقة خصبة كثيرة المياه يانعة البساتين. ومع بداية القرن الثاني للميلاد بدأ الضعف ينتشر داخل مملكة قُتبان بعد تحوّلها مركزاً لصراع بين سبأ وحضرموت في منتصف القرن الثاني للميلاد^(٢).

٥. مملكة حمير (١١٥ ق.م - ٥٢٥ م)

تقع هذه المملكة بين مملكة سبأ وبحر القلزم (الأحمر) والتي تسمّى بـ(ريدان)،

(١) النقيط: العقبة في لغة اليمن. أنظر: الحموي، ياقوت، معجم البلدان: ج ٥، ص ٣٠٣.

(٢) أنظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام: ج ٥، ص ١٨٩. محمود، محمود عرفة، العرب قبل الإسلام أحوالهم السياسية والدينية وأهمّ مظاهر حضارتهم: ص ١١٧. اليوسفي، محمد هادي الغروي، موسوعة التاريخ الإسلامي: ج ١، ص ١٥٢.

ثم ازدهرت وقويت شوكتهم فسيطروا على مملكة سبأ. وملوكها أول من تتوجوا بالذهب.

قسّم المؤرخون مملكة حمير إلى فترتين: الأولى من سنة (١١٥ ق.م - ٣٠٠ م)، والتي كان لقب ملوكها: (ملك سبأ وذو ريدان)، وعاصمتهم مدينة ظفار. والثانية من سنة (٣٠٠ - ٥٢٥ م)، وكان لقب ملوكها: (ملك سبأ، وذو ريدان، وحضرموت، ويمنات)^(١). وفي هذه الفترة الثانية قويت شوكتهم وغزوا البلاد، من قبيل: العراق (الحيرة والموصل) والشام والروم والحبشة والترك وخراسان وبلاد فارس وأذربيجان وخرّبوا سمرقند. وقد سنّوا القوانين في التجارة وغيرها.

وقيل: إن تبعّ المذكور في القرآن الكريم هو أحد ملوكهم وهو (شمر يرعش)؛ لأنّه لم يقيم للعرب أحفظ لهم منه، فكان العرب من بني قحطان وبني عدنان جميعهم شاكرين لأيامه، وكان أعقل من رأوه من الملوك وأعلامهم همّة وأبصرهم غوراً، وأشدّهم مكرًا لمن حاربه، فضربت العرب به الأمثال.

وقد ذكر الطبري في تاريخه أنّ تبعّ هذا استطاع أن يسطر سلطان ملكه على العرب كلّها وفارس والروم حتى بلغ الصين فحكمها، واستمرّ حكمه على الصين عشرين عاماً^(٢)، بل قيل: هو ذو القرنين المذكور في القرآن^(٣).

فلما قويت دولتهم وهابتهم الملوك وبعثت إليهم بالهدايا، فأرادوا أن تحجّ إليهم القبائل بدلاً عن مكة، فهمّوا بنقل حجر الكعبة من مكة إلى اليمن، فسار

(١) أنظر: علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ج ٣، ص ١٥٣. الزركلي، خير الدين، الأعلام: ج ٣، ص ١٧٦.

(٢) أنظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ١، ص ٤٠٤.

(٣) أنظر: ابن كثير، إسماعيل، البداية والنهاية: ج ٢، ص ١٢٤. السيوطي، جلال الدين، الدر المنثور: ج ٤، ص ٢٤٨. الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير: ج ٣، ص ٣١٠. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ١٢، ص ٢٠٩. الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان: ج ١٣، ص ٣٨٥.

الملك بقومه إليها، فخرجت قريش إليه بقيادة فهر بن مالك (جدّ النبي ﷺ)، فهزموهم وأسروا ملكهم، ثم وليّ الملك بعده ابنه ذو نواس.

وفي زمانه طمع فيه الأحباش الذين كانوا يدينون بالمسيحية وهزموه، ففرّ إلى الجبال، ثم جمع أتباعه وأغار عليهم فهزمهم، فأراد أن يثأر منهم، فأحرق نصارى نجران، فحملت عليه الأحباش وقضوا على ملكه سنة ٥٢٥ م.

وبذلك سقطت الدولة الحِميرية وبقيت اليمن تحت الاحتلال الحبشي، حتى ثار عليهم سيف بن ذي يزن وأخرجهم منها بمعونة الفرس حيث أغراهم بالخراج السنوي، وقد انضمّ له الكثير من القبائل العربية. واستلم زمام الأمر سنة ٥٧٠ م، واستعاد ملك الحِميريين، وكانت عاصمته مدينة غمدان^(١).

٦. مملكة كندة (٢٠٠ ق.م - ٦٣٣ م)

وهي إحدى القبائل اليمنية التي يرجع نسبها إلى ثور بن عفير، الملقّب بكندة، بطن من كهلان، فهم قحطانيون^(٢).

كوّنت قبيلة كندة مملكتين: الأولى في اليمن، حيث اتخذت من (دمون) حاضرة لها ممّا يلي حضرموت، في القرن الثاني قبل الميلاد، وكان ربيعة ملكاً على قبيلتي كندة وقحطان المحالفة لها. وبسبب الحروب التي دارت بينها وبين مملكة حضرموت ضعفت حتى فقدت استقلالها وصارت تابعة لمملكة سبأ. فعظم ذلك على بعض بطون كندة، فهاجروا إلى شمال شبه الجزيرة العربية فسكنت شمال نجد في منطقة سمّيت فيما بعد بغمرة كندة، ثم كوّنوا مملكتهم الثانية فيها، ثم توسّعت حتى

(١) أنظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام: ج ٣، ص ١٧٦. محمود، محمود عرفة، العرب قبل الإسلام أحوالهم السياسية والدينية وأهمّ مظاهر حضارتهم: ص ١٢٥. الكوراني، علي، قبيلة حمير القحطانية: ج ٩، ص ٢٤.

(٢) وجدي، فريد، دائرة معارف القرن العشرين: ج ٦، ص ٢٤٣.

شملت دومة الجندل والبحرين ونجران.

إلا أنه وبعد فترة من تأسيسها نشبت حروب بينها وبين المناذرة (سيّدة العرب آنذاك)، كما دارت معارك بينها وبين القبائل القاطنة في تلك المنطقة، ممّا أدّى إلى انهيار دولة هذه القبيلة الموحّدة وزعامتها فضعفت، وأصبحت دويلات صغيرة حتى ظهر الإسلام، فانقرضت جميعاً^(١).

٧. مملكة تدمر (٢١١م تقريباً - ٢٧٣م)

أقام العرب العماليق بداية القرن الثالث الميلادي مملكتهم في تدمر. من ملوكها: نصر أو ناصر، ثمّ ابنه وهب اللات، ثمّ ابنه حيران، ثمّ ابنه أذينة الذي انتصر على سابور الفرس وطردهم حتى حاصر المدائن، وتحالف مع الرومان. وقد بسط سلطانه على الشام والجزيرة وآسيا الصغرى. فلما قُتل استولت على الحكم زوجته زنوبيا (الزباء)، وقيل: اسمها نائلة. وقيل: إنّ زنوبيا وليت الحكم بعد مقتل أبيها الملك عمرو بن ظرب بن حسان بن أذينة بن السميدع بن هوبر العمليقي أو العمليقي، الذي قتله ملك الحيرة.

تقع تدمر في سوريا بين حمص والفرات. واسم تدمر مأخوذ من «دمر» بمعنى «صخر» بالسامانية. وقد أطلق عليها الرومان palmyra إشارة إلى نخيلها. ومعنى تدمر في اللغة الآرامية المعجزة أو الأعجوبة. اشتهرت كمملكة قوية في أواخر القرن الثالث الميلادي في عهد ملوكها من النبط وأشهرهم ملكتها الزباء أو زنوبيا. انقسم سكّان مدينة تدمر إلى طبقة الكهنة والنبلاء والمواطنين (أبناء العشائر)،

(١) أنظر: البغدادي، محمد بن حبيب، المحبّر: ص ٣٦٨. الزركلي، خير الدين، الأعلام: ج ٧، ص ٢٦٧. محمود، محمود عرفة، العرب قبل الإسلام أحوالهم السياسية والدينية وأهمّ مظاهر حضارتهم: ص ١٠٥.

وطبقة الأحرار والعبيد والأجانب (وهم مَن كانوا يدخلون تدمر للتجارة)، فقد كانت التجارة مزدهرة جداً فيها نتيجة موقعها المتميز الواقع بين نهر الفرات والبحر الأبيض المتوسط؛ إذ كانت نشطة جداً بين دول الشرق والغرب، ويظهر ذلك من مراسلاتهم؛ حيث كانوا يتراسلون مع دول الشرق باللغة الآرامية، ويراسلون دول الغرب باللغة اللاتينية، وقد كان طريق الحرير التاريخي يمرّ بها؛ حيث كان يمتدّ من بلاد ما وراء النهرين إلى أفريقيا والجزيرة.

اهتمّ التدمريون بالزراعة وطوّروها، من خلال بناء السدود لتجميع المياه وتطوير أساليب الري، كما حفروا الآبار لتجميع المياه الصالحة للشرب، ويظهر ذلك جلياً من الواحة الموجودة في المدينة.

كان التدمريّون - من الناحية العرقية - مزيجاً من الأموريين والآراميين والعرب، وتحدّثوا - حسب ما يعتقدُ الباحثون - اللهجة التدمرية الآرامية (وهي إحدى لهجات اللغة الآرامية)، كما استخدموا اللغة اليونانية في مداولاتهم التجارية والسياسية. وقد اعتنقوا دياناتٍ وثنية عدّة، من بينها الديانات الساميّة وأديان ما بين النهرين والأديان العربية القديمة.

كان نمطها المعماري والفنيّ يجمع أنماطاً رومانية ويونانية مع الأنماط الفنية الشرقية.

مع حلول القرن الثالث بعد الميلاد، تحوّلت تدمر إلى مركز إقليمي بلغ ذروة ازدهاره في عام ٢٦٠م، حين انتصر ملكها أذينة على الإمبراطور الساساني سابور الأول. وبعد موته خلفته في الحكم الملكة زنوبيا، التي لم ترغب بأن تبقى تدمر تحت الحكم الروماني، فثارت عليهم وطردتهم من المدينة وأسّست مملكة تدمر المستقلة. إلّا أنّ هذا أثار غضب الإمبراطور الروماني أوريليان، فحشد جيشاً ودمّر المدينة عام ٢٧٣م.

وقد أدّت التغيرات الإقليمية في المنطقة إلى تحوّل سُكَّان المدينة للدين المسيحي في القرن الرابع الميلادي، ثُمَّ للإسلام في القرن السابع؛ إذ أدّت الفتوحات الإسلامية إلى حُلُول اللغة العربية مكان اللغتين الرومانية واليونانية^(١).

٨. مملكة الأنباط (٣٠٠ ق.م - ١٠٦ م)

الأنباط: أقوام عربية خرجت من جزيرة العرب وسكنوا في المنطقة الصخرية الواقعة جنوب شرقي فلسطين والمحصورة بين الحجاز ووادي عربة وبادية الشام وفلسطين. وهم من البدو.

استولى الأنباط على المملكة الأدومية التي كانت قائمة في هذه المنطقة، واندمج الأدوميون مع الأنباط الفاتحين.

وفي بداية القرن الرابع قبل الميلاد تأسست مملكة الأنباط، من غزة إلى مدائن صالح جنوباً وحتى دمشق. عاصمتها البتراء.

ازدهرت هذه الدولة وظلّت قائمة حتى استولى عليها الرومان سنة ١٠٦ م^(٢). وكانوا يجيّدون اللغة الآرامية، فحضارة الأنباط عربية اللغة، سامية العبادة، بيزنطية - رومانية - يونانية الفن والعمارة والزخرفة. يقول يوسف الهادي محقق كتاب البلدان: (يقول معجم الحضارات السامية عن النبط أو الأنباط أنّهم: شعب عربي سكن الشمال الغربي من جزيرة العرب وكان على اتصال بعالم البحر المتوسط. عرفت الدولة النبطية ذروة حضارتها في المرحلة الهلنسية، وكانت أهمّ قواعدها

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ١، ص ٤٤٣. القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ج ١٢، هامش ص ٣٢٣، نقلاً عن منطلق تاريخ لبنان: ٣٣. ودائرة المعارف الإسلامية: ج ٩، ٢٥٣. علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب: ج ٥، ص ٩٤ - ١٠٣.

(٢) الملاح، هاشم يحيى، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام: ص ١٣. البني، عدنان، الأنباط، مقالة تحقيقية حول الأنباط على شبكة الأنترنت. كما توجد مقالات كثيرة حول الموضوع.

سلع (البطراء) المنبعة، عاصمة الآدوميين القديمة، ممّا جعل النبطيين يحتكرون تجارة القوافل التي كانت تنقل المرّ والتوابل من الجزيرة العربية والحمير من البحر الميت في إيّله (إيلات الحالية) ص ٨٣٧. ثمّ ذكر قائمةً بملوكهم امتدّ حكمهم بين ١٦٩ ق.م. حتى ١٠٦ للميلاد^(١).

٩. مملكة تنوخ ولخم (المناذرة) (٣٠٠ - ٦٣٣ م)

تأسّست عام ٣٠٠م على يد قبائل تنوخ التي قدّمت من اليمن وسكنت مع القبائل العربية التي كانت تقطن في الحيرة منذ قرون. وكان أوّل ملوكها جذيمة الأبرش الذي ادّعى النبوة ولبس لباس الكهّان. كانت الحيرة قاعدة ملكه ثمّ ضمّ إليها مناطق عانة وبقة وهيت والأنبار. وخلفه من بعده ابن أخته عمرو بن عدي أوّل ملك من ملوك المناذرة والذي عاصر قيام الإمبراطورية الساسانية حين هاجم ملك الفرس نرسي مملكته وجعلها تابعة له، فاستمرت في قبيلة لخم.

وقد اتسعت دولتهم على يد امرئ القيس بن عمرو بن عدي حتى بلغت أسوار نجران. ودانت له قبائل العرب وولّى عليهم أبناءه، حتى لقّب نفسه ملك العرب كلّهم. وفي زمانه كانت علاقته مع الفرس والروم على حد سواء.

وقد بلغت المملكة شأواً كبيراً في زمن النعمان الأوّل، حتى أنّ ملك الفرس يزجرد الأوّل بعث ابنه بهرام جور ليتربّى في كنف النعمان ويتعلم منه الفروسية والصيد. ولمّا مات يزجرد انقلب الفرس على ابنه وأرادوا إقصاءه، فأمدّه النعمان بجيش وثبّت له ملكه.

ثمّ استمرّت مملكتهم كحليف لدولة الفرس تصدّ عنها غارات الروم. وبقيت بين ازدهار وانتفاض حتى فتّحت على يد المسلمين سنة ٦٣٣م.

(١) ابن الفقيه الهمداني، أحمد بن محمد، البلدان: هامش ص ٢٦٩.

كانت الحيرة منبعاً للفكر والمعرفة، فقد زحرت بمعاهد العلم ومدارسه، وتلقى العلوم الدينية فيها مجموعة، أمثال: إيليا الحيري مؤسس دير مار إيليا، ومار عبد الكبير، ولذا يُنقل أنّ المسلمين حين فتحوا عين التمر وجدّ في إحدى الكنائس أربعون صبيّاً يتعلمون، من جملتهم: سيرين أبو مفسّر الأحلام محمد بن سيرين، ونصير والد موسى بن نصير فاتح الأندلس، ويسار جدّ المؤرّخ ابن إسحاق، وكذلك تعلّم المرقش الأكبر وأخوه حرملة الكتابة وبعض العلوم في الحيرة، فقد كان لموقع الحيرة الأثر الكبير في تلاحق الحضارات.

كان ملوك الحيرة يهتمّون بالتدوين، فقد أمر النعمان بن المنذر بنسخ أشعار العرب في الكراريس فنُسخت له، وقد عُثر على بعضها مدفوناً في قصره الأبيض في زمن المختار، وكانوا يشجعون الشعراء بالعطايا، وكان من شعرائها: المثقب العابدي، وعبيد بن الأبرص، والنابعة الذبياني، وطرفة بن العبد، ولقيط بن يعمر الأيادي، وعدي بن زيد العبادي، وعمرو بن كلثوم، وعمرو بن قميئة، وأعشى قيس، والمرقش الأكبر، وليبد بن ربيعة.

وقد كانت الحيرة مركزاً علمياً هاماً وملتقى الأدباء في الجاهلية، حيث كان النعمان بن المنذر يجتمع بأدباء العرب في قصر الخورنق ويقيم مهرجاناً أدبياً يسمّى (المؤتمر)، فكانت الحيرة محطةً للأدباء والمثقفين. وكذلك كان الطب فيها متقدماً في زمن المناذرة؛ إذ حافظت الحيرة على شهرتها في الطب في العصر الإسلامي. ومن الناحية الدينية، كانت بلاد المناذرة على مذهب كنيسة المشرق، حتى أنّ العديد من ملوكهم تنصّروا، بل ونشروا هذه العقيدة في شرق الجزيرة العربية^(١).

(١) أنظر: ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ١، ص ٣٤٠. محمود، محمود عرفة، العرب قبل الإسلام أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم: ص ٨٩.

١٠. مملكة الغساسنة (٢٢٠ - ٦٣٨ م)

وقد تأسست على يد قبيلة آل غسان من الأزد اليمنية التي هاجرت بسبب سيل العرم وانهيار سد مأرب، وكانت مملكتهم في منطقة حوران المحيطة بجبل الدروز والبلقان والجولان، واتخذوا من بصرى عاصمةً لهم. ثم تحالفوا مع الروم. وسرعان ما امتد حكمهم ليشمل: تدمر والرصافة وكلّ الأردن والجولان وحوران وغوطة دمشق وجنوب سوريا، ووصلوا في غزواتهم حتى خيبر. وقد استمرت حتى فُتحت على يد الجيش الإسلامي.

تُعتبر حضارة الغساسنة ذات مَزيج ساساني بيزنطي؛ وذلك لتأثرها بكل من الحضارة البيزنطية والساسانية. وقد بنى الغساسنة مجموعةً كبيرةً من القناطر، والأبراج، والقصور، كقصر المَشتى، وقلعة القسطل.

وقد وردَ ذِكرُ قصور الغساسنة في الشعر الجاهلي، وكذلك عند الشعراء المُخضرمين الذين عاشوا العصرين معاً (الجاهلية والإسلام)، كالنابغة الذبياني، ولبيد بن ربيعة، وحسان بن ثابت، الذي كان يعيش عند آخر ملوك الغساسنة قبل إسلامه.

كما أنّ الغساسنة استفادوا من مَوقعهم في مجال التجارة، سواء أكانت تجارة محليّة، كتجارة الحبوب والأقمشة، أم تجارة خارجية مع الدول الأخرى، كالهند والصين. كما قاموا باستخراج حروف اللغة العربية من الحروف النبطية، ونقلوا الحضارة البيزنطية بشكلها المادّي إلى العالم العربي^(١).

اعتنقوا المسيحية الأرثوذكسية المشرقية المعروفة في سوريا آنذاك باليعقوبية، وهي مخالفة لمذهب الروم الأرثوذكس (الملكاني).

(١) الحسيني، فاضل محمد، آفاق الحضارة العربية الإسلامية: ص ٣٨. بتصرّف. الجنابي، قيس، مقال: "دولة الغساسنة"، www.uobabylon.edu.iq. بتصرّف.

كان الغساسنة - كما المناذرة - من رعاة الأدب والشعر، فقد التحق بالغساسنة - لدحهم - جهابذة الشعر الجاهلي، مثل: لبيد بن ربيعة، والنابعة الذبياني، وحسان بن ثابت.

تتمثل آثارهم في: صهاريج الرصافة، وقصر الرصافة، ودار الضيافة خارج سور الرصافة، وكاتدرائية الرصافة، والبناء الذي داخل قلعة عمّان، وقلعة القسطل، وقصر برقع، ومن المباني الدينية: كنيسة مادبا، والدير ذو البرج الموجود في قصر الحير الغربي، وكنيسة الرفيد، وكنيسة بريقة، وكنيسة كفر ناسج، وكنيسة كفر شمس، وكنيسة القديس سرجيوس في التل.

وهناك ممالك عربية أخرى قامت في الجهة الشمالية للبلاد العربية، أمثال: مملكة ميسان جنوب العراق، ومملكة الرها جنوب تركيا وشمال سوريا، ومملكة الحضر في الموصل شمال العراق^(١).

وما نريد الوصول إليه هو التعرّف على الثقافة السائدة في المجتمع العربي فليسوا جميعاً أبناء بادية، ولا رعاة إبل كما يصوّرهم البعض، بل فيهم البدو وفيهم الحضر.

الثقافة في المجتمع العربي

إذا أردنا أن نتعرّف على ثقافة أمة من الأمم، فلا بدّ أن نحيط بمكونات ثقافتهم ومفرداتها في تلك الحقبة التي يراد دراسة الثقافة فيها. ومن هنا؛ إذا أردنا معرفة ثقافة الأمة العربية في حقبة ما قبل الإسلام، فعلينا أن نتعرّف على مكونات ثقافتها في تلك الفترة من عقائد وتقاليد وعادات وفنون وحراك سياسي وتجاري، وما إلى ذلك من مفردات دالة على ثقافتها.

(١) أنظر: عبد الرحمن، نواف أحمد، تاريخ العرب قبل الإسلام: ص ٧٨.

أولاً: المعتقدات في شبه الجزيرة العربية

قد حدّثنا التاريخ عن عقائد العرب وأنهم لم ينتموا إلى لون عقائدي واحد، بل قد تنوّعت فيهم الديانات والمذاهب بسبب اختلاطهم بغيرهم من الشعوب. فتجد فيهم الديانة اليهودية، والمسيحية، والديانة الحنيفية الإبراهيمية، والصابئية، والمجوسية، وعبادة الأصنام، وعبادة الجن.

فقد انتقلت إليهم اليهودية من خلال هجرة القبائل اليهودية الهاربة من سطوة القيصرتيتوس سنة ٧٠م، بعد أن دمر مدنها وهدم بيت المقدس وأفنى رجالهم، ففرّ قسم منهم إلى شبه الجزيرة العربية، فسكن بعضهم يثرب، وسكن آخرون اليمن مضافاً إلى الحيرة، بل يرى المؤرخين أنّ انتشار اليهود في البلاد العربية يرجع إلى قبل هذا التاريخ بكثير^(١).

وهذا الانتشار في بلاد العرب والاختلاط بهم أدّى إلى اعتناق قسم منهم لهذه الديانة^(٢)، خصوصاً بعد أن اعتنقها بعض الملوك أمثال: الملك الحُميري تبان أسعد أبو كرب، ومن بعده ابنه ذو نؤاس، حيث جعلها ديناً رسمياً وأجبر الناس عليها^(٣).

كما أنّ التبشير المسيحي كان قائماً وبدعم من الدولة البيزنطية التي تريد فرض نفوذها على تلك البلاد من خلال المسيحية. فانتشرت وشاعت ودان بها كثير من القبائل العربية وزعمائها ودويلاتها في العراق والشام ونجد والحجاز ونجران

(١) أنظر: محمود، محمود عرفة، العرب قبل الإسلام أحوالهم السياسية والدينية وأهمّ مظاهر حضارتهم: ص ١٩٢. نقلاً عن كتاب اليهود في بلاد العرب: ص ٧٢.

(٢) أنظر: ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، الاستيعاب: ج ١، ص ٢١٢. ذهب ابن هشام في سيرته إلى أنّ مرحب - بطل اليهود - من قبيلة حمير. أنظر: ابن هشام، عبد الملك، السيرة النبوية: ج ٣، ص ٧٩٦.

(٣) أنظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ١، ص ٥٤٥. الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير: ج ٣١، ص ١١٨. الزيلعي، عبد الله بن يوسف، تخريج الأحاديث والآثار: ج ٤، ص ١٨٥.

واليمن وشرق الجزيرة^(١).

كما انتشرت في بلاد العرب عبادة الأوثان؛ إذ انتقلت إلى مكة بسبب عمرو بن حي أيام ولايته عليها، حيث أباح لكل القبائل أن تأتي بأصنامها إلى مكة. مضافاً إلى أن البعض آمن بتأثير الجن وما له من قوة غيبية خارقة فعبدها^(٢).

وبسبب اختلاطهم بالشعب الفارسي المحاذي لهم من جهة حليفهم دولة المناذرة، ومن جهة الخليج انتشرت المجوسية وعبادة النار^(٣).

وقد عبدَ بعضُ العرب - خصوصاً في جنوب شبه الجزيرة - الشمس والكواكب والنجوم على ديانة الصابئة^(٤).

ومن الديانات التي دان بها بعض العرب هي ديانة إبراهيم الخليل عليه السلام الحنيفية، كما في أجداد النبي صلى الله عليه وآله^(٥)، وغيرهم من رجال العرب الذين ذُكرت أسماء الكثير

(١) أنظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ١، ص ٥٤٥. الحموي، ياقوت، معجم البلدان: ج ٥، ص ٢٦٦. علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ص ١٦٣ - ١٦٨. محمود، محمود عرفة، العرب قبل الإسلام أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم: ص ١٩٧.

(٢) أنظر: الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير: ج ٢، ص ١١٤. وج ١٢، ص ١١٠. الزركلي، خير الدين، الأعلام: ج ٥، ص ٨٤.

(٣) أنظر: ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، الاستيعاب: ج ٤، ص ١٦٨٦. محمود، محمود عرفة، العرب قبل الإسلام أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم: ص ١٩٢. نقلاً عن كتاب اليهود في بلاد العرب: ص ٧٢.

(٤) أنظر: محمود، محمود عرفة، العرب قبل الإسلام أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم: ص ١٨٩.

(٥) أجمع علماءنا على إيمان آباء النبي صلى الله عليه وآله، تبعاً لما ورد عن أئمتنا عليهم السلام؛ لأن ذلك شرط من شروط النبوة والإمامة، ولأن الله لا يمكن أن يترك الأرض بغير حجة على خلقه، وأن الزمن الذي يخلو من نبي لا يمكن أن يخلو من وصي أو إمام عادل مُنَّصَّب من قِبَل الله تبارك وتعالى. ومن الأدلة على ذلك: ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: (والله ما عبد أبي، ولا جدِّي عبدُ المطلب، ولا

منهم في كتب السيرة^(١).

هاشم، ولا عبد مناف، صنماً قط. قيل له: فما كانوا يعبدون؟ قال: كانوا يصلّون إلى البيت على دين إبراهيم عليه السلام، متمسكين به). وقول الرسول ﷺ: (يُبْعَثُ جَدِّي عَبْدُ الْمُطَّلِبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي زِيِّ الْمُلُوكِ وَأَهْمَةِ الْأَشْرَافِ). وروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله: (إِنَّ جَبْرِيلَ نَزَلَ عَلَى الرَّسُولِ وَقَالَ لَهُ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ يَقْرُتُكَ السَّلَامُ، وَيَقُولُ: إِنِّي حَرَمْتُ النَّارَ عَلَى صَلْبِ أَنْزَلِكُ، وَبَطْنِ حَمْلِكَ، وَحَجَرِ كَفْلِكَ. فَقَالَ: يَا جِبْرَائِيلُ، بَيِّنْ لِي ذَلِكَ. فَقَالَ: أَمَّا الصَّلْبُ الَّذِي أَنْزَلْتُكَ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. وَأَمَّا الْبَطْنُ الَّذِي حَمَلْتَ فَامْنَةُ بِنْتُ وَهَبٍ. وَأَمَّا الْحَجَرُ الَّذِي كَفَلْتَ فَأَبُو طَالِبٍ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَفَاطِمَةُ بِنْتُ أَسَدٍ). وقول الرسول ﷺ: (لَمْ أَزَلْ أَتَقَلُّ مِنْ أَصْلَابِ الطَّاهِرِينَ إِلَى أَرْحَامِ الطَّاهِرَاتِ). وَأَنَّ الرَّسُولَ كَانَ دَائِمَ الْاِفْتِخَارِ وَالاعْتِزَازِ بِجَدِّهِ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ، وَلَعَلَّ أَهَمَّ تِلْكَ الْمَوَاقِفِ فِي غَزْوَةِ حَنْينَ، عِنْدَمَا وَقَفَ النَّبِيُّ فِي الْمَعْرَكَةِ قَائِلًا:

(أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ)

وهو الأمر الذي لا يمكن قبول صدوره من الرسول ﷺ لو كان جدّه كافراً أو عابداً للأصنام.

وقد استدلل علماءنا على إيمانهم أيضاً بقوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَقَلَّبْنَا فِي السَّجْدِينَ﴾، فإنّها تشير إلى انتقال الرسول ﷺ في أصلاب أجداده من المؤمنين الموحّدين. ومن هنا، ذهب علماءنا أنّ أبا إبراهيم اسمه تارح، وهو مؤمن، وأمّا أزر فهو عمّه، وأنّ القرآن الكريم قد يسمّي العم بالأب. كما قال مجموعة من كبار علماء السُنّة: إنّ آباء النبي ﷺ كانوا موحّدين، فقد ذكر الرازي في تفسيره أنّ قصي جدّ النبي ﷺ دعا الناس إلى التوحيد، وقد روي أنّ أمّ النبي ﷺ لما ولدته كانت تنظر له وتنشد:

إِنْ صَحَّ مَا أَبْصَرْتُ فِي الْمَنَامِ فَأَنْتَ مَبْعُوثٌ إِلَى الْأَنَامِ
فَاللَّهُ أَهْكَاءُ عَنِ الْأَصْنَامِ أَنْ لَا تَوَالِيَهُمَا مَعَ الْأَقْوَامِ

أنظر: الصدوق، محمد بن علي، كمال الدين وتمام النعمة: ص ١٧٥. الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير: ج ٢، ص ١١٤. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب: ص ٣٨، وص ٧٩. وكذا ذكر ذلك في كتابه الدر المنثور: ج ٥، ص ٩٨. بل كتب السيوطي كتاباً تحت عنوان (التعظيم والمّنة في أنّ أبي رسول الله ﷺ في الجنة). (١) أنظر: مهدي رزق الله أحمد، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية: ص ٧٢ - ٧٧.

وقد نُقِلَ أنَّ جماعة من أهل مكة طافوا البلاد بحثاً عن ديانة غير الحنيفية، فالتقوا ببعض علماء المسيح واليهود فوجدوا فيها من التحريف ما جعلها في مصاف الديانات التي تستبطن الشرك، حيث آمنوا بأنَّ العزيز والمسيح أبناء الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فرفضوها، ورجعوا إلى الحنيفية^(١).

ومن المتمسكين بالحنيفية الشاعر المعروف زهير بن أبي سلمى، وفي شعره ما يدلُّ على ذلك، يقول:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما تكتنم الله يعلم
يؤخر فيودع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم^(٢)
ومنهم الشاعر عبيد بن الأبرص، فقد قال في بعض شعره:

مَن يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يغيّب
بالله يدرك كلَّ خير والقول في بعضه تلغيب
والله ليس له شريك علّام ما أخفت القلوب^(٣)

وبعد هذه الإطلالة السريعة على ديانات العرب قبل الإسلام، والتي تُعدّ المكوّن الأوّل للثقافة، نجد أنَّ الثقافة العربية والعقل العربي مطلّعان على أكثر الديانات والمذاهب المنتشرة في تلك الحقبة، فاعتنق بعضها ورفض الأخرى.

يذكر ابن الأثير أنّه: «لَمَّا كان من أهل بدر ما كان اشتدّ على العرب لا سيّما أهل

(١) ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، الاستيعاب: ج ٢، ص ٦١٦. البغدادى، محمد بن حبيب، المنق في أخبار قریش: ص ١٥٣. محمود، محمود عرفة، العرب قبل الإسلام أحوالهم السياسية والدينية وأهمّ مظاهر حضارتهم: ص ٢٠٥ - ٢٠٧.

(٢) أنظر: ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء: ج ١، ص ١٣٩. علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ج ١٨، ص ٣٨٩.

(٣) أنظر: علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ج ١٢، ص ٣٩.

نجد، فلما كان يوم الخندق ورجع المشركون إلى بلادهم، جاء قيس بن نسيبة إلى النبي ﷺ فسأله عن السماوات، فذكر له النبي ﷺ السماوات السبع والملائكة وعبادتهم وذكر الأرض وما فيها، فأسلم ورجع إلى قومه، فقال: يا بني سليم، قد سمعتُ ترجمة الروم وفارس وأشعار العرب والكهّان ومقاويل حمير^(١). وما كلام محمد يشبه شيئاً من كلامهم فأطيعوني في محمد؛ فإنكم أخواله، فإن ظفر تنتفعوا به وتسعدوا، وإن تكن الأخرى لم تقدّم العرب عليكم^(٢). فقد ذُكر في هذا النصّ أنّ قيس بن نسيبة قرأ كتب الروم وفارس وأشعار العرب والكهّان، ومقاويل حمير.

فمجموع هذه الشواهد المتقدمة تدلّ على وجود حركة فكرية ثقافية في هذا المحور، ولم يكن يحكمها لون خاص وطيف ديني واحد، كما نجده في بعض الشعوب المجاورة لها، خصوصاً إذا علمنا بأنّه في الأعمّ الأغلب كان الفرد يتمتّع بحرية في هذا الجانب، وكان البعض يكفر بعبادة الأوثان؛ لما يراه من ضعفها أو من شؤمها، فقد ورد أنّه كان لبني مالك صنم اسمه سعد، وهو عبارة عن صخرة يتمسّحون بها، فأصاب داءٌ إبّل أحدهم، فجاء ليمسحها بهذا الصنم، فنفرت الإبل وتفرّقت، فقال:

أتيتُ إلى سعد ليجمع شملنا فشتّنا سعد فما نحن من سعد

وما سعد إلا صخرة بتنوفة^(٣) من الأرض لا تهدي لغيّ ولا رشد^(٤)

وكان غاوي بن عبد العزى يسدن صنماً لبني سليم فرأى يوماً ثعلبين ييولان

(١) جمع مقول: من يُحسن القول. أنظر: نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح: ص ٦١٩.

(٢) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، أسد الغابة: ج ٤، ص ٢٢٨.

(٣) تنوفة: القفر من الأرض الذي لا ينبت شيئاً.

(٤) أنظر: الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان: ج ٣، ص ٢٢١. ابن كثير، إسماعيل بن عمر،

البداية والنهاية: ج ٢، ص ٢٤٢.

عليه، فقال:

أرْبُ يُولُ الثعلبان برأسه لقد ذلَّ مَنْ بالت عليه الثعالب
ثمَّ شدَّ على الصنم فكسره، وتركَ عبادة الأصنام، وذهب إلى النبي ﷺ، فأبدل
النبيُّ اسمَه، وأسماه راشد بن عبد ربه^(١).
فليس لقبيلة أو دولة أن تجبر غيرها على ديانتها، إلَّا نادراً بسبب تعصّب بعض
كبرائهم أو ملوكهم.

معنى الجاهلية

يرى بعض الباحثين أنَّ الجاهلية التي وصفهم القرآن بها لم يكن المراد بها الجهل
المقابل للعلم، بل المراد بها ما يقابل الحلم.

يقول الباحث الميثولوجي الدكتور عصام الخوراني: «كيف يمكن أن يُنسب لهذا
الشعب الجهل، وقسم كبير منه قد عرَف ثقافات كثيرة، وآمنَ بمعتقدات متنوّعة،
وعلى رأسها الحنيفيّة التي تُنسب إلى ملّة إبراهيم؟! ويذكر أنّ عبدَ المطلب جدَّ النبي ﷺ
كان حنيفاً. كذلك كيف ننسى أنّ المسيحية النسطورية كان لها في طول الجزيرة العربية
وعرضها أسقفيات كثيرة، نذكر منها في شرق الجزيرة: أسقفيات هجر، سماهيج،
عراد، مازون... وفي غربها: نجران التي كانت مركزاً مهماً للمسيحية؟! كذلك كيف
ننسى أنّ الديانة العبرانيّة كان لها جذور مهمّة في الوسط العربي، وكانت مراكزهم تلفّ
الجزيرة من الجنوب في اليمن إلى الحجاز وغيرها في الشمال وبخاصّة في مدن: يثرب،
تيماء، خيبر، دوش، اليمامة، نجران، دومة الجندل، البحرين، وغيرها؟!»

كيف ننعت هذا الشعب أو بعضه بالجهل، وقد بنى البيوت في حواضره، واتصل
بشعوب أخرى خارج حدود جزيرته عن طريق التجارة؟! كيف ننعت هذا الشعب

(١) أنظر: ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى: ج ١، ص ٣٠٨.

بالجهل وكانت لديه فنون...»^(١).

وقد أشار إلى ظاهرة عبادتهم للأصنام، فذكر أنّها ظاهرة غير مختصة بهم، بل تنتشر في جميع الشعوب المتحضّرة منها وغير المتحضّرة، فقد كانت في بلاد ما بين النهرين ومصر وبلاد فارس واليونان والرومان وغيرها من البلاد، فهل نصف هذه الشعوب بالجاهليّة؟! وهل نصف الذين بنوا الأهرام ومنارة الإسكندريّة والجنائن المعلّقة والهياكل الضخمة وغيرها، هم من الجاهليّين؟! مضافاً إلى أنّ العرب الذين عاشوا في العصر الذي سبق الإسلام، قد طُمست معظم آثارهم واندثرت لأكثر من سبب، ولم يبقَ سوى أشعار العهد الأخير، وقد ضاع معظم نتاجهم الفكري السابق، فلا يمكن أن نصفهم بالجهل أبداً، ويجب إعادة النظر بتاريخ العرب القديم وإمالة اللثام عنه. ثمّ يقول: «باختصار: عرب الجاهلية كانوا متحضّرين إنسانياً وثقافةً وعمراناً»^(٢).

ويمكن تقوية هذا الرأي بما ذكره (الفراء)، وهو من علماء العربية المعروفين، من أنّ الأميين هم العرب الذين لم يكن لهم كتاب^(٣)، ويراد بالكتاب التوراة والإنجيل، ولذلك نُعت اليهود والنصارى في القرآن الكريم بـ«أهل الكتاب»، وأنّ لفظة «الأميين» الواردة في القرآن الكريم تعني الوثنيين ممّن لم يكن لهم كتاب سماوي.

كما أنّ بعض المفسرين، أمثال: عبد الله بن أحمد النسفي المتوفى سنة (٥٣٧هـ)، والزمخشري المتوفى سنة (٥٣٨هـ)، والرازي المتوفى سنة (٦٠٦هـ)، والشوكاني المتوفى

(١) مقال تحت عنوان: (عرب الجاهلية كانوا متحضّرين إنسانياً وثقافةً وعمراناً)، أحمد فرحات - بيروت (الاتحاد الثقافي)، ١ فبراير ٢٠١٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن: ص ٨٧.

سنة (١٢٥٥هـ)، صرّحوا بأنّ المراد من الجاهلية هي الجهل بالله أو بدين الله، وأتباع الهوى^(١)، وأنّ الجاهلي هو مَنْ كان قبل الإسلام ولم يكن من أهل الكتاب^(٢)، ولذا عبّر الكاشاني في زبدة التفاسير عنها بالملّة الجاهلية، ممّا يشير إلى هذا المعنى، وهو الجهل الديني^(٣)، بل صرّح بذلك الفيض الكاشاني، حيث قال: «ظنّ أهل الملّة الجاهلية، أي: الكفار»^(٤)، وقال المشهدي: «وهو الظنّ المختصّ بالملّة الجاهلية وأهلها»^(٥). وليس المراد من الجاهلية هو المجتمع الجاهل الهمجي.

ثانياً: العادات والتقاليد في بلاد العرب

يمكن تقسيم العادات والتقاليد عند العرب من لحاظات عدة، فقد نقسمها من حيث إنّها عادات وتقاليد ناشئة من سمو الروح وطيبها وكرم أخلاقها، وتقاليد وعادات ناشئة بعكس ذلك. كما يمكن تقسيمها إلى عادات وتقاليد ناشئة من تأثير ما يعتقدون به ويؤمنون، وبعضها ناشئ من تأثيرات المحيط، وبعضها من البيئة التي يعيشون فيها، فهي تختلف بحسب اختلاف بيئة تلك البلاد وطبيعة مناخها. كما يمكن تقسيمها إلى التقاليد والعادات العامة التي يتصف بها أغلب العرب على اختلاف بلادهم وقبائلهم، وبعضها عادات وتقاليد خاصة ببعض القبائل أو البلاد.

(١) أنظر: النسفي، عبد الله بن أحمد، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ج ١، ص ١٨٦. الزمخشري، محمود بن عمر، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل: ج ١، ص ٤٧٢. الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير: ج ٣، ص ٣٩٥. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، فتح القدير: ج ١، ص ٣٩٢. الطنطاوي، محمد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم: ج ٣، ص ٤٠٤.

(٢) أنظر: أبو حبيب، سعدي، القاموس الفقهي: ص ٧٢.

(٣) الكاشاني، فتح الله، زبدة التفاسير: ج ١، ص ٥٧٨.

(٤) الفيض الكاشاني، محمد محسن، التفسير الأصفي: ج ١، ص ١٧٨. الفيض الكاشاني، محمد محسن،

التفسير الصافي: ج ١، ص ٣٩٣.

(٥) المشهدي، محمد بن محمد رضا القمي، تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب: ج ٣، ص ٢٤٦.

العادات العامة

والعادات العامة التي عُرف بها العرب بعضها حميدة وفضائل كريمة، من قبيل: الكرم، الشجاعة، رفض الظلم، إجارة الخائف، إغاثة اللفهان، حلّ النزاع بين المتخاصمين، وقد يستوجب ذلك بذل المال من قبيل تحمّل الديات عن الطرفين. ولا شك أنّ هذه الصفات الكريمة تحكي في تواجدها ونموّها عن نفوس طيبة كبيرة، حيث ورد عن النبي ﷺ أنّه قال: «إنّ الله جواد يحب الجود، ويحب معالي الأخلاق، ويكره سفاسفها»^(١).

كما شاعت في المجتمع العربي بعض الصفات والعادات السيئة، فمن عاداتهم السيئة العامة: العصبية، والتعالي على الغير، وإيذاء العبيد. وهناك عادات سيئة خاصة تمثّل عادات لبعض القبائل، وليست ظاهرة عامة لجميع القبائل العربية، من قبيل: وأد البنات، حيث كانت شائعة في قبيلة أسد، وتميم، وهذيل، وكندة، وبكر بن وائل.

بينما تُعدّ في بعض القبائل عادةً معيبة، ولذا يقول الدكتور عزيز الأشقر بأنّ ظاهرة الوأد فيها نوع من التهويل والمبالغة؛ فإنّ هذه الظاهرة لم تكن مقبولة عند القبائل العربيّة الكبرى، كقريش، والأوس، والخزرج، وهوازن، القبائل التي تعيش حالة التحضّر والاستقرار. كما أنّها تقتصر على المشركين دون النصارى واليهود والأحناف. ثمّ يقول: «وبذلك يكون تعميم انتشار هذه العادة على العرب قاطبة من ضروب المغالاة، لا سيّما إذا انطلقنا من الدلالات السيميولوجيّة لمفهوم الوأد»^(٢).

(١) العلامة الحليّ، الحسن بن يوسف، منتهى المطلب: ج ٩، ص ٤٤٧. النراقي، محمد مهدي، جامع السعادات: ج ٣، ص ٨٨.

(٢) أنظر: الأشقر، عزيز، مقال تحت عنوان «ظاهرة وأد البنات قبل الإسلام بين الحقيقة والخيال الشعبي»، مجلة أوراق ثقافية، السنة الأولى - العدد الثاني، ٢٠١٩م، بيروت - لبنان. ويشير

بل إنقاذ الموءودة من شيم الرجل التي يُمتدح عليها، وكان الكثير من عقلاء العرب يرفض ذلك، أمثال: زيد بن عمرو بن نفيل^(١)، وصعصعة بن ناجية جدّ الفرزدق، فقد روي عن صعصعة أنّه لما قَدِمَ على النبي ﷺ وأعلن إسلامه، سأل رسول الله ﷺ عن أعمال الخير التي فعلها في الجاهلية هل له فيها من أجر؟ فسأله ﷺ عن تلك الأعمال.

فذكر أنّه وجد شيخاً من مضر يريد وأد بنت له وُلدت لحينها، فوهب صعصعة له الناقتين والجمل الذي قَدِمَ عليه مقابل أن يدع وأدها، فقبل الشيخ منه ذلك. ثمّ اتخذها سيرةً له فكان كلّما سمع يقوم يريدون وأد بنت لهم استوهبها منهم مقابل ناقتين وجمل، حتى قال: ظهر الإسلام وقد أحييت ثلاثمائة وستين موءودة. وقد ذكر ذلك الفرزدق مفتخراً حين قال:

وجدي الذي منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يواد^(٢)
وقال أيضاً:

أبى أحد الغيثين صعصعة الذي متى تخلف الجوزاء والنجم يمطر
أجار بنات الوائدين ومن يُجر على القبر يُعلم أنّه غير خفر

وبهذا الصدد لا بدّ من الإشارة إلى أنّ هناك عادات وتقاليد تُنسب إلى الشعوب، ولكن حين التحقيق يتبيّن عدم صحتها، فمن ذلك: ما قيل حول العرب من احتقارهم للمرأة، ولكن لم نجد لها أثراً في كثير من قصصهم وحكاياتهم الدالة

الباحث في مقاله إلى نقطة مهمّة في البحث، وهي: أنّ جميع من روى كون ظاهرة الوأد موجودة (عند العرب قاطبة) أخذها من الهيثم بن عدي، وهو كاذب بنصّ الذهبي وابن معين والخطيب البغدادي، كما قال عنه النسائي بأنّه متروك الحديث.

(١) الآلوسي، محمود شكري، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ج ٣، ص ٤٥.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين، الأغاني: ج ٢١، ص ١٨٢.

على سيرتهم التي تحتاج إلى وقفة عندها ومعرفة مدى واقعيتها، فيمكن أن تكون من العادات الخاصة أو النادرة ببعض العوائل، ومثله موجود في أغلب الشعوب والأقوام، ولكن لا يمكن تعميمه كعادة عامة في المجتمع العربي، كيف وقد وصلت المرأة عندهم إلى أعلى مناصب الحكم، وجلست على عرش الملك، كما في زنوبيا ملكة تدمر، وبلقيس ملكة سبأ، وزيبية وشمسي ملكات قidar؟! وكان الملوك يفتخرون بانتسابهم لأُمهاتهم، كالمنذر بن ماء السماء، وعمرو بن هند، وغيرهما.

وقد سُمّيت باسم المرأة مجموعة من القبائل، أمثال: قبيلة بجيلة، ومزينة، وعاملة، وعفراء، وباهلة، وبني طفاوة، وبني العبدية، وبني طهية، وبني حطي، وخندف وجديلة - وهما قبيلتان كبيرتان ترجع لهما قبائل كثيرة كهذيل، وكنانة، وأسد، والهون، وعدوان -. كما سُمّيت بأسمائهنّ البلاد، كمنطقة زباله، سُمّيت بذلك نسبة إلى (زباله بنت مسعود)، ودير هند الكبرى أو دير هند الأقدم، سُمّي باسم هند بنت الحارث بن عمرو الكندي أمّ عمرو بن المنذر؛ لأنّها هي التي بنته. وكان الشعراء يتغنّون بأُمهاتهم وزوجاتهم؛ لعفّتهنّ وكرم أنسابهن^(١). وكان من النساء قبل الإسلام الطيبية مثل: الشفاء بنت عمرو، ورفيدة الأسلمية، وزينب طيبية بني أود والتي برعت في معالجة العيون والجراح، والشفاء بنت عبد الله العدوية، ونسيبة الأنصارية أم عطية، وبعضهنّ سيّدة أعمال كخديجة بنت خويلد عليها السلام، وقيلة الأنبارية^(٢).

(١) محمود، محمود عرفة، العرب قبل الإسلام أحوالهم السياسية والدينية وأهمّ مظاهر حضارتهم: ص ٢٨٥ - ٢٩٠.

(٢) أنظر: ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، الاستيعاب: ج ٤، ص ١٨٦٩، وص ١٩٤٧. ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، أسد الغابة: ج ٦، ص ٢٤٥. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، الطب

وكانت تُصان في الخدر في حضرها، وتركب الهودج في سفرها، وتُستشار في أمر زواجها وغيره...

ولها أن تُكرم وتُؤوي وتُجير، وتشارك في التحكيم، أمثال: خالدة بنت عبد مناف وصحر بنت النعمان. وتُستشار في تفضيل الشعر وانتقائه كأُم جندب زوجة امرئ القيس، بل بعضهن شاعرات كالخنساء. واشتهر بعضهن بالشجاعة والفروسية كخولة بنت الأزور، وتشارك في الحلف والبيعة؛ ولذا بايَعَنَ رسول الله ﷺ ولم يدر من عربي أن اعترض على ذلك، أو أشار إليه بسخرية أو حتى بمدح؛ مما يدل على أنها من الأمور الطبيعية المتعارفة.

فكيف تكون المرأة العربية لا قيمة اجتماعية لها، وأنّ حالها حال العبيد مع كل ما تقدّم من ذكر مشهور ومعروف لها؟!!

ثالثاً: العلوم والفنون عند العرب

هناك جملة من العلوم والفنون التي عرفها العرب، وبرز منهم شخصيات متخصصون فيها، من قبيل:

١. الفلك، وكان يُعرف بعلم الأنوار^(١).

٢. الرياضيات.

٣. الطب، فقد عُرِفَ منهم في علم الطب مجموعة أمثال: ابن أبي رمثة التميمي، والحارث بن كلدة الثقفي، وكان له كتاب في الطب، ورووا عنه حكماً كثيرة في الطب^(٢)، والنضر بن الحارث، وضاد بن ثعلبة، والشفاء بنت عمرو،

النبوي: ص ١٤٣. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، الإصابة: ج ٨، ص ٣٠٥. علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ج ١٦، ص ٢٠ - ٢١.

(١) شامي، يحيى، علم الفلك صفحات من التراث العلمي العربي الإسلامي.

(٢) أنظر: علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ج ١٦، ص ١٥ - ١٦. الزركلي، خير الدين، الأعلام: ج ٣، ص ١٧٦.

ورفيدة الأسلمية، وزينب طيبة بنى أود، والشفاء بنت عبد الله العدوية، وابن حزيم، ونسيبة بنت كعب الأنصارية أم عطية، التي كانت بعد إسلامها تمرض المرضى وتداوي الجرحى في معركة أحد^(١)، وكوسماس وديماس من أطباء العرب النصارى، وقد قُتلا عام ٣٠٣م، في فترة الاضطهاد الروماني للنصارى، ولا زال يحتفل النصارى بذكرى قتلها في يوم ٢٧ سبتمبر^(٢). وفي التلمود أن اليهود يطلبون خبرة العرب في الطب^(٣).

٤. البيطرة، أمثال العاص بن وائل.

كما عُرِف العرب ببعض الفنون، والتي يُعدّ بعضها نتاجاً ذاتياً خاصاً بهم، كفنون الأدب الذي لم ترق إليه لغة، من نثر وشعر، فقد اشتمل النثر على الحوار والخطب والأمثال والقصص والحكم، كما اشتمل الشعر على بحور متنوعة. وقد صُنِّفَت العلوم في دراسة أدبهم، ودُوِّنَت الكتب؛ لكثرة روائع كلامهم، بحيث لا يمكن حصره في علم واحد.

ولا شك أن جودة الكلام وعذوبته ودقة تعابيره وتنوع مفرداته واختلافه بحسب اختلاف مقتضى الحال، حالٌّ عن عبقرية خاصة يتمتع بها صاحبه؛ ولذا عُدَّت فصاحة القرآن وبلاغته من الأدلة على إعجازه.

(١) أنظر: ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، الاستيعاب: ج ٤، ص ١٨٦٩، وص ١٩٤٧. علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ج ١٦، ص ٢٠.

(٢) مقال (العرب قبل الإسلام)، نقلاً عن كتاب:

(Our Sunday Visitor's encyclopedia of saints, by :Matthew Bunson, Margaret Bunson, Stephen Bunson. p.225).

(٣) مقال (العرب قبل الإسلام)، ويكيبيديا نقلاً عن:

(The Arabs in antiquity: their history from the Assyrians to the Umayyads, Jan Retsö p.520).

كما اشتهروا بفنون أخرى، من قبيل: صناعة السفن، والسيوف، وآلات الزراعة، وصناعة الحلي، وغير ذلك^(١).

فن العمارة عند العرب

ومن جملة ما اشتهر العرب به هو فنّ العمران، فقد عُرِفوا ببناء السدود والبيوت الفارهة والقصور، من قبيل: قصور عاد، وقصر عُمدان المكوّن من طوابق كثيرة، وكان سقف آخر طابق من زجاج، حتى كان الجالس في آخر طابق يرى الطير في السماء من السقف^(٢).

وقد أخبر القرآن الكريم عن هذا الفنّ، حيث تحدّث عن عاد وثمود واصفاً لهما بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ (٨)﴾

(١) محمود، محمود عرفة، العرب قبل الإسلام أحوالهم السياسية والدينية وأهمّ مظاهر حضارتهم: ص ٢٢٧.

(٢) «عُمدان: بضم أوله، وسكون ثانيه، وآخره نون،... يجوز أن يكون جمع غمد مثل: ذئب وذوبان، وغمد الشيء: غشاؤه وليسته، فكأنّ هذا القصر غشاء لما دونه من المقاصير والأبنية. قال هشام بن محمد بن السائب الكلبي: إنّ يشرح بن يحصب أراد اتخاذ قصر بين صنعاء وطبوة، فأحضر البنّائين والمقدّرين لذلك، فمدّوا الخيط ليقدّروه فانقضّت على الخيط حداة فذهبت به فاتّبعوه حتى ألقت في موضع عُمدان، فقال ليشرح: ابنوا القصر في هذا المكان، فبني هناك على أربعة أوجه: وجه أبيض، ووجه أحمر، ووجه أصفر، ووجه أخضر، وبني في داخله قصرأ على سبعة سقوف بين كلّ سقفين منها أربعون ذراعاً، وكان ظلّه إذا طلعت الشمس يُرى على عينان وبينهما ثلاثة أميال، وجعل في أعلاه مجلساً بناه بالرخام الملوّن، وجعل سقفه رخامة واحدة. وصيّر على كلّ ركن من أركانه تمثال أسد من شبه كأعظم ما يكون من الأسد، فكانت الريح إذا هبّت إلى ناحية تمثال من تلك التماثيل دخلت من دبره وخرجت من فيه فيسمع له زئير كزئير السباع. وكان يأمر بالمصاييح فتُسرّج في ذلك البيت ليلاً، فكان سائر القصر يلعب من ظاهره كما يلعب البرق، فإذا أشرف عليه الإنسان من بعض الطرق ظنّه برقأ أو مطراً، ولا يعلم أنّ ذلك ضوء المصاييح». الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان: ج ٤، ص ٢١٠.

وَتَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ^(١)، فقد وصفَ مدينةَ إرمَ بأنها لم يُخلَقْ مثلها في البلاد. وكذا وصفَ عرش بلقيس بقوله حكاية عن الهدهد: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾^(٢).

مضافاً إلى اشتهارهم في التجارة والزراعة، حيث كانت متعددة الأساليب والطرق؛ مما يحكي عن كونهم شعباً متحضراً، وكانت لهم دولاً، كدولة المناذرة والغساسنة وتدمر وسبأ ومعين وحضر موت وقتبان وحير، وقد مرّ ذكرها. إلا أن بعض الباحثين حين الكتابة لا يستحضر من أبناء المجتمع العربي إلا المناخ القاسي، والبدوي الذي يقطن الصحراء ويرعى الإبل، ويتغافل عن أطراف شبه الجزيرة العربية والتي تمثل الوفرة السكانية، وكانت تمتاز بخصوبة تربتها، ووفرة مياهها، وطيب مناخها، ولطافة هوائها، وجمال طبيعتها.

نعم، لم يتمكن العرب من إقامة إمبراطورية عظمى موحدة كجيرانهم من الروم والفرس لأسباب مختلفة، من أهمها عدم رضوخهم لوطأة الظلم أو انضوائهم تحت راية الغير، خصوصاً وأنّ من يتسلّم زمام الأمر لم يتمتع بالعدل الذي تطمئن إليه القبائل. فلما توفّر بعض هذه الصفات في بعض الملوك، انصاعوا له فاستطاع أن يحكم البلاد العربية كافة وأجزاء من الروم وفارس، بل وصل إلى الصين. كما تقدّم ذكره في دول العرب وممالكهم قبل الإسلام^(٣).

رابعاً: الكتابة والقراءة عند العرب

لم تكن الكتابة والقراءة في تلك الأزمنة منتشرة بين الناس في جميع المجتمعات، مثل: اليونان، والرومان، والساسانيين، حيث يوجد في كل مجتمع مجموعة من

(١) الفجر: آية ٦ - ٩.

(٢) النحل: آية ٢٣.

(٣) راجع صفحة ٥٠.

الأفراد الذين يجيدون هذا الفن، وأمّا الأغلبية فكانوا لا يحسنون القراءة ولا الكتابة، وإنّما كانت القراءة والكتابة في الخاصة وفي أبناء الطبقة الحاكمة وأصحاب المواهب والقابليات، الذين تدفعهم مواهبهم ونفوسهم على التعلّم والثقّف وتزعم الحركة الفكرية بين أبناء جنسهم.

فالأمّية كانت في جميع الأمم تمثّل الأثرية والغالبية، ولم يختلف مجتمع عن آخر إلّا في نسبة المتعلمين والمتخصصين^(١).

وقد ذكر المؤرخون بأنّ هناك مجموعة من العرب كانوا يجيدون القراءة والكتابة في مكة ويثرب واليمن والعراق والشام، وكانت تعدّ الكتابة من جملة مكملات الرجل.

وكان بعضهم يكتب بقلم المسند، وبعضهم بقلم مكة، وبعضهم بالقلم النبطي وبالقلم الآرامي. ذكر السيّد مير محمدي زرندي: «وقال أبو عبد الله الزنجاني: وعلى رأي الإفرنج الخط العربي قسماً: أحدهما: كوفي، وهو مأخوذ من نوع من السرياني يقال: أسطر نجيلي، ونسخي، وهو مأخوذ من النبطي. ثمّ قال في هامش الكتاب: إنّ مملكة الأنباط امتدت من دمشق الشام إلى وادي القرى قرب المدينة شمالاً وجنوباً، من بادية الشام إلى خليج السويس شرقاً وغرباً، فشملت شمال غرب جزيرة العرب وجزيرة سيناء. ثمّ إنّ هذين الخطين - النبطي والمسند - ظلّا معروفين عند العرب وشايعين إلى ظهور الإسلام، إلّا أنّ النبطي كان مستعملاً في المراسلات والمكاتبات التجارية، والمسند كان مستعملاً في الكتب، خصوصاً الكتب المقدسة»^(٢).

(١) أنظر: السامرائي، عبد الجبار محمود، مقال: الكتابة والقراءة في جزيرة العرب قبل الإسلام، ٢٠/٥/٢٠٠٨م، مجلة الواحة، العدد: ٤٨.

(٢) زرندي، مير محمدي، بحوث في تاريخ القرآن وعلومه: ص ١٣٥.

والمسند: هو الخط الحُميري، أو ما يُعبر عنه بقلم حُمير^(١).

وقد عثر علماء الآثار على كتابات مدوّنة بقلم المسند في مواضع متعددة من جزيرة العرب، وسواحل الخليج العربي، بعضها قديم، والبعض الآخر قريب من فترة ظهور الإسلام. كما وجدوا بعض الكتابات بالقلم الثمودي، نسبة إلى قوم ثمود، والقلم اللحياني، نسبة إلى «لحيان»، وهي مملكة شعبها من الشعوب العربية الجنوبية^(٢)، والكتابة الصفوية^(٣).

ومن الأدلة على معرفة عرب اليمن للكتابة والقراءة قبل الإسلام، الأوامر والقوانين التي دوّنها ملوكهم وأعلنوها للناس، ونصبوها في المحلات العامة وفي الأماكن البارزة.

إنّ تدوين تلك الكتابات ووضع الحجارة الفخمة المكتوبة للإعلان، دليل على أنّ في الناس قوماً يقرؤون ويفهمون الكتابة، وأنّ الحكومات إنّما أمرت بتدوينها لإعلام الناس بمحتوياتها للعمل بها، كما تفعل الحكومات في الوقت الحاضر عند إصدارها أمراً أو قانوناً؛ بإذاعته عبر الوسائل المعروفة على الناس.

وكان غلمان اليمن يتعلّمون الكتابة والقراءة، ويردّدون قراءة ما يكتبون ويقرؤون، وقد أُشير إلى ذلك في شعر «ليد»، قال:

فنعاف صارة فالقنان كأثها زُبُرٌ يرجعها وليدُ يمانٍ
متعوّد لحنٍّ يعيد بكفّه قلماً على عُسب ذبلنَ وبانٍ^(٤)

(١) المسعودي، علي بن الحسين، التنبيه والإشراف: ص ٨١.

(٢) الزركلي، خير الدين، الأعلام: ج ٥، ص ٢٤١.

(٣) أنظر: الأقوام والشعوب في النقوش الصفوية (بحث)، د. حسين القدرة، د. مهدي عبد

العزیز، أ.د. سلطان المعاني. عرب النقوش الصفوية (مقال)، د. سلطان المعاني.

(٤) أنظر: علي، جواد، الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ج ١٥، ص ١٤٠.

يظهر من ذلك أنّ أهل اليمن، حتى غلمانهم، كانوا يكتبون، ويردّد الأطفال الكتب لحفظها ولتعلّمها على نحو ما يفعلون في الكتاتيب.

وقد ذكر بعض الباحثين أسماء جملة ممّن يعرف القراءة والكتابة في بلاد العرب^(١): «وكان الأحناف يكتبون ويقرؤون، وقيل: إنّ ورقة بن نوفل كان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء أن يكتب»^(٢).

ومن هذا يظهر أنّ جملة من العرب يعرفون اللغات الأخرى، من قبيل العبرانية^(٣).

وذكر أهل الأخبار أنّ قوماً من أهل يثرب من الأوس والخزرج، كانوا يكتبون ويقرؤون عند ظهور الإسلام، ذكروا فيهم: سعد بن زرارة، والمنذر بن عمرو بن خنيس بن حارثة بن لوذان الخزرجي، أحد السبعين الذين بايعوا رسول الله ﷺ وأحد النقباء الاثنى عشر^(٤)، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وكان يكتب بالكتابات العربية والعبرية والسريانية، ورافع بن مالك، وأسيد بن حضير، ومعن بن عدي البلوي، وأبو عبس بن كثير، وأوس بن خولى، وبشير بن سعيد، وسعد بن عبادة بن دليم، سيد الخزرج، وعبد الرحمن بن جبر أو جبير، وعبد الله بن أبي، وسعد بن الربيع، وقد أرجعوا أصل علم هؤلاء إلى قوم من يهود يثرب، مارسوا تعليم الصبيان القراءة والكتابة، دعوهم بـ(بنى ماسكة).

أمّا أهل مكة، فقد تعلّموا الكتابة في عهد غير بعيد عن الإسلام، حيث كانوا

(١) السامرائي، عبد الجبار محمود، الكتابة والقراءة في جزيرة العرب قبل الإسلام، ٢٠ / ٥ / ٢٠٠٨ م، مجلة الواحة، العدد (٤٨).

(٢) أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين، الأغاني: ج ٨، ص ٦٧٨.

(٣) أنظر: الكرّم، حافظ أحمد عجّاج، الإدارة في عصر الرسول ﷺ: ص ١٢٠.

(٤) ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، الاستيعاب: ج ٤، ص ١٤٤٩. العيني، محمود بن أحمد، عمدة القاري: ج ١٧، ص ١٧٥.

يكتبون بالمسند، القلم الذي كتب به أكثر جزيرة العرب قبل الإسلام، فقد ذكر الأخباريون أنّ أهل مكة كانوا يجدون بين الحين والحين كتابات مدوّنة بالمسند في مقبرة مكة القديمة، وفي مواضع أخرى منها، وأنّ عثور الناس على هذه الكتابات كانت بالمسند أو بأقلام مشتقة منه. ولا يُعقل عدم استعمال أهل الحجاز لهذا القلم، وقد وُجد أنّه والأقلام المشتقة منه قد كوّن قلم أهل هذه البلاد قبل الإسلام^(١).

ومّن يعرف الكتابة والقراءة حضير الكتائب^(٢)، وقيس بن نسيبة عمّ الشاعر العباس بن مرداس السلمي أو ابن عمّه^(٣).

وذكر أنّ في جملة من كان يكتب قبل الإسلام عمرو بن عمرو بن عدس. كما ذكر ابن النديم في الفهرست أنّ «أسيد بن أبي العيص» كان من كتّاب العرب.

وذكر أنّه كان في خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم عليه السلام في جلد آدم، فيه ذكر حق عبد المطلب من أهل مكة على فلان بن فلان الحميري.

وكان حنظلة بن أبي سفيان ممّن يحسن الكتابة والقراءة بمكة، فقد ورد أنّه كتب من مكة إلى والده أبي سفيان، وكان إذ ذاك مع العباس بن عبد المطلب بنجران، يخبره خبر الرسول ﷺ. وكان بغض بن عامر بن هاشم من كتّاب قریش قبل الإسلام، وهو الذي كتب الصحيفة على بني هاشم.

(١) القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ج ٣، ص ١٥. البلاذري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان: ج ٣، ص ٥٨٣. علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ج ١٥، ص ١٤٢-١٤٣.

أقول: وهذا يدلّ على أنّ الذين يعرفون القراءة والكتابة في ثرب فقط أكثر من خمسة عشر رجلاً. لذا لا يُعتنى بقول بعض المعاصرين من أنّ الذين يعرفون القراءة والكتابة في شبه الجزيرة العربية كلّها لا يتجاوزون عدد أصابع اليد.

(٢) البلاذري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان: ج ٣، ص ٥٨٣.

(٣) ابن حجر، أحمد بن علي، الإصابة: ج ٥، ص ٣٨٠. الزركلي، خير الدين، الأعلام: ج ٥، ص ٢٠٩.

وورد أنَّ أبا الروم بن عبد شريحيل واسمه منصور بن عكرمة هو الذي كتب الصحيفة. وكان نافع بن ظريب بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف بن قصي القرشي ممَّن يكتب، وكذلك حاطب بن أبي بلتعة، والشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس العدوية، وفاطمة بنت مر^(١).

وورد أنَّ عدداً من الشعراء قبل الإسلام كانوا يكتبون ويقرؤون، وكان منهم من إذا نظم شعراً دونه ثمَّ ظلَّ يعمل في إصلاحه وتنقيحه وتحكيك ما نظمه إلى أن يرضى عنه، فينشده الناس.

وممَّن كان يكتب ويقرأ سويد بن الصامت الأوسى، صاحب «مجلة لقمان»^(٢)، والزبرقان بن بدر^(٣)، وكعب بن مالك الأنصاري، وكعب بن زهير، والربيع بن زياد العبسي، وكان هو وإخوته من الكملة، أي يعرفون الكتابة والقراءة، وقد كتب إلى النعمان بن المنذر شعراً يعتذر إليه فيه^(٤).

(١) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ج ١٥، ص ١١٧-١١٩، وص ١٣٧.
 (٢) مجلة لقمان: كتاب فيه حكمة لقمان. أنظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج ١١، ص ١٢٠. روى الثعلبي أنَّ سويد بن صامت أخا بني عمرو بن عوف قَدِم مكة حاجاً أو معتمراً، وكان سويد إنَّما تسميه قومه الكامل؛ لجلادته وشعره ونسبه وشرفه وحكمته. فقَدِم سويد مكة، وكان رسول الله ﷺ قد بُعث، وأمر بالدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ، فتصدَّى له حين سمع به، فدعاه النبي ﷺ إلى الله عزَّ وجلَّ وإلى الإسلام. فقال له سويد: فلعلَّ الذي معك مثل الذي معي، فقال له رسول الله ﷺ: (وما الذي معك؟) قال: مجلة لقمان، يعني حكمته. فقال له رسول الله ﷺ: «اعرضها عليَّ»، فعرضها عليه فقال: «إنَّ هذا الكلام حسن والذي معي أفضل، هذا قرآن أنزله الله عليَّ نوراً وهدي»، فتلا عليه القرآن ودعاه إلى الإسلام فلم يبعده عنه، وقال: إنَّ هذا القول حسن. ثمَّ انصرف عنه وقَدِم المدينة، فلم يلبث أن قتله الخزرج قبل يوم بعث وكان قومه يقولون: قُتل وهو مسلم. الثعلبي، أحمد بن محمد، الكشف والبيان عن تفسير القرآن (تفسير الثعلبي): ج ٣، ص ١٦٤.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين، الأغاني: ج ٢، ص ١٨٠.

(٤) المصدر السابق.

ومن الشعراء الذين كانوا يكتبون ويقرؤون مع ثقافته وعلمه: «ليد» الذي كان حادّ الذكاء، وربّما كان يدوّن شعره ويحفظه. يقول:

وَجَلَّ السَّيُولُ عَنِ الطُّلُولِ كَأَنَّهَا زُبُرٌ تَجَدَّدَتْ مِنْهَا أَقْلَامُهَا

إنّ وصف ليد مثل هذه الطلول لا يمكن أن يقال إلّا من رجل له علم بالكتابة، وحذق ودراية^(١).

وصفوة القول: إنّ عرب الجزيرة قبل الإسلام لم يكونوا أمّيين، لا يحسنون الكتابة والقراءة كلّهم؛ بدليل أنّهم تركوا آلاف الكتابات باللهجات العربية الجنوبية وبالشمودية واللحيانية والصفوية. فما ورد في بعض النصوص من وصفهم بالأمّية فله معنى آخر غير المعنى اللفظي المتداول، الذي يعنى الجهل بالكتابة والقراءة، وقد مرّ بيانه.

(١) السامرائي، عبد الجبار محمود، الكتابة والقراءة في جزيرة العرب قبل الإسلام، ٢٠ / ٥ / ٢٠٠٨ م، مجلة الواحة، العدد (٤٨).

المبحث الثاني

نبي الإسلام ﷺ والإصلاح الثقافي

تقدّم أنّ النفس لا تصدر عنها أفعالها الاختيارية إلّا إذا تحقّقت عللها وأسبابها الطبيعية، من الشوق والإرادة اللذين يحققان فيها العزم على الفعل. كما تقدّم أنّ الشوق والإرادة لا يحصلان في النفس ما لم تتضح لها منافع ذلك الفعل، كما لا تبتعد عنه وتبغضه ما لم يحصل لها علم بمضارّه ومنافرته لطبعها وميولها.

وليس بالضرورة أن يكون علمها بالمنافع والمضارّ علماً صحيحاً مطابقاً للواقع، بل حتى لو كان خاطئاً ومخالفاً للواقع، فقد ترغب في شيء ضارّ؛ لأنّها تصوّرتّه نافعاً، وتبتعد عن آخر؛ لتصوّر أنّها ضارّ، مع أنّ الأمر ليس كذلك. ومن هنا يتضح أنّ أساس الفعل الاختياري وعلته الأولى هو ما يرسم في الذهن من صور حسنة أو قبيحة حول هذا الفعل أو ذاك.

ولذا نقرأ في آي القرآن الحكيم أنّ الشيطان يوقع الإنسان في المعاصي من خلال تزيينها له، وتصويرها له بأنّها ذات منفعة ولذّة عظيمة، ويظل يوسوس ويلجّ في الإيحاء والوسوسة حتى تُصدّق النفس بذلك فيحصل عندها الشوق والإرادة ومن ثمّ تعزم على فعله، فيصدر عنها. قال تعالى مخاطباً نبيّه الكريم محمدًا ﷺ: ﴿تَاللّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرَزَيْنَا لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١)، وقال أيضاً: ﴿وَرَزَيْنَا لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢).

(١) النحل: آية ٦٣.

(٢) الأنعام: آية ٤٣.

كما بين القرآن الكريم أنّ التزيين الشيطاني يكون من خلال ما يُؤمنهم بالوعد الكاذبة، قال تعالى: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُؤْمِنُهُمْ بِمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾^(١).

وبنفس هذا البيان يمكن أن نتعرّف على دور النبي ﷺ في إصلاح واقع الأمة، وذلك من خلال تقديمه ﷺ ثقافة واقعية تبين فيها الصور الواقعية للأفعال، بحيث تتعرّف النفس على حقيقة الأمر، ما فيه نفعها وما فيه ضررها، سواء المنافع والمضار الدنيوية أم الأخروية.

وهنا يمكننا أن نتصور نبي الإسلام العظيم وهو يحاول إصلاح أمته، ويتشلها ممّا هي فيه، فيضعها أمام ناظره ليضع خطته الإصلاحية. ففي البدء يشخص الخلل من الانحراف والتشردم في العقائد والأعراف والتقاليد والأخلاق والسلوك، وبمعنى آخر يجد مجتمعاً ذا ثقافات شتى.

فيضع العلاج الأساس لكلّ ذلك من خلال القضاء على المشكلة من أساسها، وهو القضاء على تلك الثقافة المنحرفة الباعثة على سلوكيات بعيدة كلّ البعد عن مبادئ الحضارة الإنسانية السليمة.

فلا بدّ من إصلاح الثقافة بجميع مفرداتها: العقدية والأخلاقية والأعراف والتقاليد والفنون. لا بدّ من إصلاح كلّ مفردة على حدة، وجعلها جميعاً منسجمة مع بعضها البعض، بحيث تكون الأعراف والتقاليد مستوحاة من الأخلاق، والأخلاق مستوحاة من العقيدة التي يؤمنون بها، وكذا الفنون لا بدّ ألا تتعارض مع هذه المنظومة الحياتية.

فهو - في الحقيقة - وضع الثقافة بشكل هندسي منسجم الظاهر والمحتوى، أو على حدّ تعبير الحكماء: إنّ السلوك تابع للنظم الأيديولوجية، والنظم تابعة للعقيدة، والعقيدة تابعة للمنهج المعرفي المتّبع وطريقة التفكير.

فوضع يده الكريمة على المشكلة، ورسم خطوات الإصلاح بجدّ وعزم، فأسرع إلى إصلاح طريقة التفكير من خلال نبذ الخرافة والتقليد الأعمى للآباء وكبراء القوم، واستعاض عنها باتباع العقل الصريح الفطري الذي يدعوهم لعبادة الله الواحد القهار. وذكر لهم الأدلة العقلية المتنوعة والمتكثرة لإثبات هذه الحقيقة، بحيث لم يدع لأحد شكاً ولا عذراً في إنكارها، فتجده يبسط الدليل مباشرة أو من خلال تربيته بمثال، وبدعوة إلى تأمل في ظاهرة كونية، أو التفكير فيما خلق الله تعالى من حولهم من نبات وحيوان وجبال وبحار، أو من خلال تذكيرهم بالأُمم السابقة عليهم وأفعالها وما آلت إليه أمورهم، أو من خلال إقامة المعاجز التي تحرسهم ولا تدع لهم حجة، حتى أيقنوا بأنه الحق من ربهم، فأمن ثلّة منهم، وشرأبت أعناقهم للهدى.

وهكذا رفدهم بمفردات الثقافة الأخرى، وبدأت عملية التغيير يلحق بعضها بعضاً، فحثّهم على فعل الخير؛ ليكون عادةً لهم، ومن ثمّ ليكون ظاهرة اجتماعية عامة، ونهاهم عن فعل القبائح؛ ليظهرهم من العادات السيئة التي اعتادوا عليها في سالف أيامهم، مبيّناً لهم مساوئها الدنيوية والأخروية، وما تجلبه لفاعلها في الدنيا وفي القبر ويوم القيامة.

وهكذا تستمر رحلة التغيير المحمدي العظيمة، فبيّن لهم مكارم الأخلاق؛ لتكون عرفاً يتسالم عليه المؤمنون، ويمتازون عن كلّ عرف لا يقرّه لهم النبيّ الرؤوف بهم.

ثمّ تمتد يده الطاهرة ليخلصهم من الفنون التي تضرّ بدنياهم أو بأخراهم، فيحرّم عليهم الغناء والموسيقى الماجنة مثلاً؛ لأنّها سلاح عدوّهم الشيطان ليوقعهم من خلالها بما يفسد مستقبلهم ونفوسهم؛ فإنّها تُنبِت النفاق، فقد جاء في كتاب الكافي الشريف عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، قال: «قال رسول الله ﷺ:

أَنهَآكُم مِّنَ الرِّفِّ وَالْمِزْمَارِ، وَعَنِ الْكُوبَاتِ وَالْكَبَرَاتِ»^(١). والمراد بالرفن: هو الرقص^(٢)، وبالكوبات: جمع كوبة وهي طبل صغير مخصر^(٣)، والكبرات: جمع كبر - بفتح الكاف والباء - بمعنى الطبل الذي له وجه واحد^(٤).

ولذا فإنَّ النبيَّ محمدًا ﷺ ليس عابداً ناسكاً عالماً فحسب، بل هو فوق كلِّ هذا مصلحٌ عظيم وقائد لأُمَّته نحو الخير.

وقد ركّز ذلك في أذهان أتباعه، وجعلهم يستذكرونه كلَّ حين وفي كلِّ وقت، فترى هذه العقائد حية في عباداتهم وتسييحهم، وترافقهم في أعمالهم، وحين يضعون رؤوسهم ليخلدوا إلى النوم... يصابحهم بها ويأسيهم في أحاديثه وخطبه ونصائحه، حتى صارت حاضرة في وجدانهم لا يغفلون عنها.

وأخذ يرعى ما غرس فيهم من مكارم الأخلاق، وجعلها غاية بعثته لهم، وأنَّ أقربهم إليه أكثرهم تمسكاً بها، فقد روى صحابته عنه ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ أَقْرَبَكُمْ مِنِّي غَدًا، وَأَوْجِبَكُمْ عَلَيَّ شَفَاعَةً، أَصْدَقَكُمْ لِسَانًا، وَأَدَاكُمْ لِلْأَمَانَةِ، وَأَحْسَنَكُمْ خَلْقًا، وَأَقْرَبَكُمْ مِنَ النَّاسِ»^(٥).

وأخذ ﷺ يربي أصحابه على هذه المفاهيم ليجعلها ثقافة وسلوكاً، فيصنع منهم أُمَّةً متحضرة تنأى بنفسها عن القبيح وتتسابق إلى فعل الخيرات.

كما ربّاهم وزرع في جوانحهم همَّ المسؤولية، مسؤولية الفرد تجاه نفسه وعياله ومجتمعه، حتى امتدحهم ربُّهم بقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٦، ص ٤٣٢.

(٢) أنظر: الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين: ج ٧، ص ٣٧٢.

(٣) أنظر: الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح: ج ١، ص ٢١٥.

(٤) أنظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج ٥، ص ١٣٠.

(٥) أنظر: الصدوق، محمد بن علي، الأُمالي: ص ٥٩٨.

بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ»^(١).

وهذا من أروع ما قام به رسول السماء، حيث أعاد هندسة ثقافة المجتمع، حتى غير فيهم السلوك، واستبدل الظواهر الاجتماعية، ففضى على السلبية منها ورسخ الإيجابية خلال مدة وجيزة وقياسية جداً.

استطاع أن يوحد القلوب والعقول والعواطف والمواقف، فكون دولة بلا تيجان ولا وزراء ولا شرطة لحفظ الأمن، بل دولة تتكون من نبي وأُمَّته، يدورون معه حيث يريد، حتى وصفهم عروة بن مسعود^(٢) ذلك الحكيم البليغ حين رآهم ثم عاد لقومه يحكي لهم عن غريب ما رأى: «أي قوم، والله قد وفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدًا، يقتتلون على وضوئه، ويتبادرون لأمره، ويخفضون أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر؛ تعظيماً له...»^(٣).

أحيا ضمائرهم ووجدانهم حتى أن أحدهم ليزنب الذنب في خلوته فيما بينه وبين ربه، فلمّا يلتفت إلى نفسه يسرع إلى نبيه الشفيق فيعترف له بما فعل في خلواته ليستغفر له الله.

وما نريد الخلوص إليه: أن النبي المصطفى ﷺ جاء إلى قومه فوجدهم أشتاتاً من حيث العقائد والتقاليد والأعراف والأهواء والسلوك والخلق، فجذبهم ووحدهم، وجعلهم يدورون في فلك ثقافة واحدة... إلّا ثلّة من المنافقين الذين أبت قلوبهم الانصهار في هذه الحركة الثقافية الربّانية، ولكنهم - رغم ذلك - لم يستطيعوا إظهار ما أخفوا، بل تظاهروا بالتأثر والانصهار.

(١) آل عمران: آية ١١٠.

(٢) جدّ ليلي زوجة الإمام الحسين عليه السلام، وأمّ علي الأكبر عليه السلام.

(٣) ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب: ج ١، ص ١٧٤.

وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على عظمة الحراك الثقافي الاجتماعي الذي يقوده نبيّ السماء، بحيث لم يترك هؤلاء مجال البوح بما أضمرُوا، بل تستروا خوفاً من التيار الذي أسّسه ﷺ وتظاهروا به لكي يصلوا إلى مآربهم.

المبحث الثالث

الحالة الثقافية بعد رحيل النبي ﷺ

هل استمرّ المشروع النبوي السماوي في إصلاح المجتمع وترسيخ ما جاء به رسول الله ﷺ من ثقافة؟

إنّ المتوقّع من الذين خلفوا رسول الله ﷺ وقعدوا مقعده أن يكملوا مشروعه الذي جاء من أجله، ولا يمكن أن يُقبل منهم أيّ مشروع آخر إن هم قصّروا فيما جاء به ومن أجله.

هذا ما نريد أن نسلّط عليه الأضواء في هذا المبحث، وقد تناولناه في بحثين:
البحث الأول: فترة ما بعد رحيل النبي ﷺ مباشرةً، ودور الحكّام الذين قعدوا مقعد رسول الله ﷺ بدلاً من أهل بيته الذين نصبهم ليخلفوه في مشروعه.

والبحث الثاني: تناولنا فيه خلافة أهل بيته ﷺ الذين أذهب الله عنهم الرجس، واختارهم خلفاء لرسوله، فكان البحث حول خلافة أمير المؤمنين وولده الإمام الحسن عليه السلام، وإنجازاتها في إكمال مشروع النبوة الإلهية، وإصلاحهما ما فسد من بعده.

البحث الأول: في زمن الخلفاء

من أكبر الصدمات التي مُنيت بها الأمة الإسلامية، وبدأ منها النخر في البناء الثقافي الذي أسسه النبي محمد ﷺ، هي المخالفة الصريحة والجريئة الأولى لأوامر النبي في تعيين الخليفة من بعده، حيث أكد النبي ﷺ على كون الخليفة من بعده هو الإمام علي بن أبي طالب ؑ، وأخذ له البيعة - في حادثة يوم الغدير - من كافة المسلمين الذين حضروا الحج معه، وكان تعدادهم مائة ألف مسلم من الرجال والنساء.

ثم يعترض البعض ويسأل النبي ﷺ: هل الأمر بمبايعة عليٍّ منك أم من الله؟ فيقول له رسول الله: بل من الله. فقال المنافق^(١): اللهم إن كان هذا منك فأنزل علينا حجارة من السماء، فنزلت عليه حجارة أصابته في أم رأسه وخرجت من دبره، فخر ميتاً^(٢).

وهذا نوع من التأكيد على خلافة أمير المؤمنين ؑ من قبل ابن عمه النبي المصطفى ﷺ، ولكن ما أن ارتحل عن هذه الدنيا حتى التفت عليه هذه الثلاثة، وأخذت منه الخلافة والإمرة عنوة.

وليس هذا بالحدث الهين الذي يمكن التغاضي عنه في معرفة خطوط الثقافة المجتمعية التي ظهرت بعد رحيل نبي الإسلام، بل هو من ركائز بناء الثقافة الجديدة التي آن لها أن تطفو.

(١) وهو جابر بن النضر بن الحارث بن كلدة العبدي، وقيل: الحارث بن النعمان الفهري. أنظر: الأميني، عبد الحسين، الغدير: ج ١، ص ٢٤٠.

(٢) القاضي المغربي، النعمان بن محمد، شرح الأخبار: ج ١، ص ٢٣١. الجويني، إبراهيم بن محمد، فرائد السمطين: ج ١، ص ٨٢.

ويمكن لنا - على عجالة - أن نسجل بعض مفردات الثقافة الجديدة:

أولاً: ثقافة العنف: وقد ظهرت هذه المفردة منذ اليوم الأول لرحيل النبي ﷺ،

وهذا ما يلاحظه المتصفح لتاريخ تلك الحقبة ببساطة في موارد متعددة، منها:

١. ما جرى في سقيفة بني ساعدة حين اختلف الأنصار والمهاجرون حول

ال خليفة بعد رسول الله ﷺ، فاشتد بينهما الخلاف والعراك حتى وطؤوا سعد بن عبادة شيخ الخزرج^(١).

٢. دخول المنافقين من بني أسلم مسلحين إلى المدينة؛ نصره لـ خلفائهم من

المهاجرين، وقد ملؤوا أزقة المدينة وشوارعها وهم شاهرون سيوفهم^(٢).

٣. أخذ البيعة عنوة من الصحابة، ومن بني هاشم بالخصوص بعد أن امتنعوا

منها^(٣).

٤. الهجوم بالخطب والنار والسلاح على بيت أمير المؤمنين عليٍّ وفاطمة بنت

رسول الله ﷺ، وهو أظهر بيت في الإسلام^(٤).

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٢، ص ٤٥٩. ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ٢٥.

(٢) جاء في تاريخ الطبري: «إنَّ أسلم أقبلت بجماعتها حتى تضايق بهم السكك، فبايعوا أبا بكر. فكان عمر يقول: ما هو إلا أن رأيتُ أسلم فأيقنتُ بالنصر». الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٢، ص ٤٥٩.

(٣) روى الشيخ المفيد رحمه الله عن أبي مخنف أنه: «كان جماعة من الأعراب قد دخلوا المدينة ليتباروا منها، فشغل الناس عنهم بموت رسول الله ﷺ، فشهدوا البيعة، وحضروا الأمر، فأنفذ إليهم عمر، واستدعاهم وقال لهم: خذوا بالخط من المعونة على بيعة خليفة رسول الله، واخرجوا إلى الناس، واحشروهم ليبيعوا، فمن امتنع فاضربوا رأسه وجبينه. قال: والله، لقد رأيتُ الأعراب تحزّموا، واتشعوا بالأزر الصنعانية، وأخذوا بأيديهم الخشب وخرجوا حتى خطبوا الناس خطباً، وجاؤوا بهم مكرهين إلى البيعة». المفيد، محمد بن محمد، الجمل: ص ٥٩.

(٤) أنظر: ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٩.

٥. ضرب السيّد فاطمة الزهراء عليها السلام، وكسر ضلعها، وإسقاط جنينها، حتى ماتت على أثر ذلك، وهي غاضبة عليهم^(١).

٦. قتل مالك بن نويرة والاعتداء على عفة زوجته؛ لامتناعه من تسليم الزكاة إلا لمن نصبه رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الغدير^(٢).

٧. قتل سعد بن عباد، فقد روى البلاذري وغيره أن سعداً لم يبايع أبا بكر، فخرج إلى الشام، فأرسل أبو بكر رجلاً فرماه بسهم فقتله^(٣).

(١) روى الجويني في فرائد السمطين: أن النبي صلى الله عليه وآله قال في خبر طويل، من جملته: «وأما ابنتي فاطمة فإنّها سيّدة نساء العالمين من الأولين والآخرين... وإنيّ لما رأيْتُها ذكرتُ ما يُصنع بها بعدي، كأنّي بها وقد دخل الدل بيتها، وانتهكت حرمتها، وغُصِبَ حقّها، ومُنِعَت إرثها، وكُسِرَ جنبها، وأسقطت جنينها، وهي تنادي: يا محمداه! فلا تُجاب، وتستغيث فلا تُغاث. فلا تزال بعدي محزونة مكروبة باكية... فتكون أوّل من يلحقني من أهل بيتي. فتُقدِّم عليّ محزونة مكروبة، مغمومة مغصوبة، مقتولة. يقول رسول الله صلى الله عليه وآله عند ذلك: اللهمّ العن من ظلمها، وعاقب من غصبها، وذلل من أذلها، وخلد في ناركَ من ضرب جنبها حتى ألقت ولدها، فتقول الملائكة عند ذلك: آمين». الجويني، إبراهيم بن محمد، فرائد السمطين: ج ٢، ص ٣٥.

وفي الملل والنحل للشهرستاني الشافعي: «إنّ عمر ضرب بطن فاطمة يوم البيعة حتى ألقت الجنين من بطنها. وكان يصيح: أحرقوا دارها بمن فيها، وما كان في الدار غير علي وفاطمة والحسن والحسين». الشهرستاني، أبو الفتح، الملل والنحل: ج ١، ص ٥٧.

كما ذكر مقاتل بن عطية المتوفى سنة ٥٠٥ هـ، في كتاب مؤتمر علماء بغداد: «إنّ أبا بكر بعد ما أخذ البيعة لنفسه من الناس بالإرهاب والسيوف والقوة، أرسل عمر وقنفذاً وجماعة إلى دار علي وفاطمة عليها السلام، وجمع عمر الخطب على دار فاطمة وأحرق باب الدار. ولما جاءت فاطمة خلف الباب لتردّ عمر وأصحابه، عصر عمر فاطمة خلف الباب حتى أسقطت جنينها، ونبت مسار الباب في صدرها، وسقطت مريضة حتى ماتت». ابن عطية، مقاتل، مؤتمر علماء بغداد: ص ١٨١. وأنظر أيضاً: الصفدي، خليل بن آيبك، الوافي بالوفيات: ج ٦، ص ١٥.

(٢) أنظر: ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج ١٦، ص ٢٧٤. ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٧٩. ج ١٧، ص ٢٠٢.

(٣) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ١، ص ٢٥٠. القاضي المغربي، النعمان بن محمد، شرح الأخبار: ج ٢، ص ٢٨.

٨. ضرب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، حتى تكسرت أضلاعه ^(١). وهكذا ضربوا عمار بن ياسر رضي الله عنه، حتى انفتق له فتق في بطنه ^(٢).
٩. إيذاء أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، وتهجير ه من بلد إلى بلد، حتى مات غريباً في الربذة ^(٣).

١٠. مواجهة الحاكم لكل من خالفه بالدرة ^(٤).

ثانياً: ثقافة عدم الانسجام بين الحاكم والشعب، وحالة التوتر بين أبناء الأمة، التي خلفها العنف اللا مبرر. كما نلاحظه بوضوح في الشواهد المتقدمة.

ثالثاً: منع كتابة أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأقواله وروايته، تحت ذرائع شتى ^(٥).

(١) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٥، ص ٥٢٥. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ١٧٠.

(٢) ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، الاستيعاب: ج ٣، ص ١١٣٦.

(٣) الطبري (الشيعي)، محمد بن جرير، المسترشد: ص ٢٢٢. الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، المستدرک على الصحيحين: ج ٣، ص ٥١.

(٤) أنظر: ابن حنبل، أحمد، مسند أحمد: ج ٤، ص ١١٥. الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن، سنن الدارمي: ج ١، ص ١٣٣. النيمري، عمر بن شيبه، تاريخ المدينة: ج ٢، ص ٧٥١. البكري، عبد الرحمن أحمد، من حياة الخليفة عمر بن الخطاب: ص ٣٥٨ - ٣٦١.

(٥) «عن الشعبي، عن قرظة بن كعب: أن عمر شيع الأنصار حين خرجوا من المدينة فقال: أتدرون لم شيعتكم؟ قلنا: لحق الأنصار. قال: إنكم تأتون قوماً تهتز ألسنتهم بالقرآن اهتزاز النخل، فلا تصدوهم بالحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنا شريككم. قال: فما حدثت بشيء، وقد سمعت كما سمع أصحابي.

أخبرنا يزيد بن هارون... عن الشعبي، عن قرظة بن كعب، قال: بعث عمر بن الخطاب رهطاً من الأنصار إلى الكوفة، فبعثني معهم، فجعل يمشي معنا حتى أتى صرار - وصرار ماء في طريق المدينة - فجعل ينفذ الغبار عن رجله، ثم قال: إنكم تأتون الكوفة، فتأتون قوماً لهم أزيز بالقرآن، فيأتونكم، فيقولون: قديم أصحاب محمد، قديم أصحاب محمد. فيأتونكم، فيسألونكم عن الحديث، فأقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنا شريككم فيه. قال قرظة: وإن كنت لأجلس في القوم فيذكرون الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإني لمن أحفظهم له، فإذا ذكرت وصية عمر سكت». الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن، سنن الدارمي: ج ١، ص ٨٥.

والظاهر أنّ إرهابيات هذا المنع كان من زمن حياة رسول الله ﷺ، كما يقول السيّد العسكري عليه السلام: «من أهمّ أصناف كتمان سُنّة الرسول ﷺ بمدرسة الخلفاء، نهى الخلفاء عن كتابة سُنّة الرسول ﷺ. وكان بدء النهي في عصر رسول الله، حيث نهت قریش عبد الله بن عمرو بن العاص عن كتابة حديث الرسول ﷺ، وقالوا له: تكتب كلّ ما سمعته من رسول الله ﷺ؟! ورسول الله بشر يتكلّم في الرضا والغضب. وقریش هنا هم المهاجرون من أصحاب رسول الله ﷺ، وهم الذين منعوا الرسول عن كتابة وصيته في آخر ساعة من حياته، ثمّ لمّا ولوا الحكم بعد رسول الله ﷺ نهوا عن كتابة حديث الرسول ﷺ. وبقي منع كتابة الحديث سارياً حتى عصر الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، حيث رفع الحظر وأمر بتدوين حديث الرسول»^(١).

رابعاً: ثقافة الحرب وفتح البلدان، بدلاً من الانشغال بتكملة المشروع الثقافي الذي جاء به النبي ﷺ^(٢).

خامساً: انعدام الثقة بالحاكم وولايته. وهذا الفرض أمر طبيعي يمكن معرفته من خلال ما تقدّم من الانقلاب المسلح على وصية رسول الله ﷺ وخليفته بالحق، وقتل كلّ من ينصره ويعترض على الخلافة الجديدة، ومنع رواية وكتابة حديث النبي ﷺ، وضرب وإيذاء من يخالف ذلك من الصحابة مهما كانت مكانته في الإسلام والمجتمع، ووضع الأحاديث بما ينفع مشروعاتهم وتثبيت حكمهم، وفتح المجال لمسلمة اليهود والنصارى للجلوس في مسجد النبي ﷺ وتحديث الناس بما شاؤوا^(٣).

(١) العسكري، مرتضى، معالم المدرستين: ج ١، ص ٢٥٥.

(٢) بدأت حروب الفتوحات في زمن أبي بكر ثمّ توسعت في زمن عمر بن الخطاب ومن بعده. أنظر: ابن قتيبة الدينوري، أحمد بن داود، الأخبار الطوال: ص ١١١.

(٣) أنظر: ابن خلدون، عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون: ج ١، ص ٤٣٩. أبو رية، محمود، أضواء على السُنّة المحمدية: ص ٢٢، وص ٩٩، وص ١٤٥. السبحاني، جعفر، الحديث النبوي بين الرواية والدراية: ص ٣٩.

فالأمّة بعد ما كانت تطمئنّ كامل الاطمئنان للحاكم في زمن رسول الله ﷺ؛
لما رأوا منه من عدل واستقامة، لم يجدوا ذلك في ظلّ الحكومة الجديدة، بل وجدوا
المحاباة والتفريق في إقامة الحدود والموازن الشرعية، وإعطاء المناصب بحسب
المحسوبيات والمصالح، لا بحسب مؤهلات الشخص وإيمانه^(١). فبات السائد
والتبادر في أذهان المسلمين هو سوء الظن بالحاكم ومن عينهم من ولاة.

ومن خلال ما تقدّم يتضح مدى التحوّل الثقافي الذي تعرّضت له الأمّة
الإسلامية، وابتعادها عن المفاهيم التي بذل رسول السماء قصارى جهده لترسيخها
في أذهان أتباعه وأمّته، وإصلاح ثقافتهم؛ ليجعل حياة الفرد المسلم نابضة بثقافة
الحضور بين يدي الله تعالى ذكره، ومراعاة مرضاته وإرادته وتشريعاته، فبعد ثلاث
وعشرين سنة من العمل الدؤوب الذي لا يعرف الملل والكلل لنبيّ الإسلام،
خصوصاً في السنوات العشر التي قضاها في المدينة وأسس دولته فيها، وما بذله من
جهد وسعي في إنجاز مشروعه الثقافي السماوي، وإذا بمن جاء بعده يدير بوجهه
عن جميع ذلك، وينشغل بغيره.

وقد يلوّح البعض بأنّ هذه الفترة برزت فيها إنجازات عظيمة ومهمّة من
حيث توسعة رقعة الدولة الإسلامية، بسبب ما يسمى بالفتوحات الإسلامية، فهو
حديث ذو شجون!!

لم يأت النبي ﷺ لتأسيس إمبراطورية - كما هو حال قادة الدنيا - لكي ينشغل
خلفاؤه بذلك، بل إنّ جاء لبناء الإنسان، وإصلاح ثقافته، وربطه بخالقه، وتحسينه
مقابل عدوّه اللدود المبين، إبليس وجنوده لعنهم الله.

وعليه، فلا بدّ أن يُكْمَل خليفته مسيرة هذا المشروع، ويوصله إلى غايته، بحيث

(١) القاسم، أسعد وحيد، أزمة الخلافة والإمامة وآثارها المعاصرة: ص ٩٨.

يأخذ بيد كل جيل ويغذيه بتلك الثقافة الإلهية التي جاء بها نبي السماء. وهذا ما لا يتسنى لكل أحد؛ ومن هنا اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون تعيين الخليفة بأمر من الله تعالى بحسب علمه بخصائص الخليفة القادر على إكمال المشروع الثقافي السماوي. إلا أن هناك طائفة لم تكن تدرك غير مصالحها، فجنّت على ثقافة الأمة التي غرس بذرتها رسول الله ﷺ، وعرضتها إلى الخواء والانحطاط إلى يومنا هذا.

ولقد كتب المحامي الأردني في كتابه (الخطط السياسية لتوحيد الأمة الإسلامية) تحليلاً رائعاً إلى حد بعيد، وبياناً لحالة قريش وخطتهم للاستيلاء على الحكم بعد النبي ﷺ، ومواجهة مشروع السماء في الخلافة والحكم، فعمدوا إلى إلغاء مشروعية وصية النبي ﷺ من خلال اتهامه بالهجر والهذيان - وحاشاه - ومنعوا من كتابة سُنّته ورواياته، وأحرقوا المكتوب منها، وتأويل آيات القرآن وصرفها عن أهلها الذين نزلت فيهم. كما قاموا بتأجيح الرأي العام ضدّ بني هاشم، وبالخصوص ضدّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وأنّ بني هاشم قتلوا أبطال العرب، وأنّ النبوة والخلافة لا يجتمعان في بيت واحد.

وحاربوهم اقتصادياً من خلال منعهم من حقّهم الذي فرضه القرآن لهم وهو الخمس، وانتزعوا هبات النبي ﷺ لهم كفدك، فلم يبقَ لهم شيء من المال؛ بحجة مزعومة من أنّ النبي ﷺ قال: إنّنا معاشر الأنبياء لا نورث. وأشاعوا بأنّ النبي ﷺ لم يوصِ بالخلافة من بعده لأحد، وغير ذلك^(١).

وهو إشارة واضحة إلى أنّ القوم عمدوا إلى تغيير ثقافة الأمة التي بناها رسول الله ﷺ طيلة ثلاث وعشرين سنة، واستبدلها بثقافة أخرى تخدم مصالحهم وتنسجم مع مشروعهم الجديد.

(١) راجع: يعقوب، أحمد حسين، الخطط السياسية لتوحيد الأمة الإسلامية: ص ٢٦٢، الفصل الرابع.

البحث الثاني : في حكومة أهل البيت عليهم السلام

دور أمير المؤمنين عليه السلام في إصلاح ثقافة الأمة

تسلّم أمير المؤمنين عليه السلام الخلافة بعد أن تغيّرت الثقافة التي جاءت بها السماء وابتعدوا عن مفاهيم رسول الله صلى الله عليه وآله وسيرته، وقد اقتربت سيرة الحكام من سير أهل الدنيا ومبتغيها، ممّا أثر على الرعية سلباً، فانتشرت فيهم كثير من المعاصي ورذائل الأخلاق وذمائمها.

وهذا ممّا يعقدّ المسألة أمام الحاكم المصلح الذي يرى أنّ قيمة نعل متهرّ أحبّ إليه من الإمرة والحكم، إلّا أن تكون وسيلة لإقامة الحقّ ودفع الباطل. جاء في نهج البلاغة أنّه عندما توجّه جيش أمير المؤمنين عليه السلام إلى البصرة، قال عبد الله بن عباس: «دخلتُ على أمير المؤمنين عليه السلام بذي قار، وهو يخصف نعله، فقال لي: ما قيمة هذا النعل؟ فقلتُ: لا قيمة لها. فقال عليه السلام: والله، هي أحبّ إليّ من إمرتكُم، إلّا أن أُقيم حقاً أو أدفع باطلاً»^(١). فهو لا يريد الخلافة لأغراض الدنيا، وإنّما يريد لها لإصلاح الأمة وشؤونها.

فاستعرض عليه السلام ملامح الثقافة المتفشية في الأمة، ووضع يده على المشكلة، ووضع الخطط لاستبدالها بالثقافة التي رضيها السماء للعباد، وجاء بها حييّه وابن عمّه رسول الله صلى الله عليه وآله، وبذل قصارى جهده لثبيت أركانها في نفوس الأمة. فشمّر عليه السلام عن ساعدي الجدّ والعزم، فرسم سياسة حكومته ليكون الهدف منها هو الإصلاح، بحيث يجعل الأمة تتذكر بصلاته صلاة رسول الله صلى الله عليه وآله، وبعده عدل رسول الله،

(١) نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي لخطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام (تحقيق محمد عبده): ج ١، ص ٨٠، خطبة ٣٣.

وبعطفه عطفَ رسول الله، وبمداراته للفقراء والمساكين مداراةَ رسول الله، وبكلِّ حركاته وسكناته وسلوكياته يتذكرون سيرة رسول الله ﷺ^(١). ولنقف على بعض تلك السياسات والإنجازات التي ظهرت في أيام حكمته.

الإصلاحات الإدارية

١. الولاة

أ) معاقبة الولاة الفاسدين

فقد عزل المنذر بن الجارود وسجنه؛ لاحتيازه مال الخراج حين كان والياً على فارس. كما سجن يزيد بن حجية؛ لأخذه خراج الري ودستبي^(٢). يقول اليعقوبي في تاريخه: «وعزل عليّ عمّال عثمان عن البلدان خلا أبي موسى الأشعري، كلّمه فيه الأشر، فأقرّه»^(٣) ثمّ عزله؛ لخيانته وتثبيطه الناس عن اللّحوق بجيش أمير المؤمنين عليه السلام^(٤).

(١) روى ابن ماجه في سننه والطحاوي في شرح المعاني عن أبي موسى، قال: «صلى بنا عليّ - يوم الجمل - صلاةً ذكرنا صلاة رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم. فإمّا أن نكون نسيناها، وإمّا أن نكون تركناها على عمد». ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه: ج ١، ص ٢٩٦. الطحاوي، أحمد بن محمد بن سلمة الأزدي، شرح معاني الآثار: ج ١، ص ٢٦٧. وفي مسند أحمد عن قتادة وغير واحد، عن مطرف بن عبد الله بن الشخير، قال: «صليتُ أنا وعمران بن حصين بالكوفة خلف علي بن أبي طالب، فكبر بنا هذا التكبير حين يركع، وحين يسجد، فكبره كلّه. فلمّا انصرفنا قال لي عمران: ما صليتُ منذ حين، أو قال: منذ كذا وكذا، أشبه بصلاة رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم من هذه الصلاة يعنى صلاة عليّ رضي الله تعالى عنه». ابن حنبل، أحمد، مسند أحمد: ج ٤، ص ٤٢٩.

(٢) الكوفي، إبراهيم بن محمد الثقفى، الغارات: ج ٢، ص ٥٢٢ - ٥٢٦.

(٣) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ١٧٩.

(٤) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٢، ص ٢٣١.

ومن جملة مَنْ عزلهم عليه السلام: معاوية بن أبي سفيان لعنه الله، ولكنه امتنع وقاد الحرب ضدَّ أمير المؤمنين عليه السلام بحجة المطالبة بدم عثمان.

قد يقال: لماذا أصرَّ أمير المؤمنين عليه السلام على تغيير معاوية بن أبي سفيان لعنه الله، مع أنَّه كان بإمكانه أن يبقى عليه إلى أن يستتبَّ له الوضع ثم يعزله، كما عزل غيره من الولاة؟

وفي مقام الجواب نقول: إنَّ قضية عزل معاوية لعنه الله لا يمكن قياسها بولاية غيره، أو يمكن التساهل فيها. إنَّ ولاية معاوية لم تكن كولاية غيره تهدف إلى المصلحة الشخصية والفردية، بل ولاية معاوية هي مشروع كبير يراد منه إقصاء الإسلام واستبدال الدولة الإسلامية بالإمبراطورية الأموية. كما أنَّ ولايته لا تستهدف الجانب الاقتصادي للأمة فحسب، بل تستهدف ثقافة الأمة ونبیِّها وجميع رجالها واستبدالهم برجال آخرين ليس لهم في الإسلام من سابقة.

مضافاً إلى أنَّ معاوية من الشخصيات التي لعنها رسول الله ﷺ، وأمر المسلمين بأن يبقروا بطنه إذا رأوه على منبره ﷺ، كما رُوي ذلك عن الإمام الحسين عليه السلام^(١).

وهناك شيء آخر، وهو: أنَّ أبرز أسباب الثورة على عثمان والخروج ضده والتي انتهت بمقتله هو إسراف معاوية وجبروته، وهذا ممَّا يدعو إلى عدم التساهل في أمر معاوية، يقول ابن أبي الحديد: «قد علمنا أنَّ أحد الأحداث التي نقتت على عثمان، وأفضت بالمسلمين إلى حصاره وقتله، تولية معاوية الشام، مع ما ظهر من جوره

(١) قال الإمام الحسين عليه السلام: «وقد سمعتُ جدِّي رسولَ الله يقول: الخلافةُ محرمةٌ على آل أبي سفيان الطلقاء وأبناء الطلقاء، فإذا رأيتُم معاويةَ على منبري فابقروا بطنه. ولقد رآه أهل المدينة على منبر رسول الله فلم يفعلوا ما أمروا به. فابتلاهم الله بانه يزيد». ابن أعثم، أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ١٧. وانظر أيضاً: البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٥، ص ١٢٨. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٨، ص ١٨٦. ابن عساکر، علي بن الحسن، تاريخ دمشق: ج ٥٩، ص ١٥٦. ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ١٥، ص ١٧٦.

وعدوانه، ومخالفة أحكام الدين في سلطانه. وقد خوطب عثمان في ذلك، فاعتذر بأن عمر ولّاه قبله، فلم يقبل المسلمون عذره، ولا قنعوا منه إلا بعزله، حتى أفضى الأمر إلى ما أفضى، وكان عليّ عليه السلام من أكثر المسلمين لذلك كراهية، وأعرفهم بما فيه من الفساد في الدين. فلو أنّه عليه السلام افتتح عقد الخلافة له بتوليته معاوية الشام، وإقراره فيه، أليس كان يبتدئ في أول أمره بما انتهى إليه عثمان في آخره، فأفضى إلى خلعه وقتله! ولو كان ذلك في حكم الشريعة سائغاً، والوزير فيه مأموناً، لكان غلطاً قبيحاً في السياسة، وسبباً قوياً للعصيان والمخالفة»^(١).

ب) مراقبة الولاة والعمال ومحاسبتهم

كما نلاحظ ذلك في قصة سودة بنت عمارة الهمدانية، وقوله لمالك الأشتر رضي الله عنه: «استعملهم اختباراً... ثم تفقّد عملهم، وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم»^(٢)، وكذا كتابه إلى زياد ابن أبيه^(٣)، ومعاتبته لعثمان بن حنيف^(٤).

٢. حفظ الأمن

فمن الإجراءات التي اتخذها عليه السلام لحفظ الأمن هي إجلاء المتأمرين على الحكومة، فقد جاء في (الغارات): «استخلف عليّ عليه السلام حين سار إلى النهروان رجلاً من النخع يقال له: هاني بن هوذة، فكتب إلى عليّ عليه السلام أن غنياً وباهلة فُتِنوا، فدعوا الله عليك أن يظفر بك عدوك، قال: فكتب إليه عليّ عليه السلام: أجلبهم من الكوفة، ولا تدع منهم أحداً»^(٥).

(١) ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ١٠، ص ٢٤٧.

(٢) نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي لخطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: كتاب ٥٣.

(٣) ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ١٦، ص ١٩٦.

(٤) المصدر السابق: ج ١٦، ص ٢٠٥.

(٥) الكوفي، إبراهيم بن محمد الثقفي، الغارات: ج ١، ص ١٩.

٣. العسكر

أ) تنظيم الجيش

كما نجد ذلك واضحاً في كتابه لزياد بن النضر وشريح بن هاني لما وجههما إلى حرب معاوية، حيث تجد في كتابه تصنيفاً للجيش بحسب ما تقتضيه مهمته القتالية، والحذر من تربص العدو، جاء فيه: «واعلم أن مقدمة القوم عيونهم، وعيون المقدمة طلائعهم. فإذا أنتما خرجتما من بلادكما فلا تسأما من توجيه الطلائع، ومن نفص الشعاب والشجر والخمر في كل جانب، كي لا يغتركما عدو، أو يكون لهم كمين. ولا تسيرن الكنائب والقبائل من لادن الصباح إلى المساء إلا على تعبئة، فإن دهمكم عدو أو غشيكم مكروه، كنتم قد تقدّمتم في التعبئة، فإذا نزلتم بعدو أو نزل بكم فليكن معسكركم في قبل الأشراف أو سفاح الجبال وأثناء الأنهار؛ كيما يكون ذلك لكم رداءً، وتكون مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين، واجعلوا رقباءكم في صياصي الجبال، وبأعالي الأشراف، ومناكب الأنهار يرون لكم؛ كي لا يأتيكم عدو من مكان مخافة أو أمن»^(١).

ب) تأسيس قوات خاصة تسمى شرطة الخميس

وهي قوة عسكرية ضاربة، قوامها ستة آلاف مقاتل من خلّص أصحابه، من جملتهم: عمّار بن ياسر، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وأصبع بن نباتة، وميثم التمار، ورشيد الهجري، وحبيب بن مظاهر الأسدي، ومحمد بن أبي بكر، وقنبر مولاة، وغيرهم من أصفياء أصحابه^(٢).

(١) ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ٣، ص ١٩٣.

(٢) الخميس: الجيش، وشرطة الخميس: جماعة من خلّص أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام. قال البرقي: هم ستة آلاف رجل، منهم الأصبع بن نباتة وعبد الله بن يحيى الحضرمي وأبوه. وعن الأصبع قال له

وعن أبي الجارود، قال: «قلت للأصبغ بن نباتة: ما كان منزلة هذا الرجل فيكم، يعني علياً عليه السلام؟ قال: ما أدري ما يقولون، إلا أن سيوفنا كانت على عواتقنا، فمَن أوماً إليه ضربناه»^(١).

ج) حرب الخدعة

«عن عدي [بن حاتم] - وكان مع أمير المؤمنين عليه السلام في حروبه - أن أمير المؤمنين عليه السلام قال في يوم التقى هو ومعاوية بصفين، ورفع بها صوته لسمع أصحابه: والله، لأقتلن معاوية وأصحابه. ثم يقول في آخر قوله: إن شاء الله - يخفض بها صوته - وكنت قريباً منه، فقلت: يا أمير المؤمنين، إنك حلفت على ما فعلت، ثم استثيت فما أردت بذلك؟ فقال لي: إن الحرب خدعة، وأنا عند المؤمنين غير كذوب، فأردت أن أحرّض أصحابي عليهم كي لا يفشلوا، وكي يطمعوا فيهم، فأفقههم ينتفع بها بعد اليوم إن شاء الله. واعلم أن الله جلّ ثناؤه قال لموسى عليه السلام حيث أرسله إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾، وقد علم أنه لا يتذكر ولا يخشى، ولكن ليكون ذلك أحرص لموسى عليه السلام على الذهاب»^(٢).

د) المسالمة من غير وهن

جاء في العهد الذي كتبه لملك الأشتر عليه السلام: «ولا تدفعنّ صلحاً دعاك إليه عدوك، والله فيه رضا؛ فإنّ في الصلح دعةً لجنودك، وراحةً من همومك، وأمناً لبلادك. ولكنّ الحذر كلّ الحذر من عدوك بعد صلحه؛ فإنّ العدو ربّما قارب ليتغفل، فخذ

رجل: كيف سُمّيت شرطة الخميس؟ قال: لأننا ضمّمنا له - أمير المؤمنين عليه السلام - الريح، وضمن لنا الفتح. وفي رواية: تشرّطوا فأنا أشارتكم على الجنة، ولستُ أشارتكم على ذهب ولا فضة. أنظر: المفيد، محمد بن محمد، الاختصاص: ص ٢. الأمين، محسن، أعيان الشيعة: ج ٧، ص ٣٣٥.

(١) ابن العديم، عمر بن أحمد، بغية الطلب في تاريخ حلب: ج ٤، ص ١٩٢٩.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٧، ص ٤٦٠.

بالحزم، واتّهم في ذلك حُسن الظن»^(١). كما ورد عنه عليه السلام أيضاً: «وجدتُ المسألة - ما لم يكن وهن في الإسلام - أنجع من القتال»^(٢).

الإصلاحات الاجتماعية

١. الاقتصادية

أ) استرداد الأموال المأخوذة من بيت المال بغير حق

وهذا من أوّل الأمور التي قام بها أمير المؤمنين عليه السلام في خلافته، فقد ورد أنّه عليه السلام خطبَ في اليوم الثاني من خلافته، فقال في جملتها: «ألا إنّ كلّ قطعة أقطعها عثمان، وكلّ مال أعطاه من مال الله، فهو مردود في بيت المال؛ فإنّ الحقّ القديم لا يطله شيء. ولو وجدته وقد تزوّج به النساء، وفُرق في البلدان، لردّته إلى حاله؛ فإنّ في العدل سعة، ومن ضاق عنه الحقّ فالجور عليه أضيق»^(٣).

وعن شرح الأخبار أنّه: «حضر الأشعث بن قيس، وكان عثمان استعمله على أذربيجان، فأصاب مائة ألف درهم، فبعض يقول: أقطعه عثمان إياها، وبعض يقول: أصابها الأشعث في عمله. فأمره عليّ صلوات الله عليه بإحضارها فدفعه، وقال: يا أمير المؤمنين، لم أصبها في عملك. قال: والله، لئن أنت لم تحضرها بيتَ مال المسلمين، لأضربنك بسيفي هذا أصاب منك ما أصاب. فأحضرها وأخذها منه وصيرها في بيت مال المسلمين. وتتبع عمّال عثمان، فأخذ منهم كلّ ما أصابه قائماً في أيديهم، وضمّتهم ما أتلّفوا»^(٤).

(١) ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ١٧، ص ١٠٦.

(٢) الليثي الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ: ص ٥٠٦.

(٣) ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ٢٦٩.

(٤) القاضي المغربي، النعمان، دعائم الإسلام: ج ١، ص ٣٩٦.

ب) مراقبة السوق

فقد عزل ابن هرمة عن سوق الأهواز؛ لبلوغه خيانة عنه، وأمر بحبسه ونادى عليه أمام الناس^(١)، وكان يعاقب يبايعي الجري وبعض الأسماك المحرمة^(٢). وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: «كان أمير المؤمنين عليه السلام بالكوفة عندكم، يغتدي كل يوم بكرة من القصر، فيطوف في أسواق الكوفة سوقاً سوقاً، ومعه الدرّة على عاتقه وكان لها طرفان - وكانت تسمّى السبيبة - فيقف على أهل كل سوق فينادي: يا معشر التجار، اتقوا الله عزّ وجلّ. فإذا سمعوا صوته عليه السلام ألقوا ما بأيديهم وأرعوا إليه بقلوبهم، وسمعوا بأذانهم، فيقول عليه السلام: قدّموا الاستخارة، وتبرّكوا بالسهولة، واقتربوا من المبتاعين، وتزيّنوا بالحلم، وتناهوا عن اليمين، وجانبوا الكذب، وتجاووا عن الظلم، وأنصفوا المظلومين، ولا تقربوا الربا، وأوفوا الكيل والميزان، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين. فيطوف عليه السلام في جميع أسواق الكوفة، ثم يرجع فيقعد للناس»^(٣).

ج) المسامحة في جباية الخراج

فقد ورد عن رجل من ثقيف، قال: «استعملني عليّ بن أبي طالب على مدرج سابور، فقال: لا تضرّبَنَّ رجلاً سوطاً في جباية درهم، ولا تتبعَنَّ لهم رزقاً ولا كسوة شتاءً ولا صيفاً، ولا دابة يعتملون عليها، ولا تقيمنَنَّ رجلاً قائماً في طلب درهم. قلت: يا أمير المؤمنين، إذن أرجع إليك كما ذهبتُ من عندك. قال: وإن رجعتَ، ويحك، إنّنا أمرنا أن نأخذ منهم العفو. يعني الفضل»^(٤).

(١) أنظر: المصدر السابق: ج ٢، ص ٥٣٢.

(٢) أنظر: الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٣٤٦.

(٣) المصدر السابق: ج ٥، ص ١٥١.

(٤) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، أسد الغابة: ج ٤، ص ٢٤.

(د) عدم تأخير الأموال عن العامة

روى الشيخ الطوسي عليه السلام في الأمالي عن هلال بن مسلم الجحدري، قال: «سمعتُ جدي جرة - أو جوة - قال: شهدتُ عليَّ بن أبي طالب عليه السلام أتي بهال عند المساء، فقال: اقسّموا هذا المال. فقالوا: قد أمسينا يا أمير المؤمنين فأخّره إلى غد. فقال لهم: تقبلون لي أن أعيش إلى غد؟ قالوا: ماذا بأيدينا؟ قال: فلا تؤخّروه حتى تقسّموه، فأُتي بشمع، فقسّموا ذلك المال من تحت ليلتهم»^(١).

(هـ) التوزيع بالسوية

فلا فرق بين عربي وأعجمي في عطاء أمير المؤمنين عليه السلام، ولا فرق بين وجيه وزعيم وعامة الرعية^(٢).

ففي (الكافي) عن أبي مخنف الأزدي قال: «أتى أمير المؤمنين صلوات الله عليه رهطٌ من الشيعة فقالوا: يا أمير المؤمنين، لو أخرجتَ هذه الأموال ففرقتها في هؤلاء الرؤساء والأشراف وفصلتهم علينا حتى إذا استوسقت الأمور عُدت إلى أفضل ما عودك الله من القسم بالسوية والعدل في الرعية؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أتأمروني ويحكم أن أطلب النصر بالظلم والجور فيمن وُلِّيت عليه من أهل الإسلام؟! لا والله، لا يكون ذلك ما سَمَرَ السمر^(٣)، وما رأيتُ في السماء نجماً. والله لو كانت أموالهم مالي لساويتُ بينهم، فكيف وإنّما هي أموالهم؟!»^(٤).

(١) الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ص ٤٠٤.

(٢) أنظر: الحر العاملي، وسائل الشيعة (الإسلامية): ج ١١، ص ٧٩ - ٨٠.

(٣) أي: ما اختلف الليل والنهار. الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين: ج ٣، ص ٣٣٧.

(٤) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٤، ص ٣١.

٢ - الثقافية

لم يكتفِ أمير المؤمنين عليه السلام بالمبادرة إلى الإصلاح بنفسه، بل جعل الإصلاح ثقافة تشق طريقها في وسط الأمة. وهذا يفسر لنا كثرة ما أثر عنه من خطب وكتب ووصايا وكلمات حفظتها الأمة، وأن الشريف الرضي رحمته الله جمع بعض ما حفظته الأمة، فكان أكثر من ٢٣٩ خطبة، و٧٩ كتاباً، عدا الكلمات القصار التي تزيد بدورها عن المائتين وخمسين كلمة.

وأخذت الأجيال ترددها، وتستشهد بها متى ما رأت لذلك سبيلاً؛ فإن هذا ليس اعتباطاً، بل هو برنامج اتخذته أمير المؤمنين عليه السلام لنشر ثقافة الوعي الديني، والسياسي، والحوار الحضاري، وكيفية التعامل مع حرية الديانات، والاختلافات الفكرية، ونشر العلم والحث عليه، وتربية المجتمع على القيم الأخلاقية، والمبادئ الإسلامية التي كادت أن تُنسى وتندرس. فأعادها ابن أبي طالب عليه السلام إلى حيزها الفكري من خلال التركيز على نشرها في حركاته وكلماته، في السلم والحرب، في تعامله مع ربه ورعيته وعدوه.

وبهذه الخطوات وغيرها استطاع أمير المؤمنين عليه السلام أن يعيد للأمة ثقافتها، وأن يربي ثلة ونخبة كبيرة وسط المجتمع تحفظ ثقافة السماء، ويمكن أن تحملها إلى أقاصي الدولة الإسلامية، وأن تدافع عنها في حال تعرضها للتغيير مرة أخرى. كما استطاع أن يقضي على كثير من مظاهر الفساد التي خلفتها الحكومات السابقة على حكومته، من قبيل: التمييز العنصري والطبقي، تفشي الفقر، استحواذ بعض الأفراد والعوائل على الأموال، في حين يقبع الكثير من أبناء الأمة وأشرافها تحت مظلة الفاقة.

الإمام الحسن عليه السلام يواصل الإصلاح الثقافي

يمكن أن نلخص ما قام به الإمام الحسن عليه السلام في مدة إمامته بمسألتين مهمتين:

الأولى: إخراج الحكم من قبضة بني أمية التي عملوا عليها مدة طويلة، وخططوا لها من زمن أبي سفيان، ومروراً بفترة خلافة عثمان بن عفان، حتى وصل الأمر إلى خلافة أمير المؤمنين عليه السلام ومواجهة معاوية له بشتى الطرق التي تحفظ حكومتهم، والتي سيأتي بحثها تفصيلاً تحت عنوان (نفوذ بني أمية إلى الحكم الإسلامي). فمن خلال الصلح أراد الإمام الحسن عليه السلام وبطريقة قانونية أن يجعل معاوية يحكم بنفسه على نهاية الحكم الأموي أمام المسلمين كافة بمجرد موته، وبذلك يعود الحكم إلى أهل البيت عليه السلام كما أراده النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

الثانية: إكمال المشروع الثقافي الذي قام به أمير المؤمنين عليه السلام، فقد استطاع الإمام الحسن عليه السلام أن يحفظ ما قام به أمير المؤمنين عليه السلام وتوسعته في المجتمعات التي لم يصلها نهج علي عليه السلام ومشروعه؛ بسبب قصر مدة حكومته عليه السلام، وكثرة الأزمات والحروب التي أثارها أعداؤه.

إنّ المشروع الثقافي والإصلاحي الذي قام به أمير المؤمنين عليه السلام انتشر في البلاد الواقعة تحت حكومته، لا سيّما الكوفة، بينما بقيت بلاد كثيرة لم ينلها المشروع بنوره، كالشام.

كما أنّ الأزمات السياسية والحروب التي انبثقت طيلة حكومته عليه السلام تقريباً لم تسمح للبعض أن يأخذ نصيبه من تلك الثقافة؛ لما تُسببه الحروب من قتلى وجرحى وخوف وحزن، وما يلازمها من تهويل إعلامي خصوصاً الإعلام المضاد.

وقد استمرت هذه الظروف بعد شهادة أمير المؤمنين عليه السلام، إلّا أنّ الإمام أبا محمد الحسن بن علي عليه السلام استطاع أن يتغلب على هذه العقبات من خلال استراتيجية الصلح، حيث استطاع أن يفتح بلاد الشام أمام أصحابه وحمله مشروعه، فقد أخذهم في بنود الصلح الأمان حيثما كانوا، ولا يحقّ لأحد التعرّض لهم.

كما إنّه وببركة الصلح حقق الأمان والهدوء السياسي.. فهو من جانبٍ اشترط على معاوية معاملة كافة المسلمين - أتباع عليّ عليه السلام وغيرهم - بمعاملة واحدة، من الحقوق والواجبات، فكلّ يأخذ حقّه من بيت مال المسلمين، وكلّ يمارس حياته بشكل طبيعي؛ ممّا مكّنه من التفرّغ هو وأصحابه لبناء تيار ثقافي يحمل فكر السوء الذي جاء به جدّه المصطفى عليه السلام، فاستطاع أن يُظهر سلوك وخلق رسول الله صلى الله عليه وآله حتى تكرّر سماع كلمة ﴿اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^(١) من أبناء الأمّة الإسلامية على اختلاف انتماءاتهم حين يحتكّون عملياً بالإمام الحسن عليه السلام.

ومن أجل إيضاح حركة الإمام الحسن عليه السلام ودوره في الإصلاح الثقافي نبّئها على شكل نقاط:

النقطة الأولى: تحصيل الأمان لأصحابه وشيعته، وقد تحقّق ذلك للإمام الحسن عليه السلام وشيعته طيلة أيام حياته بعد الصلح المبرم بينه وبين معاوية، والذي دام عشر سنوات، ولم يتعرّض خلالها معاوية وأعداؤه للإمام وشيعته بسوء، كما نبّه على ذلك بعض المحققين من خلال الأدلة الوافية التي أقامها لإثبات ذلك^(٢).

ومن الشواهد على ذلك: كثرة ذهاب شيعة أمير المؤمنين عليه السلام للشام وأخذهم حقوقهم من بيت المال، بل وأكثر منها، ومجادلتهم لمعاوية وعدم خضوعهم له، وتصريح معاوية بأنّه مجبور على مسايرتهم^(٣). وكذا قول معاوية لعائشة بنت عثمان بن عفان، حين لامته على عدم تعرّضه لشيعة الحسن، فقال لها: «يا بنت أخي، إنّ الناس أعطونا سلطاناً فأظهرنا لهم حلماً تحت غضب، وأظهروا لنا طاعةً تحتها حقد،

(١) الأنعام: آية ١٢٤.

(٢) راجع كتاب (الإمام الحسن عليه السلام في مواجهة الانشقاق الأموي) للسيد سامي البدري: ص ١١٥ وما بعدها.

(٣) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٥، ص ١٠٧.

فبعضناهم هذا وباعونا هذا. فإن أعطيناهم غير ما اشتروا شحوا على حقهم، ومع كل إنسان منهم شيعة، وهو يرى مكان شيعتهم. فإن نكثنا به نكثوا بنا، ثم لا ندرى أكون لنا الدائرة أم علينا؟ وأن تكوني ابنة عثمان أمير المؤمنين خيراً من أن تكوني أمة من إماء المسلمين. ونعم الخلف أنا لك بعد أبيك»^(١).

وقد ذكر في (تاريخ مدينة دمشق) مواجهات كلامية لشيعة أمير المؤمنين عليه السلام من النساء والرجال مع معاوية ينالون فيها من معاوية تلميحاً أو تصريحاً، ولم يكن من معاوية إلا الصبر عليها والمسايسة لهم^(٢).

فقد روى الزمخشري أن شريك بن الأعور دخل على معاوية وكان دميماً، فقال له [معاوية]: إنك لدميم، والجميل خير من الدميم، وإنك لشريك، وما لله شريك، وإن أباك لأعور، والصحيح خير من الأعور، فكيف سدت قومك؟ فقال: وإنك معاوية، وما معاوية إلا كلبة عوت فاستعوت الكلاب، وإنك لابن حرب، والسلام خير من الحرب، وإنك لابن صخر، والسهل خير من الصخر، وإنك لابن أمية، وما أمية إلا أمة صُغرت، فكيف صرت أمير المؤمنين؟ وخرج وهو يقول:

أيشتمني معاوية بن حرب	وسيفي صارم ومعي لساني
وحولي من ذوي يمن ليوث	ضراغمة تهش إلى الطعان
يعير بالدمامة من سفاه	وربات الخدور من الغواني
ذوات الحسن والريال جهم	شتيم وجهه ماضي الجنان

ومن أوضح ما يدل على المدعى ما رواه المزي في (تهذيب الكمال) من أن

(١) ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج ٥٩، ص ١٥٥. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية: ج ٨، ص ١٤١.

(٢) أنظر: ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج ٦٩، ص ٨٦، ص ١٦٥.

الأحنف بن قيس، وجارية بن قدامة، والحباب بن يزيد المجاشعي، وفدوا على معاوية، فقال لجارية: «يا جارية، أنت الساعي مع علي بن أبي طالب، والموقد النار في شعلك، تجوس قرى عربية تسفك دماءهم؟ قال جارية: يا معاوية، دع عنك علياً، فما أبغضنا علياً مذ أحبيناه، ولا غششناه مذ نصحناه. قال: ويحك يا جارية، ما كان أهونك على أهلك، إذ سمّوك جارية! قال: أنت يا معاوية كنت أهون على أهلك إذ سمّوك معاوية! قال: لا أمّ لك. قال: أمّ ما ولدتني. إنّ قوائم السيوف التي لقيناك بها بصفين في أيدينا. قال: إنّك لتهدّدي؟! »

قال: إنّك لم تملكنا قسرةً، ولم تفتحنا عنوةً، ولكن أعطيتنا عهداً وموathيق، فإن وفيت لنا، وفينا لك، وإن نزعْتَ إلى غير ذلك، فقد تركنا وراءنا رجالاً مداداً، وأذرعاً شداداً، وأسنةً حداداً، فإن بسطت إلينا فتراً من غدر، دلفنا إليك بباع من ختر. قال معاوية: لا كثر الله في الناس أمثالك. قال: قل معروفاً يا أمير المؤمنين، فقد بلونا قريشاً، فوجدناك أوراها زنداً، وأكثرها رفداً، فأرعنا رويداً؛ فإنّ شرّ الرعاء الحُطمةُ»^(١).

وكما في قصة الزرقاء بنت عدي، وسودة بنت عمارة بن الأسك الهمدانية، وعكرشة بنت الأطرش، وغيرها من المحاورات، حتى قال معاوية: «هيهات هيهات! لقد لمّظكم ابنُ أبي طالب الجرأة على السلطان، فبطيئاً ما تُفطمون بغيره. وقال أيضاً: لو فاءكم له بعد موته أعجب إليّ من حبّكم له في حياته». وقوله: «هيهات هيهات يا أهل العراق! لقد فقّهكم عليّ فلن تُطاقوا»^(٢).

ولذلك ذهب العلامة السيّد سامي البدر في كتابه (الإمام الحسن عليه السلام في مواجهة الانشقاق الأموي) إلى أنّ الإمام الحسن عليه السلام صالح عن قوة لا عن ضعف،

(١) المزي، يوسف، تهذيب الكمال: ج ٤، ص ٤٨٣.

(٢) ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج ٦٩، ص ١٦٧ و ٢٢٦ و ٢٩٢.

وليس كما يدّعي البعض أنّ معاوية بمجرد أن تسلّم زمام الأمور دخل الكوفة وقال: كلّ شرط شرطه للحسن بن علي فهو تحت قدمي، وأخذ يقتل الشيعة ويروّعهم، بل كان الشيعة في أمان ما دام الحسن عليه السلام حياً.

ومن هنا تجد أنّ الشيعة الذين قُتلوا بسيف معاوية كان قتلهم سنة ٥١ هـ أو بعدها، أي بعد شهادة الإمام الحسن عليه السلام، لا في زمن حياته.

وقصة سعيد بن أبي سرح خير دليل على ذلك، حين طلبه زياد ابن أبيه وهدم داره، فكتب الإمام الحسن عليه السلام بذلك لزياد، فلم يتمّ بكتاب الإمام، بل كتب للإمام كتاباً غير لائق. فما كان من الإمام عليه السلام إلا أن بعث بكتاب زياد إلى معاوية، فلمّا وصل كتاب الحسن إلى معاوية، قرأ معاوية الكتاب ضاقت به الشأم، وكتب إلى زياد: أما بعد، فإنّ الحسن بن علي بعث بكتابك إليّ جواب كتابه إليك في ابن سرح، فأكثرُ التعجب منك، وعلمتُ أنّ لك رأيين أحدهما: من أبي سفيان، والآخر من سمية. فأما الذي من أبي سفيان فحلّم وحزم، وأما رأيك من سمية فما يكون رأي مثلهما. ومن ذلك كتابك إلى الحسن تشتم أباه، وتعرض له بالفسق. ولعمري، لأنّك أولى بالفسق من الحسن، ولأبوك - إذ كنت تُنسب إلى عبيد - أولى بالفسق من أبيه، وإنّ الحسن بدأ بنفسه ارتفاعاً عليك، وإنّ ذلك لم يضعك.

وأما تركك تشفيعه فيما شفع فيه إليك، فحظّ دفعته عن نفسك إلى من هو أولى به منك. فإذا قدّم عليك كتابي فخلّ ما في يدك لسعيد بن سرح، وابن له داره، ولا تعرض له، واردد عليه ماله، فقد كتبتُ إلى الحسن أن يخبر صاحبه: إن شاء أقام عنده، وإن شاء رجع إلى بلده. ليس لك عليه سلطان بيد ولا لسان. وأما كتابك إلى الحسن باسمه، ولا تنسبه إلى أبيه؛ فإنّ الحسن - ويحك - من لا يُرمى به الرّجوان. أفإلى أمّه وكلته؟! لا أمّ لك، هي فاطمة بنتُ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وتلك

أفخر له، إن كنت تعقل^(١).

(١) وتام القصة كما نقلها ابن عساكر، هي: «كان سعيد بن سرح مولى حبيب بن عبد شمس، شيعة لعل بن أبي طالب، فلما قدم زياد الكوفة - والياً عليها - أخافه وطلبه زياد، فأتى الحسن بن علي، فوثب زياد على أخيه وولده وامرأته فحبسهم، وأخذ ماله وهدم داره، فكتب الحسن إلى زياد: من الحسن بن علي إلى زياد، أما بعد فإنك عمدت إلى رجل من المسلمين، له ما لهم، وعليه ما عليهم، فهدمت داره، وأخذت ماله وعياله، فحبستهم. فإذا أتاك كتابي هذا فابن له داره واردد عليه عياله وماله، فإنني قد أجرته فشغني فيه.

فكتب إليه زياد: من زياد بن أبي سفيان إلى الحسن بن فاطمة، أما بعد فقد أتاني كتابك تبدأ فيه بنفسك قبلي، وأنت طالب حاجة، وأنا سلطان وأنت سوقة، كتبت إلي في فاسق لا يؤويه إلا مثله. وشر من ذلك توليه أباك وإياك، وقد علمت أنك قد آويته إقامة منك على سوء الرأي، ورضا منك بذلك. وأيم الله، لا تسبقني به، ولو كان بين جلدك ولحمك، وإن نلت بعضك غير رفيق بك ولا مرع عليك؛ فإن أحب لحم إلي أكله للحم الذي أنت منه. فأسلمه بجريته إلى من هو أولى به منك، فإن عفوت عنه لم أكن شغعتك فيه، وإن قتلت لم أقتله إلا بحبه إياك.

فلما قرأ الحسن كتابك تبسم، وكتب إلى معاوية يذكر له حال ابن سرح، وكتابه إلى زياد فيه، وإجابة زياد إياه. ولف كتابه في كتابه، وبعث به إلى معاوية، وكتب الحسن إلى زياد: من الحسن بن فاطمة إلى زياد بن سمية، الولد للفراش وللعاهر الحجر.

فلما وصل كتاب الحسن إلى معاوية، وقرأ معاوية الكتاب ضاقت به الشام، وكتب إلى زياد: أما بعد، فإن الحسن بن علي بعث بكتابك إليّ جواب كتابه إليك في ابن سرح، فأكثرته التعجب منك، وعلمت أن لك رأيين أحدهما: من أبي سفيان، والآخر من سمية. فأما الذي من أبي سفيان فحلم وحزم، وأما رأيك من سمية فما يكون رأي مثليها. ومن ذلك كتابك إلى الحسن تشتم أباه، وتعرض له بالفسق. ولعمري لأنت أولى بالفسق من سمية. فإذ كنت تنسب إلى عبيد - أولى بالفسق من أبيه، وإن الحسن بدأ بنفسه ارتفاعاً عليك، وإن ذلك لم يضعك. وأما تركك تشفيعه فيما شفع فيه إليك فحظ دفعته عن نفسك إلى من هو أولى به منك. فإذا قدم عليك كتابي فخل ما في يدك لسعيد بن سرح، وابن له داره، ولا تعرض له، واردد عليه ماله، فقد كتبت إلى الحسن أن يخبر صاحبه: إن شاء أقام عنده، وإن شاء رجع إلى بلده. ليس لك عليه سلطان بيد ولا لسان. وأما كتابك إلى الحسن باسمه، ولا تنسبه إلى أبيه؛ فإن الحسن - وملك - من لا يرمي به الرجوان. أفلى أمه وكلته؟! لا أم لك، هي فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وتلك أفخر له، إن كنت تعقل». ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج ١٩، ص ١٩٨. أنظر أيضاً: البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٣، ص ٥٣.

النقطة الثانية: نشر علوم النبي ﷺ وأحاديثه وأحكامه، من خلال جلوسه في مسجد النبي ﷺ بشكل يومي، فلا يبقى في مسجد رسول الله ﷺ أحد له شرف إلا أتاه، فيحدثهم ويرشدهم، ويحيب على أسألتهم ويناقش شبهاتهم^(١).

النقطة الثالثة: المناظرات المستمرة مع معاوية وولاته وأعوانه، والتي تسلط الأضواء على أحقية أهل البيت عليهم السلام ومقاماتهم، وحقيقة أعدائهم وما فعلوه من جرائم وخناز، مما له دور كبير في معالجة الثقافة التي يبثها معاوية في وسط الأمة^(٢).

النقطة الرابعة: التربية العملية للأمة بسلوكه وسيرته، ودعم السلوك بالمواعظ والحكم؛ ليتبين للمجتمع أن ما يقوم به ليس مجرد سجية، بل هو نظام أخلاقي أمر به الإسلام جميع المسلمين، وله حكمته وآثاره الدنيوية والأخروية.

وإذا نظرنا إلى هذه النقاط الأربع، وأخذنا بنظر الاعتبار أنها صادرة من إمام معصوم هدفه هداية الأمة، نعلم بأن الإمام قام بذلك ضمن استراتيجية الهدف منها بناء ثقافة مجتمعة يراد له الهداية. وكانت خلاصة هذه الاستراتيجية التي رسمها وخطط لها الإمام الحسن بن علي عليه السلام هي:

١. تربية ثلة خاصة من أصحاب الاستعداد لحمل العلم الصحيح؛ ليقوموا بدورهم في وسط الأمة لمواجهة الانحراف والتزييف الذي قام به الخط المعاكس.
٢. نشر الثقافة الإسلامية النقية في مجال الفقه والحديث والتفسير والأخلاق والسلوك والسياسة، وبيان مقام أهل البيت عليهم السلام وأحقّيتهم ووجوب مودتهم.
٣. الرد على دعاوى وشبهات بني أمية، وإثبات ما يخالفها، وبيان مثالبهم

(١) أنظر: ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم، عيون الأخبار: ج ٣، ص ٢١. ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج ١٢، ص ٢٤١.

(٢) أنظر: الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج ١، ص ٤٠٢. عنه المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٧٠.

ومثالب أعوانهم، وأحقية أمير المؤمنين عليه السلام في حربه مع أهل الشام.

٤. السيرة العملية الحسنة التي تُظهر للأمة النموذج الحي والقُدوة الحسنة التي تُطبّق تعاليم السماء وأخلاق القرآن بين ظهراني الأمة.

وبعد انتشار ما أَرادَه الإمام الحسن عليه السلام من ثقافة وتمكّنها في النفوس، وكونها تشكّل حجر عثرة في طريق معاوية، قام لله في مخطّط خبيث للتخلّص من الإمام الحسن عليه السلام وكبار أصحابه الذين يحملون ثورته الثقافية، فقام بدس السم للإمام الحسن عليه السلام، ثم طارد كبار شيعته وقادتهم أمثال: حجر بن عدي وأصحابه، وعمرو بن الحمق وأشباهه، وقتلهم.

كما قام بتغيير ديمغرافي للمجتمع الشيعي في الكوفة والبصرة، حيث قام بتهجير خمسة وعشرين ألف عائلة من الكوفة، وخمسة وعشرين ألف عائلة من البصرة^(١). وهذا يعني أنّ معاوية بن أبي سفيان أخرج خمسين ألف عائلة^(٢) موالية

(١) أنظر: البلاذري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان: ج ٣، ص ٥٠٧. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ١٧٠. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: ج ٥، ص ٢٤٣.

وذكروا أنّ من جملة من هجرهم معاوية إلى خراسان: بريدة الأسلمي وأبو برزة الأسلمي، وهما من خواص أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام. أنظر: المنقري، نصر بن مزاحم، وقعة صفين: ص ٥٠٧. ابن خلدون، عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون: ج ٣، ص ١٤. القمي، عباس، الكنى والألقاب: ج ٣، ص ١٧٤. الخوئي، أبو القاسم، معجم رجال الحديث: ج ٤، ص ٢٠٣. ج ١٤، ص ١٥٣. ج ٢٠، ص ١٧٦. النازي، علي الشاهرودي، مستدركات علم رجال الحديث: ج ٨، ص ٣٢٩، ٧٨.

(٢) ذكر المؤرخون أنّ معاوية لعنه الله أخرج خمسين ألف رجل من الشيعة مع عوائلهم، ولا يحدّثنا التاريخ عن عدد أفراد كلّ عائلة. فلو قلنا: إنّ كلّ عائلة تتكون من خمسة نفرات، لكان عدد المهجّرين من شيعة العراق يساوي مائتين وخمسين ألف، أي ربع مليون نسمة. وهذا أقلّ تقدير يمكن تصوّره في عدد المهجّرين؛ إذ كان العرب في ذلك الزمان كثيري الأولاد، ولا يُعقل أن تكون جميع الأسر المهجّرة متكوّنة من أبوين وثلاثة أولاد فقط.

لأمير المؤمنين عليه السلام وولده الحسن عليه السلام من العراق، وجاء بمثل هذا العدد ممن يدينون له بالولاء وأسكنهم في ديار الشيعة^(١).

كما قام بتهجير بعض الشخصيات من الكوفة، مثل: صعصعة بن صوحان عليه السلام، حيث نفاه إلى الجزيرة أو البحرين^(٢). ونفى آمنة بنت الشريد زوجة عمرو بن الحمق الخزاعي عليه السلام إلى حمص، بعد أن كانت محبوسة في دمشق، فماتت في حمص بالطاعون، أو بالسم^(٣).

مما أثر كثيراً على طبيعة الولاء في الكوفة، كما جاء بولاة ظلمة أمثال زياد ابن أبيه وسلطه على الكوفة، فأعملَ فيمن بقي منهم السيف، كما سنشير له فيما يأتي من بحوث.

(١) أنظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٢، ص ٥٠٠.

(٢) أنظر: الكوفي، إبراهيم بن محمد الثقفي، الغارات: ج ٢، ص ٨٩٣. ابن حجر، أحمد بن علي، الإصابة: ج ٣، ص ٣٧٣.

(٣) أنظر: ابن طيفور، أحمد بن أبي طاهر، بلاغات النساء: ص ٥٩. ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج ٦٩، ص ٤٠. الكوراني، علي، جواهر التاريخ: ج ٢، ص ٤٠٥.

المبحث الرابع

نفوذ بني أمية إلى الحكم الإسلامي

وليس من نافلة القول أن نبحت عن كيفية وصول بني أمية إلى الخلافة، وأصبحت لهم دون غيرهم، وما هو السرّ في ذلك؛ فإنّه ممّا لا شكّ فيه أنّ ذلك لم يكن صدفةً واعتباطاً، خصوصاً وأنّا نعلم أنّ مريدي السلطة والخلافة كثيرون، فلا بدّ من التعرّف على مجريات الأمور لنصل إلى الأسباب والحيل التي مكّنتهم من ذلك. ولعلّ هذا يعود إلى عام الفتح، وبدايات دخولهم الإسلام؛ لأنّ النبيّ ﷺ لمّا بُعث وذاع صيته في مكة وانتشر خبره في أطرافها وبعض من يتردّد عليها، تآزرت عليه قريش بزعامة أبي سفيان لمواجهته، فحاولوا - في بداية أمر الدعوة - استمالته عدة مرات وبأساليب مختلفة.

فلمّا باءت محاولاتهم بالفشل قاموا بمواجهة النبيّ ﷺ بسلاح آخر، وهو سلاح المقاطعة المادّية والتجويع، فحاصروا قبيلة النبيّ ﷺ - بنو هاشم - ومن آمن به، في شعب أبي طالب، وامتدّ أمد الحصار ثلاث سنوات. ولم تفلح قريش بشي النبيّ ﷺ هذه المرة أيضاً، فشرعوا بتعذيب أصحابه ومطاردتهم وقتلهم، حيث قتلوا ياسراً وسمية أبوي عمار بن ياسر رضي الله عنهما.

وبعد وفاة أبي طالب عليه السلام اضطرّ النبيّ ﷺ إلى ترك مكة والتوجه نحو يثرب، فبدأ عليه السلام بتأسيس أركان دولته الثقافية، وقريش مستمرة بالضغط عليه من خلال مصادرة أمواله وأموال أصحابه، ثمّ شنّوا عليه الحروب الواحدة تلو الأخرى التي قُتِل فيها الخيرة من أصحابه وأنصاره.

ولكن شاءت قدرة الله تعالى أن ينتصر رسول الله ﷺ على أعدائه ويدخل مكة فاتحاً بعد ثمان سنين فقط من هجرته وخروجه منها.

حاول البعض أن يواجه جيش الإسلام، كيزيد بن أبي سفيان^(١)، فأخذ أسيراً، وأمسك بمن بقي في مكة ومنهم أبو سفيان، ثم قال لهم ﷺ: اذهبوا فأنتم الطلقاء. ثم جعلهم جنوداً في جيشه يضرب بهم من يخرج على سلطانه، وهذا مما لا شك في كونه قاسياً على قلوب زعماء قريش ووجهائها أن تعيش في ظل حكومة عدوها موسومين بلقب الطلقاء أين ما ذهبوا، ويقاتلوا تحت رايته.

وبذلك فقدت قريش القدرة على مواجهة النبي ﷺ عسكرياً، فبدؤوا بمرحلة جديدة لإفشال مشروعه الإلهي. وهذا الأمر يحتم عليهم الاقتراب من مركز القرار. ولعل هذا يفسر لنا السر في مهاجرة بعض رؤوس الشرك كبنو أمية إلى المدينة تاركين مسقط رأسهم ومركز عزهم مكة.

إن طموح زعماء قريش - ومنهم بنو أمية - هو السلطة والرئاسة، ولا يمكن أن تتغير نفوسهم بين ليلة وضحاها، فهم لم يدخلوا الإسلام إلا عام الفتح، أي في أواخر السنة الثامنة للهجرة، لما سقط ما في أيديهم وخسروا ما كانوا يطمحون له.

ولكنهم وبعد فترة قليلة قرروا الاستفادة من نفس الحكومة والسلطة التي كانوا يجاربونها فهزمتهم، فقرروا الاقتراب من مركز القرار والسلطة. ومن هنا بدأت هجرتهم نحو المدينة والتقرب من رسول الله ﷺ عسى أن يوليهم بعض بلاد العرب أو ينالوا الملك بعده بحسب ظنهم.

ولكن خاب ظنهم هذه المرة أيضاً؛ لأنه ﷺ لم يولهم شيئاً إلا عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية الأموي، حيث جعله ﷺ والياً على مكة بعدما فتحها وكان

(١) أنظر: ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ١٧، ص ٢٥٦. مغنية، محمد جواد، في ظلال نهج البلاغة: ج ٤، ص ١٦١.

عمره ٢٠ سنة تقريباً^(١)؛ لإسكاتهم من جهة، ومن جهة أخرى لم يولّ مشايخهم وزعماءهم لكي يرغمهم بذلك. كما أنّ المُلْك - بحسب اعتقادهم - الذي طمعوا به، لا يصير لهم بعده عليه السلام، بعد أن أعلن مراراً للمسلمين بأنّ الخليفة من بعده هو علي بن أبي طالب وأولاده عليهم السلام، وأنّ الخلافة من بعده ستكون في بني هاشم، بل قال بأنّ الخلافة محرّمة على آل أبي سفيان، ولعنَ أبا سفيان وولديه يزيد ومعاوية^(٢). إلّا أنّهم لم ييأسوا ولم ينقطع أملهم في السيطرة على مقادير الأمور، فأخذوا يتحينون الفرص للانقضاض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحكومته، ويمكن تقسيم ذلك إلى عدة أدوار:

الأول: تضعيف الحالة المعنوية لجيش المسلمين

في معركة هوازن، والتي وقعت بعد فتح مكة مباشرةً، كان القرشيون - الذين أسلموا بعد فتح مكة - في أول الجيش، فما أن بادرتهم هوازن بالهجوم على المسلمين حتى فرّوا أمامها وانهزموا، وقال أبو سفيان بن حرب: «لا تنتهي هزيمتهم دون البحور، وإنّ الأزلام^(٣) لمعه في كنانته»^(٤).

وروى السيوطي أنّ أبا سفيان رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يمشي والناس يطؤون عقبة، فقال بينه وبين نفسه: «لو عاودتُ هذا الرجل القتال! فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى ضرب بيده في صدره، فقال: إذا يخزيك الله»^(٥).

(١) أنظر: ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، الاستيعاب: ج ٣، ص ١٠٢٣.

(٢) قال ابن أبي الحديد: «ومّا ورد من ذلك في السُنّة، ورواه ثقات الأُمّة، قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه، وقد رآه مقبلاً على حمار، ومعاوية يقوده ويزيد يسوقه: لعن الله الراكب والقائد والسائق». ابن

أبي الحديد المعتزلي، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ١٥، ص ١٧٥.

(٣) الأزلام: الأصنام. وهذا يدلّ على أنّ أبا سفيان لا زال يعبد الأصنام.

(٤) الذهبي، محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام: ج ٢، ص ٥٧٦.

(٥) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب (الخصائص الكبرى): ج ١، ص ٢٦٦. أنظر أيضاً: ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، الإصابة: ج ٣، ص ٣٣٣.

الثاني: بث الدعاية ضد النبي ﷺ في المدينة

حتى ضجَّ الأنصار منهم ومن أراجيفهم، وشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، وقالوا: «إنا نسمع من قومك، حتى يقول القائل: إنَّما مثل محمد كمثل نخلة نبتت في كبا^(١)، فقال رسول الله ﷺ: أيُّها الناس، مَنْ أنا؟ فقالوا: أنت رسول الله، فقال: أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب. قال: فما سمعناه انتمى قبلها قط. قال: ثم قال: إنَّ الله تعالى خلق خلقه فجعلني في خير خلقه، ففرَّقهم فريقين فجعلني في خير الفريقين، ثمَّ جعلهم قبائل فجعلني من خيرهم قبيلة، ثمَّ فرَّقهم بيوتاً فجعلني من خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً^(٢).

الثالث: محاولة اغتيال النبي ﷺ وقتله في مواطن متعددة:

الموطن الأوَّل: القرشيون في معركة هوازن

حاول طلقاء مكة وأنصارهم قتل النبي ﷺ لما أخرجهم معه في معركة هوازن. قال ابن كثير: «كان النضير بن الحارث بن كلدة من أجمل الناس، فكان يقول: الحمد لله الذي منَّ علينا بالإسلام، ومنَّ علينا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولم نمت على ما مات عليه الآباء، وقُتِل عليه الأخوة، وبنو العم. ثمَّ ذكر عداوته للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأنَّه خرج مع قومه من قريش إلى حنين وهم على دينهم بعد، قال: ونحن نريد إن كانت دائرة على محمد أن نغير عليه فلم يمكننا ذلك»^(٣).

(١) الكبا: جمعها أكباء، الكناسة (المزبلة). أنظر: الفراهيدي، أحمد، العين: ج ٥، ص ٤١٦. ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة: ج ٥، ص ١٥٦. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج ١٥، ص ٢١٤.

(٢) السمعاني، عبد الكريم بن محمد التميمي، الأنساب: ج ١، ص ٢٦. الكوراني، علي، جواهر التاريخ: ج ٣، ص ٦٥.

(٣) ابن كثير، إسحاق بن عمر، البداية والنهاية: ج ٤، ص ٤١٩.

وفي (تاريخ الإسلام) للذهبي: «قال شيبه بن عثمان بن أبي طلحة أخو بني عبد الدار: قلت: اليوم أدركُ ثأري من محمد، وكان أبوه قُتل يوم أحد، اليوم أقتلُ محمداً! قال: فأدرتُ برسول الله لأقتله فأقبلَ شيء حتى تغشى فؤادي فلم أطق ذاك، وعلمتُ أنه ممنوع مني»^(١).

الموطن الثاني: حادثة ليلة العقبة

ذكر المؤرخون أن المنافقين أرادوا قتله ﷺ بعد رجوعه من معركة تبوك في ليلة العقبة، في حادثة دحرجة الدباب^(٢).

الموطن الثالث: حادثة عقبة هرشي

أراد المنافقون قتل النبي ﷺ بحادثة تشبه حادثة ليلة العقبة، وهي حادثة عقبة هرشي - بين الجحفة والأبواء - بعد عودته ﷺ من حجة الوداع، بعدما أخذ البيعة لأخيه علي بن أبي طالب عليه السلام في غدير خم^(٣).

الرابع: إصاق التهم به^(٤)

في عرضه ﷺ: كما في قضية نفي ولده إبراهيم عليه السلام عنه. فقد رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «إنَّ العرب كرهت أمرَ محمدٍ ﷺ، وحسدته على ما آتاه الله من فضله، واستطالت أيامه، حتى قذفت زوجته، ونفرت به ناقته، مع عظيم إحسانه

(١) الذهبي، محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام: ج ٢، ص ٥٧٧.

(٢) أنظر: الخصبي، الحسين بن حمدان، الهداية الكبرى: ص ٧٧ - ٨٢. قطب الدين الراوندي، سعيد بن عبد الله بن الحسين، الخرائج والجرائح: ج ١، ص ٤٨٣.

(٣) القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي: ج ١، ص ١٧٤. الديلمي، الحسن بن محمد، إرشاد القلوب: ج ٢، ص ٣٣٠. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٢٨، ص ٩٧. ج ٣١، ص ٦٣٢.

(٤) أنظر: الكوراني، علي، جواهر التاريخ (السيرة النبوية): ج ٣، ص ٦٨.

إليها، وجسيم مننه عندها، وأجمعت مذ كان حياً على صرف الأمر عن أهل بيته بعد موته»^(١).

في سلوكه ﷺ: حيث اهتموه بأنه يريد الخلافة - المُلْك بحسب فهمهم - لعشيرته وابن عمّه وصهره بالتحديد^(٢). وهذا تشكيك في نبوته؛ لأنّه إنّما يبلغهم عن الله تعالى، ولا دخل للعواطف والرغبات الدنيوية في قراره هذا، بل في كلّ قراراته؛ لعصمته ﷺ.

(١) والرواية بأكملها كما في شرح نهج البلاغة: «قال له قائل: يا أمير المؤمنين، أرايت لو كان رسول الله ﷺ ترك ولداً ذكراً قد بلغ الحلم، وأنس منه الرشد، أكانت العرب تسلّم إليه أمرها؟ قال ﷺ: لا، بل كانت تقتله إن لم يفعل ما فعلت. إنّ العرب كرهت أمر محمد ﷺ، وحسدته على ما آتاه الله من فضله، واستطالت أيامه، حتى قذفت زوجته، ونفرت به ناقته، مع عظيم إحسانه إليها، وجسيم مننه عندها، وأجمعت مذ كان حياً على صرف الأمر عن أهل بيته بعد موته. ولولا أنّ قريشاً جعلت اسمه ذريعة إلى الرياسة، وسلماً إلى العزّ والإمرة، لما عبدت الله بعد موته يوماً واحداً، ولا رتدت في حافرتها، وعاد قارحها جذعاً، وبازلها بكراً، ثم فتح الله عليها الفتح، فأثرت بعد الفاقة، وتموّلت بعد الجهد والمخمصة، فحسُن في عيونها من الإسلام ما كان سمجاً، وثبت في قلوب كثير منها من الدين ما كان مضطرباً، وقالت: لولا أنّه حق لما كان كذا، ثم نسبت تلك الفتح إلى آراء ولائها، وحسُن تدبير الأمراء القائمين بها، فتأكّد عند الناس نباهة قوم وخول آخرين، فكنا نحن ممّن حمل ذكره، وخبث ناره، وانقطع صوته وصيته، حتى أكل الدهر علينا وشرب، ومضت السنون والأحقاب بما فيها، ومات كثير ممّن يعرف، ونشأ كثير ممّن لا يعرف. وما عسى أن يكون الولد لو كان! إنّ رسول الله ﷺ لم يقربني - بما تعلمونه من القرب - للنسب واللحمة، بل للجهاد والنصيحة. أفترأه لو كان له ولد هل كان يفعل ما فعلت! وكذلك لم يكن يقرب ما قربت، ثم لم يكن عند قريش والعرب سبباً للحظوة والمنزلة، بل للحرمان والجفوة. اللهم إنّك تعلم أنّي لم أرد الإمرة، ولا علو الملك والرياسة، وإنّما أردت القيام بحدودك، والأداء لشرعك، ووضع الأمور في مواضعها، وتوفير الحقوق على أهلها، والمضي على منهاج نبيّك، وإرشاد الضالّ إلى أنوار هدايتك». ابن أبي الحديد المعتزلي، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ٢٠، ص ٢٩٩.

(٢) أنظر: الأميني، عبد الحسين، الغدير: ج ١، ص ٢٣٩.

في قوله ﷺ: فإنهم اهتموه ﷺ وهو في مرضه الذي مات فيه، عندما أراد أن يوصي لهم، فأمرهم بأن يأتوا بدواة وقرطاس، ولكنهم حرموا الأمة من هذه الوصية، وقالوا: إنه يهجر^(١).

الخامس: إيذاء أهله في حياته

جاء العباس بن عبد المطلب عليه السلام يوماً مغضباً، فسأله النبي ﷺ عن سبب ذلك. فقال: يا رسول الله، ما لنا ولقريش! إذا تلاقوا، تلاقوا بوجوه مستبشرة، وإذا لقونا لقونا بغير ذلك؟ فغضب النبي ﷺ، ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم الله ولرسوله»^(٢).

ولم يكن هذا خاصاً ببني أمية؛ فليسوا هم الوحيدون في الساحة القرشية، بل هناك من يسبقهم وينافسهم في الأمر، خصوصاً وأن قريشاً أمرت سهيل بن عمرو العامري القرشي^(٣) عليها بعد فتح مكة واتهامهم لأبي سفيان بالخيانة. فتحالف زعماء قريش مع بعض المهاجرين من الصحابة على تنحية الأمر عن بني هاشم^(٤). فقد ورد عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: «كُنْتُ دَخَلْتُ مَعَ أَبِي الْكُعْبَةِ فَصَلَّى عَلَى الرَّخَامَةِ الْحُمْرَاءِ بَيْنَ الْعُمُودَيْنِ فَقَالَ: فِي هَذَا الْمَوْضِعِ تَعَاقَدَ الْقَوْمُ إِنْ مَاتَ رَسُولُ

(١) أنظر: ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى: ج ٢، ص ٢٤٢. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ج ٨، ص ١٠١.

(٢) أنظر: الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي: ج ٥، ص ٣١٨. الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ص ٤٨.

(٣) سهيل بن عمرو من أئمة الكفر الذين قصدتهم الآية: ﴿فَقَاتِلُوا آلَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ التوبة: آية ١٢. وهم: أبو سفيان، وأمّية بن خلف، وعتبة بن ربيعة (أبو هند أم معاوية)، وأبو جهل، وسهيل بن عمرو.

(٤) الكوراني، علي، جواهر التاريخ (السيرة النبوية): ج ٣، ص ٢٣٩. الكوراني، علي، صراع قريش مع النبي ﷺ: ص ٨١.

الله ﷺ أَوْ قُتِلَ إِلَّا يَرُدُّوا هَذَا الْأَمْرَ فِي أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ أَبَدًا. قَالَ: قُلْتُ: وَمَنْ كَانَ؟ قَالَ: كَانَ الْأَوَّلُ، والثَّانِي، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجُرَّاحِ، وَسَلَامُ بْنُ الْحَبِيبَةِ^(١).

بنو أمية بعد رحيل النبي ﷺ

لَمَّا رَحَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الرِّفِيقِ الْأَعْلَى كَانَ أَبُو سَفْيَانَ فِي سَفَرٍ خَارِجِ الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ قَامَتْ قِيَامَتُهُ؛ حَيْثُ رَأَى أَنَّ أُمُورَ الْعَرَبِ وَزَعَامَتَهُمْ صَارَتْ إِلَى أَوْعَفٍ حَيِّينَ فِي قُرَيْشٍ.. تَيْمٌ وَعَدِي؛ إِذْ إِنَّ السُّلْطَةَ أَصْبَحَتْ فِي يَدِ أَبِي بَكْرٍ التَّيْمِيِّ وَعُمَرَ الْعَدَوِيِّ. فَأَخَذَ يَنَادِي فِي الْمَدِينَةِ:

«وَاللَّهِ، إِنِّي لَأَرَى عِجَاجَةً لَا يَطْفِئُهَا إِلَّا الدَّمُ. يَا آلَ عَبْدِ مَنَافٍ، فِيمَ أَبُو بَكْرٍ مِنْ أُمُورِكُمْ؟! مَا بَالُ هَذَا الْأَمْرِ فِي أَقَلِّ حَيٍّ مِنْ قُرَيْشٍ؟! ثُمَّ قَالَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَبْسِطْ يَدَكَ أَبَايَعُكَ، فَوَاللَّهِ لئن شِئْتُ لَأَمْلَأَنَّهَا عَلَيْهِ خِيلاً وَرَجَلاً^(٢).

فَأَخَذَ يَحْرُضُ بَعْضَ شَخْصِيَّاتِ بَنِي هَاشِمٍ عَلَى الْقِيَامِ بِالْأَمْرِ كَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلِبِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَهَرَاه. وَقَدْ قَالَ يَوْمًا:

وَأُضْحَتْ قُرَيْشٌ بَعْدَ عَزٍّ وَمَنْعَةٍ خَضُوعًا لَتَيْمٍ لَا بَضْرِبَ الْقَوَاضِبِ
فِيَا لَهْفٍ نَفْسِي لِلَّذِي ظَفَرَتْ بِهِ وَمَا زَالَ فِيهَا فَائِزًا بِالرَّغَائِبِ^(٣)
وَأَخَذَ يَطُوفُ فِي أَرْقَةِ الْمَدِينَةِ قَائِلًا:

بَنِي هَاشِمٍ لَا تَطْمَعُوا النَّاسَ فِيكُمْ وَلَا سِيَمَا تَيْمٍ بِنِ مَرَّةٍ أَوْ عَدِي
فَمَا الْأَمْرُ إِلَّا فَيْكُمْ وَإِلَيْكُمْ وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا أَبُو حَسَنِ عَلِيٍّ^(٤)

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٢٦٦.

(٢) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٣٢٦.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين، الأغاني: ج ٦، ص ٥٢٩. القمّي، عباس، بيت الأحزان: ص ٦٩.

(٤) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ١، ص ١٩٠.

وهذه الحادثة تستحق الوقوف عندها والتأمل فيها؛ لمعرفة مجريات الأمور في الساحة الإسلامية والتي غيرت مجرى التاريخ الإسلامي.

للوهلة الأولى قد يقال بأن مجيء أبي سفيان ومعارضته لأبي بكر وعمر وأعوانها يشكل فرصة مهمة لبني هاشم، ولأمير المؤمنين عليه السلام لاسترداد حقه من الغاصبين، فلماذا ضيع فرصة كهذه، في حين هو يبحث عن ناصر يُعينه على أخذ حقه؟!

إلا أن من يعرف شخصية أبي سفيان البرغماتية لا يمكنه أن يطمئن لها أو يلوم أمير المؤمنين عليه السلام وسائر بني هاشم على نهرهم له؛ لأنّ أبا سفيان لا يمكن أن يبحث عن الحق لينصره، وإنما يبحث عن مصالحه ومصالح عائلته فقط. وهذا أمر واضح فيه يعرفه كلا طرفي النزاع، وهذا ما نشاهده في كيفية التعامل معه من كلا الطرفين، فقد قال له أمير المؤمنين عليه السلام بعدما رفض بيعته: «إنك - والله - ما أردت بهذا إلا الفتنة، وإنك - والله - طالما بغيت للإسلام شراً، لا حاجة لنا في نصيحتك»^(١).

وهذا الجواب يدلّ على عدم مصداقية أبي سفيان، وأنّه لا يريد ما يظهر من نصرة الحق ونصرة بني هاشم، وإنما يريد إثارة الفتنة ليستفيد من نتائجها، ويضرب الأطراف بعضها ببعض.

كما أنّ تعامل الطرف الآخر معه يدلّ على ذلك؛ فإنّه لمّا سمع حزب السقيفة بمجيئه وحركته المعارضة في المدينة، قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: «إنّ هذا قد قدّم، وهو فاعل شرّاً، وقد كان النبي ﷺ يستألفه على الإسلام، فدع له ما بيده من الصدقة»^(٢).

فترك له أبو بكر ما في يده، فرضي أبو سفيان وسكت وباع وكأن لم يكن شيء. ولا نجد لمعارضة أبي سفيان أيّ ذكر بعد هذه الحادثة، فكأنّ أبا سفيان قد

(١) المصدر السابق.

(٢) الكوراني، علي، جواهر التاريخ: ج ٢، ص ٣٥.

حصل على بعض الامتيازات التي أسكتته، وحققت مطالبه، بل نراه ينهى عن مخالفة عمر^(١).

فهل نسي أبو سفيان أن أبا بكر وعمر هما من تيم وعدي اللتين وصفهما بأنهما أقل حيين في قریش؟!

أم أن الأنفة التي كان يحملها في دواخله من تسلط غير بني عبد مناف قد زالت بهذه السرعة؟!

لم تكن المسألة نابعة من حرقة على الدين الذي كان يحاربه أبو سفيان، ولا مسألة أنفة، ولا يريد أن يرد الحق لأهله، بل هي مسألة مصالح، وهذه من خصائص الشخصية البرغماتية التي تميل حيث تميل المصالح، ولا يوجد في قاموسها أسس ومبادئ ثابتة.

وأما الشيء المهم، فهو: ما هي الصفقة التي حصل عليها أبو سفيان مقابل سكوته، أو مقابل إخفاء ورقة الضغط التي يلوح بها في وجه الحكومة الجديدة؟ ومن خلال التأمل في الأحداث التي حصلت بعد هذا الاتفاق نجد لبني أمية، ولآل أبي سفيان بالخصوص، حضوراً وحظوظاً وفيرة، فقد أعطي في الوجبة الأولى ما في يده من الصدقات^(٢)، ثم ما هي إلا أيام وإذا بابنه - الذي أسره المسلمون يوم

(١) ذكر البلاذري أنه بعد أن ولي عمر بن الخطاب يزيد بن أبي سفيان الشام، قديم معاوية على عمر، ثم ذهب ليسلم على أبيه أبي سفيان، فقال أبو سفيان لابنه معاوية: «إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقوا وتأخرنا، فرفعهم سبقهم وقصر بنا تخلفنا، وصاروا قادة وصرنا أتباعاً، وقد ولّوكم جسيماً من أمرهم فلا تخالفوهم، وإنك تجري إلى أمد لم تبلغه وستبلغه»، وكذا قالت له هند أمه لما دخل عليها مسلماً: «فاعملوا بما يوافقه واجتنبوا ما يكرهه». أنظر: البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٥، ص ١١.

(٢) ومقدارها ألفي حلة، يدفعون نصفها في صفر، والنصف الآخر في رجب. وقيمة كل حلة ٤٠ درهماً، فيكون المجموع ثمانين ألف درهم. أنظر: يعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ يعقوبي: ج ٢، ص ٨٣. المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ١، ص ١٦٩. العلامة الحلي، الحسن بن يوسف، المستجد من الإرشاد: ج ١، ص ١٦٩.

الفتح - يزيد بن أبي سفيان، يُنصَّب قائداً للجيش الغازي^(١). وما هي إلا فترة وجيزة وإذا بيزيد هذا يُنصَّب والياً على فلسطين، ونُصَّب ابنه الآخر - معاوية - والياً على دمشق وبلبلق.

ثم لما مات والي الشام معاذ بن جبل سنة ١٨ هـ بالطاعون، ولّى عمرُ مكانه يزيد بن أبي سفيان على الشام كلها، فلما دنا منه الموت بسبب الطاعون في نفس تلك السنة استخلف أخاه معاوية مكانه، فأقره عمر على ذلك^(٢). وفي فترة حكومة أبي بكر أصبح عثمان بن عفان الأموي مقرباً من الخليفة الجديد، وصار كاتبه^(٣).

وبذلك قويت شوكة آل أبي سفيان وبني أمية في الدولة الإسلامية، لا سيّما في الشام.

وقد أشار معاوية إلى ذلك في كتابه لمحمد بن أبي بكر عليه السلام، حيث كتب فيه: «فقد كنّا - وأبوك معنا - في حياة نبيّنا محمد ﷺ، نرى حقّ ابن أبي طالب لازماً لنا، وفضله مبرّزاً علينا، حتى اختار الله لنبيّه ﷺ ما عنده، وأتمّ له وعده، وأظهر له دعوته، وأفلج له حجته، ثم قبضه الله إليه، فكان أول من ابتزّه حقّه أبوك وفاروقه... ولا تعب من مهّد له أبوك مهاده، وطرح للملكه وساده، فإن يكن ما نحن فيه صواباً فأبوك فيه أول، ونحن فيه تبع، وإن يكن جوراً فأبوك أول من أسّس بناءه، فبهديه اقتدينا، وبفعله احتدينا. ولولا ما سبقنا إليه أبوك ما خالفنا علياً، ولسلّمنا إليه، ولكن عبّ أباك بما شئت أو دعه»^(٤). فإنّه يشير إلى أنّ الذي مهّد للملك بني أمية وأعدّ لهم وسادة السلطة هو أبو بكر.

(١) العصفري، خليفة بن خياط، تاريخ خليفة: ص ٧٩.

(٢) المصدر السابق: ص ١١١ - ١١٢.

(٣) ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج ٤٦، ص ٣٥.

(٤) المفيد، محمد بن محمد، الاختصاص: ص ١٢٧. المدني، ضامن بن شذقم، وقعة الجمل: ص ٩٤.

ولم يكن هذا فحسب، فقد كان في حسابان الحزب القرشي، والذي يُعدّ بنو أمية ركناً من أركانه - حتى بعد خروج أبي سفيان عن قيادة قريش - بأنّ الخلافة ستنتقل بشكل رسمي إلى بني أمية. ولذا نجد إشارات مهمّة من هرم السلطة في زمن عمر بن الخطاب تشير إلى ذلك.

يقول سعيد بن العاص الأموي: إنّّه جاء يوماً إلى عمر بن الخطاب بحاجة في توسعة عقار، فأعطاه عمر ما يريد، فقال له سعيد: زدني، فقال له عمر حينئذٍ: (حسبك، واختبئ عندك أن سيلي الأمر بعدي من يصل رحمك ويقضي حاجتك. قال سعيد: فمكثتُ خلافة عمر بن الخطاب حتى استخلف عثمان، وأخذها، فوصلني وقضى حاجتي وأشركني في أمانته)^(١).

وهذا النص فيه إشارتان:

الأولى: أنّ عمر بن الخطاب أخبر سعيداً بأنّ أحد أقربائه سيلي أمر الخلافة من بعده.

الثانية: أنّ سعيداً يعترف بأنّ عمر هو الذي استخلف عثمان. وهذا يدلّ على أنّ الأمر حُسم مسبقاً، وما كانت الشورى إلّا حيلةً وتغطيةً وذراً للرماد في العيون.

وما أن وصل عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية - ابن عم مروان بن الحكم بن أبي العاص وأبو زوجته^(٢) - إلى الحكم والخلافة حتى توسّع الوجود الأموي في كلّ مفاصل الدولة، فعزل ولاية من سبقه، ونصب مكانهم رجالات بني أمية. وكما يقول محمود أبو رية: «ثمّ ما كان بعد ذلك من أمر عثمان معهم - وهم قومه - عندما استخلف، من ميله إليهم، ومحاباته إياهم، وإيثارهم بالمنح والعطايا من مال المسلمين

(١) ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى: ج ٥، ص ٣١.

(٢) زوجة مروان عائشة بنت عثمان بن عفان. أنظر: البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف:

بحقّ وبغير حقّ، وتمكينهم من حكم الولايات الكبيرة في المملكة الإسلامية؛ لكي يمهد بذلك لقيام دولة لهم»^(١).

وهذا ممّا عُرِفَ به بنو أمية من تعصّبهم وإيثارهم لبني أمية على سائر قريش والعرب. وقد أشار عمر بن الخطاب إلى ذلك في وصيته لعثمان، حين أراد استخلافه من بعده بقوله: «هيها إليك!! كأتّي بك قد قلّدتك قريشُ هذا الأمرَ لحبّها إياك فحملت بني أمية وبني أبي معيط على رقاب المسلمين، وآثرتهم بالفبي، فسارت إليك عصابة من ذؤبان العرب، فذبحوك على فراشك ذبحاً، والله لئن فعلوا لتفعلنّ، ولئن فعلت ليفعلنّ، ثم أخذ بناصيته فقال: فإذا كان ذلك فاذكر قولي»^(٢). بل كان يتخوّفه^(٣) من عثمان قبل أن يُجرّح الجرح الذي هلك فيه، حين سأل من ابن

(١) أبو رية، محمود، شيخ المضيرة أبو هريرة: ص ١٥٦.

(٢) ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٨٧. والغريب بالأمر أنّ عمر قال قبل كلامه هذا لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «الله أنت لولا دعاية فيك! أما والله لئن وليتهم لتحملنّهم على الحق الواضح، والمحجة البيضاء»، فلماذا هيّا الأمور لفوز عثمان بالخلافة لو لم يكن هناك اتفاق مبرم؟!

(٣) كان المتفق عليه بين أفراد الحزب القرشي هو أن تكون الخلافة تنتقل بين أحياء قريش دون بني هاشم، ويدلّ على ذلك ما رواه الشيخ المفيد عليه السلام عن أبي ذر جندب بن عبد الله الغفاري عليه السلام قال: «دخلتُ على علي بن أبي طالب بالمدينة بعد بيعة الناس لعثمان، فوجدته مُطرقاً كثيراً فقلتُ له: ما أصاب قومك؟! قال: صبرٌ جميلٌ. فقلتُ له: سبحان الله! والله، إنك لصبور. قال: فأصنعُ ماذا؟! فقلتُ: تقوم في الناس وتدعوهم إلى نفسك، وتخبرهم أنّك أولى بالنبيِّ ﷺ بالفضل والسابقة، وتسألهم النصر على هؤلاء المتأكّبين عليك. فإن أجابك عشرة من مائة شددت بالعشرة على المائة، فإن دانوا لك كان ذلك على ما أحببت، وإن أبوا قاتلتهم. فإن ظهرت عليهم فهو سلطان الله الذي أتاه نبيّه ﷺ وكنت أولى به منهم. وإن قُتلت في طلبه قُتلت شهيداً وكنت أولى بالعدز عند الله، وأحقّ بميراث رسول الله ﷺ. فقال: أترأه - يا جندب - يبايعني عشرة من مائة؟! قلتُ: أرجو ذلك. قال: لكنني لا أرجو ولا من كلّ مائة اثنين، وسأخبرك من أين ذلك، إنّها ينظر الناس إلى قريش، وإنّ قريشاً تقول: إنّ آل محمد يرون لهم فضلاً على سائر الناس، وإثمهم

عباس عليه السلام لمن يستخلف ولمن يوصي من بعده - وكان ابن عباس عالماً بهوى عمر واتفاقات الحزب القرشي -، فذكر له ابن عباس عدة أشخاص، منهم عثمان بن عفان، فقال عمر: «والله، لئن وليته ليحملن بني أبي معيط على رقاب المسلمين»^(١).

وهذا ما صرح به أبو سفيان عندما عقدت البيعة لابن عمه عثمان، حيث أوصى بني أمية بقوله: «يا بني أمية، تلقفوها تلقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم، ولتصيرن إلى صبيانكم وراثه»^(٢).

فهو يكشف عن سره بأنه طوال تلك المدة كان يعمل من أجل وصول بني أمية إلى السلطة. هذا أولاً. وثانياً: يريد أن تكون خالصة لبني أمية ولا تخرج لغيرهم، بل تكون وراثه. وثالثاً: أنه يتكلم وهو مطمئن من تحقق ذلك؛ مما يدل على أنه أحكم الخطة ورعاها حتى صار مطمئناً من النتائج.

وهذا ما فعله الخليفة الأموي عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، حيث بدأ - فور تسلّمه الخلافة - بعزل جميع الولاة الذين عينهم عمر باستثناء ابن عمه معاوية، واستبدلهم بأقاربه من بني أمية. فقد عين ابن عمه مروان بن الحكم معاوناً له، وهو بمثابة منصب وزير الدولة الأول، وعزل سعد بن أبي وقاص من ولاية

أولياء الأمر دون قريش، وإيهم إن وُلّوه لم يخرج منهم هذا السلطان إلى أحد أبداً، ومتى كان في غيرهم تداولتموه بينكم، ولا والله لا تدفع قريش إلينا هذا السلطان طائعين أبداً. قال: فقلت له: أفلا أرجع فأخبر الناس بمقاتلتك هذه، وأدعوهم إليك؟ فقال لي: يا جندب، ليس هذا زمان ذلك. قال: فرجعت بعد ذلك إلى العراق، فكنّْتُ كلّما ذكرتُ للناس شيئاً من فضائل عليّ بن أبي طالب عليه السلام ومناقبه وحقوقه زبروني ونهروني، حتى رُفِعَ ذلك من قولي إلى الوليد بن عقبة ليالي ولينا، فبعث إليّ فحبسني حتى كُلم في فخلى سبيلي». المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ١، ص ٢٤٣.

(١) الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج ٢، ص ١٥٤.

(٢) أنظر: ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ٩، ص ٥٣. القمي، عباس، الكنى والألقاب: ج ١، ص ٨٨. والنص من الثاني.

الكوفة، وولّى مكانه أخاه لأُمّه الوليد بن عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أُمّية. ثمّ ولّى عليها سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أُمّية.

كما عزل أبا موسى الأشعري عن ولاية البصرة، وعيّن مكانه ابن خاله عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس^(١)، وهو ابن ٢٥ سنة. وعزل أيضاً عمرو بن العاص من حكومة مصر وولّاها لأخيه بالرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي^(٢).

يقول أسعد القاسم: «وبهذه التعيينات يكون عثمان قد وضع البذور لدولة أُموية، أو كما وصف العلامة أبو الأعلى المودودي بأنّ عهد عثمان كان بداية التحوّل من الخلافة الراشدة إلى الملك، وأنّه لم تكن هناك حجة كافية لأن تخضع الدولة كلّها من خراسان شرقاً إلى شمال إفريقيا غرباً لحكّام من بيت واحد.

وفي شرحه لتركيب العائلة الأُموية، يقول المودودي: إنّ أفراد هذه العائلة الذين ارتقوا في عهد عثمان كانوا جميعاً من الطلقاء. والمراد بالطلاق: تلك البيوت المكية التي ظلّت إلى آخر وقت معادية للنبي ﷺ وللدولة الإسلامية، فعفا الرسول ﷺ عنهم بعد فتح مكة ودخلوا في الإسلام.

ومعاوية، والوليد بن عقبة، ومروان بن الحكم كانوا من تلك البيوت التي أُعطيت الأمان وعفا الرسول ﷺ عنهم. أمّا عبد الله بن أبي سرح، فقد ارتدّ بعد إسلامه، وكان واحداً من الذين أمر الرسول ﷺ بقتلهم حتى ولو وُجدوا تحت أستار الكعبة. وبالطبع ما من أحدٍ يقبل أن يُعزّل السابقون الأوّلون الذين خاطروا بأرواحهم في سبيل رفعة الإسلام فارتفع لواء الدين بتضحياتهم، وأن يحكم الأُمّة بدلاً منهم مثل هؤلاء الناس

(١) فهو من بني أُمّية؛ لأنّ حبيب بن عبد شمس وأُمّية بن عبد شمس إخوان.

(٢) أنظر: ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى: ج ٥، ص ٤٥.

الذين لم يكونوا يصلحون لتولي زعامة المسلمين... وهم يقفون في آخر صفوف الصحابة والتابعين لا في أولها»^(١).

وبهذا قويت دولة الشام كدولة داخل الدولة الإسلامية، وأصبحت خالصة لآل أبي سفيان، بل صار ثقل الخلافة - في الحقيقة - في الشام، ولم يكن مركز الخلافة في المدينة إلّا شكلياً ظاهرياً^(٢).

وكأن معاوية خاف من عثمان أن يولي بعده من هو أقرب منه، من قبيل مروان بن الحكم؛ فإنه ابن عمّ عثمان؛ لذلك تقاعس عن نصرته، ولم يأذن للجيش الذي أرسله أن يدخل المدينة، حتى قُتل عثمان.

ولما صارت الخلافة إلى أمير المؤمنين عليه السلام عمل معاوية على أمرين: إشعال الفتنة بين المسلمين، وتوحيد الصف الأموي.

زراعة الفتنة بين المسلمين

أمّا الأوّل - وهو إشعال الفتنة - فقد روى ابن أبي الحديد: أن معاوية لمّا بلغه اجتماع المسلمين على بيعته أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، كتب كتاباً إلى الزبير بن العوام: «بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله الزبير أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان: سلام عليك، أمّا بعد، فإنّي قد بايعتُ لك أهل الشام، فأجابوا واستوسقوا، كما يستوسق الجلب، فدونك الكوفة والبصرة، لا يسبقك إليها ابن أبي طالب؛ فإنه لا شيء بعد هذين المصرين. وقد بايعتُ لطلحة بن عبيد الله من بعدك، فأظهره الطلب بدم عثمان، وادعوا الناس إلى ذلك، وليكن منكما الجدّ والتشمير. أظفر كما الله، وخذل مناوئكما! فلمّا وصل هذا الكتاب إلى الزبير سرّ به، وأعلم به طلحة وأقرأه إياه، فلم

(١) القاسم، أسعد وحيد، أزمة الخلافة والإمامة وآثارها المعاصرة: ص ٩٨.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، الشيعة في الإسلام: ص ٢٧.

يشكّا في النصّ لهما من قبل معاوية، وأجمعاً عند ذلك على خلاف علي عليه السلام^(١).

وهذا نصّ صريح فيما يرومه معاوية من تمزيق المسلمين وإشعال الفتنة بينهم من أجل الوصول إلى مآربه، وبناء دولته الأموية المشؤومة. وبنفس هذا المضمون كتب لطلحة.

والملفت للنظر أنّه في نفس الوقت الذي ألّبها على أمير المؤمنين عليه السلام، شحن قلب كلّ واحد على صاحبه، حيث جعلهما يتنافسان على الخلافة. فهو يخطط للبعيد، فلو قدّر أنّهما انتصرا على علي بن أبي طالب عليه السلام لتقاتلا على الخلافة؛ لأنّه منّاهاهما على حدّ سواء؛ وبذلك يضمن النصر عليهما.

ولم يكتفِ بذلك، بل أوصى مروان بن الحكم بأن يقوم بنفس الدور في تأجيج الفتنة في الحجاز، حيث نقل ابن أبي الحديد أنّ معاوية كتب لمروان: «... فإذا قرأت كتابي هذا فكن كالشهد، لا يصطاد إلا غيلة، ولا يتشازر إلا عن حيلة، وكالثعلب لا يفلت إلا روغاناً، واخف نفسك منهم إخفاء القنفذ رأسه عند لمس الأكف، وامتهن نفسك امتهان من يأس القوم من نصره وانتصاره، وابحث عن أمورهم بحث الدجاجة عن حبّ الدخن عند فقاسها، وأنغل الحجاز؛ فإني منغل الشام. والسلام»^(٢). ومعنى كلمة (أنغل) أي: احملهم على الضغن والعداوة، فهو يوصي مرواناً بزرع العداوة والبغضاء بين المسلمين في الحجاز.

كما أنّ قوله لعبد الله بن عامر الأموي - في كتابه الذي سننقله بتمامه - «واجعل أكبر عدتك الحذر، وأحدّ سلاحك التحريض» يدلّ على ذلك أيضاً؛ فإنّه يوصيه بالتحريض، وأن يكون التحريض عنده هو السلاح الأمضى.

(١) ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ٢٣١.

(٢) المصدر السابق: ج ١٠، ص ٢٣٦.

وأما الشام، فقد تكفلها معاوية بنفسه؛ ولذا يصف بعض المؤرخين ما فعله معاوية في أهل الشام، بعدما جاءه كتاب مروان يُعلمه بقتل عثمان، حيث «أمر بجمع الناس، ثم خطبهم خطبة أبكى منها العيون وقلقل القلوب، حتى علت الرنة، وارتفع الضجيج، وهم النساء أن يتسلحن»^(١). فماذا قال لهم؟ وبماذا شحذ قلوبهم على أهل القبلة؟! بحيث علت صيحاتهم وارتفعت أصواتهم وضجيجهم، حتى جعل النساء يتوثبن للقتال فضلاً عن الرجال!

وقد علّق صاحب موسوعة الغدير عليه السلام بقوله: «هذه شنشنة معاوية منذ بلغه أمر الإمام عليه السلام وانعقاد البيعة له، فوجد نفسه عند الأمة في معزل عن المشورة أو اعتضاد في رأي، وأن البيعة لاحقته لا محالة، فلم يجد متدحاً عن إقلاق الأمر على صاحب البيعة الحقّة، وأن يستدني منه أمانيه الخلافة بتعكير الصفو له عليه السلام، فطفق يفسد ما اطمأن إليه من الأمصار، ويوعز في كتبه إلى إفساد الرأي، وتفريق الكلمة، وهو ضالته المنشودة»^(٢).

توحيد الصف الأموي

وأما بالنسبة للأمر الثاني - وهو توحيد صفوف بني أمية - فقد حفظ لنا التاريخ كتبه لمجموعة من بني أمية. فقد كتب إلى سعيد بن العاص الأشدق الأموي يستحثّه على الجدّ في الأمر قبل أن يفلت من أيدي بني أمية، ويكون مصيرهم التشريد والفقر، بحيث يصعب عليهم الحصول على أقل العيش، فقد كتب له: «أما بعد، فإن كتاب مروان ورد عليّ من ساعة وقعت النازلة، تُقبل به البرد بسير المطي الوجيف»^(٣)، تتوجّس توجّس الحية الذكر خوف ضربة الفأس، وقبضة الحاوي. ومروان الرائد لا يكذب

(١) المصدر السابق: ج ١٠، ص ٢٣٥.

(٢) الأميني، عبد الحسين، الغدير: ج ١٠، ص ٣٣٠.

(٣) (البرد): جمع بريد، وهو الرسول المستعجل. و(الوجيف): سرعة السير. أنظر: الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين: ج ٦، ص ١٩٠. الزمخشري، محمود بن عمر، أساس البلاغة: ص ٤٠.

أهله، فعلام الإفكاك يابن العاص؟! ولات حين مناص! ذلك أنكم - يا بني أمية - عمّا قليل تُسألون أدنى العيش من أبعد المسافة، فينكركم مَنْ كان منكم عارفاً، ويصدّ عنكم مَنْ كان لكم واصلاً، متفرّقين في الشعاب تتمنّون لمظة المعاش^(١)، إنّ أمير المؤمنين عُتِبَ عليه فيكم، وقُتِلَ في سبيلكم، فقيم القعود عن نصرته والطلب بدمه؟! وأنتم بنو أبيه، ذوو رحمه وأقربوه، وطلاب ثأره، أصبحتم متمسكين بشظف معاش زهيد، عمّا قليل يُنزع منكم عند التخاذل وضعف القوى. فإذا قرأت كتابي هذا فدبّ دبيب البرء في الجسد النحيف، وسر سِر النجوم تحت الغمام، واحشد حشد الذرة^(٢) في الصيف لانجحارها في الصرد، فقد أيدتكم بأسد وتيم^(٣).

وهذا الكتاب - كما ترى - يشتمل على كلّ عناصر الحثّ والتحشيد، فهو من جانب يذكر عظمة المصيبة التي حلّت على بني أمية من قتل شيخهم، وزوال ملكهم، ومن جانب آخر فيه تحذير من أنّ التراخي وعدم الإمساك بالأُمور ما دامت في أيديهم فإنّ ذلك سيؤدي إلى المذلة بين العرب والفقير، بحيث تصل بهم الأُمور أن يسألوا مَنْ كان يأخذ نواله منهم فلا يعطيهم شيئاً إلّا بمقدار لمظة العيش.

وبعد هذا الحثّ والتحذير والتخويف، يوصيه بالسير جاداً في أخذ زمام الأُمور، ولكن بحذر وأن يكون تحرّكه في غاية السريّة، كحركة النجوم تحت الغمام. ثمّ يكتب إلى عبد الله بن عامر الأموي، ويصف له أنّ أمر الخلافة قريب منكم بشرط المبادرة واقتحام الصعاب: «أما بعد، فإنّ المنبر مركب ذلول، سهل الرياضة، لا

(١) أي قليل المعاش، قال ابن أبي الحديد: «اللمظة في الأصل: السير من السمن، تأخذه بإصبعك. يقال: عنده لمظة من سمن، ثمّ أُطلق على كلّ شيء قليل». ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ١٠، ص ٢٣٧.

(٢) صغار النمل. أنظر: ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ١٠، ص ٢٣٧. وكلّ هذا كناية عن العمل بجِد وسريّة، من غير أن تشعروا أحداً بكم.

(٣) ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ١٠، ص ٢٣٧.

ينازعك اللجام. وهيئات ذلك إلا بعد ركوب أثباج المهالك، واقتحام أمواج المعاطب. وكأني بكم يا بنى أُمّية شعاريير كالأوارك^(١)، تقودها الحداة، أو كرخم الخندمة^(٢) تذرق خوف العقاب. فنب^(٣) الآن - رحمك الله - قبل أن يستشري الفساد وندب السوط^(٤) جديد، والجرح لَمّا يندمل، ومن قبل استضرء الأسد، والتقاء الحية، على فريسته. وساور الأمر مساورة الذئب الأطللس كسيرة القطيع. ونازل الرأي، وانصب الشرك، وارم عن تمكّن، وضع الهناء مواضع النقب^(٥). واجعل أكبر عدتك الحذر، وأحدّ سلاحك التحريض. وأغض عن العوراء، وسامح اللجوج، واستعطف الشارد، ولاين الأشوس، وقوّ عزم المريد، وبادر العقبة، وازحف زحف الحية، واسبق قبل أن تُسبّق، وقم قبل أن يُقام لك. واعلم أنّك غير متروك ولا مهمّل؛ فإنّي لكم ناصح أمين. والسلام»^(٦).

وبنفس هذه الشاكلة والنغم يكتب للوليد بن عقبة الأموي أخو عثمان لأُمّه: «يابن عقبة، كنّ^(٧) الجيش، وطيب العيش أطيب من سفح سموم الجوزاء عند اعتدال

(١) أي متفرقون كالنبايق التي ترعى شجر الأراك، يسوقها الحادي. أنظر: المدني، ضامن بن شدقم، وقعة الجمل: ص ٧٨. ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ١٠، ص ٢٣٨.

(٢) خندمة: جبل بمكة. والرخم: وهو طائر أبقع على شكل النسر خلقة، إلا إنه مُبَقَّع بِسَوَادٍ وَبَيَاضٍ، يقال له: الأثوق، يضرب به المثل في لؤمه وقذارته، يأكل العذرة ويعيش على رؤوس الجبال، ومع ذلك يخاف من الصقور. أنظر: المبرد، محمد بن يزيد، الفاضل: ص ٤٦. الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس: ج ١٦، ص ٢٧٩.

(٣) الوثب: الطفر. المصدر السابق: ج ٢، ص ٤٦١.

(٤) ندب السوط: أثره. ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ١٠، ص ٢٣٨.

(٥) هنا البعير: طلاه بالهاء، وهو القطران. والنقب: جمع نقبة، وهي أول ما يبدو من الجرب. المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق: ج ١٠، ص ٢٣٩.

(٧) الكنّ: ما يُحفظ فيه الشيء. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن: ص ٤٤٢. كأنّه أراد: أنّ إحاطة الجيش بك، وهو الكنّ الذي يحفظك ويحميك. وطيب العيش: ما تشتهي، خير لك من أن تكون من عامة الناس يلفحك السموم.

الشمس في أفقها. إنَّ عثمان أخاك أصبح بعيداً منك فاطلب لنفسك ظلاً تستكنّ به، إنّي أراك على التراب رقوداً، وكيف بالرقاد بك! لا رقاد لك. فلو قد استتبّ هذا الأمر لمريده أُلْفِيَتْ كشريد النعام، يفزع من ظلّ الطائر، وعن قليل تشرب الرنق، وتستشعر الخوف. أراك فسيح الصدر، مسترخي اللب، رخو الحزام، قليل الاكتراث، وعن قليل يُجِثَّ أصلك. والسلام»^(١).

بينما كتب بطريقة أخرى إلى الولاة الذين لا يتمنون إلى بني أمية إلا بالحلف، فقد كتب إلى يعلى بن أمية التميمي والي عثمان على اليمن، يستعطفه ويخوّفه، بأنّ الخليفة عثمان - الشيخ الكبير - قتلوه ذبحاً، لا لشيء فعله، بل نقموا منه أموراً كان أعظمها أنّه أعطاك ولاية اليمن، وأنّ من قتله سيلتفت إليك ليطالبك بما في يدك من المال. وهذا نصّ كتابه:

«كتبْتُ إليك صبيحة ورد عليّ كتابُ مروان بخبر قتل أمير المؤمنين، وشرح الحال فيه، وإنَّ أمير المؤمنين طال به العمر حتى نقصت قواه، وثقلت نهضته، وظهرت الرعشة في أعضائه، فلما رأى ذلك أقوام لم يكونوا عنده موضعاً للإمامة والأمانة وتقليد الولاية، وثبوا به، وألبوا عليه، فكان أعظم ما نقموا عليه وعابوه به، ولايتك اليمن وطول مدّتك عليها. ثمّ ترامى بهم الأمر حالاً بعد حال، حتى ذبحوه ذبح النطيحة مبادراً بها الفوت، وهو مع ذلك صائم معانق المصحف، يتلو كتاب الله. فيه عظمت مصيبة الإسلام بصهر الرسول، والإمام المقتول، على غير جرم سفكوا دمه، وانتهكوا حرمة، وأنت تعلم أنّ بيعته في أعناقنا، وطلب ثأره لازم لنا، فلا خير في دنيا تعدل بنا عن الحقّ، ولا في إمرة توردنا النار، وإنَّ الله جلّ ثناؤه لا يرضى بالتعذير في دينه، فسمّر لدخول العراق. فأما الشام فقد كفيْتُك أهلها، وأحكمتُ أمرها، وقد

(١) ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ١٠، ص ٢٣٩.

كتبْتُ إلى طلحة بن عبيد الله أن يلقاك بمكة، حتى يجتمع رأيكما على إظهار الدعوة، والطلب بدم عثمان أمير المؤمنين المظلوم، وكتبْتُ إلى عبد الله بن عامر يمهد لكم العراق، ويسهل لكم حزنه عقابها. واعلم يا بني أمية أن القوم قاصدوك بادئ بدء؛ لاستنطاف ما حوته يداك من المال، فاعلم ذلك واعمل على حسبه إن شاء الله»^(١).

ويتبين من هذا النص أن معارضة خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لم تكن حالة طارئة عشوائية، بل هي حركة منظمة مخطط لها، والرأس المدبر لها هو معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، فهو الذي حرَّك الزبير وطلحة بعد أن خضعا وبايعا، وهو الذي مهد الأمور ونسق بينهم وبين والي اليمن يعلى بن أمية، وعبد الله بن عامر والي مكة، كما حث بني أمية على التحريض وزرع الضغينة وإشعال الفتنة على أمير المؤمنين عليه السلام.

ومما يلفت النظر أن عبد الله بن عامر الأموي يقول لمعاوية لما قرأ كتابه: إنه كان حائراً لا يعرف ما يصنع، شارد الذهن، «حتى وقع إلي كتابك، فانبهت من غفلة طار فيها رقادي»، فلو لا مكر معاوية رضي الله عنه لما توحد المنافقون وتخذلوا ضدَّ ولي الله علي بن أبي طالب عليه السلام.

كما أن كتاب ابن عامر يشير إلى حقيقة أخرى، وهي: أن الدولة الأموية قد ضربت جذورها في البلاد الإسلامية، وهي مهيأة لأن تعود إليهم، حيث يقول: «فالذي أخبرك به أن الناس في هذا الأمر: تسعة لك، وواحد عليك».

وبذلك يكون معاوية قد أسس للفتنة والضغينة بين المسلمين، فلا تنطفئ في جهة إلا وأوقد فتيلها في جهة أخرى. فجعل جيوشاً كبيرة تتحرك معه في ظل ما ألقاه إليهم من ثقافة الفتنة، حتى قُتل أمير المؤمنين عليه السلام. ودارت الأمور حتى عاد الملك لبني أمية، وصار معاوية على عرش الخلافة والملك.

التغيير الطارئ على نظام الحكم في الإسلام

ومما تجدر الإشارة إليه أنَّ هناك مشكلةً ثقافيةً جديدة طرأت على الفكر الإسلامي من حيث منظومته السياسية، حيث تمَّ تغيير النظام السياسي الإسلامي، كما ستأتي الإشارة إليه في بحث أهداف الثورة.

وتتفاقم المشكلة حينما نطالع ما عمل عليه معاوية، حيث بدأ يعمل لتحويل الخلافة والحكم الإسلامي إلى إمبراطورية أموية، وليست حكومة إسلامية حكمها معاوية بن أبي سفيان في فترة من الزمن، كما حكمها الخلفاء الثلاثة قبله، بل يريد قيام الدولة الأموية على العرب والمسلمين كافة، وهذا ما كان يحلم به أبو سفيان نفسه بعد رحيل النبي المصطفى صلى الله عليه وآله، وخصوصاً حين وصلت الخلافة لعثمان بن عفان، وقال كلمته المعروفة.

فقد جاء في (شرح نهج البلاغة): «قال الشعبي: فلما دخل عثمان رحله دخل إليه بنو أمية حتى امتلأت بهم الدار، ثم أغلقوها عليهم، فقال أبو سفيان بن حرب: أعندكم أحد من غيركم؟ قالوا: لا، قال: يا بني أمية، تلقّفوها تلقّف الكرة، فو الذي يحلف به أبو سفيان، ما من عذاب ولا حساب، ولا جنة ولا نار، ولا بعث ولا قيامة!»^(١).

وقد عمل عثمان بوصية أبي سفيان، فقرّب بني أمية وقسّم عليهم المناصب والأموال. يقول السيّد حسن الأمين تعليقاً على كلمة أبي سفيان هذه: «فهو إذاً انقلاب سياسي قد حدث، طالما رجاء وانتظره أبو سفيان وبنو أمية. وهي إذاً بداية حقبة من الحكم الأموي يعدّون أنفسهم لتلقّفه كالكرة حتى تصير ملكاً وراثياً يتولاه الصبيان.. لقد سنحت لهم الفرصة، ورأوا في شخصية عثمان المناخ المناسب كي يحققوا

(١) ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ٩، ص ٥٣. المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب: ج ٢، ص ٣٤٣.

ما يريدون؛ ولذلك كان حكم هذا الخليفة بدايةً لأحداث وتطورات استحدثت في الحياة الاجتماعية الإسلامية، سعى إليها البعض، واغتممها البعض، وناضل ضدها البعض الآخر، ومن ثمّ كانت الصراعات التي برز فيها أبو ذر الغفاري...»^(١).

وقد صرح أبو سفيان بمكنون سرّه مرّةً أخرى، حين مرّ بقبر سيّد الشهداء حمزة بن عبد المطلب عليه السلام، فركل القبر برجله، وقال: «يا أبا عمارة، إنّ الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمسى في يد غلماننا اليوم يتلعبون به»^(٢).

ولمحمد سليم عرفة تصوير لما جرى في تلك الحقبة، يطرحها على شكل محاورة مع عثمان، يطرح فيها الأسئلة ويصوغ أجوبتها على لسان عثمان من خلال ما ورد في كتب التاريخ، ومن جملة تلك الأسئلة أنّه سأله عن سبب معارضة الصحابة له وثورتهم عليه، فكان الجواب هو: «عند وصولي إلى الخلافة وتوزيعي الأعطيات سرّ الناس؛ لأنّهم كانوا يعيشون شظف العيش على عهد أبي بكر وعمر، ودخل السرور إلى قلوب قريش، وفي مقدّمتهم بني أميّة؛ لأنّها وصلت أخيراً إلى ما كانت تطمح له من قبل الرسالة، وهو شرف قيادة العرب وإقصاء بني هاشم عن هذا الشرف. ومّا يؤكّد ذلك أنّ أبا سفيان دخل على مرّة، وكان قد كُفّ بصره، فقال: هل هنا أحد؟ فقالوا له: لا. فقال: صارت إليك بعد تيم وعدي، فأدرها كالكرة، فإنّها هو الملك، ولا أدري ما جنة ولا نار!!

وقال بعبارة أخرى: (تلقّفوها تلقّف الكرة فما هناك جنة ولا نار). (يا بني أميّة تلقّفوها تلقّف الكرة، فوالذي يلحف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم، ولنصيرن إلى صبيانكم وراثه).

(١) الأمين، حسن، مستدركات أعيان الشيعة: ج ٣، ص ٥٨.

(٢) ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ١٦، ص ١٣٦.

وقال بعبارة ثالثة: (اللهم اجعل الأمر أمر جاهلية، والملك ملك غاصبية، واجعل أوتاد الأرض لبني أمية).

وهذه كانت البداية، وقد كان أبو سفيان مستشاري، وقد استمعت لنصيحته فوليت بني أمية الولايات، فأعطيتهم الأعطيات فمثلاً: وهبت خمس أفريقيا لمروان بن الحكم، وأدخلت الوليد بن عقبة الفاسق بنص الآية: ﴿إِنْ جَاءَكَ فَاسِقُ بَنِيٍّ﴾، ووليتته على الكوفة، وقربت بني عمومي. أنشأت لهم العمل والولايات وهم أحداث غلمة، لا صحبة لهم مع رسول الله. وتركت المهاجرين والأنصار لا أستعملهم على شيء، ولا أستشيرهم، وأستغني برأيي عن رأيهم. وما كان من الحمى حول المدينة، ومن إدارة القطائع والأرزاق والأعطيات على أقوام بالمدينة ليست لهم صحبة من النبي ولا يغزون ولا يذبون. وقد كان هذا لصلة رحمي، وأني كنت كبير السن وقد قربتهم مني لمشاورتي، وليكن الأمر لهم من يحركون الأمور دون الرجوع إلي^(١).

وبهذا المخطط تمكن بنو أمية من رقاب المسلمين، وتربّعوا على عرش السلطة؛ حيث كان آل أبي سفيان قد أرسوا جذور ملكهم في الشام منذ أيام عمر بن الخطاب، كما تقدّم من تنصيبه يزيد بن أبي سفيان على الشام، فلمّا مات يزيد بن أبي سفيان استخلف معاوية، فكانت له خاصة يحكم فيها بما يشاء.

فلمّا بايع المسلمون أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام أراد وبكل إصرار إفشال مخطط معاوية وبني أمية بانتزاع الملك منهم؛ ولذا لم يقبل بإمضاء ولايته على الشام ولو لفترة، كما اقترح عليه البعض، فوقف معاوية وبنو أمية في وجه أمير المؤمنين عليه السلام وآلبوا عليه القبائل وشخصيات قريش الطامعة في الملك، ومنّوهم، فكان منهم ما كان. حتى وصلت المرحلة إلى الصلح مع الإمام الحسن عليه السلام، فاشترط

(١) عرفة، محمد سليم، إفادات من ملفات التاريخ: ص ١٤١.

عليهم خروج الملك عن آل أبي سفيان ورجوعه إلى أهل البيت عليهم السلام إلى الحسن أو الحسين عليهما السلام، فقبل معاوية بالشروط، كما ألمحنا له سابقاً تحت عنوان: (الإمام الحسن عليه السلام يواصل الإصلاح الثقافي)، ولم يف بها إكمالاً لمشروعه المشؤوم ومشروع أبيه (إقامة الدولة الأموية) بدلاً عن الدولة الإسلامية.

المبحث الخامس

المجتمع الإسلامي في زمن معاوية

تقدّم أنّه بعد أن تولّى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام مقاليد الأمور، قوي التيار الإسلامي الأصيل الذي يحمل فكر مبعوث السماء محمد صلى الله عليه وآله، وتعاليم القرآن، وانتشر صحابة النبي صلى الله عليه وآله الأوفياء في البلدان الإسلامية، لا سيّما الكوفة العاصمة، وفتّحت أفواههم بالحديث عن نبيّهم بعد أن كانت مغلقة.

وبذلك انفتحت الأمة على باب من الثقافة والمعرفة كانت قد حُرمت منه ردحاً من الزمن. إلّا أنّ هذا لا يعني أنّ الثقافة الأخرى التي وُلدت بعد رحيل المصطفى صلى الله عليه وآله قد اندرست وانمحى أثرها، بل لا زالت حية في نفوس الغالبية من المسلمين، ثمّ قويت مرّةً أخرى بعد شهادة أمير المؤمنين وصلاح الإمام الحسن عليه السلام، حيث تسلّط معاوية على البلاد، وأخذ بنشر ما يحلو له، ويخدم مصالحه من ثقافة، يرسم بريشتها الإسلام كيف يشاء.

ومن هنا نعرف أنّ المجتمع الإسلامي آنذاك يتصارع فيه خطّان فكريان، كلّ منهما يصنع ثقافةً ويشيّد صرحاً يختلف عن الآخر.

ولكنّ الخطّين غير متكافئين، فأحدهما معه السيف والمال والإعلام المُجاز والدولة، والآخر يمتطي الفقر ويكابد الظلم ويعانق الموت..

ولا شكّ أنّ أتباع السلامة أكثر، ولكنّ أصحاب المبادئ أكفأ وأقدر على أن

يسوّقوا فكرهم وثقافتهم بما أُتيح لهم من اليسير، ولو من خلال الموت نفسه.
 وبين هذا الصراع المحتدم بين هاتين الثقافتين نشأت أجيال من المسلمين،
 وتكوّنت عقائد ورؤى بين أطراف المجتمع الإسلامي بشكل عام.
 فلا بدّ أن نتأمّل في ثقافة الأمة حينذاك؛ لنرى أيّ ثقافة تركّزت في نفوس
 المجتمع الإسلامي في تلك الحقبة من عمر الأمّة؟!
 ومن هنا نريد أن نقف عند ذلك المجتمع وتركيبته الدينية والسياسية والثقافية
 والاجتماعية، ضمن بحوث أربع:

البحث الأول: الحالة الدينية

وبحسب ما وقع بأيدينا من تاريخ تلك الحقبة وإفرازاتها، يمكننا أن نلخص ما
 يحمله المجتمع من ثقافة دينية بأمرين: التنوّع العقائدي، وضعف الإيمان.

الأمر الأول: التنوّع العقائدي

لم يكن المجتمع الإسلامي بسيطاً في تركيبته العقائدية، بل هو مجتمع معقّد
 التركيب عقائدياً، حيث وُلدت فيه أفكار متشعبة، ومزيج غير متجانس من العقائد
 في تلك الحقبة. ففي تلك الفترة وُجدت عدّة تيارات فكرية، لكلّ منها أتباعها
 وجذورها في المجتمع، ولكلّ منها عقائده التي قد تستوجب تكفير الآخر، ولنطلّ
 عليها بمقدار ما يوضّح صورة المجتمع من جهة عقائدية لتتمكّن من دراسته:

المرجئة

طائفةٌ من المسلمين يؤمنون بكفاية الإيمان، ولا تضرّ معه معصية. كما يعتقدون
 بتساوي الصالح والطالح، والعابد والفاسق عند الله عزّ وجلّ. وقد عُرفوا بالتملّق
 للولاة.

وهي مأخوذة من الإرجاء بمعنى التأخير؛ فإنّ تسميتهم إمّا لاعتقادهم بأنّ الله أرجأ تعذيبهم على المعاصي، بمعنى أخره، أو لاعتقادهم بتأخر العمل رتبة عن النية، أو مأخوذة من الرجاء؛ لأنّهم يرجون المغفرة للعصاة والفاستقين^(١)، أو لتأخيرهم عليّاً عليه السلام عن الدرجة الأولى إلى الرابعة، كما ينقله الشهرستاني^(٢)، وهو بذلك شامل لجميع أهل السُنّة. وقد قيل بأنّ مجموعة من علماء الجمهور وأئمّة المذاهب كأبي حنيفة هم من المرجئة^(٣).

ثم إنّ المرجئة توسّعت وصارت فرقاً متعددة، ومذاهب متكرّرة يجمعها قولهم في الاعتقاد بكفاية القول في الإيمان، وإن لم يكن لهم عمل يطابق ذلك الاعتقاد، بل حتّى لو كان العمل على نقيض ذلك القول، بأن ارتكب مدّعي الإيمان من الجرائم والمآثم كلّ موبقة لما أخرجه ذلك - عندهم - عن ربقة الإيمان، ورجوا لهم المغفرة^(٤).

وقيل: المرجئة هم الذين تخلّفوا عن نصرة أمير المؤمنين يوم الجمل بقيادة أبي موسى الأشعري تبعاً لبعض الصحابة، أمثال: سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر^(٥).

وقد ورد أنّ النبي ﷺ لعنَ المرجئة بقوله: لُعِنَتِ المرجئة على لسان سبعين نبياً،

(١) ابن الأثير، المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث: ج ٢، ص ٢٠٦. المازندراني، محمد صالح، شرح أصول الكافي: ج ٨، هامش ص ١١٨. الفيض الكاشاني، محمد محسن، الوافي: ج ١، هامش ص ٢٤١.

(٢) أنظر: الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل: ج ١، ص ١٣٩. المظفر، محمد حسن، الإمام الصادق عليه السلام: ج ١، ص ٣٩-٤٦.

(٣) الخطيب البغدادي، أحمد بن علي، تاريخ بغداد: ج ١٣، ص ٣٧١.

(٤) أنظر: العيني، محمود بن أحمد، عمدة القاري: ج ١، ص ٢٧٩.

(٥) أنظر: القاضي المغربي، النعمان بن محمد، شرح الأخبار: ج ٢، ص ٨٢.

قيل: مَنْ المرجئة يا رسول الله؟ قال: الذين يقولون: الإبان كلام^(١).

متى ظهرت فكرة الإرجاء؟

انتشرت فكرة الإرجاء بعد رحيل النبي محمد ﷺ، حين منع الخليفة رواية حديث رسول الله ﷺ، وفسح المجال لمسلمة اليهود بالجلوس في مسجد النبي ﷺ والتحدّث للمسلمين بالقصص والروايات، لا سيّما كعب الأحبار، فتمكّن هذا الرجل من نشر فكرة الإرجاء، وغرس جذورها في ذهن الأمّة، فأخذ عنه بعض الصحابة. ولذا يرى البعض بأنّ الإرجاء فكرة يهودية انتقلت إلى الفكر الإسلامي بعد رحيل النبي ﷺ، ويؤيده ما روى عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه قال: «ما الليل بالليل ولا النهار بالنهار أشبه من المرجئة باليهود، ولا من القدرية بالنصرانية»^(٢).

وإن كان البعض يُرجعها إلى النصرانية الشرقية، وأنّ الذي نشرها وغرسها بين المسلمين هو يوحنا الدمشقي^(٣).

ولعلّها هي الأخرى متأثرة باليهودية، وأمّا الدمشقي فلعلّه الذي ساهم في نشرها فيما بعد، وليس هو المؤسّس لها.

والخلاصة: أنّ فكرة الإرجاء بثّها اليهود حين فُسح لهم المجال بعد رسول الله ﷺ، وروّج لها البعض لخدمة مصالحه، واستفاد منها أبو موسى الأشعري في تثبيطه لأهل الكوفة عن نصرّة أمير المؤمنين عليه السلام في معركة الجمل^(٤)، حتى وصل

(١) أنظر: البغدادي، عبد القاهر بن طاهر بن محمد، الفرق بين الفرق: ص ١٩٠.

(٢) الصدوق، محمد بن علي، ثواب الأعمال: ص ٢١٣. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٥، ص ١٢٠، وفيه: (اليهودية) بدل اليهود.

(٣) أنظر: أيوب، سعيد، الانحرافات الكبرى: ص ٤٨٨.

(٤) أنظر: القاضي المغربي، النعمان بن محمد، شرح الأخبار: ج ٢، ص ٨٣.

الدور إلى زمن معاوية، حيث دعمها ورعاها هو وولاته^(١)، فانتشرت في زمانه بضغط سياسي، فتلاقفها الناس طلباً للسلامة؛ لأنهم رأوا ميل السلطة إليها، والتنكيل بمن يرفضها.

يقول الأستاذ سعيد أيوب في كتابه (معالم الفتن): «وجد الأمويون في هذا المذهب ضالّتهم المشوذة التي كانوا يتمنون أن يعثروا عليها وسط الاتجاهات والمذاهب المتعددة المعادية لهم. ويقول د. شوقي ضيف عن هذه الاتجاهات: إنّ أفكار المرجئة تخدم البيت الأموي، الذي كان في رأي الشيعة وكثير من الأتقياء منحرفاً عن الجادة الدينية، وينبغي أن يغيّره المسلمون ويضعوا مكانه البيت العلوي. والمرجئة لم يكونوا يوافقونهم على هذا الرأي؛ لأنهم لا يريدون المفاضلة بين المسلمين ولا الحكم على أحد بتقوى وغير تقوى، فالمسلم يكفي أن يكون مسلماً»^(٢).

ثمّ صارت فيما بعد مذهباً عقائدياً فيه عدة فرق.

أثرها على ثقافة المجتمع وسلوكه

لا شك بأنّ انتشار فكرة الإرجاء الممنهج في وسط الأمة من أهمّ الأسباب التي قتلت روح الإيمان داخل نفوس المسلمين، وأماتت سُنّة المصطفى صلّى الله عليه وآله، وأخذت جذوة الإيمان التي تقضي على المسلم بأن يهتم بأُمور المسلمين، وأن يقف في وجه الظالم ليقول كلمة الحقّ وينصر المظلوم.

إنّ ثقافة الإرجاء التي نشأت بعد سنوات من رحيل النبي صلّى الله عليه وآله على يد كعب الأبحار وأعوانه بمباركة الحكّام آنذاك، تعاكس الثقافة التي جاء بها النبي

(١) أنظر: الكوراني، علي، جواهر التاريخ: ج ٢، ص ٢٣٠.

(٢) أيوب، سعيد، معالم الفتن: ج ٢، ص ٣٧٣. وانظر أيضاً: الغفار، عبد الرسول، الكليني والكافي:

المصطفى ﷺ بدرجة كبيرة، فهما على طرفي نقيض، فشرعية النبي تثقف المسلمين على مبدأ ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُمُ النَّارُ﴾^(١)، «مَنْ رَأَى سُلْطَانًا جَائِرًا مُسْتَحَلًّا لِحَرَمِ اللَّهِ، نَاكِثًا لِعَهْدِ اللَّهِ، مُخَالِفًا لِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، يَعْمَلُ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، ثُمَّ لَمْ يَغْيَرْ بِقَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ، كَانَ حَقِيقًا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخُلَهُ مَدْخَلُهُ»^(٢)، «مَنْ تَوَلَّى خَصُومَةَ ظَالِمٍ أَوْ أَعَانَ عَلَيْهَا، ثُمَّ نَزَلَ بِهِ مَلِكُ الْمَوْتِ قَالَ لَهُ: أَبْشِرْ بِلَعْنَةِ اللَّهِ وَنَارِ جَهَنَّمَ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ. وَقَالَ: مَنْ مَدَحَ سُلْطَانًا جَائِرًا أَوْ تَخَفَّفَ وَتَضَعَّضَ لَهُ طَمَعًا فِيهِ كَانَ قَرِينَهُ فِي النَّارِ»^(٣)، «مَنْ وَلِيَ جَائِرًا عَلَى جَوْرٍ كَانَ قَرِينَ هَامَانٍ فِي جَهَنَّمَ»^(٤)، «أَبْغَضَ الْخَلْقُ إِلَى اللَّهِ عَالَمَ زَارِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ أُمْنَاءَ مَا لَمْ يَزُورُوا سُلْطَانًا جَائِرًا، فَإِذَا زَارُوهُمْ خَانُوا فِي الدِّينِ، وَلَزِمَ الْفِرَارُ مِنْهُمْ»^(٥)، «إِنَّ فِي جَهَنَّمَ وَادِيًّا لَا يَدْخُلُ فِيهِ إِلَّا عَالَمُ زَارِ سُلْطَانًا جَائِرًا»^(٦).

وهذا - كما ترى - لا يتماشى مع ثقافة الإرجاء، فأين الإرجاء من ثقافة القرآن التي تقضي على المسلمين بمحاربة الظلم، ونصرة الحق، وتحقيق العدالة الاجتماعية، وتطبيق مبادئ السماء؟! وتطبيق مبادئ السماء؟!!

وهذا ما يبرّر لنا عدم مبالاة الكثير، بل النسبة الأكثر من المسلمين بانتشار المعاصي ومقارفتها.

لم تكن فكرة الإرجاء وليدة الصدفة، أو وليدة ظروف طبيعية في المجتمع، بل أُقْحِمَتْ في ثقافة الأمة بشيء من التدبير الممنهج للقضاء على ثقافة السماء التي تقف

(١) هود: آية ١١٣.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤، ص ٣٨٢.

(٣) الصدوق، محمد بن علي، مَنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيه: ج ٤، ص ١١.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المازندراني، محمد صالح، شرح أصول الكافي: ج ٩، ص ٥٦.

(٦) المصدر السابق.

أمام تطلّعات الحكّام وطموحاتهم، وليس هذا بالشيء الغريب من سياسة معاوية ومن هو على شاكلته، وهو صاحب النوايا الخبيثة التي يحكيها لنا التاريخ من أفواه أصحابه المقربين، ولنستمع ونتمعّن في هذه القصة التي يرويها المغيرة بن شعبة لعنّ الله، نديم معاوية المقرّب وأحد ولاته:

قال ابن أبي الحديد: «وروى الزبير بن بكار في الموفقيات، وهو غير متهم على معاوية، ولا منسوب إلى اعتقاد الشيعة؛ لما هو معلوم من حاله من مجانبة علي عليه السلام، والانحراف عنه: قال المطرف بن المغيرة بن شعبة: دخلت مع أبي على معاوية، فكان أبي يأتيه، فيتحدث معه، ثم ينصرف إليّ فيذكر معاوية وعقله، ويعجب بما يرى منه؛ إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء، ورأيتُه مغتماً فانتظرتُه ساعة، وظننتُ أنّه لأمر حدث فينا، فقلتُ: ما لي أراك مغتماً منذ الليلة؟ فقال: يا بني، جئتُ من عند أكفر الناس وأخبثهم، قلتُ: وما ذاك؟ قال: قلتُ له وقد خلوتُ به: إنّك قد بلغت سنّاً يا أمير المؤمنين، فلو أظهرتَ عدلاً، وبسطتَ خيراً؛ فإنّك قد كبرتَ، ولو نظرتَ إلى إخوانك من بني هاشم، فوصلتَ أرحامهم، فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، وإنّ ذلك ممّا يبقى لك ذكره وثوابه.

فقال: هيهات هيهات! أيّ ذكر أرجو بقاءه؟! ملك أخو تميم فعدل وفعل ما فعل، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلّا أن يقول قائل: أبو بكر، ثمّ ملك أخو عدى، فاجتهد وشمر عشر سنين، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلّا أن يقول قائل: عمر، وإنّ ابن أبي كبشة ليصّاح به كلّ يوم خمس مرّات: (أشهد أنّ محمداً رسولُ الله)، فأبي عملي يبقى، وأيّ ذكر يدوم بعد هذا، لا أباً لك! لا والله، إلّا دفناً دفناً»^(١).

هذا هو معاوية الذي يزعمه ذكرُ رسول الله ﷺ، قد وضع الخطط، وجنّد الأفواه والأقلام والسيوف لتغيير شرعة المصطفى ﷺ.

(١) ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ٥، ص ١٣٠.

وحرّيّ بنا أن نتأمّل هنا في سلوك المجتمع الإسلامي بعد انتشار ثقافة الإرجاء فيه، وهل يمكن أن نتوقّع أن يصدر منه غير الخنوع ونصرة الظالم طلباً للسلامة ورغيد العيش؟! بعد أن عرفنا فيما مضى من أنّ سلوك الإنسان إنّما هو وليد ثقافته، ولا يمكن أن تصدر منه الأفعال على خلافها إلّا بالقسر والإلجاء، وسرعان ما يعود إلى أفعاله المنسجمة مع ثقافته بمجرد زوال عوامل الإلجاء والقسر. فلا غرابة أن نرى المسلمين يصدر منهم ما لا يوافق أوامر نبيّهم ﷺ.

وإلّا فلماذا لم يحرك غالبية المسلمين ساكناً أمام جور معاوية من التهجير والقتل والسجن وقطع الأرزاق وهدم الدور؟! مع أنّهم قاموا على عثمان حين استخفّ قومه واستأثر بالمال!

فهل جريمة عثمان أشدّ من جريمة معاوية؟!

في الحقيقة أنّ معاوية عرّف اللعبة، فوضع خططاً لاستعباد الناس، ونقل السلطة إلى البيت الأموي، وهذا ما لم يطمع به الذين سبقوه وأوصلوه إلى دفعة الحكم.

ومن هنا نعرف مستوى المسخ الفكري والثقافي الذي ارتكبه معاوية لعَلَّاهُ بحقّ أُمّة المصطفى ﷺ إلى يومنا هذا.

وبما أنّ ثقافة المجتمع أصبحت لا تُفرّق بين الظالم والمظلوم، بين المؤمن والمنافق، بين العادل والفاسق؛ فلا يمكنها أن تنهض في وجه معاوية لتنصر الحسن ﷺ، ولا تقف مع الحسين ﷺ في وجه يزيد.

المجبرة

الجبر لغة: جَبَرَهُ على الأمر وأَجْبَرَهُ: قَهَرَهُ عليه، وأَكْرَهَهُ على الإتيان به^(١).

(١) أنظر: ابن سيده، علي بن إسماعيل، المخصص: ج ٤، ق ٢، ص ٢٣١. أبو حبيب، سعدي، القاموس الفقهي: ص ٥٧.

وأما بحسب اصطلاح علماء العقائد فالمراد به: إجبارُ الله تعالى عباده على ما يفعلون، خيراً كان أو شراً، حسناً كان أو قبيحاً، دون أن يكون للعبد إرادة واختيارُ الرفض والامتناع، وأن كل ما يحدث للإنسان قُدِّرَ عليه أزلاً، فهو مُسيّر لا مُحَيَّر^(١).
متى ظهرت فكرة الجبر؟

فكرة الجبر من الأفكار القديمة التي شاعت بين أبناء الديانة اليهودية وغيرهم من أهل الكتاب والمشرّكين، كما يحدثنا القرآن الكريم عنهم: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾^(٢).

وقد انتقلت فكرة الجبر إلى المجتمع الإسلامي بطريقتين: الأولى الطريق العشوائي، ونعني به: بقاء الفكرة في طبّيات ذهن بعض الصحابة؛ فإنهم حين أسلموا لم يستطيعوا التخلص من ترسّبات عقائدهم القديمة بالكامل، فجاؤوا إلى الإسلام وهم يحملونها، ثم انتقلت منهم إلى من يحتكّ بهم ويتأثر بآرائهم.

ولذا تجد بعض التصريحات تدلّ على ذلك، فقد روي عن وهب بن منبه أنّه قال: «كنت أقول بالقدر حتّى قرأت بضعةً وسبعين كتاباً من كتب الأنبياء في كلّها: من جعل لنفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر، فتركْتُ قولي»^(٣).

فهو صريح في أنّه ترك ما كان يعتقد به بسبب قراءته لكتب أهل الكتاب، والتي عبّر عنها بكتب الأنبياء.

والطريق الآخر هو الطريق الممنهج، ونعني به: وجود قصد في إدخال هذه

(١) أنظر: المفيد، محمد بن محمد بن النعمان، تصحيح اعتقادات الإمامية: ص ٤٦. الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل: ج ١، ص ٨٥. الإيجي، عبد الرحمن بن أحمد، المواقف: ج ٣، ص ٧١٢. الجرجاني، علي بن محمد، شرح المواقف: ج ٨، ص ١٤٦.

(٢) الأنعام: آية ١٤٨.

(٣) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، مقدمة فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ص ٤٥٠.

الفكرة في الذهنية الإسلامية، وإنزالها كعقيدة دينية سماوية، يُستدلّ عليها من القرآن، ويوضع لها الأحاديث النبوية؛ وذلك لأغراض شخصية تمليها عليه ميولاًته لتبرير أفعاله الشنيعة.

وهناك تصريحات من الصحابة بفكرة الجبر، تدلّ بوضوح أنّها تعيش في أفكارهم يسرّحونها إلى المألّ حين يُلجئهم الموقف، ومتى ما أعجزهم الجواب أو غاب عنهم العذر الرصين عمّا يصدر منهم؛ لتبرير مواقفهم وأخطائهم.

فعندما يُسأل عمر بن الخطاب عن سبب فراره وتركه لرسول الله ﷺ بين بريق السيوف واصطكاك الأسنة، لا يجد لسوء فعله مخرجاً ولا عذراً يتسرّ تحت ظلّه إلّا الجبر، فقد روى الواقدي في (المغازي) في أحداث معركة حنين، وانهزام بعض المسلمين، أنّ: «أمّ الحارث الأنصارية أخذت بخطام جمل أبي الحارث زوجها، وكان جملة يُسمّى المجسار، فقالت: يا حار، ترك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟! فأخذت بخطام الجمل، والجمل يريد أن يلحق بألافه، والناس يولّون منهزمين، وهي لا تفارقه. فقالت أمّ الحارث: فمرّ بي عمر بن الخطاب، فقالت أمّ الحارث: يا عمر، ما هذا؟! فقال عمر: أمر الله»^(١).

وعندما تُسأل عائشة بنت أبي بكر عن سبب خروجها على أمير المؤمنين عليّ عليه السلام مع سابق اعترافها بفضلها، تلوذ - أيضاً - بفكرة الجبر، فقد جاء في (محاسن البيهقي): «سُئلت عائشة عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فقالت: وما عسيّت أن أقول فيه، وهو أحبّ الناس إلى رسول الله ﷺ، لقد رأيتُ رسول الله ﷺ قد جمع شملته على عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليه السلام. وقال: هؤلاء أهل بيتي، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. قيل لها: فكيف سرت إليه؟! قالت: أنا نادمة، وكان

(١) الواقدي، محمد بن عمر، المغازي: ج ٢، ص ٩٠٤. أنظر أيضاً: الصالحى الشامى، محمد بن يوسف، سبل الهدى والرشاد: ج ٥، ص ٣٣١. العاملى، جعفر مرتضى، الصحيح من سيرة النبي الأعظم ﷺ: ج ٢٤، ص ١٢٦.

ذلك قدراً مقدوراً»^(١).

وعندما تستفز عائشة معاوية بن أبي سفيان عن أمر تنصيب ولده يزيد على الأمة بلا حق، شهر بوجهها سيف الجبر: «إن أمر يزيد قضاء من القضاء، وليس للعباد الخيرة من أمرهم»^(٢).

وهكذا يستفيد معاوية من هذا السلاح عندما أحسّ بأنّ زياد ابن أبيه طمع في الخلافة بعده، فخطب خطبة - وكان زياد حاضراً - قال فيها: «هذه الخلافة أمر من أمور الله، وقضاء من قضاء الله، وأنها لا تكون لمنافق ولا لمن صلى خلف إمام منافق»^(٣). وبنفس هذا الجواب يجب معاوية على اعتراض ابن الزبير وابن عمر، فيقول لهما: «وقد أخرجك الله يابن الزبير وأنت يابن عمر منها»^(٤).

يقول السيّد العاملي عن عقيدة الجبر: «فهي التي برّ بها عثمان تمسكه بالحكم إلى أن قُتل، وبرّرت بها عائشة خروجها لحرب أمير المؤمنين علي عليه السلام... واحتجّ بها معاوية لعهد لولده يزيد الخمر والفجور بالخلافة بعده. واستدلّ بها عمر بن سعد لقتل الإمام الحسين سيّد شباب أهل الجنة عليه السلام، وارتكاب مجزرة كربلاء. وهي الحجّة التي استدلّ بها خالد بن الوليد لقتل مالك بن نويرة وأصحابه المسلمين، وهي التي برّ بها معاوية والمنصور العباسي منع الناس من الحصول على حقوقهم من بيت مال المسلمين. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل وُضعت الأحاديث على لسان النبي الأكرم ﷺ لتأييد

(١) البيهقي، إبراهيم بن محمد، المحاسن والمساوي: ص ٢٢٢.

(٢) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٥٨. الأُميني، عبد الحسين بن أحمد، الغدير: ج ١٠، ص ٢٢٥.

(٣) ابن عساکر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج ١٩، ص ١٩٧.

(٤) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٥٠. الأُميني، عبد الحسين بن أحمد، الغدير: ج ١٠، ص ٢٤٤.

هذه العقيدة وتأكيدا، وترويجها ونشرها»^(١).

وروى السيوطي عن عبد الله بن عمر، قال: «جاء رجل إلى أبي بكر، فقال: أرايتَ الزنا بقدر؟ قال: نعم، قال: فإنَّ الله قدَّره عليَّ ثمَّ يعدُّني؟ قال: نعم، يا بن اللخناء، أما والله لو كان عندي إنسان أمرته أن يجأ أنفك»^(٢).

ولكنَّ المسألة تطوّرت في زمن معاوية، فأخذ الجبر مذهباً ينشره بين الناس، وثقافة تصوغ سلوكياتهم. يقول القاضي عبد الجبار في (المغني في أبواب العدل والتوحيد): «أظهر معاوية أنَّ ما يأتيه بقضاء الله ومن خلقه؛ ليجعله عذراً فيما يأتيه، ويوهم أنَّه مصيب فيه، وأنَّ الله جعله إماماً وولاه الأمر، وفشا ذلك في ملوك بني أمية»^(٣).

وجاء في (تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام): «... إنَّ الأمويين كانوا يحبِّذون مقالة الجبر؛ لموافقتها لموقفهم السياسي، من حيث إنَّها تؤيد ما يذهبون إليه من أنَّ الله قد أراد وقدَّر أن يصل الأمويون إلى الخلافة وحكم المسلمين، وكذلك في القول بالجبر عذر عن الإتيان ببعض المعاصي التي كان الأمويون يقترفونها»^(٤).

وقال ابن شهر آشوب: «أول من أظهر الجبر في هذه الأمة معاوية؛ ذلك أنَّه خطبَ فقال: يا أهل الشام، أنا خازن من خزان ربِّي، أعطي من أعطاه الله، وأمنع من منعه الله بالكتاب والسُّنة. فقام أبو ذر (رحمة الله عليه)، وقال: كذبتَ، والله إنَّك لتعطي من منعه الله بالكتاب والسُّنة، وتمنع من أعطاه الله. فقام عبادة بن الصامت ثمَّ أبو الدرداء، وقالوا: صدق أبو ذر، صدق أبو ذر»^(٥).

(١) العاملي، جعفر مرتضى، أهل البيت (عليهم السلام) في آية التطهير: ص ١٢٧، ١٣٠.

(٢) السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء: ص ١٠٦.

(٣) الأسد آبادي، القاضي عبد الجبار بن أحمد، المغني في أبواب العدل والتوحيد: ج ٨، ص ٢٦.

(٤) أبو ريان، محمد علي، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام: ص ١٤٧.

(٥) ابن شهر آشوب، محمد بن علي، متشابه القرآن ومختلفه: ص ١٢٣.

وهذا يعني أنّ فكرة الجبر أخذها بعض الصحابة كذريعة لتمويه العقول، وتبرير أفعالهم، ولكن في زمن معاوية تحوّلت القصة إلى مستوى أعلى من ذلك، فلم تكن فكرة الجبر لتبرير ما صدر، بل لتمرير ما يأتي.

إنّ معاوية مُقبل على مشروع كبير، وهو الاستحواذ على الملك، ولا يُرضيه أن يحكم هو لفترة من الزمن، بل قام بإرساء قواعد لمشروعه، وهو حكومة بني أمية، ونسف كلّ ما يقف في طريق مشروعه بما في ذلك رسول الله ﷺ وشريعته وأهل بيته؛ ولهذا قاتل عليّاً عليه السلام، وماكر الحسن عليه السلام ثمّ دسّ إليه السم، وهدد الحسين عليه السلام بالقتل إن أظهر الخلاف على بيعة يزيد^(١).

ولعلّ ما نقلناه سابقاً عن ابن أبي الحديد خير شاهد على ذلك: «... وإنّ ابن أبي كبشة ليُصاح به كلّ يوم خمس مرّات: (أشهد أنّ محمداً رسول الله)، فأيّ عملي يبقى، وأيّ ذكر يدوم بعد هذا؟! لا أبأ لك! لا والله إلاّ دفناً دفناً»^(٢).

وهذا يعني أنّ فكرة الجبر - وإن وُجدت جذورها في كلمات الصحابة والخلفاء - ولكنها لم تكن ثقافة أمة، فحوّلها معاوية - بدهائه الوضع - إلى ثقافة مجتمع بأكمله، فصارت عقيدة لثلة كبيرة من المجتمع، ثمّ تشعبت منها ومن الإرجاء فرق. يقول شيخ الأزهر محمد أبو زهرة: «إنّنا نجزم بأنّ القول في الجبر شاع في أوّل العصر الأموي وكثر حتى صار مذهباً في آخره... وقد قالوا: إنّ أوّل من فعل ذلك بعض اليهود، فقد علّموه بعض المسلمين، وهؤلاء أخذوا ينشرونه»^(٣).

(١) أنظر: ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٦٣. الأميني، عبد الحسين بن أحمد، الغدير: ج ١٠، ص ٢٥٢.

(٢) ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ٥، ص ١٣٠.

(٣) أيوب، سعيد، معالم الفتن: ج ٢، ص ٣٦٧. نقلاً عن تاريخ المذاهب الإسلامية: ص ١٠٢، وتاريخ الفرق الإسلامية: ص ٦٨.

أثر فكرة الجبر على ثقافة المجتمع وسلوكه

لا شك أنّ للثقافة دوراً كبيراً في سلوك الفرد والمجتمع - كما تقدّم - وأنّ الثقافة هي التي تنهض بهم، وهي التي تقف بهم موقف الإحجام، فإذا كانت ثقافة المجتمع تُبلي عليهم أنّ الحاكم لا يظلم أحداً ولا يقتل أحداً، بل كلّ ذلك فعل الله تعالى، وأنّ الله هو الذي سلّطه عليهم، وهو الذي أجبره على هذا الفعل، فهذا يعني - عند من يحمل ثقافة كهذه - أنّ الاعتراض عليه اعتراض على فعل الله وقضائه وقدره ومشيّئته، وهو في حدّ الكفر.

ومن هنا؛ فلقد اتخذ سلطان معاوية جناحين يطير بهما لشيت أركانه، وهما: الجبر والإرجاء، فثقافة الجبر تنفي عنه الظلم وتزيّنه بالعدالة؛ إذ ما يصدر من قتل وظلم وما شاكلة ليس له فيه اختيار، بل هو من الله تعالى، أجبر معاوية وولاته عليه.

وثقافة الإرجاء تنفي عنه الفسق وتلبسه حلّة الإيمان؛ لأنّ المناط في الإيمان ودخول الجنة ورضا الربّ الجليل هو الشهاداتتان، بل التوحيد فقط، ولا دخل للعمل في دخول الجنة والنار، وإنّما المناط على العقيدة؛ لأنّ الأفعال في الحقيقة هي أفعال الله تعالى، أجبر عباده عليها، فليس من حقّ المسلم أن يعترض على عدالة معاوية وولاته؛ لأنّه اعتراض على أمر الله وقدره.

وبذلك نزه نفسه - فكراً وسلوكاً - أمام الأمة المستعبدة التي أفقدها بنو أمية ثقافتها ففقدت كلّ شيء.

وعليه؛ فنشر فكرة الجبر بين أبناء الأمة الإسلامية بطريقة ممنهجة له آثاره وأهدافه التي يسعى إليها بنو أمية وعلى رأسهم معاوية. فبواسطة هذه الثقافة الدخيلة على الفكر الإسلامي استطاع معاوية أن يقضي على الكثير من الحراك الثوري المتوقع ضده.

الخوارج

فرقة من النواصب خرجت ضد أمير المؤمنين عليه السلام في أيام خلافته، بعد حادثة التحكيم، يقول الشهرستاني: «كل من خرج عن الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمّى خارجياً»^(١).

وجاء في كتاب (صلح الحسن عليه السلام): «الخوارج: وهم أعداء علي عليه السلام منذ حادثة التحكيم، كما هم أعداء معاوية. وأقطاب هؤلاء في الكوفة: عبد الله بن وهب الراسبي، وشبث بن ربعي، وعبد الله بن الكوّاء، والأشعث بن قيس، وشمر بن ذي الجوشن»^(٢). ومن بدعهم أن اعتبروا كل معصية كفراً، ومنهم من فرق بين الصغيرة والكبيرة، وتمسكوا ببعض النصوص الناطقة بكفر العصاة، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٣).

متى ظهرت فرقة الخوارج؟

ظهرت هذه الفرقة الضالة في أيام خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أثناء حرب صفين، حين رفع معاوية المصاحف بمكر من عمرو بن العاص لعنه الله لما استشعر الهزيمة وآيس من النصر. فلجأ لمكر المصالحة والتحكيم، يقول الشهرستاني: «اعلم أن أول من خرج على أمير المؤمنين علي عليه السلام جماعة ممن كان معه في حرب صفين، وأشدّهم خروجاً عليه ومروقاً من الدين الأشعث بن قيس الكندي، ومسعر بن فدكي التميمي، وزيد بن حصين الطائي؛ حين قالوا: القوم يدعوننا إلى كتاب الله وأنت تدعوننا إلى السيف»^(٤).

(١) الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل: ج ١، ص ١١٤.

(٢) آل ياسين، راضي، صلح الحسن عليه السلام: ص ٧٠.

(٣) المائدة: آية ٤٤. أنظر: التفتازاني، سعد الدين، شرح المقاصد في علم الكلام: ج ٢، ص ٢٥٨.

(٤) الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل: ج ١، ص ١١٤.

وقال أيضاً: «وكان من أمر الحكمين أن الخوارج حملوه (يعني أمير المؤمنين عليه السلام) على التحكيم أولاً، وكان يريد أن يبعث عبد الله بن عباس عليه السلام فما رضى الخوارج بذلك، وقالوا: هو منك، وحملوه على بعث أبي موسى الأشعري، على أن يحكم بكتاب الله تعالى، فجرى الأمر على خلاف ما رضى به، فلمّا لم يرض بذلك خرجت الخوارج عليه، وقالوا: لم حكمت الرجال، لا حكم إلا لله؟ وهم المارقة الذين اجتمعوا بالنهروان»^(١).

أثرها على ثقافة المجتمع وسلوكه

من أبشع الظواهر الاجتماعية السلبية التي تنهك الأمة هي حالة التنكّر للحق، وعدم مراعاة المصلحة العامة للمجتمع، وتآليب الرأي العام ضدّ الحكومة التي ترفع العدل شعاراً لها، ومنهجاً تسير عليه.

وهذا ما ابتليت به مجتمعاتنا الإسلامية في أيام أمير المؤمنين عليه السلام وما بعده، حين ولدت فرقة الخوارج المشؤومة من رحم شبهات ومكائد معاوية وأعوانه، فكانت هذه الفرقة سبباً لكثير من الويلات التي أثقلت كاهل الأمة إلى يومنا هذا.

فبسببها نجا معاوية من الهلاك المحتوم، وقُتل الإمام علي عليه السلام، وصالح الإمام الحسن عليه السلام، حتى عاد الحكم إلى الطلقاء. يقول الشيخ آل ياسين: «... إن الخوارج كانوا أداة الكارثة في أخرج ظروفها»^(٢). وقال أيضاً: «وهم الذين شرطوا على الحسن - عند بيعتهم له - حرب الحاليين الضالّين - أهل الشام -، فقبض الحسن يده عن بيعتهم على الشرط، وأرادها على السمع والطاعة، وعلى أن يحاربوا من حارب ويسالموا من سالم، فأتوا الحسين أخاه، وقالوا له: (ابسط يدك نبايعك على ما بايعنا عليه أباك يوم بايعناه، وعلى حرب الحاليين الضالّين أهل الشام). فقال الحسين عليه السلام: (معاذ الله أن أباعكم ما دام الحسن

(١) المصدر السابق: ص ١١٥.

(٢) آل ياسين، راضي، صلح الحسن عليه السلام: ص ٧١.

حيًا). فانصرفوا إلى الحسن ولم يجدوا بداً من بيعته على شرطه^(١).

وهذا يعني أنّ للخوارج تأثيراً كبيراً في صناعة ثقافة المجتمع والميل بها نحو مقاصدهم، بما كانوا يحملون من فكر متطرّف قائم على عدااء أهل البيت، عليّ وأولاده عليه السلام، وكانوا ينشرون فكرهم هذا أين ما وجدوا لذلك سبيلاً، فكانوا يزعمون إيمان الكثير من البسطاء ومرضى القلوب بأساليب ذات تأثير كبير في وسط الأمّة، وهذا ما نراه في كلمات بعض من وصفهم بمن عاصرهم.

يقول فيهم المغيرة بن شعبه: «فإنهم لن يقيموا ببلد يومين إلّا أفسدوا كلّ من خالطهم»^(٢). وقال فيهم عبيد الله بن زياد يصف دعوتهم: «لكلام هؤلاء أسرع إلى القلوب من النار إلى اليراع»^(٣).

ويقول الشيخ آل ياسين: «وللخوارج في دعواتهم إلى الخروج أساليبهم المؤثرة المخيفة التي كانت تزعزع إيمان كثير من الناس بالشكوك. وكان هذا هو سرّ انتشارهم بعد نكبتهم الحاسمة على شواطئ النهر وان»^(٤).

ومن الملاحظ أنّ هذه الفرقة لم تكن في بلد خاص، كما يُفهم من بعض المؤرخين، بل تجد لهم وجوداً في مناطق متعددة.. يقول صاحب كتاب (الملل والنحل): «فقاتلهم عليّ عليه السلام بالنهر وان مقاتلة شديدة، فما انفلت منهم إلّا أقلّ من عشرة، وما قُتل من المسلمين إلّا أقلّ من عشرة، فانهزم اثنان منهم إلى عُمان، واثنان إلى كرمان، واثنان إلى سجستان، واثنان إلى الجزيرة، وواحد إلى تلّ مورو باليمن. وظهرت بدع الخوارج في هذه المواضع منهم، وبقيت إلى اليوم»^(٥).

(١) المصدر السابق: ص ٧٠.

(٢) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ١٤٥.

(٣) اليراع: القصب. أنظر: الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح: ج ٣، ص ١٣١٠.

(٤) آل ياسين، راضي، صلح الحسن عليه السلام: ص ٧١.

(٥) الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل: ج ١، ص ١١٧.

وهذا يعني أنّ أكثر البلدان الإسلامية لم تسلم من تأثيرهم الفكري وحراكهم الثقافي.

أتباع السلطة: (العثمانيون - الأميون)

دخل بنو أمية كعنصر أساسي في الحكومة الإسلامية بعد رحيل رسول الله ﷺ في أيام أبي بكر، حيث أمر يزيد بن أبي سفيان على ربع الشام (فلسطين)، ثم في أيام عمر بن الخطاب جعل معاوية على الأردن^(١)، وجعل يزيد بن أبي سفيان على كلّ الشام بعد موت واليها معاذ بن جبل في سنة ١٨ هـ، وقيل: ١٩ هـ، فلمّا مات يزيد نصب مكانه أخاه معاوية فأقرّه عمر على ذلك^(٢).

حتى جاءت سنة ٢٤ هـ حيث مات عمر، وصار الأمر إلى عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، فقرب بني أبيه، وقسم المال والحكم عليهم. واستمرّ سلطان بني أمية مبطناً باسم الخلافة وولاية الشام قرابة إحدى عشرة سنة^(٣).

فصارت مفاصل القوة السياسية والعسكرية والاقتصادية بأيديهم، فقويت شوكتهم وعظم أمرهم.

وعندما جاءت خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام سنة ٣٦ هـ كان معاوية قد ملك الشام وأهلها، وذاع صيته في البلدان. ثمّ جرت الأمور بما يخدم مصالحهم حتى تربّع معاوية على عرش السلطة، وأصبحت مقادير الدولة الإسلامية بتمامها تحت سلطنته، فكان له أعوان ومريدون يغدق عليهم بهاله، ويبدلون له ما يريد من أحاديث، ونشر فضائل، وتشويه صورة أعدائه ومنافسيه،

(١) أنظر: ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج ١٦، ص ٢٦٥.

(٢) العصفري، خليفة بن خياط، تاريخ خليفة: ص ١١١ - ١١٢.

(٣) أنظر: أبو رية، محمود، شيخ المضيرة أبو هريرة: ص ١٥٦.

وكل ما له دخل في دعم سلطانه^(١).

فكان لهذه الطائفة وجود ملموس، خصوصاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار حالات المجتمع بالشكل الطبيعي من تبعيته لمن في يده القوة الاقتصادية والعسكرية، حيث كان معاوية يلوح بهما في مملكته.

ولولا وجود ثقل اجتماعي وسياسي لهذه الفئة لم يتمكن ولاتها أن يستقرّوا في البلدان مع كل الفساد الذي ارتكبه في حق الأمة، خصوصاً في المدن التي تنوع نسيجها السياسي والعقائدي كالكوفة والبصرة؛ ممّا يعني أنّ ولاتهم يتمتعون بقوة تحميهم من سطوة غيرهم.

وقد أثرت ولاية بني أمية وحكومتهم على ثقافة الأمة بشكل كبير جداً، لا سيّما في عهد ولاية معاوية على الشام وأيام خلافته، حيث تعمّد نشر ثقافة بعيدة عن روح الإسلام وعن الواقع الخارجي، فقد وضع مجموعة أحاديث كاذبة على لسان رسول الله ﷺ تزويراً وتزييفاً للحقائق، كما سيمرّ علينا أثناء البحث.

شيعة أهل البيت عليه السلام

الشيعة من التيارات التي لها وجودها كخط فكري في الحياة الثقافية، ولها تأثيرها في الوسط الاجتماعي، بحيث لا يمكن لباحث اجتماعي أن يمرّ على تاريخ الإسلام من دون أن يقف عندها.

والشيعة لغةً: هم الأتباع والأنصار والأعوان، من المشايعة بمعنى المطاوعة والمتابعة، وإذا أُطلقت لفظة الشيعة أو التشيع فالمراد بها أتباع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

(١) أنظر: ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٦٣.

قال ابن خلدون في مقدّمته: «اعلم أنّ الشيعة لغةً هم الصحب والأتباع، ويُطلق في عرف الفقهاء والمتكلّمين من الخلف والسلف على أتباع عليّ وبنيه عليه السلام، ومذهبهم جميعاً متفقين عليه: أنّ الإمامة ليست من المصالح العامة التي تُفوّض إلى نظر الأمة ويتعيّن القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبيّ إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر، وإنّ عليّاً عليه السلام هو الذي عيّنه (صلوات الله وسلامه عليه) بنصوص ينقلونها ويؤوّلونها على مقتضى مذهبهم»^(١).

متى بدأت فكرة التشيع؟

بدأت فكرة الانتماء إلى إمامة علي بن أبي طالب عليه السلام منذ اللحظات الأولى لظهور الإسلام في مكة المكرمة بدعوة من النبي صلى الله عليه وآله، كما هو واضح لمن تتبّع حركة النبي في بداية الدعوة.

يقول الشيخ مغنية: «ثم قال صاحب تاريخ الشيعة: فكانت الدعوة إلى التشيع لعليّ من محمد تمثي منه جنباً لجنب مع الدعوة إلى شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله»^(٢).

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي، تاريخ ابن خلدون: ج ١، ص ١٩٦.
 (٢) مغنية، محمد جواد، الشيعة في الميزان: ص ١٩. وجاء في كتاب عصر الشيعة للشيخ الكوراني تحت عنوان: (النبي صلى الله عليه وآله أسس التشيع لعلي عليه السلام): «روى السنّة والشيعة أنّ النبي صلى الله عليه وآله سمّى أتباع علي عليه السلام (الشيعة)، ووصفهم بأنهم خير أُمّة. فقد روى السيوطي في الدرّ المنثور: ٦ / ٣٧٩، في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ (٧) جَزَأُوهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ»، عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: (كنا عند النبي صلى الله عليه وآله، فأقبل عليّ فقال النبي صلى الله عليه وآله: والذي نفسي بيده إنّ هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة. ونزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾، فكان أصحاب النبي إذا أقبل عليّ قالوا: جاء خير البرية. وأخرج ابن عدي وابن عساكر، عن أبي سعيد مرفوعاً: عليّ خير البرية. وأخرج ابن عدي عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾، قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي: هو أنت وشيعتك تأتون يوم

فكان النبي ﷺ يشير إلى وجوب اتباع علي عليه السلام، وأنه الخليفة بعده، ويذكر فضل أتباعه وشيعته في الدنيا والآخرة، من قبيل دعوته للتمسك بأمر المؤمنين عليه السلام من بعده في حادثة الدار، حين دعا ذوي قرباه من بني هاشم عندما نزلت الآية المباركة: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(١)، فأخذ بيد أمير المؤمنين، وقال: «إِنَّ هَذَا أَخِي وَوَصِيِّي وَوَزِيرِي وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا. قَالَ: فَقَامَ الْقَوْمُ يَضْحَكُونَ، وَيَقُولُونَ لِأَبِي طَالِبٍ: قَدْ أَمَرَكُ أَنْ تَسْمَعَ لَابْنِكَ وَتَطِيعَ»^(٢).

القيامة راضين مرضيين. وأخرج ابن مردويه عن علي قال: قال لي رسول الله ﷺ: ألم تسمع قول الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾؟! أنت وشيعتك، وموعدي وموعدكم الخوض إذا جاءت الأمم للحساب، تدعون غراً محجلين).

وفي شواهد التنزيل: ٢ / ٤٦٤، عن ابن عباس: (تلا النبي ﷺ هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾، فوضع يده على كتف علي، وقال: هو أنت وشيعتك يا علي، ترد أنت وشيعتك يوم القيامة رؤاء مرويين، ويرد عدوك عطاشى مقمحين). وروى الخطيب الخوارزمي عن علي عليه السلام، قال: (قال النبي ﷺ يوم فتحت خيبر: لولا أن يقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم، لقلت اليوم فيك مقالاً لا تمر على ملاء من المسلمين إلا أخذوا من تراب نعليك وفضل طهورك، يستشفون به! ولكن حسبك أن تكون مني وأنا منك، ترثني وأرثك، وأنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي... وإن شيعتك على منابر من نور، رؤاء مرويين مبيضة وجوههم حولي، أشفع لهم فيكونون غداً في الجنة جيرانى. وإن عدوك ظماء مظمتون، مسودة وجوههم مقمchon! حربك حربي وسلمك سلمى...). الكوراني، علي، عصر الشيعة: ص ١٦. وانظر أيضاً: الخوارزمي، محمد بن أحمد، المناقب: ص ١٢٩. القندوزي الحنفي، سليمان بن إبراهيم، ينابيع المودة لدوي القربى: ج ١، ص ٢٠٠.

(١) الشعراء: آية ٢١٤.

(٢) الأميني، عبد الحسين بن أحمد، الغدير: ج ٢، ص ٢٧٨. وقال بعد نقل هذه الحادثة ما نصه: «وبهذا اللفظ أخرجه أبو جعفر الإسكافي المتكلم المعتزلي البغدادي المتوفى ٢٤٠ في كتابه (نقض العثمانية)، وقال: إنه روي في الخبر الصحيح. ورواه الفقيه برهان الدين في (أنباء نجباء الأبناء) ص ٤٦ - ٤٨. وابن الأثير في (الكامل) ج ٢، ص ٢٤. وأبو الفدا عماد الدين الدمشقي في تاريخه ج ١، ص ١١٦. وشهاب الدين الخفاجي في (شرح الشفا) للقاظمي عياض ج ٣، ص ٣٧ (وبتر آخره)، وقال: ذكر في دلائل البيهقي وغيره بسند صحيح. والخازن علاء الدين البغدادي في تفسيره ص ٣٩٠. والحافظ السيوطي في (جمع الجوامع) كما في ترتيبه ج ٦، ص ٣٩٢، نقلاً عن

وغير ذلك من المواضع التي ذكرها المؤرخون، وبينها علماءنا عليه السلام.

ومن هنا تجد الكثير من كبار صحابة النبي صلى الله عليه وآله المعروفين بصلاحهم وإخلاصهم للإسلام وطاعتهم للنبي صلى الله عليه وآله، كانوا معروفين بولائهم وانتمائهم لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، بحيث يقال لهم: شيعة علي^(١)، أمثال: سلمان، عمار، أبو ذر، المقداد، حذيفة بن اليمان، ابن عباس، خزيمة بن ثابت، أبو أيوب الأنصاري، سعد بن عباد، قيس بن سعد، عدي بن حاتم، عثمان بن حنيف، أبو الهيثم بن التيهان، وغيرهم^(٢).

الطبري، وفي ص ٣٩٧ عن الحفاظ الستة: ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي. وابن أبي الحديد في (شرح نهج البلاغة) ج ٣ ص ٢٥٤. وذكره المؤرخ جرجي زيدان في (تاريخ التمدن الإسلامي) ج ١، ص ٣١. والأستاذ محمد حسين هيكل في (حياة محمد) ص ١٠٤ من الطبعة الأولى. ورجال السند كلهم ثقات إلا أبو مريم عبد الغفار بن القاسم فقد ضعفه القوم، وليس ذلك إلا لتشيعه؛ فقد أثنى عليه ابن عقدة وأطراه وبالغ في مدحه كما في (لسان الميزان) ج ٤، ص ٤٣. وأسند إليه وروى عنه الحفاظ المذكورون وهم أساتذة الحديث، وأئمة الأثر، والمراجع في الجرح والتعديل، والرفض والاحتجاج، ولم يقذف أحد منهم الحديث بضعف أو غمز لمكان أبي مريم في إسناده، واحتجوا به في دلائل النبوة والخصائص النبوية. وصححه أبو جعفر الإسكافي وشهاب الدين الخفاجي كما سمعت. وحكي السيوطي في (جمع الجوامع) كما في ترتيبه ج ٦، ص ٣٩٦ تصحيح ابن جرير الطبري له.

على أن الحديث ورد بسند آخر رجاله كلهم ثقات كما يأتي، أخرجه أحمد في مسنده ج ١، ص ١١١ بسند رجاله كلهم من رجال الصحاح بلا كلام، وهم: شريك، الأعمش، المنهال، عباد. وليس من العجيب ما هملج به ابن تيمية من الحكم بوضع الحديث فهو ذلك المتعصب العنيد، وإن من عاداته إنكار المسلمات، ورفض الضروريات، وتحكماته معروفة، وعرف منه المنقبون أن مدار عدم صحة الحديث عنده هو تضمّنه فضائل العترة الطاهرة.

(١) أنظر: السبحاني، جعفر، أضواء على عقائد الشيعة الإمامية: ص ٢٣.

(٢) أنظر: المظفر، محمد حسن، الإمام الصادق عليه السلام: ج ١، ص ٤٤، نقلاً عن الاستيعاب في ترجمة أبي ذر، والدرجات الرفيعة للسيد علي خان في ترجمة سلمان، وروضات الجنّات نقلاً عن كتاب الزينة لأبي حاتم الرازي، وشرح النهج: ج ٤، ص ٢٢٥، وخطط الشام لمحمد كرد علي: ج ٥، ص ٢٥١ - ٢٥٦.

تأثير فكرة التشيع على المجتمع

هناك تأثير واضح للتشيع والفكر الشيعي في ثقافة الأمة بمختلف توجّهاها؛ فإنّ له تأثيراً كبيراً على الحركة السياسية والعقائدية والفقهية والتفسيرية.

وليس هذا من المبالغة في شيء، بل تستطيع أن ترجع إلى فترة ما بعد رحيل رسول الله ﷺ لتجد ذلك جلياً من خلال مواقف بعض الصحابة، كموقف فاطمة عليها السلام وسلمان والزبير وطلحة وأبي ذر ومالك بن نويرة وقبيلته، وغيرها من القبائل التي رفضت خلافة غير عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ولكنّ الخلافة المستحدثة واجهتهم بذريعة حروب الردّة، فقتل المسلمون المتمردون بهذه الحجّة.

وهكذا مواقف الأنصار، بل حتى البيت الأموي بزعامة أبي سفيان لم يكن في بداية الأمر قابلاً بالخلافة هؤلاء، وكان متعجباً من عدم تسلّم أمير المؤمنين عليه السلام لها، بحيث رفض أبو سفيان ذلك، ففي (تاريخ اليعقوبي): «وكان فيمن تخلف عن بيعة أبي بكر أبو سفيان بن حرب، وقال: أرضيتكم يا بني عبد مناف أن يلي هذا الأمر عليكم غيركم؟ وقال لعليّ بن أبي طالب: امدد يدك بأبيك، وعليّ معه قصي، وقال:

بني هاشم لا تظمعوا الناس فيكم	ولا سيّما تيم بن مرة أو عدي
فما الأمر إلّا فيكم وإليكم	وليس لها إلّا أبو حسن علي
أبا حسن، فاشدد بها كف حازم	فإنّك بالأمر الذي يرتجى ملي
وإنّ امرأ يرمي قصي وراءه	عزيز الحمى، والناس من غالب قصي

وكان خالد بن سعيد^(١) غائباً، فقدم فأتى علياً، فقال: هلّم بأبيك، فوالله ما في

(١) خالد بن سعيد بن العاص بن أمية، من السابقين الأوّلين إلى الإسلام. أسلم هو وامرأته أمينة بنت خلف بن أسعد الخزاعية لرؤيا رآها، خلاصتها: أنّه رأى في المنام كأنّ أباه يريد أن يلقيه في النار فجذبته رسول الله ﷺ ونجّاه منها. فاستيقظ من رؤياه وذهب إلى رسول الله ﷺ وأسلم على

الناس أحدٌ أولى بمقام محمد منك. واجتمع جماعة إلى عليّ بن أبي طالب يدعونه إلى البيعة له، فقال لهم: أَعِدُوا على هذا محلّين الرّؤوس. فلم يَغْدُ عليه إلّا ثلاثة نفر»^(١).

وقد كتب أمير المؤمنين (عليه السلام) بذلك إلى معاوية فُبيل حرب صفين، يذكره بموقف أبيه: «وقد كان أبوك أتاني حين ولي الناس أبا بكر، فقال: أنت أحقّ بعد محمد (صلى الله عليه وآله) بهذا الأمر، وأنا زعيم لك بذلك على مَنْ خالف، ابسط يدك أبياعك. فلم أفعَل، وأنت تعلم أنّ أباك قد قال ذلك وأراد، حتى كنتُ أنا الذي أبيتُ؛ لقرب عهد الناس بالكفر، مخافة الفرقة بين أهل الإسلام. فأبوك كان أعرف بحقّي منك، فإن تعرف من حقّي ما كان أبوك يعرف تصب رشدك، وإن لم تفعل فسيغنى الله عنك. والسلام»^(٢).

وما هذه المواقف وأمثالها إلّا انعكاسات لثقافة متفشية في وسط الأُمّة آنذاك، وهي ثقافة الفكر الشيعي في أحقيّة أمير المؤمنين (عليه السلام) بالخلافة.

وهكذا تجد لفكر الشيعة حضوراً في مختلف الجوانب الثقافية للمجتمع، من خلال روايات ابن عباس وغيره من أتباع أمير المؤمنين (عليه السلام). ثم إن هذا التيار حوَصر في فترة الخلفاء الثلاثة الذين تقدّموا على أمير المؤمنين (عليه السلام)، إلّا أنّه بقي

يديه. فتبرّأ منه أبوه، ومنعه القوت، فتبرّأ هو أيضاً من أبيه. ولم يزل عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) يتغذى ويتعشى عنده حتى هاجر هو امرأته وأخواه أبان وعمره مع جعفر (عليه السلام) إلى الحبشة. ولَمّا قدِم جعفر بن أبي طالب (عليه السلام) على رسول الله (صلى الله عليه وآله) يوم فتح خيبر قدّموا معه. وشهدوا مع رسول الله فتح مكة وحنين والطائف وتبوك. ثم استعمل رسول الله (صلى الله عليه وآله) خالداً على صدقات اليمن، واستعمل أخاه أباناً على البحرين، وأخاه عمرّاً على تيماء وخيبر. ولم يزلوا على ذلك حتى قبض رسول الله. فلمّا بلغهم استخلاف أبي بكر بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) تركوا أعمالهم وعادوا إلى المدينة. فقال لهم أبو بكر: كيف تركتم أعمالكم؟! فقال خالد: رأينا ألاّ نعمل لأحد بعد رسول الله. ولم يبايعوا أبا بكر حتى بايع بنو هاشم. أنظر: المدني، علي خان، الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة: ص ٣٩٣.

(١) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ١٢٦.

(٢) المنقري، نصر بن مزاحم، وقعة صفين: ص ٩١. وانظر: ابن حبان، محمد، الثقات: ج ٢، ص ٢٨٧.

المسلمون يعرفون فضل عليّ وقدرته على إدارة شؤون الأمة؛ ولذلك لما حصلت الثورة العارمة التي قادها المسلمون من بلدان مختلفة فجاؤوا إلى المدينة وقتلوا عثمان، هم أنفسهم جاؤوا إلى أمير المؤمنين عليه السلام وأصرّوا عليه أن يقوم بدوره لتسلم مهام الخلافة، وإن اختلفت آراؤهم العقائدية في عليّ عليه السلام، فمنهم من يراه إماماً معصوماً منصّباً من قبل الله تعالى، ومنهم من يراه مجرد صحابي ذي فضل وحنكة تؤهّله - دون غيره - لقيادة الأمة.

يقول الشهيد السيّد محمد باقر الصدر رحمه الله: «وقد كان هناك ولاء واسع النطاق للإمام علي عليه السلام في صفوف المسلمين؛ باعتباره الشخص الجدير بمواصلة دور الخلفاء الثلاثة في الحكم. وهذا الولاء هو الذي جاء به إلى السلطة عقيب مقتل الخليفة عثمان، ولكنّ هذا الولاء ليس تشيعاً روحياً ولا سياسياً؛ لأنّ التشيع يؤمن بعلي كبديل عن الخلفاء الثلاثة، وخليفة مباشر للرسول ﷺ، فالولاء الواسع للإمام في صفوف المسلمين أوسع نطاقاً من التشيع الحقيقي الكامل، وإنّما التشيع الروحي والسياسي داخل إطار هذا الولاء، فلا يمكن أن نعتبره مثلاً على التشيع المجزأ. كما أنّ الإمام علي عليه السلام يتمتع بولاء روحي وفكري من عدد من كبار الصحابة في عهد أبي بكر وعمر، من قبيل سلمان وأبي ذر وعمار وغيرهم»^(١).

ثمّ عاد هذا التيار ليمارس نشاطه وسط الأمة بشكل واسع بعودة أمير المؤمنين عليه السلام إلى الحكم؛ ولذا يروي لنا المؤرّخون أنّ ثمانمائة من صحابة النبي ﷺ لحقوا بعلي عليه السلام في حربه ضدّ معاوية في صفين^(٢).

وما نريد الوصول إليه هنا هو: أنّ الفكر الشيعي له تأثيرٌ كبير في الساحة الاجتماعية والسياسية والعلمية والثقافية.

(١) الصدر، محمد باقر، نشأة التشيع والشيعة: ص ٩٢.

(٢) الكوفي، أحمد بن أعثم، الفتوح: ج ٢، ص ٥٤٤.

بعد هذه المقدمة التي تبين فيها تكوّن المجتمع من شرائح مختلفة وثقافات متباينة يتضح لنا:

أنّه لا شكّ من أنّ هذا الفكر المتضاد بين شرائح كبيرة في المجتمع يرمي بظلاله على سلوك الأُمّة، فتختلف أهواؤها، وتقييماها، وانتهااتها، وسلوكياتها. بل يمكن أن يقال: إنّ هذا التشتّت الفكري، وما يلزمه من لغط وجدال ومراء، ممّا يُضعف روح الإيمان في الفرد والمجتمع إن وجد، ولعلّ هذا من أبرز أسباب انعدام الناصر في زمن الإمام الحسين (عليه السلام) حين دعا المسلمين لنصرته، مع سعة المدة نسبياً التي دعا فيها الإمام لثورته؛ فإنّ حركته استمرّت من ٢٧ رجب وحتى العاشر من المحرم، وهذا يعني أنّها استمرت خمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً تقريباً، أي ما يقارب نصف سنة، وهي فترة ليست باليسيرة نسبياً، مضافاً إلى أنّها كانت مسبقة بتمهيد قام به الإمام الحسين (عليه السلام) في مؤتمر الحج الذي دعاهم فيه قبل هلاك معاوية بسنة أو سنتين. ومع هذا لم نجد ذلك العدد المناصر للإمام (عليه السلام) مع أنّه ابن بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله)، إلّا ثلّة من الكوفة وبعض الأفراد من البصرة، وهما ليستا من المدن الواقعة في طريقه (عليه السلام).

فأين سائر الأقطار والبلدان الإسلامية؟!

ولماذا لم يستجيبوا للإمام مع أنّه كان بين ظهرانيهم في الحج؟! إنّها مؤشرات كبيرة على تشوّه الثقافة الدينية، والفهم الديني لدى المسلمين. ولذا نجد الإمام (عليه السلام) في خطابه التي ألقاها في فترة حركته - وهي ليست بقليلة - يكرّس جهده على إصلاح هذه الثقافة التي علقت في أذهان المسلمين ونمت فيها، من قبيل: تعريفه بالإمام من وجهة نظر الإسلام، وكيفية تعامل المسلم مع الحاكم الجائر، والتعاطي مع عقيدة المعاد، ونصرة الحقّ، وغيرها من المسائل الفكرية التي لها دور واضح في سلوك الفرد والمجتمع.

الأمر الثاني: ضعف الإيمان

الإيمان لغةً: مطلق التصديق أو مجرد الإقرار؛ لأنّه مأخوذ من الأمن بمعنى سكون النفس واطمئنانها لعدم ما يوجب الخوف لها، فيرجع إلى عقد القلب^(١).
فالإيمان بهذا المعنى لا يخلو منه إنسان، غاية الأمر أنّ متعلّق الإيمان يختلف، فتارةً يكون المتعلّق هو الإيمان بالله، وتارةً يكون المتعلّق هو الأوثان أو غيرها من المعتقدات الأخرى.

واصطلاحاً: التصديق القلبي بما جاء به النبي ﷺ^(٢).

تأثير الإيمان على السلوك الفردي والاجتماعي

لا شكّ أنّ الفرد يتحرك وتصدر عنه أفعاله الاختيارية على وفق ما عقد القلب عليه من ثقافة راسخة.

فإذا كان الشخص يؤمن بوجود ربّ عظيم قيّوم، لا تحفى عليه الخفايا ولا يفوته شيء، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، وأنّه يحصي على عباده أعمالهم، وأنّه سيؤقّفهم ويحاسبهم على تلكم الأعمال؛ فيجزّي المحسن بأضعاف إحسانه، ويعاقب المسيء على آحاد سيئاته، وأنّه أرسل إليهم الرسل ليبينوا للعباد ما يريد الربُّ منهم في حركاتهم وسكناتهم.

فإذا آمنَ الشخص بذلك بحيث أصبحت هذه العقيدة ثقافته التي انسجمت مع ذاته وشخصيته، فإنّه - من دون أدنى شكّ - ستؤثّر هذه العقيدة على طبيعة سلوكه،

(١) أنظر: الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين: ج ٨، ص ٣٨٩. الشهيد الثاني، زين الدين بن علي العاملي، حقائق الإيمان: ص ٥٠. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٦٦، ص ١٣٠. كاشف الغطاء، علي، النور الساطع في الفقه النافع: ج ٢، ص ١٢٠.

(٢) أنظر: ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ٧، ص ٢٢٢. البحراني، ميثم بن علي، شرح نهج البلاغة: ج ٣، ص ٢٦٠. ابن مصطفى، عبد الحسين، أقطاب الدوائر: ص ٣٩.

وكلما كان إيمانه بهذه العقيدة أشدَّ وتعلَّقه بها أكدَّ سيكون انطباعها وتأثيرها عليه أقوى؛ فإنَّ الإيمان في القلب كالنور في البيت، يظهر لمن هو خارج الدار من جميع النوافذ والأبواب. فهكذا الإيمان يظهر على جوارح المؤمن وحركاته وسكناته.

وأما إذا كان الشخص غير معتقد بذلك، ولم يعقد القلب على إيمان كهذا، فلا شكَّ أنَّه عقد القلب على شيء آخر، فيكون سلوكه يحاكي ذلك الإيمان الذي اعتقده وأصبح ثقافةً تحتلُّ مساحةً من شخصيته.

بل من خلال التصرفات يمكن للإنسان أن يقرأ ثقافة الفاعل وعقائده المتجذِّرة في ذاته وشخصيته، فقد يدَّعي الفردُ الإسلامَ والإيمان ولكنَّ أفعاله تحاكي ثقافةً أخرى ويتشبه بأناس آخرين لا ينتمون إلى الإسلام، فلا شكَّ أنَّ ما تنطوي عليه ذاته من إيمان داخلي ليس مطابقاً لما يدَّعيه؛ ولذا يقول الباري تعالى مخاطباً الأعراب: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾^(١). بمعنى أنَّ ما تدَّعونه من الإيمان ليس بصحيح؛ فإنَّ الإيمان لم يدخل ولم يترسَّخ في قلوبكم، ولم يصبح جزءاً من ذواتكم وشخصياتكم، نعم قولوا: أسلمنا؛ لأنَّ الإسلام يتحقَّق بمجرد النطق بالشهادتين، وقد فعلتم.

وعليه؛ فالنتيجة التي ننتهي إليها أنَّ الإيمان بأيِّ محتوى كان - سواء كان إيماناً بالإسلام أم بغيره من الأديان أم باللا دينية - فهو يتفاعل مع شخصية معتقده، بحيث يترجم على شكل سلوك وعادات يمارسها الفرد من عالم اللا شعور، وتصدر عنه بلا رويّة. نعم، قد يُخفي البعض هذه السلوكيات، ويتظاهر بغيرها حياءً أو طمعاً، ولكنَّ الفعل القسري والاتفاقي لا يدوم، كما يقول الحكماء، فسرعان ما يرجع إلى طبيعة أعماله المنسجمة مع إيمانه الداخلي متى ما زالت دواعي الحياء أو

(١) الحجرات: آية ١٤.

الطمع أو الخوف.

ثم إن هذه السلوكيات الفردية هي التي تُكوّن الظواهر الاجتماعية، أو هي التي ترسم سلوك المجتمع بشكل عام.

وبعد هذا نقول: إن المجتمع الإسلامي - وبسبب انتشار العقائد المنحرفة التي صاغت السياسة خدمةً لمشاريعها - لا بد أن يتأثر بهذه العقائد، فعندما تفتشت فكرة الإرجاء وأن الله لا يحاسب العبد على ذنوبه ومعاصيه، بل يحاسبه على وفق إيمانه فقط، فلا نتوقع من مجتمع كهذا أن يحرص على فعل الصالحات.

ولما شاعت بينهم فكرة الجبر - من أن هذه الأفعال التي تصدر عنا، خيرها وشرها، ليست أفعالنا، بل هي أفعال الله تعالى أجراها على جوارحنا، ليس لنا اختيار في صدورها - فلا نتصور أنهم سيخرجون على الولاة الذين يظلمون الأمة، ويهلكون الحرث والنسل؛ لأن ذلك اعتراض على مشيئة الله.

وعندما يوجد تيار في الأمة يؤمن بهذه العقائد لا يعني أنه سيؤثر على أتباعه فقط، بل بمرور الزمن وبسبب الاختلاط والتعايش، فلا شك أنه سيتأثر الآخرون بها من حيث لا يشعرون؛ لأنّها ستكون ثقافة مجتمع، كما نراه اليوم في مجتمعنا؛ فإنّك قد تجد شخصاً شيعياً أو مجتمعاً شيعياً ولكنّ أفعاله وسلوكياته تنتمي إلى غير ما يؤمن به مذهب التشيع، وما ذاك إلا لأنّ هذا الفرد أو المجتمع انتقلت إليه ثقافة الآخر بسبب المعاشرة والاختلاط والضخ الإعلامي، فتأثر بها واعتقدتها في عالم اللا شعور، فصارت أفعاله تصدر عن تلك العقيدة والثقافة الخفية حتى على صاحبها في بعض الأحيان.

فكان المجتمع الإسلامي يعيش - بسبب تلك العقائد والثقافات - حالة من ضعف الإيمان وعدم انسجام المعتقدات ممّا أثر على ازدواجية الشخصية فيه.

فمن الطبيعي جداً أن نرى في مجتمع كهذا حالة (قلوبهم معك وسيوفهم عليك)، قلوبهم تميل إلى الحق، ولكن أفعالهم وسلوكياتهم لا تصدر عن مجرد الميل القلبي، بل تصدر عن الثقافة التي آمن بها واعتقدوها قلبه، وهي الولاء للدولة، والطاعة للسلطان وإن كان جائراً، والخوف من الموت أو العذاب والظلم الذي ستصّبه الحكومة وأعوانها عليه في حالة المخالفة.

هذا إذا قلنا بأن الثقافة المنتشرة في المجتمع الإسلامي هي عبارة عن العقائد التي تنتمي إلى المذاهب الإسلامية، وتجاهلنا تأثير اليهود والنصارى والمجوس الذين تمازجوا مع أبناء الأمة، وأخذوا يبتنون ثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم في أدمغة الكثير من المسلمين، وإذا غضضنا النظر عما يذهب إليه بعض الباحثين من انتشار حركة الإلحاد التي قادتها سجاح المدّعية للنبوّة، والتي كانت تعيش في بلاد الموصل ردحاً من الزمن ثم انتقلت إلى فلسطين، ثم جاء بها معاوية وبقومها وأسكنها في بيوت شيعة الكوفة بعد أن أخلاها من أهلها، فكانت - بلا شك - هي وأتباعها ترمي بسمومها في وسط الأمة متى ما سنحت لها الفرصة.

جاء في (تاريخ الطبري): «فلم تزل سجاح في بنى تغلب حتى نقلهم معاوية عام الجماعة في زمانه. وكان معاوية حين أجمع عليه أهل العراق بعد عليّ عليه السلام يُخْرِج من الكوفة المستغرب في أمر عليّ، ويُنزِل داره المستغرب في أمر نفسه من أهل الشام وأهل البصرة وأهل الجزيرة. وهم الذين يُقال لهم: النواقل في الأمصار، فأخرج من الكوفة قعقاع بن عمرو بن مالك إلى إيلياء بفلسطين، فطلب إليه أن ينزل منازل بنى أبيه، بنى عقفان، وينقلهم إلى بنى تميم، فنقلهم من الجزيرة إلى الكوفة، وأنزلهم منازل القعقاع وبنى أبيه وجاءت معهم»^(١).

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٢، ص ٥٠٠. وانظر أيضاً: ابن خلدون، عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون: ج ٢، ص ٧٣.

فهذا النصّ واضحٌ في أنّ معاوية لعنه الله أخرج من الكوفة المستغرب في أمر علي عليه السلام، أي من الشيعة، وأسكن في ديارهم المستغرب في أمر معاوية، أي أتباعه من النواصب لأهل البيت عليهم السلام، وكانت سجاح قد انتقلت إلى الكوفة معهم.

كلّ هذا التشرذم الفكري له مردوداته السلبية على استقرار حالة الإيمان في المجتمع وصلابته. فبعض المسلمين من الصحابة والتابعين - وبسبب هذه الظروف - أُصيب بمرض الازدواجية في الدين، وضعف الإيمان، فهو يعرف الحق ولا يقف إلى جنبه، ولا يدافع عنه، وسمع من رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ بعض الصحابة يجب نصرتهم، وبعض الصحابة يجب قتلهم إن ولي الأمر أو ارتقى منبر رسول الله صلى الله عليه وآله، ولكنهم لم يقفوا إلى جنب مَنْ تجب نصرته، ولم يقفوا في وجه مَنْ يجب ردعه وقتله. وهذا الصنف من الأمة هو ما أشار إليه السيّد الشهيد محمد باقر الصدر رحمه الله بضعف الإرادة أو انعدامها، وأشار إليه الإمام الخميني رحمه الله وبعض الأعلام^(١).

وقد أشار الإمام الحسين عليه السلام إلى هؤلاء في كلامه مع مروان بن الحكم لعنه الله، فقال: «وقد سمعتُ جدّي رسولَ الله يقول: الخلافةُ محرّمةٌ على آل أبي سفيان الطلقاء وأبناء الطلقاء، فإذا رأيتم معاويةَ على منبري فابقروا بطنه^(٢). ولقد رآه أهل المدينة على منبر رسول الله فلم يفعلوا به ما أمروا، فابتلاهم الله بابنه يزيد»^(٣).

(١) ستأتي الإشارة إلى أقوال العلماء إن شاء الله تعالى.

(٢) روى حديث النبي صلى الله عليه وآله هذا جملةً من علماء العامة ومؤرخيهم، منهم: البلاذري في أنساب الأشراف: ج ٥، ص ١٢٨. والطبري في تاريخه: ج ٨، ص ١٨٦. وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق: ج ٥٩، ص ١٥٦، وابن أبي الحديد في شرح النهج: ج ١٥، ص ١٧٦.

(٣) الخوارزمي، الموفق بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج ١، ص ٢٦٨. وانظر أيضاً: ابن أعثم الكوفي، أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ١٧، مع اختلاف يسير. لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ص ٣٤٧.

البحث الثاني: الحالة السياسية

مما لا شك فيه أنّ للسياسة دوراً كبيراً في صياغة ثقافة الأمة، وتوجيهها بحسب ما ترسمه من خطط تتماشى مع تطلّعاتها في تحقيق أهدافها.

وهذا ما مَهَجَتْه السياسات قديماً وحديثاً؛ فإنّ المتأمل في تاريخ اليونان يجد أنّ ثقافة شعوبهم كانت نتاج السياسة الحاكمة آنذاك^(١).

والمتمعّن في طريقة الاستعمار الحديث في الهيمنة على الشعوب، يدرك أنّ السياسة هي اللاعب الأساس في تسديد الأهداف التي يرنو إليها الساسة في مرمى الشعوب المستعمرة.

وعندما نرجع إلى حالة المجتمع الإسلامي في تلك الحقبة نجد الأمر بعينه؛ فإنّ السياسة الحاكمة عملت كلّ ما بوسعها من أجل توجيه ثقافة المجتمع وصياغتها بشكل تأمن معه شرّ الشعوب أو الوقوف بوجهها.

وقد نجحت في تحقيق ذلك إلى حدّ كبير؛ ولذا نجد السيوف التي سُهرت في وجه سياسة عثمان، لا نراها تُشهر في وجه معاوية أيام خلافته المزعومة، مع أنّ معاوية عمل ما لم يعملهُ عثمان، وأفسد وظلم وقتل واعتدى أضعاف ما كان يفعله ابنُ عمّه عثمان؛ وما ذلك إلّا لأنّ معاوية أتقن اللعبة الدنيئة، فغيّر المفاهيم وتدخل في صياغة ثقافة الأمة، فزرّق فيها فكرة الإرجاء، وفكرة الجبر حتى صارت طائفة من الأمة تعتنّقها، ومجموعة أخرى لم تؤمن بها، ولكنها تُطبّقها عملياً، من حيث تشعر أو لا تشعر.

واستطاع معاوية أن يستبدل صورته القبيحة من ذاكرة المسلمين التي تروي لهم أنّه من العائلة التي قادت الحروب، وألبت الجيوش على النبيّ المصطفى ﷺ

(١) أنظر: الثقافة العقلية ودورها في نهضة الشعوب، للمؤلف: ص ٥.

ودعوته، وأنه الذي لعنه الله ورسوله ﷺ^(١)، وأنه من الطلقاء^(٢)، وأن أمه أكلت كبد سيد الشهداء حمزة عم النبي بعد أن مثلت به^(٣)، وأنه من عائلة ما عرفت الشرف والعفة إلا بالاسم^(٤)، وأنه وأهل بيته المقصود بالشجرة الملعونة في

(١) روى البلاذري: «عن سفينة مولى أم سلمة: أن النبي ﷺ كان جالساً فمر أبو سفيان على بعير ومعه معاوية وأخ له، أحدهما يقود البعير والآخر يسوقه، فقال رسول الله ﷺ: لعن الله الحامل والمحمول والقائد والسائق». البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٥، ص ١٢٩. وانظر أيضاً: الزمخشري، محمود بن عمر، ربيع الأبرار: ج ٥، ص ٣٥٨.

وقال ابن أبي الحديد: «وما ورد من ذلك في السنة، ورواه ثقات الأئمة، قول رسول الله ﷺ فيه [أي في أبي سفيان] وقد رآه مقبلاً على حمار ومعاوية يقوده ويزيد يسوقه: «لعن الله الراكب والقائد والسائق». وروى أيضاً كلاماً للإمام الحسن عليه السلام يرد فيه على معاوية وجلسائه، من جملته قوله عليه السلام: «أتذكر يوماً جاء أبوك على جمل أحمر، وأنت تسوقه، وأخوك عتبة هذا يقوده، فراكم رسول الله ﷺ، فقال: اللهم العن الراكب والقائد والسائق؟! أتتسى يا معاوية الشعر الذي كتبتك إلى أبيك لما هم أن يسلم، تنهاه عن ذلك:

يا صخر لا تسلمن يوماً فتفضحننا	بعد الذين بيدر أصبحوا فرقا
خالي وعمى وعمم الأم ثالثهم	وحنظل الخير قد أهدى لنا الأرقا
لا تركزن إلى أمر تكلفنا	والراقصات به في مكة الخرقا
فالموت أهون من قول العداة: لقد	حاد ابن حرب عن العزى إذا فرقا

والله، لما أخفيت من أمرك أكبر مما أبديت؟!». ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ٦، ص ٢٨٩.

(٢) أنظر: البيهقي، أحمد بن الحسين، السنن الكبرى: ج ٩، ص ١١٨. وفي شرح النهج: أن عبد الله بن عباس عليه السلام كتب إلى معاوية كتاباً، من جملته: «وما أنت والخلافة يا معاوية! وإنما أنت طليق وابن طليق! والخلافة للمهاجرين الأولين، وليس الطلقاء منها في شيء». ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ٨، ص ٦٦.

(٣) أنظر: ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ج ٧، ص ٢٧٢.

(٤) أنظر: الزمخشري، محمود بن عمر، ربيع الأبرار: ج ٤، ص ٢٧٦. ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ٣٣٦.

القرآن^(١)، وغير ذلك.

فاستبدلها بصورة مشرقة رسمها بريشة الدهاء، محبرة بالأموال الطائلة من بيت مال المسلمين، فملأ بها الأفواه والأقلام المأجورة، فأصبحت صورته في فترة وجيزة أنه كاتب الوحي، ومن أهل بيت الوحي والنبوة، وحبّة الله وخليفة رسوله على الأمة، وسيّد المسلمين، والمطالب بدم الخليفة، وخال المؤمنين و...

إنّ السياسة التي مارسها معاوية في زمانه تعتمد على خنق الأمة إمّا بالمال وملء العيون، وإمّا بالسيف؛ فسياسته سياسة الترغيب والترهيب اللامشروعين.

فمن جهة نراه يلاحق البعض فيقطع أرزاقهم، ويهدم دورهم، ويرحل بعضهم، بل قد أعمل السيف في أعناق الكثير من أبناء الأمة، لا شيء إلّا لأنهم لا ينتمون إليه بفكرهم ووعيمهم وسياستهم.

وتجده في وادٍ آخر يغدق بالأموال على عمّال دولته من الولاة والقادة الذين باعوه دينهم وضمايرهم شريطة أن يضمن لهم دنياهم. روى الطبري وابن عساكر أنه: «وفد الأحنف بن قيس وجارية بن قدامة من بنى ربيعة بن كعب بن سعد، والجون بن قتادة العبشمي، والحتات بن يزيد أبو منازل أحد بنى حوى بن سفيان بن مجاشع عمّ الفرزدق»، إلى معاوية بن أبي سفيان، فأعطى كلّ رجل منهم مائة ألف، وأعطى الحتات سبعين ألفاً. فلما كانوا في الطريق سأل بعضهم بعضاً فأخبروه بجوائزهم، فكان الحتات أخذ سبعين ألفاً، فرجع إلى معاوية، فقال: ما ردّك يا أبا منازل؟ قال: فضحتني في بنى تميم.

أما حسبي بصحيح؟! أو لست ذا سن؟! أو لست مطاعاً في عشيرتي؟!

(١) أنظر: ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ٩، ص ٢٢٠.

فقال معاوية: بلى. قال: فما بالك خست بي دون القوم؟! فقال: إني اشتريت من القوم دينهم، ووكلتك إلى دينك ورأيتك في عثمان بن عفان. وكان عثمانياً. فقال: وأنا فاشتر مني ديني، فأمر له بتعام جائزة القوم. وطعن في جائزته فحبسها معاوية، فقال الفرزدق في ذلك:

أبوك وعمي يا معاوي أورثا	تراثاً فيحتاز التراث أقاربُه
فما بال ميراث الحثات أخذته	وميراثُ حرب جامد لك ذائبُه
فلولا كأن الأمر في جاهلية	علمت من المرء القليل حلابُه
ولو كان في دين سوى ذا شتتم	لنا حقنا أو غص بالماء شاربُه
ولو كان إذ كنا وفي الكف بسطة	لصمم غضب فيك ماض مضاربُه ^(١)

البحث الثالث: الحالة الثقافية

استطاع النبي ﷺ - بحكمته وتسديد السماء - أن يبنى أمةً تختلف من حيث ثقافتها عما يحيط بها من مجتمع ولدت فيه، فجعل منها ﴿كُتِّمَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ من خلال ثقافة الإيمان الحي النابض في قلبها، وجعل منها أمةً تحتل الصدارة في السير التكاملي نحو بناء المستقبل، وتغيير الواقع نحو الأفضل، من خلال ثقافة وضع الشخص المناسب في المكان المناسب، أو حكومة الكفاءات، كما يعبر عنها في دنيا اليوم، ثم عرفها بشروط قاندها وإمامها، الذي يشترط فيه العلم والحكمة والشجاعة وحسن التدبير والتقوى والحرقة على الإسلام والمسلمين، و...

ثم شخّص الرجل الذي تجتمع فيه تلك الشروط، فقال ﷺ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى آدَمَ فِي عِلْمِهِ، وَنُوحَ فِي تَقْوَاهُ، وَإِبْرَاهِيمَ فِي حِلْمِهِ، وَمُوسَى فِي هَيْبَتِهِ، وَعِيسَى فِي

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ١٨٠. ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج ١٠، ص ٢٧٩.

عبادته، فليُنظر إلى عليّ بن أبي طالب^(١)، فيبين القائد من خلال بيان المؤهلات التي يتمتع بها، وقال: «أنت مَنّي بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبيّ بعدي»^(٢)، وقال أيضاً: «مَن كنتُ مولاَه فهذا علي مولاَه»^(٣)، وغيرها كثير.

ثم بينَ مَن يأتي بعده بنفس الطريقة، فذكر فضلَ الحسين عليه السلام ومؤهلاتها للإمامة، ونصّ على التسعة من ذرية الحسين عليه السلام.

وهذا ما لم ينكره حتى مَن امتطى صهوة الخلافة عنوةً - بعد أن نحّاها عن أمير المؤمنين عليه السلام - فقد روى ابنُ عساكر: «أمرَ عمرَ حسينَ بن علي أن يأتيه في بعض الحاجة، فاتاه حسين، فلقيه عبدُ الله بنُ عمر، فقال له حسين: من أين جئت؟ قال: قد استأذنتُ على عمر فلم يؤذن لي. فرجع حسينٌ، فلقيه عمرٌ، فقال له: ما منعك يا حسينُ أن تأتيَنِي؟ قال: قد أتيتُك، ولكن أخبرني عبدُ الله بنُ عمر أنّه لم يؤذن له عليك، فرجعتُ. فقال له عمر: وأنت عندي مثله؟! أنت عندي مثله!! وهل أنبت الشعرَ على الرأس غيرُكم؟!»^(٤).

وروي أيضاً أنّ الحسنَ والحسينَ عليه السلام دخلا على ابن عباس في بستان له، فأكرمهما وحين أرادا الخروج قُدّمت دابةُ الحسن عليه السلام، فأمسك له ابنُ عباس

(١) الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ص ٤١٧. وروى ابن كثير وابن عساكر أنّه: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَن أراد أن ينظر إلى آدم في علمه، وإلى نوح في فهمه، وإلى إبراهيم في حلمه، وإلى يحيى بن زكريا في زهده، وإلى موسى بن عمران في بطشه، فليُنظر إلى عليّ بن أبي طالب». ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية: ج ٧، ص ٣٩٢. ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج ٤٣، ص ٣١٣.

(٢) البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري: ج ٤، ص ٢٠٨. الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٨، ص ١٠٧.

(٣) الصدوق، محمد بن علي، معاني الأخبار: ص ٦٧. ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ٣، ص ٢٨٩.

(٤) ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج ١٤، ص ١٧٥.

بالركاب، وسوّى عليه، فلمّا مضيا قال له بعض من حضر: أنت أكبرُ منهما، تمسك لهما وتُسوّى عليهما؟! فقال: يا لكع! أتدري من هذان؟ هذان ابنا رسول الله ﷺ أو ليس هذا ممّا أنعم الله عليّ به أن أمسك لهما وأُسوّى عليهما^(١).

وروى القاضي المغربي عن موسى بن مطير، عن أبيه، قال: «كنتُ جالساً مع أبي هريرة في مسجد رسول الله ﷺ، إذ مرّ بنا الحسين عليه السلام، فقام إليه أبو هريرة، فسلم عليه، ورَحّب به. وقال: بأبي أنت وأُمّي يابن رسول الله، ثمّ عاد إلينا. فقال: ألا أحدثُكم عن هذا وعن أخيه؟ قلنا: بلى. وذلك مسجد رسول الله ﷺ لم يُغيّر. فقال: إنّني جالس في أصل هذا العمود؛ أنتظر الصلاة، إذ خرج رسول الله ﷺ فوقف، فصلّى ركعتين، وأنّه لفي السجدة الثانية إذ خرج أخو هذا - يعني الحسن عليه السلام - وهو غلام يشتدّ نحو رسول الله ﷺ حتى انتهى إليه، وهو ساجد، فركب على ظهره. ثمّ خرج هذا يشتدّ خلفه حتى ركب خلفه. فرأيتُ رسول الله ﷺ يريد أن يرفع صلبه فلم يمنعه إلّا مكانهما. فقمْتُ وأخذتُهما أخذاً رفيقاً عن ظهر رسول الله ﷺ، ووضعتُهما على الأرض. وجلس رسول الله ﷺ فتعلّقا بعنقه. فلمّا انصرف من الصلاة، أخذهما فوضعهما في حجره، وقبّل كلّ واحدٍ منهما. ثمّ قال لي: يا أبا هريرة، من أحبّني فليحبّهما»^(٢).

وقد روى الذهبي عن أبي المهزم قوله: «كنا في جنازة، فأقبل أبو هريرة ينفض بثوبه التراب عن قدم الحسين»^(٣). وغيرها من القصص التي تروي لنا مقام أهل البيت عليهم السلام، واحترام الصحابة لهم، وإقرارهم بفضلهم وعظيم منزلتهم.

ولكنّ معاوية بدعائه الوضع الذي لا يفترق في مجونه عن كشف عورة ابن العاص أمام الجيش، أصرّ على أن يحفظ ملكه وملك بنيّه من بعده من خلال تغيير

(١) أنظر: المصدر السابق: ج ١٣، ص ٢٣٨.

(٢) القاضي المغربي، النعمان بن محمد، شرح الأخبار: ج ٣، ص ١٠٣.

(٣) الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء: ج ٣، ص ٢٨٧.

ثقافة الأمة، فبدأ يخطط لها حتى توصل إلى الحل، وهو: أن ثقافة الأمة لا بد أن تتشكل من جديد، وتُبنى على وفق ما يراه الحاكم، لا ما تريده السماء، فقرّر أن تُبنى على ثلاث دعائم:

١. تنحية أهل البيت (عليه السلام) من ذهن الأمة وثقافتها، بل تشويه صورتهم، بل تشويه صورة النبي (صلى الله عليه وآله) أيضاً.

٢. وضع البدائل والشخصيات المزعومة؛ لتكون بديلاً عن أهل البيت (عليه السلام)، وتفهم الأمة بأن أهل البيت ليسوا هم الوحيدين الذين نحلهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) تلك الأوسمة^(١).

٣. استبدال صورة معاوية وجعله في صورة أنيقة أمام الأمة.

وهكذا بدأت سياسة معاوية الخبيثة بهذا الاتجاه الذي يُعدّ أقبح وأشدّ على الأمة ممّا قام به من قتل وتشريد وحرمان؛ لأنّ قتل الفكر وتشويهه لا ينتهي جيلاً بعد جيل، ولا زالت الأمة تتنّ من وطأته منذ ذلك اليوم المشؤوم.

وهكذا اتخذ معاوية قراره بالهدم والمحو لما بناه نبيّ الرحمة (صلى الله عليه وآله) من ثقافة تُحيي النفوس، وتشرّ العدل وحبّ الخير والتعايش السلمي والحوار الهادف، وعدم إقصاء الآخر و...

(١) جاء في شرح نهج البلاغة: «ثم كتب إلى عمّاله أن الحديث في عثمان قد كثُر وفشا في كلّ مصر، وفي كلّ وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادّعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خيراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلّا وتأتوني بمناقضٍ له في الصحابة؛ فإنّ هذا أحبُّ إليّ، وأقرّ لعيني، وأدحضُ لحجة أبي تراب وشيعته، وأشدّ عليهم من مناقب عثمان وفضله. فقرأت كتبه على الناس، فرُويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجدّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، وألقى إلى معلّمي الكتاتيب فعلموا صبيانهم وغلماهم من ذلك الكثير الواسع، حتى روه وتعلّموه كما يتعلّمون القرآن، وحتى علّموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله». ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ٤٥.

وبعد أن تمّ الاتفاق مع أباالستة من أمثال: عمرو بن العاص، وسمرة بن جندب، وأشباههما، وضعوا استراتيجيتهم لإنجاح خطتهم، من خلال شراء الضمائر والذمم والأديان، كما تقدّم في قصة الحتات عمّ الفرزدق ورفقائه. وانتخاب بعض الأفواه المأجورة لوضع الحديث وتزويره.

وهكذا بدأ مشروع التغيير الثقافي الأموي خطواته المتفق عليها:

١. فوضعوا الأحاديث والقصص والحكايات التاريخية التي ترفع من شأن بعض الصحابة والخلفاء، وتحطّ من مقام النبي ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام وأولاده وأهل بيته. ثمّ بدؤوا بتمجيد بني أمية وبيان الفضل والمقام المزيف لهم، لا سيّما معاوية.

وقد عمّم ذلك في جميع البلدان، ووضع الهدايا والجعل لمن قال في الخلفاء حديثاً، حتى كثّر الحديث فيهم، ثمّ قال: كفّوا وقولوا في^(١).

ذكر ابن أبي الحديد المعتزلي أنّ معاوية بن أبي سفيان بذلّ لسمرة بن جندب مائة ألف درهم حتى يروي رواية واحدة في ذمّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وهي أنّ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾^(٢) وإذا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ^(٣) وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ^(٤) نزلت في عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وأنّ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(٥) نزلت في ابن ملجم، فلم يقبل، فبذل له مائتي ألف درهم فلم يقبل، فبذل له ثلاثمائة ألف فلم يقبل، فبذل له أربعمائة ألف فقبل، وروى ذلك. وكانوا يمنعون

(١) أنظر: المصدر السابق.

(٢) البقرة: آية ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٣) البقرة: آية ٢٠٧.

إظهار فضائل أمير المؤمنين عليه السلام، ويعاقبون كل من يروي شيئاً في فضله^(١).
 كما نقل ابن أبي الحديد المعتزلي عن أبي جعفر الإسكافي - أحد متكلمي المعتزلة
 وأئمتهم - أنه يقول: «إن معاوية وضع قوماً من الصحابة، وقوماً من التابعين على
 رواية أخبار قبيحة في علي عليه السلام، تقتضي الطعن فيه والبراءة منه. وجعل لهم على ذلك
 جُعلاً^(٢) يُرغب في مثله، فاختلفوا ما أرضاه. منهم: أبو هريرة، وعمر بن العاص،
 والمغيرة بن شعبة، ومن التابعين عروة بن الزبير»^(٣).

(١) أنظر: ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٧٣.
 (٢) الجُعْل: الجائزة مقابل فعل ما. أنظر: الجوهرى، إسماعيل بن حماد، الصحاح: ج ٤، ص ١٦٥٦.
 (٣) أنظر: ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٦٣. وقد نقل جملة من الروايات
 الموضوعية في ذم أمير المؤمنين عليه السلام وأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، عن هؤلاء الوضّاعين، فمن روايات أبي
 هريرة في هذا الباب قوله: إن علياً عليه السلام خطب ابنة أبى جهل في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله عليه
 وسلم، فأسخطه، فخطب على المنبر، وقال: لاها الله! لا تجتمع ابنة ولّى الله وابنة عدو الله أبى
 جهل! إن فاطمة بضعة منى، يؤذيها ما يؤذيها، فإن كان عليٌّ يريد ابنة أبى جهل فليفارق ابنتي،
 وليفعل ما يريد.

وأنه لما قَدِم أبو هريرة العراق مع معاوية عام الجماعة، جاء إلى مسجد الكوفة، فلمّا رأى
 كثرة من استقبله من الناس جثا على ركبته، ثم ضرب صلته مراراً، وقال: يا أهل العراق،
 أتزعمون أنّي أكذب على الله وعلى رسوله، وأحرق نفسي بالنار! والله لقد سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله
 يقول: إنّ لكلّ نبيٍّ حرماً، وإنّ حرّمي بالمدينة، ما بين عير إلى ثور، فمن أحدث فيها حدثاً فعليه
 لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. وأشهد بالله أنّ علياً أحدث فيها. فلمّا بلغ معاوية قوله أجازاه
 وأكرمه، وولاه إمارة المدينة.

وأما عمرو بن العاص رضي الله عنه، فمن رواياته أنّه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنّ آل أبي طالب
 ليسوا لي بأولياء، إنّما وليي الله وصالح المؤمنين.

وأما المغيرة بن شعبة رضي الله عنه فقد قال فيه: وكان المغيرة بن شعبة صاحب دنيا، يبيع دينه بالقليل
 النزر منها، ويُرضى معاوية بذكر عليّ بن أبي طالب عليه السلام، قال يوماً في مجلس معاوية: إنّ علياً لم
 يُنكح رسول الله صلى الله عليه وآله ابنته حبّاً، ولكنّه أراد أن يكافئ بذلك إحسان أبي طالب إليه.

٢. ربط الوضع الاقتصادي بالتوجه الفكري، فقد ورد في (شرح النهج): «ثم كتب [معاوية] إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان: انظروا من قامت عليه البيّنة أنّه يحبّ علياً وأهل بيته، فاحوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه. وشفع ذلك بنسخة أخرى: من اهتمتوه بموالاته هؤلاء القوم فنكلوا به، واهدموا داره»^(١).

٣. ممارسة الإرهاب بأقصى صورته ضدّ من يتولّى أهل البيت عليه السلام أو من يروي عنهم حديثاً، بل من تسمّى باسم عليّ. ولذا يُروى أنّ البلاء اشتدّ على شيعة أهل البيت عليه السلام ومحبيهم في أيام معاوية، حتى مات الإمام الحسن بن علي عليه السلام، فازداد البلاء والفتنة، فلم يبقَ أحدٌ منهم إلّا وهو خائف على دمه أو طريد في الأرض.

ثم تفاقم الأمر بعد قتل الإمام الحسين عليه السلام وولي عبد الملك بن مروان فاشتدّ على الشيعة، وولّى عليهم الحجاج بن يوسف، فتقرّب إليه أهل النسك والصلاح والدين يبغض عليّاً عليه السلام، وموالاته أعدائه، فأكثرُوا في الرواية في فضلهم وسوابقهم ومناقبهم، وأكثرُوا من الطعن في الإمام علي عليه السلام، وعييه والشنآن له، حتى أنّ إنساناً وقف يوماً على مقربة من الحجاج لعنه الله، فصاح به: أيّها الأمير، إنّ أهلي عقّوني، فسمّوني عليّاً، وإنّي فقير بائس، وأنا إلى صلة الأمير محتاج. فتضاحك له الحجاج، وقال: ليلطف ما توسلت به قد وليتكَ موضعَ كذا^(٢).

٤. التغيير الديموغرافي للمدن الإسلامية التي شاعت فيها ثقافات تختلف عن توجه السلطة الحاكمة، فقد قام معاوية لعنه الله بتغيير التركيبة السكانية للكوفة

وأما عروة بن الزبير، فقد كان يقول: حدّثني عائشة، قالت: كنتُ عند رسول الله إذ أقبلَ العباس وعليّ، فقال: يا عائشة، إنّ هذين يموتان على غير ملّتي، أو قال: ديني. وعن عروة أيضاً عن عائشة، قالت: كنتُ عند النبي صلى الله عليه وآله إذ أقبل العباس وعليّ، فقال: يا عائشة، إنّ سرّك أن تنظري إلى رجلين من أهل النار فانظري إلى هذين قد طلعا، فنظرتُ، فإذا العباس وعليّ بن أبي طالب.

(١) ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ١١، ص ٤٥.

(٢) المصدر السابق: ص ٤٦.

والبصرة، فأخرج خمسةً وعشرين ألف عائلة من الكوفة، وخمسةً وعشرين عائلة من البصرة من أتباع أهل البيت عليه السلام، وجاء بعددهم ممن يتولّى معاوية وبني أمية وأسكنهم في دور الشيعة^(١).

ومما له دور كبير في تغيير ثقافة المجتمع هو أنّ معاوية لما ولّى المغيرة بن شعبة على الكوفة، عهد إليه ألاّ يتسامح في شتم الإمام عليّ عليه السلام، والترحم على عثمان، والانتقاص من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وإقصائهم. واستمرّ ذلك سبع سنين^(٢). وقد ذكر الشيخ القرشي رحمته الله في كتابه (حياة الإمام الحسين عليه السلام) ما فعله معاوية بمن عارضه من أهل المدينة والعراق ومصر^(٣).

وبسبب ذلك حصلت مشادات كلامية بين معاوية وبين بعض الصحابة، أمثال ابن عباس الذي هدّد معاوية بفضحه أمام أهل الشام إن لم يُجرّ العطاء لبني هاشم كما أجراه لغيرهم^(٤). كما أنّ الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه اعترض على

(١) أنظر: البلاذري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان: ج ٣، ص ٥٠٧. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٢، ص ٥٠٠. وج ٤، ص ١٧٠. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: ج ٥، ص ٢٤٣. ابن خلدون، عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون: ج ٢، ص ٧٣.

(٢) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ١٨٨.

(٣) أنظر: القرشي، باقر شريف، حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ١٢٣.

(٤) قال ابن قتيبة في الإمامة والسياسة في قضية أخذ معاوية البيعة ليزيد: (... ثم ارتحل معاوية راجعاً إلى مكة، وقد أعطى الناس أعطياتهم، وأجزل العطاء، وأخرج إلى كلّ قبيلة جوائزها وأعطياتها، ولم يُخرج لبني هاشم جائزةً ولا عطاءً. فخرج عبد الله بن عباس في أثره، حتى لحقه بالروحاء، فجلس ببابه، فجعل معاوية يقول: من بالباب؟ فيقال: عبد الله بن عباس؟ فلم يأذن لأحد. فلما استيقظ قال: من بالباب؟ فقيل: عبد الله بن عباس. فدعا بدايته، فأدّخلت إليه، ثم خرج راجعاً، فوثب إليه عبد الله بن عباس، فأخذ بلبجام البغلة، ثم قال: أين تذهب؟ قال: إلى مكة، قال: فأين جوائزنا، كما أجزت غيرنا؟ فأومأ إليه معاوية، فقال: والله، ما لكم عندي جائزةً ولا عطاءً حتى يُبايع صاحبكم [يعني الإمام الحسين عليه السلام]! قال ابن عباس: فقد أبى ابن الزبير، فأخرجت جائزة بني أسد، وأبى

حيف معاوية، وذهب إليه لكن معاوية لم يأذن له استخفافاً به وتوهيناً، فانصرف جابر عليه السلام عنه، فوجه له معاويةُ بستمئة درهم، فردّها جابر، وكتب إليه:

وإني لا اختار القنوع على الغنى إذا اجتمع الماء بالبارد المحض
وأقضي على نفسي إذا الأمر نابي وفي الناس من يقضي عليه ولا يقضي
وألبس أثواب الحياء وقد أرى مكان الغنى ألا أهين له عرضي
ثم قال لرسول معاوية: قل له: والله يابن آكلة الأكباد، لا وجدت في صحيفتك حسنة أنا سببها أبداً^(١).

ولما حجّ معاوية ومروء على يثرب استقبله الناس، ومنهم الأنصار وكان أكثرهم مشاة، فقال لهم: ما منعكم من تلقائي من بعد، كما يتلقاني الناس من بعد؟! فقال له سعيد بن عباد: منعنا من ذلك قلة الظهر، وخفة ذات اليد، وإلحاح الزمان علينا، وإيثارك بمعروفك غيرنا.

فقال له معاوية - كالمُعير لهم -: أين أنتم عن نواضح المدينة؟ فسدد له سعيد سهماً من منطقهِ الفياض، قائلاً: نحرناها يوم بدر، يوم قتلنا حنظلة بن أبي سفيان^(٢).

عبد الله بن عمر، فأخرجت جائزة بني عدي، فما لنا إن أبي صاحبنا، وقد أبى صاحب غيرنا؟ فقال معاوية: لستم كغيركم، لا والله لا أعطيكم درهماً حتى يبيع صاحبكم. فقال ابن عباس: أما والله، لئن لم تفعل لألحقنّ بساحل من سواحل الشام، ثم لأقولنّ ما تعلم، والله لأتركنهم عليك خوارج. فقال معاوية: لا، بل أعطيكم جوائزكم، فبعث بها من الروحاء، ومضى راجعاً إلى الشام. ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٦٤.

(١) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر: ج ٣، ص ١١٦. القرشي، باقر شريف، حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ١٢٣.

(٢) أنظر: البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٥، ص ١١٦. القرشي، باقر شريف، حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ١٢٤.

البحث الرابع: الحالة الاجتماعية

اعتاد الجبابرة على تسخير جميع الأوضاع لخدمة مصالحهم وتحقيق طموحاتهم، بمعنى أن الاقتصاد وطبيعة التعايش الاجتماعي ونوع الثقافة إنما هي بيد السياسة الحاكمة، تسخرها وتوجهها بما يخدم مصالح الحاكم وتثبيت أركان ملكه.

ولذلك نرى الحالة الاقتصادية للمجتمع الإسلامي أيام معاوية مختلفة من بلد لآخر، فهي لأهل الشام ثراء، بينما لغيرهم بؤس؛ لأن الشام هي حامية قبة جبروته وملكه، وما سواهم من البلدان الإسلامية فلا يأمن شرهم؛ لذا كان يسوسهم بقانون (جوع كلبك يتبعك) لكي تشرب أعناقهم إلى منحه وعطاياه، ولهذا السبب اضطر أهل يثرب إلى بيع أراضيهم لتحصيل قوتهم، فاشتراها منهم معاوية وولاته بأبخس الأثمان، فانتشرت فيهم الفاقة والفقر^(١). وكذا في العراق ومصر وغيرها من البلدان^(٢).

وكان لا يسمح لأهل الشام أن يخالطوا غيرهم لئلا تفسد ثقافتهم التي بناها بيده، بل ذكروا أن مدينة واسط إنما أسسها الأمويون لجيش الشام لئلا يختلط بغيرهم. قال ابن الفقيه: «... وذلك أن واسط بناها الحجاج منزلاً لنفسه، ومعسكراً لجند أهل الشام، ربأ بهم من مجاورة أهل العراق ومعاملتهم. وأهل العراق حينئذ أهل الكوفة والبصرة»^(٣).

وبذلك يبدأ التملق وبيع الدماء مقابل قوت يوم، أو دار، أو صرة من النقود. وهكذا بالنسبة للعلاقات الاجتماعية؛ فإن التعايش السلمي مراد للسلطة ما دام عوناً لتثبيت حكمها، أما إذا كان السلم واللحمة الاجتماعية يهدد مصير الحاكم فبعداً لها، وليبدأ عصر التفكك والتناحر والبغاء بين أبناء المجتمع الواحد، بل

(١) أنظر: ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٧٦.

(٢) أنظر: القرشي، باقر شريف، حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ١٢٣ - ١٢٦.

(٣) ابن الفقيه الهمداني، أحمد بن محمد، البلدان: ص ٣٢٨.

البلدة الواحدة.

وهذا ما نشهده في زمان ابن أبي سفيان، حيث غرس بذور العداوة بين القبائل، وسقاها بأفواه مأجورة تتكلم على بريق الدراهم؛ لينشغل الناس بعداوتهم عن التفكير بمعارضة الحكومة والمطالبة بالحقوق، والالتفات إلى صوت الحق من حولهم^(١).

هذا لعامة المجتمع، أمّا مَنْ عُرِفَ بانتبائه لجهة تعادي العائلة الحاكمة فمصييره الاستئصال والحرمان. يقول إمامنا محمد الباقر عليه السلام في توصيف هذه الحالة: «فَقُتِلَتْ شِيعَتُنَا بِكُلِّ بَلَدَةٍ، وَقُطِعَتِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ عَلَى الظَّنَةِ...»^(٢).

(١) أنظر: القرشي، باقر شريف، حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ١٢٣.

(٢) والخبر بتمامه كما في شرح نهج البلاغة: «وقد روي أنّ أبا جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام قال لبعض أصحابه: يا فلان، ما لقينا من ظلم قريش إيانا وتظاهروا بهم علينا! وما لقي شيعتنا ومحبونا من الناس! إنّ رسول الله ﷺ قُبِضَ وقد أخبر أنّا أولى الناس بالناس، فتملأت علينا قريش حتى أخرجت الأمر عن معدنه، واحتجّت على الأنصار بحقنا وحجتنا، تداولتها قريش واحد بعد واحد حتى رجعت إلينا فنكثت بيعتنا، ونصبت الحرب لنا، ولم يزل صاحب الأمر في صعود كؤود حتى قُتِلَ. فبُوع الحسن ابنه وعُوهده، ثم عُدر به، وأسلم، ووثب عليه أهل العراق حتى طعن بخنجر في جنبه وانتهب عسكره، وعُولِجَ خلاخيل أمّهات أولاده، فوداع معاوية وحقن دمه ودماء أهل بيته، وهم قليل حق قليل. ثم بايع الحسين عليه السلام من أهل العراق عشرون ألفاً، ثم غدروا به، وخرجوا عليه، وبيعتهم في أعناقهم، فقتلوه. ثم لم نزل أهل البيت تُستدلّ وتُستصام، وتُقصي وتُمتّهن، وتُحرّم وتُقتل، ونخاف ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا، ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعاً يتقربون به إلى أوليائهم، وقضاة السوء وعمال السوء في كلّ بلدة، فحدّثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة، ورووا عنّا ما لم نقله ولم نفعله؛ ليعبّضونا إلى الناس. وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية، بعد موت الحسن عليه السلام. فقُتِلَتْ شِيعَتُنَا بِكُلِّ بَلَدَةٍ، وَقُطِعَتِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ عَلَى الظَّنَةِ، وكان مَنْ يُدَكَّرُ بحبنا والانقطاع إلينا سُجِنَ أو نُهِبَ ماله، أو هُدِمَت داره. ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين عليه السلام. ثم جاء الحجاج فقتلهم كلّ قتلة، وأخذهم بكُلِّ ظَنّةٍ وتهمة، حتى أنّ الرجل ليقال له: زنديق أو كافر أحبّ إليه من أن يقال: شيعة عليّ، وحتى صار الرجل الذي يُذكر بالخير - ولعلّه يكون ورعاً صدوقاً - يحدث بأحاديث عظيمة عجيبة، من تفضيل مَنْ قد سلف من الولاة، ولم يخلق الله تعالى

التمهيد لبيعة يزيد

وهكذا تتسلسل الأحداث وتتسارع لإكمال المخطط الذي اقترحه أبو سفيان، وبدأه عثمان، ونهاه ورعاه وأحكم أركانه معاوية.

بدأ معاوية بأخذ البيعة ليزيد ضمن خطط محكمة تهيئ الأذهان لقبولها، وقام بالتخلص من كل أحد يظنه منافساً لخلافة يزيد أو معترضاً عليها.

ينقل صاحب كتاب (المنمق) حادثة وقعت في حدود سنة ٤٥ للهجرة: «ذكر ابن الكلبي عن خالد بن سعيد، عن أبيه، أن معاوية لما أراد أن يبايع ليزيد قال لأهل الشام: إن أمير المؤمنين قد كبرت سنُّه ودنا من أجله، وقد أردت أن أولي الأمر رجلاً بعدي، فما ترون؟ فقالوا: عليك بعبد الرحمن بن خالد بن الوليد بن المغيرة، وكان فاضلاً. فسكت معاوية، وأضمرها في نفسه. ثم إن عبد الرحمن اشتكى، فدعا معاوية ابن أُنال - وكان من عظماء الروم وكان متطبباً يختلف إلى معاوية - فقال: انت عبد الرحمن فاحتل له. فأتى عبد الرحمن فسقاه شربة فانخرق عبد الرحمن ومات. فقال [معاوية] حين بلغه موته: لا جد إلا من أقعص عنك من تكره^(١)»^(٢).

وقال ابن أبي أصيبعة: «وقال أبو عبيد القاسم بن سلام البغدادي في كتاب الأمثال: إن معاوية بن أبي سفيان كان خاف أن يميل الناس إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد. فاشتكى عبد الرحمن، فسقاه الطبيب شربة عسل فيها سم فأحرقته، فعند

شيئاً منها، ولا كانت ولا وقعت، وهو يحسب أنها حق؛ لكثرة من قد رواها ممن لم يُعرف بكذب ولا بقلّة ورع». ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ١١، ص ٤٤. أنظر أيضاً: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٦٩.

(١) قال في مجمع الأمثال: «ضربه فأقعصه أي: قتله مكانه. يقول: جدك الحقيقي ما دفع عنك المكروه، وهو أن يقتل عدوك دونك. قاله معاوية حين خاف أن يميل الناس إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فاشتكى عبد الرحمن، فسقاه الطبيب شربة عسل فيها سم فأحرقته، فعند ذلك قال معاوية هذا القول». الميداني، أحمد بن محمد النيسابوري، مجمع الأمثال: ج ٢، ص ١٦٦.

(٢) البغدادي، محمد بن حبيب، المنمق في أخبار قريش: ص ٣٦٠.

ذلك قال معاوية: لا جدّ إلّا ما أقعص عنك من تكبره^(١). وكانت وفاة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد سنة ٤٦ هـ^(٢).

وقد ورد في (الإمامة والسياسة) أنّ الأحنف بن قيس نصّح معاوية بقوله: «مع أنّ أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا، ولا يبائعون ليزيد ما كان الحسن حياً»^(٣)، ممّا يدلّ على أنّ حركة معاوية لطلب البيعة ليزيد لله كان في وقت مبكر من حكمته، وأنها كانت في حياة الإمام الحسن عليه السلام.

روى الدينوري في (الإمامة والسياسة) أنّه قدّمت الوفود على معاوية، فلمّا اجتمعوا عنده دعا الضحّاك بن قيس الفهري^(٤)، واتفق معه على أن يقوم - إذا فرغ معاوية من كلامه - ويستأذن في الكلام، فيذكر يزيد وفضله، ويطلب من معاوية أن يوّلّي يزيد بعده. وهكذا اتفق مع عبد الرحمن بن عثمان الثقفي، وعبد الله بن مسعدة الفزاري، وثور بن معن السلمي، وعبد الله بن عصام الأشعري، وأمرهم أن يقوموا

(١) ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم الخزرجي، عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ص ١٧٤. وانظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ١٧١. أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين، الأغاني: ج ١٦، ص ٣٩٧.

(٢) أنظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ١٧١.

(٣) ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٤٦.

(٤) الضحّاك بن قيس بن خالد الفهري، أبو أنيس - ويُقال: أبو أميّة - من أعداء أمير المؤمنين عليه السلام، شهد صفين مع معاوية، وكان على أهل دمشق - وهم القلب - كما كان على شرطة معاوية، وقد أغار على سواد العراق، وأقام بهيت ثم عاد. وبعد أن حكم معاوية العراق ولّاه الكوفة سنة ٥٣ هـ، وهو الذي صلّى على معاوية. ولما مات يزيد بن معاوية دعا الضحّاك أهل الشام لعبد الله بن الزبير؛ فكتب إليه عبد الله بن الزبير بولايته على الشام. ويبيع مروان بن الحكم فصار إليه، فالتقوا بمرج راهط فاقتتلوا فقتل الضحّاك سنة ٦٥ هـ، وقيل: ٦٤ هـ. أنظر: ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى: ج ٧، ص ٤١٠ - ٤١١. ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج ٢٤، ص ٢٨٠. الكوفي، إبراهيم بن محمد، الغارات: ج ٢، ص ٤٢١ - ٤٢٢، الزركلي، خير الدين، الأعلام: ج ٣، ص ٢١٤ - ٢١٥.

بعد الضحّاك ويصدّقوه، ويطلبوا من معاوية أن يوليّ يزيد بعده.

وهذا من الخطط والدهاء الإعلامي للتأثير على الرأي العام، فقد أوعز إلى أذهان الأمة أنّ رؤساء القوم يرغبون في خلافة يزيد؛ لما يملكه من مؤهّلات خاصة تؤهّله للخلافة.

وبالفعل بدؤوا بتنفيذ السيناريو كما رسمه لهم معاوية، حيث قام الضحّاك فقال: «أصلح الله أمير المؤمنين وأمتع به، إنّنا قد بلونا الجماعة والألفة والاختلاف والفرقة فوجدناها أئمّ لشعثنا، وأمنة لسبلنا، وحاقة لدمائنا، وعائدة علينا في عاجل ما نرجو وأجل ما نؤمل. مع ما نرجو به الجماعة من الألفة، ولا خير لنا أن نُترك سدى، والأيام عوج رواجع، والله يقول: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾^(١)، ولسنا ندري ما يختلف به العصران، وأنت يا أمير المؤمنين ميت كما مات من كان قبلك من أنبياء الله وخلفائه... وقد رأينا من دعة يزيد بن أمير المؤمنين، وحسن مذهبه، وقصد سيرته، ويمن نقيته، مع ما قسم الله له من المحبة في المسلمين، والشبه بأمر المؤمنين، في عقله وسياسته وشيمته المرضية، ما دعانا إلى الرضا به في أمورنا، والتنوع به في الولاية علينا، فليولّه أمير المؤمنين - أكرمه الله - عهده، وليجعل له لنا ملجأً ومفرعاً بعده، نأوي إليه إن كان كونه فإِنَّه ليس أحد أحقّ بها منه، فاعزم على ذلك، عزم الله لك في رشدك، ووفقك في أمورنا». وهكذا قام الآخرون فتكلّموا بما يقرب من ذلك، وصدّقوا الضحّاك في قوله، وطلبوا من معاوية تولية يزيد.

وكان فيمن حضر مع الوفود الأحنف بن قيس^(٢)، فاعترض عليهم، وقال

(١) الرحمن: آية ٢٩.

(٢) الأحنف بن قيس بن معاوية، أبو بحر، التميمي السعدي، اسمه ضحّاك، وقيل: صخر، أسلم في عهد النبي ﷺ ولم يره، ومن أصحاب أمير المؤمنين ﷺ والحسن ﷺ. شارك مع أمير المؤمنين ﷺ في صفين دون الجمل، وقد روي أنّه: أرسل إلى أمير المؤمنين ﷺ في وقعة الجمل: إن شئت أتيتك في مائتي فارس، فكنّت معك، وإن شئت اعتزلتُ بني سعد، فكففتُ عنك ستّة

لمعاوية: «أصلح الله أمير المؤمنين، إنّ الناس قد أمسكوا في منكر زمان قد سلف، ومعروف زمان مؤتلف، ويزيد بن أمير المؤمنين نعم الخلف، وقد حلبت الدهر أشطره يا أمير المؤمنين، فاعرف من تسند إليه الأمر من بعدك، ثم اعصِ أمر من يأمرك، لا يغرك من يشير عليك، ولا ينظر لك، وأنت أنظر للجماعة، وأعلم باستقامة الطاعة، مع أنّ أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا، ولا يبايعون ليزيد ما كان الحسن حياً». ولكنّ القوم نهروه بأشدّ الخطاب^(١).

التصفية الجسدية للمعارضين

وهكذا تستمر خطط معاوية ومساعيه لتغيير ثقافة المجتمع حول الخلافة، فيذهب إلى المدينة المنورة، يقول ابن قتيبة: «فلما استقرّ في منزله أرسل إلى عبد الله بن عباس، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وإلى عبد الله بن عمر، وإلى عبد الله بن الزبير، وأمر حاجبه ألا يأذن لأحد من الناس حتى يخرج هؤلاء النفر، فلما جلسوا تكلم معاوية، فقال: الحمد لله الذي أمرنا بحمده، ووعدنا عليه ثوابه، نحمده كثيراً، كما أنعم علينا كثيراً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله. أمّا

آلاف سيف، فاختار عليه اعتراله. روي أنّه قيل للأحنف: إنك تُطيل الصوم، فقال: أعدّه لشرّ يوم عظيم، ثم قرأ: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَتْ شُرُهُ مُسْطِيرًا﴾.

وروي أنّ الأحنف بن قيس، وحارثة بن قدامة، والحباب (لحّات) بن يزيد، وفدوا على معاوية، فقال معاوية للأحنف: أنت الساعي على أمير المؤمنين عثمان، وخاذل أمّ المؤمنين عايشة، والوارد الماء على عليّ بصفين؟ فقال: يا أمير المؤمنين، من ذلك ما أعرف ومنه ما أنكر. أمّا أمير المؤمنين عثمان، فأنتم معشر قريش، حصرتموه بالمدينة والدار مناه عنه نازحة، وقد حضره المهاجرون والأنصار، ونحن عنه بمعزل، وكنتم بين خاذل وقاتل. وأمّا عايشة، فإنّي خذلتها في طول باع ورحب وشرب؛ وذلك أنّي لم أجد في كتاب الله إلا أنّ تقرّ في بيتها. وأمّا ورود الماء بصفين، فإنّي وردت حين أردت أن تقطع رقابنا عطشاً. توفّي سنة (٧٢هـ). أنظر: الثقيفي، إبراهيم بن محمد، الغارات: ج ٢، ص ٧٥٤. الزركلي، خير الدين، الأعلام: ج ١، ص ٢٧٦. الخوئي، أبو القاسم، معجم رجال الحديث: ج ٣، ص ١٦٦.

(١) ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٤٦.

بعد، فإنّي قد كبر سنّي، ووهن عظمي، وقرب أجلي، وأوشكتُ أن أدعى فأجيب، وقد رأيتُ أن أستخلف عليكم بعدي يزيد، ورأيتُهُ لكم رضا، وأنتم عبادلة قريش وخيارها، وأبناء خيارها، ولم يمنعي أن أحضر حسناً وحسيناً إلا أنّهما أولاد أبيهما عليّ، على حسن رأيي فيهما، وشديد محبّتي لهما، فرُدُّوا على أمير المؤمنين خيراً رحمكم الله»^(١).

فاعترضوا عليه جميعاً، ولم يقبلوا منه ما اقترحه من خلافة يزيد^(٢)، فترك ذكر البيعة لعامة الناس وترك المدينة وتوجّه إلى الشام.

بدأ معاوية لعنه الله فور وصوله الشام، بخطة التصفية الجسدية لبعض رؤوس المعارضة، يقول أبو الفرج: «ودس معاوية إليه [أي إلى الحسن عليه السلام]، حين أراد أن يعهد إلى يزيد بعده، وإلى سعد بن أبي وقاص سمّاً فماتاً منه في أيام متقاربة»^(٣).

وقال أيضاً: «وانصرف الحسن عليه السلام إلى المدينة فأقام بها. وأراد معاوية البيعة لابنه يزيد، فلم يكن شيء أثقل من أمر الحسن بن علي وسعد بن أبي وقاص، فدس إليهما سمّاً فماتاً منه»^(٤).

(١) ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٤٨.

(٢) وقد قال في جوابهم مُخرِجاً ابن الزبير وابن عمر من أمر الخلافة بدهائه، حيث قال: «قد قلتُ وقتلتم، وإنّه ذهبت الآباء، وبقيت الأبناء، فابني أحب إليّ من أبنائهم، مع أنّ ابني إن قاوَلتموه وجد مقالاً، وإنّا كان هذا الأمر لبني عبد مناف؛ لأنّهم أهل رسول الله، فلمّا مضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولّى الناس أبا بكر وعمر من غير معدن الملك ولا الخلافة، غير أنّهما سارا بسيرة جميلة، ثمّ رجع الملك إلى بني عبد مناف، فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة، وقد أخرجك الله يابن الزبير، وأنت يابن عمر منها، فأما ابنا عمي هذان فليسا بخارجين من الرأي إن شاء الله. ثمّ أمر بالرحلة، وأعرض عن ذكر البيعة ليزيد». ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٥٠.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين، مقاتل الطالبين: ص ٣١. عنه: ابن عقيل، محمد، النصائح الكافية: ص ١٠٩.

(٤) أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين، مقاتل الطالبين: ص ٤٨. عنه: ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ١٦، ص ٤٩.

وبعد شهادة الإمام الحسن عليه السلام أمر معاوية واليه على المدينة أن يأخذ البيعة من أهلها ليزيد، فلم يبايع له أكثرهم، وحين بلغه ذلك بدأ بتصفية المخالفين أمثال: عبد الرحمن بن أبي بكر، وأخته عائشة بنت أبي بكر.

فقد روى الدينوري: أن معاوية لما طلب البيعة ليزيد اعترض عليه عبد الرحمن بن أبي بكر، فقال له معاوية: «لا تظهرن لأهل الشام؛ فإني أخشى عليك منهم... ومضى راجعاً إلى الشام، فلم يلبث إلا قليلاً، حتى توفي عبد الرحمن بن أبي بكر في نومة نامها»^(١).

وفي (التاريخ الصغير) للبخاري: «إن معاوية قدم المدينة حين أخبر أن ابن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير خرجوا عائذين بالكعبة من بيعة يزيد! فلم يلبث ابن أبي بكر إلا يسيراً حتى توفي، بعدما خرج معاوية من المدينة»^(٢). وكانت عائشة تقول: «ما أساء من أمر عبد الرحمن إلا أنه لم يُعالج، ولم يُقبر حيث مات»^(٣). وجاء في (أسد الغابة): «وخرج عبد الرحمن إلى مكة فمات بها قبل أن تتم البيعة ليزيد، وكان موته فجأة؛ من نومة نامها بمكان اسمه حبشي، على نحو عشرة أميال من مكة»^(٤).

وفي (المستدرک): «قال الزبير بن بكار: حدثني إبراهيم بن محمد بن عبد العزيز الزهري، عن أبيه، عن جده، قال: بعث معاوية إلى عبد الرحمن بن أبي بكر ببائة ألف درهم بعد أن أبى البيعة ليزيد بن معاوية، فردّها عبد الرحمن وأبى أن يأخذها، وقال: أبيع ديني بدنياي؟ وخرج إلى مكة فمات بها»^(٥).

(١) ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٢١٠.

(٢) البخاري، محمد بن إسماعيل، التاريخ الصغير: ج ١، ص ١٢٩.

(٣) المصدر السابق.

(٤) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، أسد الغابة: ج ٣، ص ٣٠٦.

(٥) الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، المستدرک على الصحيحين: ج ٣، ص ٤٧٦.

كما إنّه قتل عائشة زوج النبي ﷺ؛ لمعارضتها بيعة يزيد، فقد ورد أنّه كان على المنبر يأخذ البيعة ليزيد، فقالت عائشة: هل استدعى الشيوخ لبنينهم البيعة؟ قال: لا. قالت: فبمن اقتديت؟ فخجل وهيأ لها حفرة، فوُقت فيها فماتت^(١).

وفي رواية أنّ معاوية شكاهها إلى مروان، وقال له: لا طاقة لي إلى تحمّل بلاء هذه العجوزة، فتولّى مروان - بإذن معاوية - أمر عائشة ودبّر لها حفر البئر، فوُقت فيه، في آخر ذي الحجة سنة ثمان وخمسين. وكان ابن الزبير يشير إلى هذه الحادثة تعريضاً بمعاوية حين قال:

لقد ذهب الحمارُ بأمّ عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار^(٢)

بل قام معاوية بقتل كلّ من نافس يزيد في نظر الناس، وإن كان من أعوانه؛ ولذا يحتمل الشيخ الكوراني أنّ معاوية هو الذي قتل زياد ابن أبيه الذي ادّعاه في بادئ الأمر أخاً له وابناً لأبي سفيان، فلمّا أحسّ منه الطمع في الخلافة، وأنّه يريد تأخير البيعة ليزيد لتكون له هو دون يزيد، قام بالتخلّص منه.

ثمّ استشهد لتأييد هذا الاحتمال بما ذكره المؤرخون، من قبيل ما جاء في (البداية والنهاية) لابن كثير: «وكتب معاوية إلى زياد يستشيريه في ذلك، فكره زياد ذلك لما يعلم من لعب يزيد وإقباله على اللعب والصيد، فبعث إليه من يثني رأيه عن ذلك، وهو عبيد بن كعب بن النميري وكان صاحباً أكيداً لزياد، فسار إلى دمشق فاجتمع بيزيد أولاً، فكلمه عن زياد، وأشار عليه بالألا يطلب ذلك؛ فإنّ تركه خير له من السعي فيه، فانزجر يزيد عمّا يريد من ذلك واجتمع بأبيه، واتفقا على ترك ذلك في هذا

(١) أنظر: ابن طاووس، علي بن موسى، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف: ص ٥٠٣. البياضي، علي بن يونس العاملي، الصراط المستقيم: ج ٣، ص ٤٥.

(٢) ابن طاووس، علي بن موسى، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف: ص ٥٠٣. العاملي، علي بن يونس النباطي، الصراط المستقيم: ج ٣، ص ٤٦. الكوراني، علي، جواهر التاريخ: ج ٢، ص ٢٤٩.

الوقت. فلمّا مات زياد وكانت هذه السنة، شرع معاوية في نظم ذلك والدعاء إليه، وعقد البيعة لولده يزيد، وكتب إلى الآفاق بذلك»^(١).

وكذا ما ذكره ابن عساكر: «وفد زياد إلى معاوية ومعه أشرف أهل العراق، فزجر به ابن حنيق العبادي (أي تفاعل بهذه السفرة) فقال:

قد علمت ضامرة الجياد أن الأمير بعده زياد

فلم يصل زياد إلى معاوية حتى أتاه الخبر، وما قال ابن حنيق وإقرار زياد بذلك، ومعاوية يُربّص لابنه ما يُربّص من الخلافة، ثمّ أذن للناس فأخذوا مجالسهم، ثمّ دخل زياد فلم يدعّه إلى مجلس، حتى قام له رجل من أهل العراق فجلس في مجلس، فحمد الله معاويةً وأثنى عليه، ثمّ قال: هذه الخلافة أمر من أمور الله، وقضاء من قضاء الله، وأنها لا تكون لمنافق، ولا لمن صلّى خلف إمام منافق! يعرض بزياد حتى عرف زياد»^(٢).

ثمّ علّق الكوراني على عبارة ابن عساكر المتقدمة بقوله: «يقصد معاوية أن زياداً لا يصلح للخلافة؛ لأنّه صلّى خلف علي عليه السلام! وقوله: (هذه الخلافة أمر من أمور الله وقضاء من قضاء الله) محاولة لتركيز مذهبه الجبري الذي يجعل الخليفة الأموي خليفة الله تعالى في أرضه، ويجعل فعله فعل الله تعالى، ويرفع عنه الحساب والعقاب!

وتدلّ الرواية على أن زياداً جاء إلى الشام بوفد (عراقي)؛ لي طرح موضوع ولايته للعهد بدل يزيد! وأنّ جواسيس معاوية عليه أوصلوا أخباره قبل وصوله، فعامله معاوية باستهانة، وأجاب على أمنيته بالردّ والتوبيخ!

ولا يبعد أن يكون مجيء زياد بعد رسالة معاوية إليه يستشير به في إعلان يزيد ولياً لعهد، وهذا يجعل قتله واجباً حسب قوانين معاوية»^(٣).

(١) ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية: ج ٨، ص ٨٦.

(٢) ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج ١٩، ص ١٩٧.

(٣) الكوراني، علي، جواهر التاريخ: ج ٢، ص ٣٢٥.

ومّا استشهد به الشيخ الكوراني على الاحتمال المذكور من أنّ زياداً مات مسموماً بأمر من معاوية، هو ما جاء في (تاريخ يعقوبي): «وكتب معاوية إلى زياد وهو بالبصرة، أنّ المغيرة قد دعا أهل الكوفة إلى البيعة ليزيد بولاية العهد بعدي، وليس المغيرة بأحقّ بابن أخيك منك، فإذا وصل إليك كتابي فادعُ الناس قبلك إلى مثل ما دعاهم إليه المغيرة وخذ عليهم البيعة ليزيد. فلما بلغ زياداً وقرأ الكتاب دعا برجل من أصحابه يثق بفضله وفهمه، فقال: إني أريد أن أأتمنك على ما لم أأتمن عليه بطون الصحائف، إئت معاوية فقل له: يا أمير المؤمنين، إنّ كتابك ورد عليّ بكذا، فما يقول الناس إذا دعوناهم إلى بيعة يزيد وهو يلعب بالكلاب والقروء، ويلبس المصبغ، ويُدمنُ الشراب، ويمشي على الدفوف، وبحضرتهم الحسين بن علي، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر؟! ولكن تأمره أن يتخلّق بأخلاق هؤلاء حولاً وحولين، فعسانا أن نموّه على الناس. فلما صار الرسول إلى معاوية، وأدى إليه الرسالة، قال: ويلي على ابن عبيد! لقد بلغني أنّ الحادي حداله: أنّ الأمير بعدي زياد، والله لأردنّه إلى أمّه سمية، وإلى أبيه عبيد»^(١).

وهذا النصّ صريح في أنّ من جملة الأمور التي تمنع من ترشيح يزيد لولاية العهد أو الخلافة هي سيرته ومجونه وهوه؛ لذا نصحه زياد ابن أبيه بأن يتظاهر يزيد بالصلاح لمدة سنة أو سنتين حتى تصح دعوة الناس لبيعته. يقول الطبري: «وكتب زياد إلى معاوية يأمره بالتؤدة»^(٢)، وألا يعجل، فقبل ذلك معاوية وكفّ يزيد عن كثير ممّا كان يصنع»^(٣).

يزيد في حلّته الجديدة

بعد هذه الاعتراضات والنصائح التي وردت على معاوية حين طلب البيعة

(١) يعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ يعقوبي: ج ٢، ص ٢٢٠.

(٢) التؤدة: التمهّل والتأني والرزازنة. الفراهيدي، أحمد، كتاب العين: ج ٨، ص ٩٧.

(٣) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٢٥.

ليزيد، أضافَ لسياسة التصفية الجسدية للمعارضين سياسةً أخرى جديدة، وهي إظهار يزيد بمظهر العالم الفاضل، وأوكلَ إليه بعض المهام الدينية من قبيل:

تأثيره على الحج

يقول الطبري: «واختلف فيمن حجّ بالناس في هذه السنة (خمسين)، فقال بعضهم: حجّ بهم معاوية، وقال بعضهم: بل حجّ بهم ابنه يزيد»^(١). وفي (تاريخ مدينة دمشق): «ثم حجّ بالناس معاوية بن أبي سفيان سنة خمسين، ثم حجّ بالناس يزيد بن معاوية سنة إحدى وخمسين وسنة اثنتين وخمسين وسنة ثلاث وخمسين»^(٢).

يقول الشيخ الكوراني بعد أن نقل أقوال المؤرخين: «ويظهر من مجموع الروايات أنّ معاوية أراد أن تكون هذه السفرة تمهيداً واستطلاعاً لآراء الصحابة والتابعين في يزيد! وأنه واجه معارضةً شديدة من أغلب الشخصيات، خاصةً عبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير، والإمام الحسين عليه السلام، فأثر أن يتحمّل منهم ويؤخّر طرحبيعة يزيد حتى يقوم بمزيد من التمهيد، ثمّ ينقضّ على الصحابة ومعه جيش من الشام»^(٣).

قيادة جيش القسطنطينية

كما جعله قائداً على الجيش الذي غزا القسطنطينية (إستانبول)، وأشاع في الإعلام بأنه مجاهد، وأنه قائد الجيش الفاتح، مع أنّ يزيد لم يحضر مع الجيش، بل انشغل بشرا به ولهو مع زوجته وجواريه، حتى غضب عليه معاوية.

(١) المصدر السابق: ص ١٧٩.

(٢) ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج ٢١، ص ١٢٦.

(٣) الكوراني، علي، جواهر التاريخ: ج ٣، ص ٣٢٢.

فقد جاء في (تاريخ اليعقوبي): «وأغزى معاوية يزيد ابنه الصائفة ومعه سفيان بن عوف العامري، فسبقه سفيان بالدخول إلى بلاد الروم، وانتظروا طويلاً، فنال المسلمون في بلاد الروم حمى وجدري! وكانت أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر تحت يزيد بن معاوية وكان لها محباً، فلمّا بلغه ما نال الناس من الحمى والجدري قال:

ما أن أبالي بما لاقت جموعُهُمُ بالغدقذونة من حمى ومن مُوم
إذا اتكأتُ على الأنساط في غرف بدير مُرَّانَ عندي أم كلثوم
فبلغ ذلك معاوية فقال: أقسم بالله لتدخلن أرض الروم فليصيبنك ما أصابهم،
فأردف به ذلك الجيش فغزا به حتى بلغ القسطنطينية»^(١).

وفي (تاريخ مدينة دمشق): «بعث معاوية جيشاً إلى الروم فنزلوا منزلاً يقال له: الفرقدونة، فأصابهم بها الموت وغلاء شديد فكبر ذلك على معاوية، فاطلع يوماً على ابنه يزيد وهو يشرب وعنده قينة تغنيه... فقال معاوية: أقسم عليك يا يزيد لترتخلن حتى تنزل مع القوم، وإلا خلعتك. فتهياً يزيد للرحيل وكتب إلى أبيه:

تجنّى لا تزال تُعُدُّ ديناً ليقطع وصل حبلك من جبالي
فيوشك أن يرحك من بلائي نزولي في المهالك وارتحالي»^(٢)

وضع الأحاديث النبوية في مدح يزيد

ثم عملت الأفواه والأقلام المأجورة بسخاء معاوية، فوضعوا على لسان النبي ﷺ أنه امتدح الجيش الذي يكون بقيادة يزيد، وأتهم مغفور لهم، فقد روى البخاري عن «أم حرام أنها سمعت النبي ﷺ، يقول: ... أول جيش من أمتي يغزون

(١) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ٢٢٩.

(٢) ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج ٦٥، ص ٤٠٦.

مدينة قيصر مغفور لهم! فقلتُ: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: لا»^(١).

قال في (فتح الباري): «قال المهلب: في هذا الحديث منقبة لمعاوية؛ لأنه أول من غزا البحر، ومنقبة لولده يزيد؛ لأنه أول من غزا مدينة قيصر»^(٢).
ومن أراد تفاصيل الغزو وبيان تزويرهم لما جرى فيه، والردّ عليهم فليراجع كتاب (جواهر التاريخ) لساحة الشيخ الكوراني^(٣).

كلمات معاوية في مدح يزيد

وكانت الخطوة الثانية تحسين صورة ابنه يزيد لعَلَّه، وتصويره للأمة وكأنّه من حكماء المسلمين وعبّادهم وأهل الورع فيهم، وأنّه ممّن خبر السياسة وعرف القيادة، فقد ورد أنّه حين دخل المدينة خطبَ الناس فذكر يزيد فمدحه، وقال: «مَنْ أَحَقُّ منه بالخلافة في فضله وعقله وموضعه، وما أظنّ قوماً بمتتهين حتى تصيبهم بوائق تجتث أصولهم، وقد أُنذرتُ إن أغت النذر. ثمّ أنشد متمثلاً:

قد كنتُ حدّرتُك آلَ المصطلق وقلتُ يا عمرو أتعني وانطلق
إنّك إن كلفتنّي ما لم أطق ساءك ما سرّك منّي من خُلق
دونك ما استسقيته فأحس وذق»^(٤).

وكذا حين قدّم المدينة واجتمع بالإمام الحسين عليه السلام وعبد الله بن العباس عليه السلام، فقال لهما: «وقد كان من أمر يزيد ما سبقتم إليه وإلى تجويزه، وقد علم الله ما أحاول به في أمر الرعية، من سدّ الخلل، ولمّ الصدع بولاية يزيد بما أيقظ العين، وأحمد الفعل، هذا

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري: ج ٣، ص ٢٣٢.

(٢) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ج ٦، ص ٧٤.

(٣) أنظر: الكوراني، علي، جواهر التاريخ: ج ٣، ص ٣٢٧.

(٤) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٥٠٩.

معناي في يزيد، وفيكما فضل القرابة، وحظوة العلم، وكمال المروءة، وقد أصبتُ من ذلك عند يزيد على المناظرة والمقابلة، ما أعياني مثله عندكما، وعند غيركما، مع علمه بالسُّنة، وقراءة القرآن، والحلم الذي يرجح بالصم الصلاب. وقد علمتما أنّ الرسول المحفوظ بعصمة الرسالة، قدم على الصديق والفاروق، ومَن دونهما من أكابر الصحابة، وأوائل المهاجرين يوم غزوة السلاسل، مَن لم يقارب القوم ولم يعاندهم برتبة في قرابة موصولة، ولا سُنّة مذكورة، فقادهم الرجل بأمره، وجمع بهم صلاتهم، وحفظ عليهم فيئهم، وقال فلم يقل معه، وفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أُسوة حسنة، فمهلاً بني عبد المطلب، فأنا وأنتم شعباً نفع وجد، وما زلتُ أرجو الإنصاف في اجتماعكما، فما يقول القائل إلّا بفضل قولكما، فردّاً على ذي رحم مستعتب ما يحمد به البصيرة في عتابكما، وأستغفر الله لي ولكما»^(١).

وجاء بعدها إلى مكة، فدعا الإمام الحسين عليه السلام إليه، ثم قال للإمام عليه السلام: «أبا عبد الله، اعلم أنّي ما تركتُ بلداً إلّا وقد بعثتُ إلى أهله، فأخذتُ عليهم البيعة ليزيد، وإنّا أخرتُ المدينة؛ لأنّي قلتُ: هم أصله وقومه وعشيرته ومَن لا أخافهم عليه، ثمّ إنّي بعثتُ إلى المدينة بعد ذلك، فأبى بيعته مَن لا أعلم أحداً هو أشدّ بها منهم، ولو علمتُ أنّ لأمة محمد ﷺ خير من ولدي يزيد لما بعثتُ له»^(٢).

وهذه مشكلة ثقافية كبيرة بإمكانها أن تقضي على الإسلام وتفلّ عراه، لو قُدِّر لها أن تستمر، خصوصاً إذا تولّى الحكم حاكمٌ مثل يزيد المتهتك، والذي لا يعير أهميّة لكلّ القيم، كما وصفه الإمام الحسين عليه السلام في جوابه لمعاوية: «وهيهات هيهات يا معاوية! فضح الصبح فحمة الدجى، وبهرت الشمس أنوار السرج، ولقد فضّلت

(١) ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة: ج ١، ١٦٠.

(٢) ابن أعثم، أحمد، الفتوح: ج ٤، ص ٣٣٩.

حتى أفطرت، واستأثرت حتى أجحفت، ومنعت حتى محلت، وجزت حتى جاوزت ما بذلت لذي حق من اسم حقه بنصيب، حتى أخذ الشيطان حظّه الأوفر، ونصيبه الأكمل. وفهمت ما ذكرت عن يزيد من اكتماله، وسياسته لأمة محمد، تريد أن توهم الناس في يزيد، كأنك تصف محبوباً، أو تنعت غائباً، أو تخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص. وقد دلّ يزيد من نفسه على موقع رأيه؛ فخذ ليزيد فيما أخذ فيه، من استقرائه الكلاب المهارشة عند التهارش، والحمام السبق لأتراهين، والقيان ذوات المعازف وضرب الملاهي تجده باصراً، ودع عنك ما تحاول، فما أغناك أن تلقى الله من وزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقية، فوالله ما برحت تقدح باطلاً في جور، وحنقاً في ظلم حتى ملأت الأسقية. وما بينك وبين الموت إلا غمضة، فتقدم على عمل محفوظ، في يوم مشهود، ولات حين مناص»^(١).

وكما ورد في كلامه مع والي المدينة الوليد بن عتبة، حيث قال له: «يزيد رجل فاسق شارب الخمر، قاتل النفس المحترمة»^(٢). فلو وليها يزيد ولم يعترض عليه أحد لكان الأصل في الحكماء وخلفاء الإسلام هو التهتك والتكبر والمجون، ولا يحق لأحد الاعتراض عليه.

(١) ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٦١.

(٢) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتل الطفوف: ص ١٧.



الفصل الثاني

مقومات النهضة الإصلاحية

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: مقومات النهضة بشكل عام

المبحث الثاني: مقومات النهضة الحسينية

تمهيد

إنَّ الله تبارك وتعالى خلق الإنسان مختاراً لأفعاله، فله أن يختار الخير أو الشر، وله أن يعتقد الحقَّ أو الباطل. وهذا - بطبيعة الحال - يقتضي أنَّ الإنسان قد يختار الشرَّ على الخير والباطل على الحقِّ؛ بسبب جهله وعدم تمييزه، أو بسبب ما تمليه عليه نزواته وشهوَّاته النفسية، أو بسبب الغواية التي يحوطه بها عدوُّه اللدود (الشيطان)؛ فإنَّ الشيطان الذي طُرِدَ من مقامه ومنزلته بسبب هذا المخلوق الجديد لا يمكن أن تنصوِّر مسامحته لنا بعد أن خسر كلَّ شيء بسبب أبينا آدم عليه السلام، وبعد أن خالف ربَّه وتوعَّد بأن يغوي جميع ذرية آدم ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١).

فالإنسان في مواجهة حقيقية مع عدوٍّ شرِّسٍ حاقِدٍ حسودٍ، يتمتع بطاقات وقابليات، وفوق ذلك ﴿إِنَّهُ يَرَبُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾^(٢). وبذلك تكون كفة الشر والباطل هي الطاغية في الإنسان.

من هنا اقتضت حكمة الباري تبارك وتعالى أن يسدّد مخلوقه الجديد ويمدّه بالعون، ولا يتركه يخوض معركته لوحده، فأمدّه بالمنبهاات الداخلية التي تعيش في دواخله من العقل والفطرة والوجدان والضمير، كما أمدّه بالمنبه الخارجي وهو الذوات المعصومة من الأنبياء والرسل والأئمة عليهم السلام. يقول الإمام الكاظم عليه السلام: «يَا هِشَامُ، إِنَّ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجَّتَيْنِ: حُجَّةَ ظَاهِرَةٍ، وَحُجَّةَ بَاطِنَةٍ. فَأَمَّا الظَّاهِرَةُ، فَالرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْأَئِمَّةُ عليهم السلام. وَأَمَّا الْبَاطِنَةُ، فَالْعُقُولُ»^(٣).

(١) الإسراء: آية ٦١.

(٢) الأعراف: آية ٢٧.

(٣) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ١٦.

وبما أنّ النوع الإنساني وجوده متجدّد جيلاً بعد جيل، وكلّما امتدّ الزمن تباعد الجيل اللاحق عن الجيل السابق، فلا بدّ من استمرار الإصلاح السماوي والنصرة الإلهية لجانب الحقّ والخير في الإنسان؛ لأنّ تباعد الأجيال يستلزم تغيير الأفكار وتبدّل الأعراف والثقافات المستلزمة لتغيير السلوكيات والتوجهات.

وقد أشارت النصوص الدينية إلى هذه الحقيقة الدالّة على شدّة رحمة الله ومحبته وعطفه على خلقه، حيث نقرأ في بعض النصوص: «عن أبي حمزة الثمالي، قال: قال الباقر عليه السلام: ما خلت الدنيا - منذ خلق الله السماوات والأرض - من إمام عدل إلى أن تقوم الساعة، حجة لله فيها على خلقه»^(١)، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «والله، ما ترك الله الأرض منذ قبض الله آدم إلّا وفيها إمامٌ يُهتدى به إلى الله، وهو حجة الله على عباده، ولا تبقى الأرض بغير إمامٍ حجة لله على عباده»^(٢).

وهكذا بدأت حركة الإصلاح منذ بدأت البشرية مسيرتها على هذا الكوكب بدءاً بصفوة الله آدم عليه السلام ومروراً بولده هبة الله، وهكذا إدريس ونوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى عليه السلام، حتى وصل الأمر إلى خاتمهم وسيدهم محمد صلى الله عليه وآله. وهناك نصوص تشير إلى أنّ عدد الأنبياء ١٢٤ ألف نبي^(٣)، فإذا ضممنّا لهم أوصياءهم فإنّ العدد سيكون أكثر من ذلك بكثير.

ثمّ تستمرّ مسيرة الإصلاح السماوي على يد أوصياء المصطفى صلوات الله عليه وعليهم، حيث أوصى إلى وصيّيه بالحقّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ثمّ الحسن، ثمّ الحسين عليه السلام، ثمّ التسعة من ذرية الحسين عليه السلام.

(١) ابن بابويه القمي، علي، الإمامة والتبصرة: ص ٢٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أنظر: الصدوق، محمد بن علي، الأمالي: ص ٣٠٧. الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، المستدرک على الصحيحين: ج ٢، ص ٥٩٧.

وعلى ضوء هذه الحركة الإصلاحية الضاربة في عمق التاريخ، والممتدة في عمود الزمان منذ نزول الإنسان على وجه الأرض، لا بدّ أن نقرأ حركة الأنبياء والأوصياء في إصلاحهم للمجتمع، والتي منها، بل من أبرزها حركة الإصلاح الحسيني.

وبذلك يثبت أنّ الإصلاح الذي يريده الإمام الحسين عليه السلام هو استمرار لتلك الحركة الإصلاحية السماوية الإلهية للمجتمع.

وفي هذا الفصل نريد أن نبين مقومات النهضة الإصلاحية، ومقدار ما اشتملت عليه النهضة الحسينية من تلك المقومات.

المبحث الأول

مقومات النهضة بشكل عام

لم تكن مسألة الإصلاح الاجتماعي بالأمر السهل الذي يمكن امتطاؤه لكل أحد، ولا في كل وقت، ولا في كل مجتمع، بل لا بدّ من توفر ظروفه وشروطه حتى يتسنى للإصلاح النهوض وإعطاء الثمار المرجوة منه.

ولذا فمن يريد الإصلاح في مجتمع ما لا بدّ أن ينظر أولاً إلى ظروف وشروط الإصلاح التي ترتبط بالمجتمع أو بالقائد أو بظروف عامة، هل هي متحققة أم لا؟ لئلا تكون الجهود ضياعاً، بل تكون ثمرة محققة لأهدافها. ولذا لا بدّ من الإشارة إلى بعض الشروط التي يجب توفرها وتحقيقها في كل مشروع إصلاحى:

الأول: وجود المشكلة

من أبرز شروط ومبررات النهضة أن تكون هناك مشكلة كبيرة تعاني منها الأمة أو شريحة منها، بحيث تؤثر على مستقبلها أو واقعها الثقافى أو الدينى أو العلمى أو الاجتماعى أو السياسى أو الأمنى أو الاقتصادى أو...

فلو لم تكن هناك مشكلة أساساً أو كانت ولكن ليست بهذه الأهمية، فقد لا تحتاج إلى نهضة وتغيير، بل يمكن إصلاحها من خلال إجراء بعض التعديلات الجزئية على ما هو موجود.

الثانى: تحديد نوع المشكلة

فمجرد وجود مشكلة نستشعرها، ونلمس آثارها، من دون معرفة حقيقتها وأسبابها، لا يبرّر النهوض؛ إذ الحراك حينئذ يكون غير هادف، فيكون مصداقاً

لقول الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «الْعَامِلُ عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ لَا يَزِيدُهُ سُرْعَةُ السَّيْرِ إِلَّا بُعْدًا»^(١)، فيكون ما يُفسد أكثر مما يُصلح.

وكلّما كان تحديد المشكلة أكثر وضوحاً في معرفة حقيقتها وأسبابها وطرق علاجها، كانت النهضة مؤهلة للنجاح بشكل أكبر.

وهذا الشرط من أهمّ شروط الإصلاح المرتبطة بالمصلح والشخصيات التي أخذت على عاتقها رعاية الإصلاح؛ إذ يتحتمّ عليهم أن يكونوا محيطين بنوع المشكلة التي يريدون التصديّ لإصلاحها، وحجم تلك المشكلة، وأسبابها ونتائجها وآثارها.

فالعلم بما يحتاجه المجتمع في إصلاحه شرطٌ أساس؛ ولذا يقول تعالى في قصة طالوت عندما اختاره ملكاً لبني إسرائيل: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾^(٢)، فهم ينظرون إلى القائد من منظار دنيوي عرفي ساذج، وهو أن يكون من بيت معيّن، وأن يكون ذا مال. وكلا الشرطين لا علاقة لهما بحلّ المشكلة؛ لذا جاءهم جواب الربّ المشفق الرحيم بعباده في نفس الآية: ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٣).

فأحد مؤهلات طالوت للحكومة أن الله قد زاده بسطةً في العلم. فهو عالم بدائهم وما يعانون منه من أزمات ألّمت بالمجتمع اليهودي يومذاك، وعالم بالحلول الناجعة القادرة على رفع الأزمات وحلّها.

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٤٣.

(٢) البقرة: آية ٢٤٧.

(٣) البقرة: آية ٢٤٧.

فمن أهم شروط النهضة الناجحة أن يتزعمها قائد ذو علم وحكمة.

الثالث: الإحاطة الكاملة بالحلول

لا شك أن الهدف من النهضة الإصلاحية هو رفع المشكلة التي يعاني منها المجتمع، وهذا كما يتوقف على معرفة المشكلة وتحديد نوعها وأسبابها، كذلك يتوقف على معرفة العلاج والحلول المناسبة لها، بحيث تكون الجهة المدبرة لحراك النهضة على إحاطة تامة بالحلول المناسبة لنوع المشكلة، وفي هذه الظروف، وفي مجتمع كهذا، وما هي أفضل الطرق لتطبيقها؟

وهذا يستدعي أن يكون رعاة الإصلاح وحاملو رايته من ذوي الاختصاص في حل تلك المشكلة، أو يسировون تحت إشراف ذوي الاختصاص. وإلا لم يصح تسميتها بالنهضة الإصلاحية، بل هي حركات تخبطية عشوائية إن أحسنّا بها الظن، أو هي حركة برغماتية لتحقيق مآرب ومنافع شخصية أو فئوية.

ولذا اشترطت الشريعة الإسلامية أن يكون الإمام - الذي هو المصلح في كل عصر وزمان - معصوماً عالماً حكيماً، بحيث يُحيي السُّنة في الأمة، ويميت البدعة فيها، وبذلك تعود شريعة السماء حية منزهة عن التشويه لمن يريد اتباعها.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْوَالِي عَلَى الْفُرُوجِ وَالْدِّمَاءِ وَالْمَغَانِمِ وَالْأَحْكَامِ وَإِمَامَةِ الْمُسْلِمِينَ، الْبَخِيلُ؛ فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ، وَلَا الْجَاهِلُ؛ فَيُضِلُّهُمْ بِجَهْلِهِ، وَلَا الْجَنَافِي؛ فَيَقْطَعُهُمْ بِجَفَائِهِ، وَلَا الْخَائِفُ^(١) لِلدُّوَلِ؛ فَيَتَّخِذَ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ، وَلَا الْمُرْتَشِي فِي الْحُكْمِ؛ فَيَذْهَبَ بِالْحُقُوقِ، وَيَقِفَ بِهَا دُونَ الْمَقَاطِعِ، وَلَا

(١) الخائف من الحيف أي: الجور والظلم. والدُّول: جمع دُولَة بالضم: هي المال؛ لأنه يتداول، أي يتنقل من يد ليد. والمراد من يحيف في قسم الأموال فيفضل قوماً في العطاء على قوم بلا موجب للتفضيل.

الْمُعْطَلُ لِلسُّنَّةِ؛ فَيُهْلِكُ الْأُمَّةَ»^(١).

وقال أيضاً: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَذَا الْأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ فِيهِ، فَإِنْ شَغَبَ شَاغِبٌ اسْتُعْتَبَ، فَإِنْ أَبَى قُوتِلَ»^(٢).

وعن الإمام الرضا عليه السلام: «إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَئِمَّةَ عليهم السلام يُوَفِّقُهُمُ اللَّهُ، وَيُؤْتِيهِمْ مِنْ مَخْزُونِ عِلْمِهِ وَحُكْمِهِ مَا لَا يُؤْتِيهِ غَيْرُهُمْ؛ فَيَكُونُ عِلْمُهُمْ فَوْقَ عِلْمِ أَهْلِ الزَّمَانِ. وَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اخْتَارَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِأُمُورِ عِبَادِهِ شَرَحَ صَدْرَهُ لَذَلِكَ، وَأَوْدَعَ قَلْبَهُ بِإِنْبَاعِ الْحِكْمَةِ، وَأَلْهَمَهُ الْعِلْمَ إِلْهَامًا، فَلَمْ يَعْجِ بَعْدَهُ بِجَوَابٍ، وَلَا يُحَيِّرَ فِيهِ عَنِ الصَّوَابِ»^(٣).

الرابع: وجود الخطة اللازمة

لا يمكن للفوضى أن تتحقق نجاحاً أو تصلح أمةً، وتحلّ مشكلةً إلا في دائرة محدودة ونطاق ضيق.

من هنا يُشترط في الإصلاح ونجاح النهضة أن تكون خطوات النهضة تسير على وفق خطة عمل محكمة ومدروسة: من أين يبدأ؟ متى يبدأ؟ كيف يبدأ؟ إلى أين يسير؟ إلى أي نقطة يريد الوصول بالمجتمع؟ ما هي الأساليب المتبعة والأدوات المستعملة؟

قد رُسم كل شيء، وقُسمت الوظائف على رجال النهضة على حسب الكفاءة والاستعداد والمهارة والثقل الاجتماعي والتأثير الجماهيري.

كما يُشترط في الخطة أن تأخذ بعين الاعتبار، الكوادر التي تعتمد عليها، والرقعة الجغرافية التي تكون مسرحاً لتنفيذ الخطة، والفترة التي تنطلق فيها،

(١) نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي لخطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: خطبة ١٣١.

(٢) المصدر السابق: خطبة ١٧٣.

(٣) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٢٠٢.

والظروف التي تستفيد منها في تحشيد الجماهير حول المشروع، وتهيئتهم للتعاطف مع النهضة.

الخامس: الإرادة والشجاعة

الشرط الأساسي الخامس لنجاح نهضة الإصلاح، أن يتمتع قائدها بالإرادة الكافية، والشجاعة الفائقة التي تجعله لا يتردد في اتخاذ الخطوات المرسومة في خطته. وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في مواطن متعددة، منها ما أشار إليه في قصة طالوت: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾، وقوله: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾^(١)، وكما تقدّم عن أمير المؤمنين عليه السلام: «يحتاج الإمام إلى قلب عقول، ولسان قوول، وجنان على إقامة الحق صوول»^(٢).

السادس: المقبولية لدى المجتمع

أن يكون القائمون على الإصلاح - لا سيّما الشخصية القيادية العامة - يحظون بالقبول والمكانة في المجتمع؛ فإنّ هدف الحركة الإصلاحية صهر المجتمع، وجعله يتحرك مع قائده على وفق الخطوات المرسومة والخطّة الموضوعية. وهذا ما لا يتحقّق إلّا إذا كان القائد المصلح محلّ ثقة الأمّة؛ لأنّ حركة المجتمع حركة اختيارية، والحركة الاختيارية تنبع من القناعة، فإذا وثق أفراد المجتمع بالمصلح، وبقدرته على الإصلاح، وبحسن إدارته، حيثئذٍ يمكن توقّع نجاح الحركة الإصلاحية. أمّا إذا لم تكن شخصية القائد مقبولة عند أفراد المجتمع فلا يمكن أن يتحرّك معه، وعلى ضوء خطته التي رسمها لهم.

(١) المائدة: آية ٥٤.

(٢) الليثي الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ: ص ٥٥٦.

كما يجب أن يتحلّى مَنْ يعتمد عليهم بنوع من المقبولية، وأن يكونوا ذوي خصائص تؤهلهم للمقبولية الاجتماعية بحيث يأخذ الناس منهم، ويقبلون نصيحهم وكلامهم.

السابع: قوّة الإعلام وتفنّنه

قوّة الإعلام وشموليته وقدرته على الإقناع والتأثير من أهمّ الركائز التي يعتمد عليها المصلحون، وأنّ أيّ خلل في قضية الإعلام يمكن أن يقضي على المشروع أو على قوّة تأثيره.

فالمشروع الإصلاحي الناجح هو المشروع الذي يمتلك القدرة على الاستفادة من الإعلام بكلّ مجالاته وفنونه المتاحة، وتسخيره في نشر أهدافه الإصلاحية، وبيان الأزمات القائمة في ظل الحكومة الحالية، وأسبابها، وكيفية الخلاص منها.

على أن يكون الإعلام حيويّاً، لا يعطي المعلومة للمجتمع فحسب، بل يتفاعل مع عقل مخاطبيه وروحهم ووجدانهم بدقّة تصويره وسحر بيانه وصدق ما يطرحه وصفاء نواياه.

هذه مجموعة من الشروط التي يجب توفّرها في النهضة لكي تتمكّن من أداء مهمّتها في إصلاح الواقع.

المبحث الثاني

مقومات النهضة الحسينية

بعد أن استعرضنا مقومات النهضة بشكل عام، نعود إلى نهضة الإمام الحسين عليه السلام لنرى نصيبها من تلك المقومات بحسب إدراكنا لما هو المتوفّر بين أيدينا من المصادر:

الأمر الأول: وهو وضوح المشكلة التي يعاني منها المجتمع، وهذا الشرط متحقّق في نهضة الإمام الحسين عليه السلام بأبرز صورة؛ فإنّه الإمام المعصوم الهادي الملمّ بكلّ ما يعاني منه المجتمع. وقد أشار الإمام الحسين عليه السلام إلى مشكلة الأمّة الإسلامية في زمانه، وأنّه عالم بها وبتمام تفاصيلها، وهي: ضياع الحقوق، وتفشّي الفقر، وعدم معرفة الحقّ، والابتعاد عن تعاليم الإسلام، حيث قال عليه السلام: «أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ الْحَقَّ لَا يُعْمَلُ بِهِ، وَأَنَّ الْبَاطِلَ لَا يُنْهَى عَنْهُ...»^(١)، و«إِنَّ السُّنَّةَ قَدْ أُمِيتَتْ، وَإِنَّ الْبِدْعَةَ قَدْ أُحْيِيَتْ»^(٢).

كما أشار عليه السلام إلى أنّ هذا له سببان: تربّع الظلمة على عرش السلطة، وسكوت الأمّة عن محاربتها.

أمّا الأوّل - وهو تربّع الظلمة على عرش السلطة - فهو سببٌ أساس في افتقار أبناء المجتمع؛ لاستشارتهم بأموال بيت المال، كما أنّهم عطّلوا الحدود، وأماتوا السّنن، وأفشوا المحرّمات، وقتلوا المؤمنين، وأخافوهم وشرّدوهم عن مواطنهم؛ لذا يقول عليه السلام في كتابه لمعاوية: «... فلا أعلم فتنة على الأمّة أعظم من ولايتك عليها»^(٣).

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣٠٥.

(٢) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٢، ص ٧٨.

(٣) المصدر السابق: ج ٥، ص ١٢١.

فوجود الظالم على هرم السلطة معناه انتهاك الحرمات كافة، والجور والحيث في الحكم والقضاء، وعدم إيصال الحقوق إلى مستحقيها، وقتل أو إخافة وتهجير كل من نطق بالحق أو دعا إلى العدل.

وقد أشار الإمام الحسين (عليه السلام) أيضاً لهذه الأمور في كتابه لمعاوية المتقدم، حيث ذكره بمجموعة من جرائمه، والتي منها قتله الحُجر بن عدي وأصحابه وغيرهم. بل الأمر أفضع من ذلك، فإن الإمام (عليه السلام) يشير في جوابه لمروان بن الحكم لعنه الله إلى أن ولاية الظالم تؤدي إلى ضياع الإسلام بأكمله.

فقد روى ابن أعثم أن مروان بعد امتناع الإمام الحسين (عليه السلام) من البيعة في مجلس الوليد، التقى بالإمام في اليوم التالي، فأراد أن يخدع الإمام ويظهر نفسه بمظهر الناصح المشفق على الإمام، فقال: «إني أمرك ببيعة أمير المؤمنين يزيد؛ فإنه خير لك في دينك ودنياك!»، فقال الإمام الحسين (عليه السلام) في جوابه: «إنا لله وإنا إليه راجعون، وعلى الإسلام السلام؛ إذ بُليت الأمة براعٍ مثل يزيد»^(١). وقال في خطبته بأصحاب الحر: «ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله، وحرّموا حلاله»^(٢).

ووصفهم في خطابه لجيش ابن سعد بقوله: «طواغيت الأمة، وشذاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، وعصبة الآثام، وبقية الشيطان، ومحرفي الكلام، ومطفئي السنن، وملحقي العهرة بالنسب، وأسف المؤمنين، ومزاح المستهزئين، الذين جعلوا القرآن عضين. لبس ما قدّمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون...»^(٣).

(١) ابن أعثم الكوفي، أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ١٧.

(٢) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣٠٤.

(٣) ابن عساكر، علي بن حسين، ترجمة الإمام الحسين (عليه السلام): ص ٣١٨. وانظر أيضاً: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٥، ص ٨.

فكلامه ﷺ واضح في أنّ المشكلة الأساس هي النظام الحاكم الذي بيده كلّ شيء. فالوضع السياسي والاقتصادي والأمني والخدمي والاجتماعي والحقوقى والعلمى والدينى، كلّ ذلك تابع في فسادِه وصلاحه لكيفية تعاطي الحاكم معه، فإن سخرها في خدمة الأمة تنعمت، وإن استحوذ عليها لحفظ مصالحه الخاصة شقيت الأمة، وألم بها البؤس.

هذا شيء واقِع، فإنّ مَنْ أراد الإصلاح الشامل فعليه أن يجعل هدفه إصلاح هرم السلطة، وتخليصها من قبضة الظلمة.

إلاّ أنّ هذا لا يمكن أن يتحقّق إلاّ إذا كانت هناك شريحة كبيرة من الأمة تحمل هذا الهمّ وتعيه؛ لكي تساند المصلح في مشروعه، حتى يتمكن من تحقيقه.

وأما الثاني، وهو سكوت الأمة عن الظلم الذي أحاط بها، واستلبها كرامتها، وانتهب حقوقها، وعدم مواجهتها له، فيقول ﷺ عنه في جوابه لمروان الذي نقلنا فيما سبق شطراً منه: «وقد سمعتُ جدّي رسولَ الله يقول: الخلافةُ محرّمةٌ على آل أبي سفيان الطلقاء وأبناء الطلقاء، فإذا رأيتم معاويةَ على منبري فابقروا بطنه. ولقد رآه أهل المدينة على منبر رسول الله فلم يفعلوا ما أمروا به، فابتلاههم الله بآبائه يزيد»^(١).

وعليه؛ فالمشكلة لها طرفان: الحاكم الظالم من طرف، وسكوت الأمة على ظلمه من طرف آخر. وهذان السببان أدّيا إلى إماتة سُنّة رسول الله ﷺ ومسيرته الحقة التي أمرنا الله تعالى باتّباعها، وذلك حينما قال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٢)، وقال عنه أيضاً: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ

(١) الخوارزمي، الموفّق بن أحمد، مقتل الحسين ﷺ: ج ١، ص ٢٦٨. وانظر أيضاً: ابن أعثم الكوفي، أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ١٧، مع اختلاف يسير. لجنة الحديث في معهد باقر العلوم ﷺ، موسوعة كلمات الإمام الحسين ﷺ: ص ٣٤٧.

(٢) الحشر: آية ٧.

فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا ^(١).

كما كان هذان الطرفان سبباً في إحياء البدع، وتشريع قوانين وسنن لا تمت إلى الدين وسنة النبي ﷺ بصلة، بل هي إبطال لحدود الله، وتضييع للحقوق التي أمر الله بها، فوجود الظالم وسكوت الأمة شريكان في ذلك.

الأمر الثاني: من مقومات النهضة هو وضوح الحل، وهذا ما أشار إليه الإمام الحسين عليه السلام في عدة موارد، فقد بين ذلك في كلامه مع الوليد بن عتبة بن أبي سفيان والي المدينة، عندما حرّضه مروان على أخذ البيعة من الإمام الحسين عليه السلام قهراً، فردّ الإمام على مروان بما يستحقّ، ثم التفت إلى الوليد قائلاً: «أيّها الأمير، إنّنا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، بنا فتح الله وبنا ختم الله» ^(٢).

ومنها قوله لأصحاب الحرّ: «وأنا أحقّ من غير» ^(٣)، إشارة منه عليه السلام في توفّر شروط القيادة والإصلاح في شخصه الكريم.

ومنها ما كتبه عليه السلام لأهل الكوفة مع مسلم بن عقيل عليه السلام: «فلعمري! ما الإمام إلّا العامل بالكتاب، والآخذ بالقسط، والدائن بالحقّ، والحابس نفسه على ذات الله» ^(٤).

مضافاً إلى ما نعتقه فيه عليه السلام من أنّه إمام معصوم، خليفة لرسول الله ﷺ، عالم بكلّ تفاصيل الشريعة التي جاء بها جدّه المصطفى ﷺ.

الأمر الثالث: وجود الخطة اللازمة للقضاء على الأزمة. وهذا الركن متوفّر أيضاً في النهضة الحسينية، أمّا الدستور الذي يراد إجراؤه وتطبيقه فهو الشريعة الإسلامية السمحاء، ولا ينبغي الإمام الحسين عليه السلام عنها بدلاً، وحاشاه.

(١) الأحزاب: آية ٢١.

(٢) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتل الطفوف: ص ١٧.

(٣) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٣، ص ١٧١.

(٤) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٦٢.

فهي دستور السماء المنزل على جدّه رسول الله محمد ﷺ، وقد بُنِيَّ فيها كلّ شيء، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١)، حيث فيها الإصلاح الفردي بشقيه الظاهري والباطني، وفيها الإصلاح الاجتماعي، من جهة القضايا الحكومية وما يُعبر عنه بفقّه السلطة أو الفقّه الولائي، وفيها الفقّه المعاملاتي الذي يبيّن المعاملات الصحيحة من الباطلة المحرّمة، والفقّه الجزائي لمعاقبة السلوكيات غير المشروعة، وفيها النظام الحقوقي أو ما يُعبر عنه بالفقّه الإنمائي، الذي قد يكون لعلّة غائية كحقّ الولد على أبويه، أو لعلّة فاعلية كحقّ الإنسان في إنماء أمواله أو استثمارها، أو لعلّة موضوعية كالحقوق الزوجية والأسرية والأخوة الإيمانية والمواطنة.

فالشريعة الإسلامية السمحاء نظام كامل وشامل لحياة الإنسان الفردية والاجتماعية، الروحية والفكرية والأخلاقية. مضافاً إلى أنّها الشريعة التي يؤمن بها جميع أفراد المجتمع؛ ولذا يصرّح في وصيّته لأخيه محمد بن الحنفية: «أريد أن أمر بالمعروف وأنهاى عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي وأبي»^(٢). هذا من جهة النظام والدستور. وأمّا الخطة المتبّعة، فهي إزالة المانع من تطبيقها والسير على هداها، ولا مانع إلّا وجود الحكومة الغاشمة الظالمة، كما أشرنا في الأمر الأوّل؛ لذا وضع الإمام عليه السلام خطته لتحريك الأمة ضدّ حكومة بني أمية، وإقصائهم عن الحكم، وتوجيه الأمة نحو القادة الحقيقيين الذين نصبهم الله تبارك وتعالى أوصياء وخلفاء لنبّه المصطفى ﷺ، وهم عليّ وأولاده المعصومين عليهم السلام.

فكانت ثورته الكبرى هي الخطة لتحريك فكر الأمة وضميرها ووجدانها نحو هذا الهدف.

(١) النحل: آية ٨٩.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٣٣٠.

الأمر الرابع: تقدّم أنّ من أهمّ مقوّمات النهضة الإصلاحية وأبرز شروطها، هو اتصاف القائد بالشجاعة الفائقة والإرادة الكافية.

وهذا ما لا يحتاج إلى إثبات، بعد مطالعة فصول حركة الإمام الحسين عليه السلام من أيام معاوية وحتى شهادته في أرض كربلاء، حيث لم يحدّثنا التاريخ عن تراجع أو تردد في إنفاذ مشروعه، بل كان مصرّاً على المضيّ مهما كلفه الأمر، فقد نقلنا فيما سبق بعض كلماته مع معاوية والتي قال فيها مخاطباً له: «فلا أعلم فتنة على الأُمة أعظم من ولايتك عليها»^(١).

وقال أيضاً: «خُطَّ الموتُ على ولدِ آدمَ حُطَّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف. وخير لي مصرعُ أنا لاقيه، كأني بأوصالي تُقطّعها عُسلان الفلوات بين النواويسِ وكربلاء، فيملأنّ منّي أكراشاً جوفاً، وأجربةً سغباً. لا محيصَ عن يومٍ خُطَّ بالقلم. رضا الله رضانا - أهل البيت - نصبرُ على بلائه ويوفينا أجور الصابرين، لن تشدَّ على رسول الله لحمته، وهي مجموعةٌ له في حظيرة القدس، تقرُّ بهم عينه، ويُجزَّ بهم وعده. من كان باذلاً فينا مهجته، وموطناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا؛ فإنّي راحل مصباحاً إن شاء الله»^(٢).

وقال عليه السلام أيضاً: «إنّي رأيتُ جدّي رسولَ الله صلى الله عليه وآله في منامي وقد أمرني بأمرٍ، وأنا ماضٍ لأمره، فعزم الله لي بالخير، إنّه ولي ذلك»^(٣)، وفي نصّ ابن كثير: «إنّي رأيتُ رؤيا، ورأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله أمرني بأمر وأنا ماضٍ له، ولستُ بمُخيرٍ بها أحداً حتى ألاقي عملي»^(٤).

(١) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٥، ص ١٢١.

(٢) ابن نما الحلي، محمد بن جعفر، مثير الأحرار: ص ٢٩.

(٣) ابن أعثم الكوفي، أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ٣٠.

(٤) ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية: ج ٨، ص ١٧٦.

ولمّا أراد الخروج من مكة إلى الكوفة، طلب منه أخوه محمد بن الحنفية عليه السلام ألا يخرج إلى العراق، فوعده الإمام عليه السلام أن ينظر في الأمر، فلمّا كان السحر تجهّز الإمام للخروج إلى الكوفة، فجاءه محمد، وقال: يا أخي، ألم تعدني النظر فيما سألتك؟ فقال له الإمام الحسين عليه السلام: «أتاني رسول الله صلى الله عليه وآله بعدما فارقتك، فقال: يا حسين، أخرج فإن الله قد شاء أن يراك قتيلاً. فقال له ابن الحنفية: إنّ الله وإنّا إليه راجعون، فما معنى حملك هؤلاء النساء معك وأنت تخرج على مثل هذه الحال؟! فقال له: قد قال لي: إنّ الله قد شاء أن يراهنّ سبايا. وسلّم عليه ومضى»^(١).

وكذلك يدلّ على عزمه وعدم تردّده، جوابه لأُمّ المؤمنين أمّ سلمة رضي الله عنها، وإخباره لها بأنّه مقتول^(٢)، وكذا عدم تراجع مع كثرة من نهاه عن عدم البيعة أو عن الخروج، كلّ ذلك يدلّ على إصراره على تحقيق الهدف الذي خرج من أجله.

الأمر الخامس: وهو أن تكون للقائد مكانة اجتماعية متميّزة، فهذا ممّا لا يحتاج إلى بحث في شخصية الإمام الحسين عليه السلام، فهو ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، وابن فاطمة سيّدة نساء العالمين عليها السلام، وابن سيّد الوصيين وخليفة المسلمين عليه السلام، وهو وأخوه الحسن عليه السلام سيّدا شباب أهل الجنة^(٣)، وريحانتا رسول الله^(٤)، وهما إمامان قاما أو قعدا^(٥)، وغير ذلك ممّا يعتقده المسلمون كافّة بحسب ما سمعوه ورووه عن نبيّ الله وسيّد رسله صلى الله عليه وآله.

ولذا نجد عمر بن الخطاب في أيام خلافته يسأل الإمام الحسين عليه السلام عن عدم مجيئه إليه، فقال له الإمام عليه السلام إنّّه جاء يوماً فلقي عبد الله بن عمر، فقال ابن عمر

(١) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتل الطفوف: ص ٤٠.

(٢) الخنصبي، الحسين بن حمدان، الهداية الكبرى: ص ٢٠٣.

(٣) ابن حنبل، أحمد، مسند أحمد: ج ٣، ص ٣.

(٤) البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري: ج ٧، ص ٧٤.

(٥) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ٣٠.

للإمام عليه السلام: إنّ الخليفة مختلٍ بمعاوية، فلم يُسَمَح لي بالدخول. فلمّا انصرف عبدُ الله، ولم يُسَمَح له انصرفْتُ معه. فقال عمر بن الخطاب للإمام الحسين عليه السلام: «أنتَ أحقُّ بالإذن من ابنِ عمر، وإنّا أنبت ما ترى في رؤوسنا الله ثمّ أنتم»^(١). وفي رواية العجلي: «وهل أنبت الشعر على رؤوسنا إلّا أنتم؟»^(٢).

وهذا لم ينكره أحدٌ حتى أعداؤه في يوم عاشوراء. وكان الإمام الحسين عليه السلام يؤكّد عليه كثيراً، ويبرزه لمخاطبيه في مناسبات متعددة.

الأمر السادس: وهو قوّة الإعلام وتنوّعه وتفنّنه، فيمكننا أن نقول بأنّ الإمام الحسين عليه السلام قد استفاد من الإعلام الحيوي بأقصى ما يمكن، فقد بدأ معركته الإعلامية قبل هلاك معاوية بسنة، حيث جمع بني هاشم ومواليهم، ودعا الصحابة والتابعين فكانوا سبعمائة شخص، في أيام الحج، فبيّن لهم مكانتهم كصحابة ومقبوليتهم لدى المجتمع، وأنّ هذا يجعلهم أمام مسؤولية كبيرة.

ثمّ بيّن لهم ما ارتكبته طغاة بني أمية في حقّه وحقّ أهل بيته وشيعته، ووضّح لهم فضائل أهل البيت عليهم السلام ومقاماتهم والآيات النازلة فيهم، والروايات التي قالها رسول الله صلى الله عليه وآله في حقّهم، حتى قال المؤرخون: فلم يدع آيةً أو حديثاً في ذلك إلّا ذكره، وهم يشهدون له بأنّهم سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله. ثمّ أمرهم بأن يرجعوا إلى بلدانهم لكي يحدّثوا من يثقون به ما سمعوه من الإمام عليه السلام^(٣).

وهذه في واقعها ثورة إعلامية كبيرة جدّاً؛ لأنّ الحاضرين من غير بني هاشم ومواليهم سبعمائة نفر، فأوصاهم الإمام جميعاً بأن يحدّثوا من يثقون به، فكم تصوّر العدد الذين سيتعرّفون على هذه الأحاديث التي كانت محجوبة عن الأمّة؟

(١) ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج ١٤، ص ١٧٦.

(٢) العجلي، أحمد بن عبد الله، معرفة الثقات: ج ١، ص ٣٠٢.

(٣) الطبرسي، الفضل بن الحسن، الاحتجاج: ج ٢، ص ١٨.

مضافاً إلى أن هؤلاء الحجيج لم يكونوا من بلد واحد، بل من بلاد متفرقة في أغلب بقاع الأمة الإسلامية.

ثم لما هلك معاوية رفض الإمام البيعة ليزيد، وخرج علناً وسلك الطريق العام، حتى وصل مكة، وبقي فيها أربعة أشهر وأياماً^(١). كان خلال هذه الفترة محطّ الأنظار، لا يخلو بيته من الزائرين والوافدين، حتى أزعج ذلك ابن الزبير واضطره أن يكون من جملة الوافدين على الإمام الحسين عليه السلام^(٢).

وكان عليه السلام خلال هذه المدة وسط هذه الجموع يحدث الناس بما يجري، واغتصاب الخلافة وعدم أهلية يزيد للخلافة، وغيرها من الأمور. فكان ذلك محور حديث أهل مكة وحجاجها، بل طار الخبر في الآفاق، فعلمت به المدن البعيدة كالكوفة والبصرة فضلاً عن غيرها.

وما ذلك إلا لقوة الإعلام الذي استخدمه الإمام الحسين عليه السلام، حيث استفاد من عامل المكان والزمان، وهو مكة في موسم الحج، فلا تجد مدينة أكثر زحاماً منها.

ثم خرج عليه السلام في أوج الزحام، في يوم التروية، وما أدراك ما يوم التروية؟ حيث الحجيج لا يشغلهم شيء غير التأهب للخروج من مكة إلى عرفة؛ فلم يكونوا قد خرجوا من مكة واستقروا في عرفة، ولا هم في منازلهم ومخابئهم في مكة، أو مشغولين بغير التأهب للخروج من مكة إلى عرفة، فهم بهذا الحضور والتأهب للحج، وإذا بابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحسين بن علي وابن فاطمة.. الذي أنسوا بوجوده وحديثه والتردد عليه أربعة أشهر تقريباً، يخرج على غير وجهتهم!... يخرج إلى العراق؛ معلناً الرفض لبيعة يزيد.

(١) أنظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٨٦.

(٢) أنظر: البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٣، ص ١٥٦.

كما لم يكن وحيداً، بل خرج معه عامّة بني أبي طالب، ومواليهم وشيعتهم، فكان موكباً كبيراً ضخماً ملفتاً للنظر^(١).

فاضطرّ والي مكة عمرو بن سعيد الأشدق أن يحول دون خروجه بإعطائه الأمان، فلم ينفع مع ابن النبي، فأمر جلاوزته أن يمنعوا الحسين عليه السلام وركبه من الخروج بالقوّة والقهر. فتضارب معهم أبو عبد الله عليه السلام وفرسانه حتى أرغموهم على الانسحاب، فخرج الإمام عليه السلام من مكة متوجّهاً نحو المصير الذي رسمته له السماء لإكمال حركة الإصلاح السماوي لأبناء آدم عليه السلام؛ ليحيا مَنْ حيّ عن بيّنة، ويهلك مَنْ هلك عن بيّنة.

ولم يقف الإعلام الحسيني عند هذا الحدّ، بل بقي يجدّ السير، فلم يمرّ بموضع إلّا وقد علم أهله بقدومه وتوجّهه نحو الكوفة، ولم ير شخصاً أو بيتاً منصوباً إلّا وبادره الإمام عليه السلام ودعاه إلى الانضمام تحت لواء الإصلاح الذي رفعه في وجه ظلم بني أُمّية وأمثالهم.

وهكذا يستمرّ الإعلام النبويّ يمارس دوره بفنون مختلفة، يحدث تارةً، ويعظ أخرى، ويبيّن ثالثة، فما أن وصل جيش العدو، جيش الحر المؤلّف من ألف فارس، حتى بادّره الإمام عليه السلام بخطاباته التي تشرح لهم حقيقة ما يدور، بعد أن استقبلهم وسقاهم الماء، وجمع الجيشين بصلاة واحدة يؤمّمهم الحسين عليه السلام، ثمّ قال لهم بعد صلاة العصر: «أيّها الناس، فإنّكم إن تتقوا الله، وتعرفوا الحقّ لأهله يكن أرضى الله عنكم. ونحن أهل بيت محمد، وأولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجور والعدوان، وإن أبيتم إلّا كراهيةً لنا والجهل بحقّنا، فكان رأيكم الآن غير ما أتتني به كتبكم، وقدمت به عليّ رسلكم، انصرفت عنكم»^(٢).

(١) أنظر: المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ٦٧.

(٢) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ٧٩.

وهكذا خطابه مع جيش ابن سعد، التي ضمّنها الإمام عليه السلام الوعظ والإرشاد إلى الحقّ الذي قد يجهله البعض، وعرفهم بمقامه وأحقّيته، وذكرهم بما ورد في حقّه وحقّ أهل بيته على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله، وأوصاهم بالرجوع إلى مَنْ يوثق بكلامه من الصحابة الذين سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله. وهذه الخطابات - بحدّ ذاتها - ثورة إعلامية شحذ بها النفوس والأذهان، ولا بدّ لهذه الثقافة التي ركّزها في أذهان القوم أن تأخذ مجراها في وسط الأمة، وتتناقلها الأفواه.

كما لا ننسى دور الناجين من المعركة، والذين أصبحوا رواة لمجرياتها وتفصيلها فيما بعد، أمثال: الضحّاك المشرقي أو المشرقي، وعقبة بن سمعان. ولا ننسى دور العائلة التي سايرت النهضة الحسينية من أوّل لحظاتها وحتى آخر أحداثها، وما بعدها من السبي، ومن ثمّ الرجوع إلى المدينة.

ولا أظنّك تجد إعلاماً بهذا الزخم والقوّة والشمول والتنوّع في غير ثورة الإمام الحسين عليه السلام.

ومّا تقدّم يتبيّن أنّ أركان الحركة الإصلاحية يمكن إجمالها بثلاثة أمور: القانون، المجتمع، القائد.

فلا بدّ من وجود قانون حكيم يحفظ حقوق الجميع، وينظّم أمورهم في جميع نواحي الحياة.

كما لا تكون للحركة حاجة ومقبولية ما لم يكن هناك مجتمع يعاني من مشاكل وفساد، وبنفس الوقت أن يكون ذلك المجتمع قابلاً للتغيير والعلاج والإصلاح، رافضاً للمشكلة التي يعاني منها.

وهذا لا يتمّ ما لم يكن المجتمع واعياً للمشكلة مُدركاً لها، عارفاً بمساوئها ومضارّها، ولو لم يكن كذلك لما آمنَ بالإصلاح أساساً. فمَنْ يؤمن ويعتقد بأنّ المرأة لا يصحّ تعليمها؛ لأنّه يخالف الخلق والعفة وما شابه ذلك، فإنّه لا يؤمن بأنّ

جهلها مشكلة اجتماعية، فلا يشترك بعملية الإصلاح، بل قد يكون معارضاً لها. وقد يؤمن بالمشكلة ولكن لا يعرف الحل الصحيح، فهذا قد يصلح السيء بالأسوأ. ومن هنا يتبين خطورة التخلف الاجتماعي، ودوره في نشر الفساد، وعدم نجاح الحركات الإصلاحية.

والركن الثالث هو وجود القائد الحكيم العارف بالداء والدواء، ويحظى بثقة الأمة؛ لكي تطمئن لكفاءته وأهليته من جانب، وتطمئن لصدقه وأمانته من جانب آخر.

وإذا نظرنا إلى ثورة الإمام الحسين عليه السلام لوجدنا أن الأركان الثلاثة متوفرة فيها؛ فإن القانون هو الدين الإسلامي بما يشتمل عليه من دساتير عادلة تحفظ حقوق الجميع وتسد حاجتهم في جميع نواحي الحياة.

وأما ما يخص المجتمع، فإن الأمة الإسلامية في زمانه عليه السلام - المتمثلة بشيعته وغيرهم - كانت تعاني من جور بني أمية، بحيث انعدمت العدالة وصار المال حكراً على بني أمية وعمّاهم، وانعدمت الحرية الفكرية والاعتقادية، وصار القتل والسجن والتشريد يلاحق من لا يوافقهم الرأي والمعتقد، وغير ذلك من المشاكل المتفشية في المجتمع. ثم عملوا على تحويل الخلافة إلى مملكة يتوارثها الأبناء عن الآباء، بمعزل عن الكفاءات والخصوصيات. فعملوا على تنصيب يزيد السيئات أميراً وخليفة على المسلمين والصحابة والتابعين والعلماء والمؤمنين.

فكانت هناك ثلة لا يستهان بها من الأمة تدرك هذه المشكلة التي أضرت بالإسلام والأمة الإسلامية، وتنتظر الفرغ الذي يخلصها من محتها وتحن إليه. وقد خاطبت إمامها الحسين بن علي عليه السلام قبل هلاك معاوية بذلك.

فقد روى جملة من المؤرخين أن مجموعة من أهل الكوفة وأشراف الحجاز كانوا يختلفون إلى الإمام الحسين عليه السلام، ويطلبون منه أن يقوم بالأمر، إلا أنه عليه السلام أمرهم

بالسكوت والصبر حتى يهلك هذا الطاغية، فقد ورد أنه كتب لهم: «فَالصِّقُوا بِالْأَرْضِ، وَأَخْفُوا الشَّخْصَ، وَاکْتُمُوا الْهَوَى، وَاحْتَرِسُوا مِنَ الْأَطْنَاءِ مَا دَامَ ابْنُ هِنْدَ حَيًّا، فَإِنْ تَخَدُّثَ بِهِ حَدَثٌ وَأَنَا حَيٌّ يَأْتِكُمْ رَأْيِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ»^(١).

وأما القائد، فهو ابن رسول الله ﷺ، وسبطه من ابنته سيّدة النساء فاطمة عليها السلام، الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، بما يتمتع به من كمالات روحية، وسجايا أخلاقية ومؤهلات قيادية، وإرث ديني واجتماعي جعلت من شخصيته بلا منازع في كلّ أطراف المعمورة، فلا تعدل به الأمة أحداً، كما تبين ذلك جلياً حين انصرف الناس في مكة إلى الإمام الحسين عليه السلام تاركين وراء ظهورهم عبد الله بن الزبير، بعد أن كانوا ملازمين له قبل مجيء الإمام عليه السلام إلى مكة؛ ولذلك ثقل على ابن الزبير وجود الإمام الحسين عليه السلام معه في مكة.

يقول أبو الفرج الأصفهاني: «ولم يكن شيء أثقل عليه [ابن الزبير] من مكان الحسين بالحجاز، ولا أحب إليه من خروجه إلى العراق طمعاً في الوثوب بالحجاز، وعلماً بأنّ ذلك لا يتمّ له إلّا بعد خروج الحسين»^(٢).

وفي (أنساب الأشراف): «ولما نزل الحسين مكّة، جعل أهلها يختلفون إليه، وكذا من كان بها من المعتمرين وأهل الآفاق. وابن الزبير بمكّة، قد لزم جانب الكعبة يصليّ ويطوف ويأتي الحسين، وهو أثقل الناس عليه»^(٣).

وأما الوسائل التي يتبعها القائد الحكيم في إصلاحه، بحيث يكون حراكاً مستمراً، راسخاً في وسط الأمة، متجذراً في وجدانها، فيشترط فيها أن تكون مؤثرة في ثلاث فئات من المجتمع؛ ليكونوا أذرعاً للقائد في مشروعه، فيما لو استطاع

(١) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٣، ص ١٥٢.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين، مقاتل الطالبين: ص ٧٢.

(٣) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٣، ص ١٥٦.

التأثير بهم وإقناعهم، وهم: الدعاة، الطبقة المثقفة، رؤساء ووجهاء المجتمع. فإنّ هذه الفئات الثلاث لها تأثير كبير جداً على ثقافة المجتمع وقناعاته، فلا يمكن لمن يريد التغيير والتأثير في المجتمع أن يغض الطرف عنهم.

وإذا لاحظنا حركة الإمام الحسين عليه السلام نجد فيها الجنبه الشمولية والدعوة العامة من خلال خطابه العامة لجميع فئات المجتمع، كخطابه في الحجيج بشكل عام حينما أراد الخروج من مكة يوم التروية من عام ٦٠ للهجرة متوجّهاً نحو العراق، وكخطابه بجيش الحر بن يزيد، وخطابه بجيش عمر بن سعد رضي الله عنه.

كما نرى فيها - في نفس الوقت - تركيزاً على بعض الفئات بشكل خاص، كدعوته لرؤساء قبائل البصرة، ودعوته لبعض الوجهاء الذين التقى بهم في الطريق كزهير بن القين، وعبد الله بن مطيع، وأمّثالهما. وهكذا دعوته الخاصة لمن بقي من الصحابة والتابعين قبل هلاك معاوية بسنة، حيث جمعهم في مؤتمر الحج، وكان عددهم سبعمائة شخص، مائتان منهم صحابة والباقيون من التابعين، بالإضافة إلى بني هاشم ومواليهم والأنصار. كما نعلم أنّ الصحابة والتابعين يمثلون الطبقة المثقفة في المجتمع بما يحملونه من فقه وحديث وتفسير، كما أنّ الكثير منهم يُعدّ من الدعاة والمبلّغين في المجتمع، وأنّ المجتمع يرجع إليهم في هذه الأمور.

الفصل الثالث

أسباب التقاعس عن نصرته الحسين عليه السلام

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: استعراض آراء العلماء في المسألة

المبحث الثاني: تحقيق المسألة

تقدّم أنّ منشأ الفعل الاختياري هو مجموعة ما يحمله الفرد من ثقافة بمختلف مفرداتها من العادات والتقاليد والعقائد والأخلاق، وما شابه ذلك. فمن خلال الثقافة ينظر المرء وقيّم الأمور والمواقف والأفعال.

ومن هنا يتحمّ علينا ونحن ننظر إلى ظاهرة اجتماعية تُعدّ منعطفاً خطيراً في تلك الفترة، وتركت ظلالها على ما جاء بعدها من أزمنة، وهي ظاهرة التقاعس عن نصرة ابن بنت رسول الله، وسيّد شباب أهل الجنة. فلا بدّ من دراسة هذه الظاهرة وأسبابها، وما هي الثقافة السائدة آنذاك حتى جعلتهم ذاهلين، لم يتمكّنوا من اتخاذ القرار الصحيح في الوقوف إلى جنب السبط الشهيد عليه السلام؟!!

وهذا ما نروم دراسته في هذا الفصل في مبحثين، تعرّضنا في الأوّل إلى ما دونه العلماء والمفكرون في هذا الميدان، وخصّصتُ الثاني لطرح ما توصلت إليه من وجهات نظر في البحث، بعد البحث والتأمّل وجمع القرائن.

المبحث الأول

استعراض آراء العلماء في المسألة

من الظواهر الاجتماعية الملفتة للنظر في أيام النهضة الحسينية، هي حالة التقاعس عن نصره الحق، والوقوف موقف المتفرج من النهضة وصاحبها العظيم الذي لا يُداني في مقامه ومنزلته، وكان أبناء الأمة يشهدون بذلك له، ويميلون إليه بقلوبهم، ويكنّون له الحب والاحترام، إلّا أنّ ذلك على مستوى القلب فقط، ولم نجد هذا الحب قد تُرجم على مستوى السلوك، فهم يحبّون الحسين عليه السلام ويعرفون فضله وأحقّيته، ويعلمون أنّه الشخص الوحيد القادر على درء الظلم عنهم، ولكنّهم لم يقفوا إلى جانبه، ولم ينصروه. وها هو الثائر الهاشمي يخرج من مكة بعد مكوثه فيها أربعة أشهر وبضعة أيام، ولم يخرجوا معه!

وهو القائد الرسالي الذي اجتمعت عليه أهل مكة وحجاجها في مدة إقامته فيها، بحيث فرغ مجلس ابن الزبير من رّواده، ممّا اضطره أن يقوم هو بزيارة أبي عبد الله الحسين عليه السلام، والتردّد عليه^(١).

فحدّثهم وأبلغهم وبَيّن لهم، ثمّ خرج بعد أن أسمع كلّ مَنْ حجّ مكة ذلك العام، فما خرج إلّا بعد أن انقطعت الوفود عن مدينة مكة، فخرج ولم يخرج معه إلّا أهل بيته الذين جاؤوا معه من المدينة، أو الذين أرسل إليهم بعد ذلك فالتحقوا به، وخرج معه عدد أصابع اليد أو أقلّ من أهل المدينة من غير بني أبي طالب، ولم يخرج

(١) أنظر: البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٣، ص ١٥٦. ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٢٠.

معه من أهل مكة ولا من حجاجها من سائر البلدان الإسلامية إلا القليل. ممّا يرسم علامة تعجب كبيرة أمام الباحث، ويحثّه بإلحاح حول أسباب هذا المصير المؤلم الذي عاشته الأمة.

إنّ الأمة الإسلامية في زمن الإمام الحسين عليه السلام كانت تعاني من أمراض متفشية حالت دون نهوضها في وجه الظلم الذي تمارسه الحكومة آنذاك، فلم يكن هناك موقف يُذكر منذ غُصبت الخلافة من أمير المؤمنين عليه السلام وحتى قيام الثورة في وجه عثمان، التي أدّت إلى سقوط خلافته والبيعة لأمر المؤمنين عليه السلام، إلا بعض المواقف في بداية خلافة أبي بكر، والتي جُوِّهت بعنف شديد تحت غطاء حروب الردّة^(١)، ثمّ ساد الصمت الاجتماعي على الساحة.

وهذه الظاهرة تحتاج إلى دراسة أسبابها وبيانها؛ ولذا تصدّى بعض الأعلام والمفكرين لها بالبحث والتحليل. وهذا ما نودّ الإشارة إليه هنا.

أولاً: فقدان الإرادة

ترى هذه النظرية أنّ سبب خذلان الأمة للإمام الحسين عليه السلام في ثورته، هو أنّ الأمة في تلك الحقبة كانت مبتلاة بمرض فقدان الإرادة^(٢). ومن خلال تحليلها لتلك الحقبة يمكن معرفة أسباب صمت الأمة في بعض مقاطعها الأخرى خارج الفترة الحسينية.

فسبب الخذلان الذي مُنيت به ثورة الإمام الحسين عليه السلام من قبل الأمة الإسلامية في الكوفة وغيرها هو وجود مرض قد استفحل في نفسية المسلمين، وهو انعدام الإرادة الذي تسبّب فيما بعد بالروح الانهزامية.

(١) أنظر: الكوراني، علي، قراءة جديدة لحروب الردة.

(٢) أنظر: النداوي، عبد الرزاق، أهداف نهضة سيّد الشهداء في كلمات الفقهاء: ص ٦٣ - ٨٤.

وقد استدلل أصحاب هذه النظرية بثمانية مواقف على صحة ما ذهبوا إليه من الانهزامية وفقدان الإرادة، وهي:

١. عقلاء المسلمين وساداتهم يخوفون الإمام بالموت وينصحونه بعدم الخروج^(١)، فإن ذلك يعبر عن نوع من الانهيار النفسي لدى سادة المسلمين فضلاً عن الجماهير.

٢. موقف عبد الله بن الحر الجعفي الذي قصده الإمام الحسين عليه السلام بنفسه إلى خيمته وطلب منه النصرة، فاعتذر وقدم فرسه للإمام فرفضها الإمام عليه السلام.

٣. موقف زعماء البصرة حين كاتبهم الإمام الحسين عليه السلام يستنصرهم ويستصرخهم، وهم ممن يرتبط بخط الإمام وشيعته، ومع ذلك لم يستجيبوا له إلا عبد الله بن مسعود النهشلي، بل قدموا رسول الحسين عليه السلام لابن زياد فقتله.

٤. مغادرة بني أسد محل سكنهم حين طلب منهم حبيب بن مظاهر مناصرة الإمام الحسين عليه السلام، فخرج معه تسعون رجلاً فاعترضهم جيش ابن سعد، فانهزموا وعادوا إلى عشيرتهم وارتحلوا عن ديارهم من ليلتهم.

٥. موقف أهل الكوفة من مقتل رسول الإمام قيس بن مسهر الصيدائي، حيث قُتل بمرأى ومسمع منهم وهم يتفرجون، بل جاء إليه عبد الملك بن عمير اللخمي قاضي الكوفة وفتيها، فاحتز رأسه، ولما سُئل عن سبب ذلك اعتذر بقوله: لكي أريجه بذلك.

٦. الاندفاع نحو خط السلطة؛ فإن الكثير من الناس الذين تركوا الإمام الحسين عليه السلام بسبب حالة الاندفاع نحو الخط الحاكم والتودد له، وخدمته؛ طمعاً فيما عندهم، ودفعاً لبطشهم.

(١) أمثال: ابن عباس، ابن الحنفية، عبد الله بن جعفر، ابن عمر، أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، وغيرهم.

٧. محنة مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة، فإنّها من أبرز الشواهد التي تدلّ على ما ذهب إليه أصحاب هذه النظرية.

٨. التخالف بين عمل الأمة وعواطفها. وهي حالة الازدواجية المقيتة التي تلبّست بها الكثير من النفوس، فهم يحبّون الحقّ والتدين والعدالة، ولكنهم ليسوا منها في شيء، بل يعملون بخلافها.

ومن هنا؛ فإنّ حركة الإمام عليه السلام - بنظر أصحاب هذه النظرية - انطلقت لتعالج هذا المرض وتبثّ روح المقاومة وتُحيي فيها الإرادة.

وقد تبنّى هذا الرأي الشهيد السيّد محمد باقر الصدر رحمته الله، وتلميذه السيّد كاظم الحائري رحمته الله، حيث عقد مقارنةً بين رأي أستاذه السيّد الشهيد والكاتب الإيراني صالح نجف آبادي، وأضاف بأنّ الأمة قد بلغت مستوى النضج الذي جعلها تدرك تلك الأوضاع؛ ممّا جعل ثورة الإمام الحسين عليه السلام قادرةً على تحقيق أهدافها، دون سائر الأزمان السابقة؛ لعدم امتلاك الأمة تلك الدرجة من الوعي والنضج^(١). وكذا اختار السيّد محمود الهاشمي رحمته الله رأي أستاذه الشهيد مع إيضاح وتفصيل^(٢).

وقفة

تُعَدّ هذه النظرية دراسةً اجتماعيةً تحليليةً للواقع الذي عاشته الأمة في تلك الفترة، ولقد كان السيّد الشهيد رحمته الله موفّقاً إلى حدّ كبير في تحليله؛ فإنّ تشخيصه لكون مرض الأمة هو انعدام الإرادة وروح الانهزام، صحيح إلى حدّ ما؛ لأنّ هذا الشيء يمكن تطبيقه على المجتمع غير الكوفي من مكة والمدينة واليمن ومصر والطائف وحتى البصرة؛ ولذا لم نجد منهم أيّ حراكٍ يُذكر قبل خروج الإمام الحسين عليه السلام، ولا حين خرج من مكة أمام جموع الحجاج الوافدين من جميع البلدان، ولا بعده.

(١) أنظر: الندوي، عبد الرزاق، أهداف نهضة سيّد الشهداء في كلمات الفقهاء: ص ١٥٥.

(٢) أنظر: المصدر السابق: ص ٢٢٠ - ٢٧٠.

وأما أهل الكوفة، فقد كانت لهم إرادة شديدة في الثورة والتغيير وليس مجرد أمنية، بل هي إرادة جادة، وفيها نوع من الإصرار، فقد كانوا يجتمعون ويكتبون بأسماء المجتمعين والمبايعين ويبعثونها مع رسلهم إلى الإمام عليه السلام، وقد فعلوا ذلك ثلاث مرات. ثم جاءهم ثقة الحسين عليه السلام وسفيره مسلم بن عقيل عليه السلام، فاجتمعوا له وبايعوه ووقفوا إلى جانبه قرابة شهرين من الزمن، وبعضهم كان يشير على مسلم بمهاجمة القصر والاستيلاء عليه.

وبعد مجيء عبيد الله بن زياد لعنه الله ووصوله إلى الكوفة أرادوا اغتياله، ولمّا اعتقل هانئ بن عروة شدّوا على خيولهم وحاصروا القصر، وتقاتلوا مع جيش ابن زياد مقاتلة شديدة^(١).

ولمّا خرج مسلم وسمع بذلك المختار خرج ومعه جماعة من أصحابه وجاءوا إلى الكوفة بعد أن كانوا خارجها. فهل يصحّ لنا أن نصف مجتمعاً هكذا حاله - قام بكلّ هذه الأمور - بانعدام الإرادة وروح الانهزام؟!

نعم، يمكن أن نصف بذلك مجتمع المدينة أو مكة أو من حضر من البلدان الأخرى في الحج. وأما المجتمع الكوفي، فلا بدّ أن نبحث عن سبب آخر لمعرفة سرّ عدم لحوقه بالإمام الحسين عليه السلام. هذا أولاً.

وثانياً: أنّ ما اعتمد عليه السيّد الشهيد عليه السلام من شواهد لإثبات نظريّته ليست جميعها تامة، بل بعضها قابل للمناقشة، من قبيل ما استدلّ به من كلمات بعض الناصحين للإمام؛ فإنّ البعض منهم ممّن عُرف بالشجاعة والبسالة والجرأة على معاوية وغيره من الخلفاء والحكّام، كحبر الأمّة عبد الله بن العباس، ومحمد بن

(١) ابن أعثم الكوفي، أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ٤٩، وص ٧١. الذهبي، محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام: ج ٤، ص ١٧١. ابن نما الحلي، محمد بن جعفر، مثير الأحرار: ص ٢٣.

الحنفية، وعبد الله بن جعفر. ولم يمنعهم من الخروج انعدام الإرادة في نصره الإمام، ولا الخوف وروح الانزمام.

كما أنّ استشهاده بشخصية عبيد الله بن الحر الجعفي ليس في محلّه؛ لأن ابن الحر كان منحرفاً عن أمير المؤمنين وأولاده عليه السلام، فإنه كان مع عثمان بن عفان، فلما قُتل عثمان انحاز إلى معاوية، وشهد معه صفين ضدّ أمير المؤمنين عليه السلام. مضافاً إلى أنّ الرجل كان غير منضبط السلوك، فقد ذكر الطبري أنّه كان يقطع الطريق وينهب الأموال^(١).

وهكذا ما استدلّ به في الشاهد الثالث من عدم مناصرة مَنْ كاتبهم من أهل البصرة؛ فإنّ البعض خرج واستشهد معه، كما أشار إلى ذلك هو عليه السلام، والبعض استعدّ وجمع عشيرته، ولكن سرعة الأحداث سبقته، فاستشهد الإمام عليه السلام قبل أن يلحقوا به.

وأما مَنْ أخذ رسول الإمام الحسين عليه السلام وسلّمه لابن زياد، فلعلّه من رجال السلطة، والله العالم. خصوصاً إذا علمنا أنّه أبو زوجة عبيد الله بن زياد، فابن زياد صهره^(٢)، وأنّه ممّن أخذ المال وهرب إلى معاوية في زمن حكومة أمير المؤمنين عليه السلام، وقد ذمّه أمير المؤمنين في عدة كلمات^(٣). كما ولّاه عبيد الله بن زياد على بعض البلاد^(٤).

فأخذه لرسول الإمام وتسليمه لابن زياد لم يكن ضعف إرادة وانزامية، بل هو ما يمليه عليه انتماءه لحكومة بني أمية، وما توجه عليه مصالحه المرتبطة بهم.

(١) أنظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٥٨٦ - ٥٨٧.

(٢) الدينوري، أحمد بن داود، الأخبار الطوال: ص ٢٣١.

(٣) التستري، محمد تقي، قاموس الرجال: ج ١٠، ص ٢٤٢. النازي الشاهرودي، علي، مستدركات علم رجال الحديث: ج ٧، ص ٤٩٨.

(٤) العصفري، خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط: ص ١٨٠.

وأما باقي زعماء البصرة الذين كاتبهم الإمام الحسين عليه السلام، فإن أغلبهم لم يكن من شيعته كما ذكر السيد الله، بل كانوا يميلون إلى الطرف الآخر^(١)، وإنما خاطبهم الإمام وكاتبهم إمّا من باب إتمام الحجّة، أو لأنّ أبناء القبيلة لا يمكن مخاطبتهم إلّا عن طريق رؤسائهم.

وأما الشاهد الرابع، فيحتاج إلى إثبات؛ إذ لم يثبت مغادرة جميع القبيلة ديارها، كيف وهم الذين دفنوا الأجساد يوم الثالث عشر من محرم؟ نعم، الثابت هو فرار الذين استجابوا لحبيب بن مظاهر، واقتتلوا مع جيش عمر بن سعد لعنه الله، فلمّا رأوا أن لا طاقة لهم بالجيش فرّوا ثمّ ارتحلوا من حيّهم^(٢)، وهم تسعون رجلاً. ولا يمكن الحكم على أمة كاملة من خلال هذه الثلة القليلة، وإن كان فيه دلالة إلى حدّ ما، ولكن لا ترقى إلى مستوى أن يُستنبط منها نظرية اجتماعية لتحليل نفسية أمة بأكملها.

أما ما ذكره في الشاهد الخامس، فإنّه - بلا شك - يدلّ على الخذلان، ولكن هل المجتمعون هم شيعة الحسين عليه السلام الذين كاتبوه، أم من الأصناف الأخرى من المجتمع الكوفي التي تقدّم ذكرها؟

خصوصاً وأنّ ما ذكره الله من مجيء شخص من أهل الكوفة فاحتزّ رأس الصيدأوي عليه السلام؛ فإنّ هذا الشخص هو عبد الملك اللخمي قاضي الكوفة وفقيهها، فهو من أجهزة الدولة وأتباع بني أمية، ولا يمتّ إلى الثورة بصلة، بل قد يكون ممّن عزّز وجود الحكم الأموي في الكوفة من خلال المطالبة بتغيير الوالي المتضاعف

(١) ولذا ورد في تاريخ خليفة بن خياط: أنّ مالك بن مسمع ومسعود بن عمرو نصر ابن زياد في حربه مع ابن الزبير، مع أنّها ممّن كاتبها الإمام الحسين عليه السلام. العصفري، خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط: ص ١٩٨.

(٢) البحراني، عبد الله، العوالم (الإمام الحسين عليه السلام): ص ٢٣٨.

النعمان بن بشير، ولا نتوقع منه أن يكون ممن يميل للإمام عليه السلام فضلاً عن المكاتبه له، بل ذكرته بعض المصادر بأنه كان مروانياً يتولّى القضاء لبني أمية، شديد النصب والانحراف عن أهل بيت النبوة^(١).

وأما ما ذكره من الاندفاع نحو خط السلطة، فليس هذا من شواهد ضعف الإرادة وروح الانهزام، بل هو من شواهد الانحراف عن خط أهل البيت عليهم السلام، الذي عملت عليه السلطة خلال عشرين سنة أو أكثر، حيث كانوا يستميلون بعض الشخصيات ذات النفوذ الاجتماعي في زمن أمير المؤمنين عليه السلام، وازداد ذلك في زمن الإمام الحسن عليه السلام، حتى استطاعوا أن يبلغوا به الذروة حين تسلّطوا على رقاب الأمة.

والعجيب أن السيّد عليه السلام ذكر أسماء معروفة في التاريخ بأنها بعيدة عن خط أهل البيت عليهم السلام. ولا يقال: إنّ بعضهم كان في جيش أمير المؤمنين عليه السلام؛ لأنّهم حتى لمّا قاتلوا مع أمير المؤمنين عليه السلام إنّما قاتلوا معه لأنّه الحاكم حينذاك، لا لأنّهم يؤمنون به، فلمّا زالت حكومته التصقوا بالحاكم الفعلي من بعده، بل حتى في زمن حكومته لم تكن طاعتهم له تامة.

فقد ذكر عمرو بن الحجاج وهو معروف بأنّه أموي، وهكذا شبّث بن ربعي المعروف بأنّه خارجي، وكان مؤدّن سجاح المدّعية للنبوة، وإلا كيف يؤمّره ابن زياد على الجيش ما لم يعلم بإخلاصه لهذه الحكومة وعدم خشية الانقلاب والالتفاف عليه، خصوصاً وأنّ الكوفة كانت ناقوس خطر بالنسبة لهم، حيث كانوا - لخوفهم منها - يقتلون على الظنة بأمر من يزيد، فكيف يعطون هذا الرجل العدّة والعدد ما لم يأمنوا شرّه؟!

(١) النباطي العاملي، علي بن يونس، الصراط المستقيم: ج ٣، ص ١٤٥.

كما أنّ الشاهد السابع فيه اتهام لحنكة مسلم بن عقيل عليه السلام، وخبرته ومَن معه من كبار أنصاره، أمثال: عابس، وقيس، وحبيب، وغيرهم، حيث وصف الله تلك الجموع المبايعة بأنّ: «هذه القوّه لم تكن قوّى إلّا على الورق، لم تكن هذه القوّى قوّى إلّا في سجّل تسجيل الأسماء، حينما سجّل الأسماء فبلغت ثمانية عشر ألفاً»؛ إذ لو لم يكن المبايعون أو نصفهم أو أربعة آلاف منهم وهو ربع العدد على الأقل، بمستوى المسؤولية، ولم يكونوا سوى أسماء وقوّى على الورق فكيف يكتب مسلم للحسين عليه السلام بأنّ: «الرائد لا يكذب أهله؛ فإنّ الناس معك فعجّل القدوم!!»، خصوصاً وأنّ الإمام الحسين عليه السلام إنّما أرسله لمعرفة صدق نواياهم، وإلّا فإنّه عليه السلام كان يعلم بأنّهم بايعوه وكاتبوه قبل أن يُرسل مسلماً عليه السلام.

ولذا جاء في كتاب الإمام عليه السلام لأهل الكوفة: «وقد بعثت إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي، وأمرته أن يكتب إليّ بحالكم وأمركم ورأيكم. فإن كتب إليّ أنّه قد أجمع رأي ملئتكم وذوي الفضل والحجى منكم على مثل ما قدّمت عليّ به رسلكم وقرأت في كتبكم، أقدم عليكم وشيكاً إن شاء الله»^(١).

وأما ما استشهد به عليه السلام ثامناً من التخالف بين العواطف والعمل في الأمة فهو متين، ولكن لا يمكن تعميمه على جميع أفراد الأمة أو جميع مَن بايع مسلماً عليه السلام أو بايع الحسين عليه السلام، بل هناك ثلّة من المجتمع تتّصف بهذا الطابع، ولعلّ السيّد الشهيد يقصد هؤلاء؛ لأنّهم يمثّلون نسبةً كبيرة في المجتمع، ولكن ليسوا كلّ المجتمع؛ لأنّ المجتمع الكوفي - كما أسلفنا - فيه أتباع الحزب الأموي وهم يشكّلون مجموعةً كبيرة من المجتمع، ولعلّهم النسبة الأكبر، وفيهم الخوارج وهم نسبة كبيرة لا يستهان بها. وهذان الصنفان - أتباع الحزب الأموي والخوارج - لا يمكن أن تكون قلوبهم

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٦٢.

مع الإمام الحسين عليه السلام، بل هم أعداء له ولأهل بيته وشيعته. نعم، أراد الخوارج أن يركبوا الموج من خلال مبايعتهم الإمام عليه السلام، حيث رأوا الجوّ العام في الكوفة للإمام، وإلا فإن حبّ عليّ عليه السلام وأولاده أبعد ما يكون عن قلوب هؤلاء.

وصنف ثالث وهم شيعة الإمام عليه السلام، وهؤلاء لا يمكن أن يكونوا ممّن وصفهم المؤرخون بهذا الوصف، بل هؤلاء هم الأوفياء الذين وقفوا مع الإمام عليه السلام حتى بلغ بهم الأمر إلى السجن أو القتل، أو استطاع أن يلحق بالإمام فيستشهد معه، ولو عن طريق الانضمام لجيش ابن سعد، فلمّا وصلوا كربلاء انحازوا عنه، وقاتلوا مع الإمام الحسين عليه السلام^(١)، أمثال القاسم الأزدي، وعمرو بن ضبيعة التميمي، وعمرو بن عبد الله الهمداني الجندعي، وضرغام بن مالك، والحلاس الأزدي الراسبي وأخوه النعمان، وغيرهم.

نعم، هناك صنف رابع وهم اللاأباليون والحمراء، فإنّ هؤلاء يمكن أن يميلوا للإمام بقلوبهم لما يعرفون فيه من الصلاح، وما رأوه أو سمعوه عن عدل أبيه فيهم، ولكنّ هذا الميل لم يبلغ حد النصره بالسيف وبذل الروح.

كما لا ننسى أنّ بعض أهل الكوفة وإن لم ينصر الإمام، ولكنّه لم يشترك في قتاله، بل كان يهرب في منتصف الطريق، كما تشير إلى ذلك عدّة نصوص تاريخية من أنّ ابن زياد يبعث مع الرجل من قاداته ألف مقاتل فلا يصل إلى كربلاء إلا ثلاثمائة، أو كما يقول البعض: فلا يصل إلا أقل القليل، فقد جاء في كتاب الأخبار الطوال وبغية الطلب في تاريخ حلب: «وكان ابن زياد إذا وجّه الرجل إلى قتال الحسين في الجمع الكثير، يصلون كربلاء ولم يبقَ منهم إلا القليل»^(٢).

(١) أنظر: الميلاني، علي، من هم قتلة الإمام الحسين عليه السلام: ص ٣٥٣.

(٢) الدينوري، أحمد بن داود، الأخبار الطوال: ص ٢٥٤. ابن العديم الحلبي، عمر بن أحمد، بغية الطلب في تاريخ حلب: ج ٦، ص ٢٦٢٧.

ثانياً: عقدة الخوف وفقدان روح المقاومة

ترى النظرية الثانية أنّ حركة الإمام الحسين عليه السلام سياسية إسلامية بكلّ سلوكياتها، فهي قيام لله لما صار الدين في خطر، كما قام أمير المؤمنين عليه السلام عندما رأى خطر معاوية قد أحْدَقَ بالإسلام؛ ولذا يصرّح الإمام عليه السلام: «مَنْ رَأَى سُلْطَاناً جَائِراً وَلَمْ يَغَيِّرْ عَلَيْهِ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، كَانَ حَقّاً عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخُلَهُ مَدْخَلُهُ».

فهناك خطر كبير وتآمر على الإسلام من قِبَلِ الحُكَّامِ، وطمس معالمه، وتشويه صورته، وتحويل الخلافة إلى ملكية، وانغماس الحُكَّامِ والأُمّةِ بالمعاصي. ومع كلّ ذلك لم تحرّك الأُمّة ساكناً، بما فيهم الصحابة والتابعون، حتى كان عددهم يبلغ السبعمئة. فالإمام يهدف من نهضته أن يحفظ مستقبل الإسلام ومعالمه، ويعالج مرض الأُمّة، وهو عقدة الخوف، ويبثّ في المجتمع روح المقاومة؛ فإنّ مَنْ يكسر حاجز الخوف يصبح مقاوماً، والأُمّة القادرة على التصحية تكون قادرة على صنع الإصلاح الذي رفعه شعاراً لثورته، والأُمّة القاعدة أُمّة خاوية يعبث بها الظالمون كيفما شاؤوا. وقد نجح الإمام في تحقيق هذا الهدف بما لا نظير له^(١).

وقد تبنّى هذه النظرية السيّد الخميني رحمه الله. وهذا الرأي يشارك رأي السيّد الشهيد الصدر رحمه الله في بيان الهدف من الثورة ومرض الأُمّة وكيفية العلاج.

ثالثاً: تعسف السلطة الجائرة

ذهب السيّد العلامة محمد حسين الطباطبائي رحمه الله إلى أنّ الإرهاب الذي مارسه السلطة الأموية بزعامة معاوية لعنه الله ضدّ الأُمّة، خصوصاً الجماعة التي تقترب من أهل البيت عليه السلام أو تنتمي إليهم، جعل إقبال الأُمّة على أهل البيت في تلك الفترة قد وصل إلى درجة الصفر؛ ولذا لا نجد رواية واحدة تُروى عن الإمام الحسين عليه السلام في

(١) أنظر: الندوي، عبد الرزاق، أهداف نهضة سيّد الشهداء في كلمات الفقهاء: ص ١٤٢.

أيّ باب من أبواب الفقه طيلة إمامته التي استمرت عشر سنوات، وهي فترة ليست بالقصيرة، عدا ما يذكرها أبناؤه من بعده. أمّا رواية تنقل عنه بالمباشرة عند القوم وتتناقلها الأمة فغير موجودة مع أنّه من الصحابة ومن أهل البيت المطهّرين، ومن أصحاب الكساء، وابن بنت رسول الله ﷺ، وسيّد شباب أهل الجنة. ومن هنا نفهم لماذا لم يستطع الإمام تأسيس مدرسة كما فعل الإمام الباقر عليه السلام؟

يرى صاحب هذه النظرية أنّ تكليف الإمام الحسين عليه السلام هو الامتناع عن البيعة فحسب، ولكن الامتناع عن البيعة يساوي القتل ولا خيار ثالث، فالقتل أمرٌ لازم قطعي لا مفرّ منه لمن امتنع عن البيعة. فصمّم على امتثال التكليف لمصلحة الإسلام والمسلمين مهما كان، وهذا معنى قوله عليه السلام: «شاء الله أن يراني قتيلاً».

ومن جملة آثار ما اختاره الإمام الحسين عليه السلام من الموت على الحياة هو ما حصل بعد سنين قلائل (١٢ سنة تقريباً)، حيث سجّل مظلومية وحقانية أهل البيت عليه السلام معاً؛ ممّا أدّى إلى كسر الطوق الذي جعله معاوية بين الأمة وأهل البيت، فالتفّ الناس حولهم، بخلاف ما كنّا نراه من الأمة في زمن الإمام الحسين عليه السلام^(١).

فاستطاع الإمام عليه السلام أن يتمّم ما بدأه الإمام الحسن عليه السلام من فضح الحكم الأموي أمام الأمة، وأنّه حكمٌ لا همّ له إلاّ التسلّط على مقدّرات الأمة لمصالحهم الشخصية واستعمال الأمة كعبيد لهم. وهذا ما حصل بالفعل؛ ولذا ندمت الأمة على عدم مساندة إمامها العادل، فبدأت الثورات بدءاً بثورة الحرة، ثمّ ثورة التوابين، ثمّ ثورة

(١) ولعلّ ما يؤيّد ذلك ما ذهب إليه بعض الباحثين من أنّ واحدة من نتائج النهضة الحسينية أنّها أعادت الدين إلى أحضان أهله الحقيقيين؛ فإنّ الخليفة قبل النهضة كانت له الزعامة الدينية والسياسية، ولكن بعد ثورة الإمام الحسين عليه السلام تغيّرت الحال وانفصلت الزعامة الدينية عن الزعامة السياسية، فالخليفة له الزعامة السياسية، أمّا الزعامة الدينية فهي لأهل البيت عليه السلام وللعلماء المتخصصين في ذلك.

المختار وثورة ابن الزبير.

ولا أقصد أن ابن الزبير ثار لأهداف نبيلة، بل الأمة التي كانت توصف بالنائمة أو الميتة قد تغيرت وأصبحت مناهضة للظلم، فثارت تارة مع ابن صرد، وأخرى مع المختار، وثالثة مع ابن الزبير^(١).

رابعاً: فساد الحاكم

وهي النظرية التي ذهب إليها الشهيد مرتضى المطهري رحمه الله، وخلاصتها: أن السبب الرئيس والأساس لخروج الإمام الحسين عليه السلام هو الإصلاح، وإن كانت هناك عوامل أخرى، ولكنها ليست هي العامل الأساس والرئيس، كعدم البيعة وإجابة أهل الكوفة.

والمراد من الإصلاح الذي قام به سيّد الشهداء عليه السلام هو إصلاح رأس الهرم، أي الحاكم المترّبع على عرش السلطة، فهو أول منكر لا بدّ أن يزول من عالم الإسلام، بمعنى أن أساس المشكلة هي عدم وجود الإمام في موقعه الذي جعله الله فيه، وغضبه من قبل من لا أهلية له لهذا المنصب^(٢).

ويمكن تأييد هذا الرأي بما خاطب به الإمام الحسين عليه السلام معاوية رضي الله عنه بقوله: «فلا أعلم فتنة على الأمة أعظم من ولايتك عليها»^(٣). وكذا ما ورد من تأكيد الإمام الحسين عليه السلام في بعض خطبه على توضيح معنى الإمام والحاكم والخليفة للنبي صلى الله عليه وآله^(٤).

(١) أنظر: الندوي، عبد الرزاق، أهداف نهضة سيّد الشهداء في كلمات الفقهاء: ص ٤٣.

(٢) أنظر: المصدر السابق: ص ١٧٦.

(٣) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٥، ص ١٢١.

(٤) قال الإمام الحسين عليه السلام: «لعمري ما الإمام إلّا العامل بالكتاب، القائم بالقسط، الدائن بدين الحق، الحابس نفسه في ذات الله». الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٦٢. ابن نما الحلي، محمد بن جعفر، مثير الأحرار: ص ١٧.

وأنّ هذا المنصب إذا اعتلاه غير أهله فعلى المسلمين الوقوف في وجهه: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ سُلْطَانًا جَائِرًا مُسْتَحِلًّا لِحَرَمِ اللَّهِ، نَاكِثًا لِعَهْدِ اللَّهِ، مُخَالَفًا لِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، يَعْمَلُ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، ثُمَّ لَمْ يُغَيِّرْ بِقَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ، كَانَ حَقِيقًا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ مَدْخِلَهُ»^(١)، وقوله عليه السلام لمروان بن الحكم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عَلَى الْإِسْلَامِ السَّلَامُ؛ إِذْ قَدْ بُلِيَتْ الْأُمَّةُ بِرَاعٍ مِثْلَ يَزِيدٍ»^(٢).

وعلى هذا الرأي، فإنّ المشكلة في انتشار الفساد والظلم والأزمات السياسية والاقتصادية وغيرها ليست بسبب الأمة مباشرة، بل المشكلة في الحاكم الجائر، باعتبار أنّ ثقافة الأمة وسلوكها ومستقبلها واقتصادها وهيتها وموقعها بين الأمم تتأثر سلباً وإيجاباً بالحاكم، ولكنّ الأمة مقصورة في كونها لم تؤدّ وظيفتها في الإطاحة بهكذا حكام والخروج عليهم.

فلا بدّ من العمل لجعل الحكومة بيد مَنْ له الأهلية لإدارة الوضع على أحسن وجه، وهم الذين نصبهم الله خلفاء بعد رسول الله ﷺ.

وهذا الرأي يختلف عمّا تقدّمه من رجوع الأزمة إلى الجور وعدم تمكّن الأمة من الوصول إلى إمامها، بل السبب يرجع - بحسب هذه النظرية - إلى المنابع التي تستقي الأمة ثقافتها منها؛ فإنّ الحاكم له دور كبير في توجيه الثقافة حيث يشاء، فالحاكم الظالم هو المنكر الذي لا بدّ أن يزول قبل كلّ شيء.

ويرد على هذه النظرية أنّها بيّنت المشكلة التي تعاني منها الأمة، ولكنها لم تُبيّن كيفية حلّ تلك المشكلة؛ فإنّ إطاحة الحكومة القائمة آنذاك غير ممكن، وإنّ الإمام الحسين عليه السلام يعلم بأنّه لا يصل إلى هذه الغاية، بل هو يعلم بأنّه مقتول لا محالة.

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٣٨٢.

(٢) ابن أعثم الكوفي، أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ١٧. ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ١٨.

فبقي السؤال عالقاً وهو: لماذا خرج الإمام الحسين عليه السلام ما دام يعلم بأنه لا يتمكن من تحقيق أهداف ثورته، إن قلنا: إن الهدف هو إسقاط الحكومة.

خامساً: انعدام المجتمع الإسلامي القادر على مواجهة الفساد

يرى البعض أنّ المشكلة هي انعدام المجتمع الإسلامي الذي أسّسه النبي المصطفى ﷺ القادر على مواجهة الفساد، ولم يبقَ إلا الجماعة الإسلامية. فهو يفرّق بين الأمة والمجتمع من جهة، والجماعة من جهة أخرى. فهنا ثلاث نقاط يتبيّن من خلالها هدف الثورة، وبالتالي مشكلة الأمة آنذاك، وهي:

١. إنّ شعارات الثورة تؤكد إسلاميّتها وشمولها لجميع أزمات الحياة ولكل طبقات المؤمنين.

٢. السياسة وقضايا العدل وتقويم الحاكم وتغيير النظام، تُعدّ أساس حركة الأديان.

٣. عنوان حركة الإمام الحسين عليه السلام هي طلب الإصلاح في أمة رسول الله ﷺ، وذلك من خلال بناء أمة ومجتمع قادر على الإصلاح، فأراد أن يعالج ما تعاني منه الأمة من الإحباط والهزيمة والشعور بعدم القدرة على التغيير، فحاول إصلاحها من خلال إعادة ثقتها بنفسها.

فأراد الإمام عليه السلام أن يصلح الأمة من خلال التأسيس للإصلاح، فجاءت الثورة وصدّمت الأمة وهزّتها هزّة عنيفة؛ لكي تركز فيها الخط الإسلامي الأصيل، الذي يحفظ الحياة الإسلامية لتعيد للأمة وعيها ومسؤوليّتها وإقدامها. وقد نجحت في ذلك؛ ولذا نرى توالي الثورات والنهضات الناقمة من الفساد وترنو إلى الإصلاح والتغيير أو تمّني الأمة بذلك^(١).

(١) أنظر: الندوي، عبد الرزاق، أهداف نهضة سيّد الشهداء في كلمات الفقهاء: ص ٢٠٣.

فالأُمة برأيه تعاني من الإحباط والشعور بالعجز عن تغيير الواقع، فهي ليست بأُمة، وإنما هي جماعة إسلامية.

فهو يشترك مع السيّد الشهيد في أنّ مشكلة الأُمة هي الإحباط الذي يعبر عنه الشهيد الصدر عليه السلام بفقدان الإرادة، ويشتركان أيضاً في كيفية الإصلاح؛ فإنّ كلّاً منهما يرى أنّ الإمام أراد أن يُصلح الواقع من خلال صدم الأُمة وهزّها هزّة عنيفة، وبذلك يبني مجتمعاً قادراً على التغيير، ولو على المدى البعيد.

ولنا أن نلاحظ على هذه النظرية أنّ هناك فرقاً بين أن تكون هناك أُمة، ولكن تؤمن بمبادئ وقيم غير ما نؤمن به نحن، وتنتمي إلى تيارات فكرية أجنبية عن الإسلام الذي جاء به نبيّ الإسلام صلّى الله عليه وآله، وبين ألا تكون هناك أُمة أساساً، بل هي مجرد جماعة إسلامية.

ليست المشكلة في عدم وجود الأُمة والمجتمع الإسلامي، بل المشكلة أنّ الأُمة موجودة، ولكنها تمتلك ثقافة مشوّهة بعيدة عن فكر السماء؛ بدليل أنّ هذه الأُمة نفسها كانت تخوض معارك شرسة مع الفرس والروم، وتفتح البلدان. وأنّ هذه الأُمة نفسها خاضت معارك داخلية ضدّ من يهدّد أمن الدولة الأموية، كما في معاركهم مع الخوارج، أو حتى معركتهم ضدّ الإمام الحسين عليه السلام وأنصاره، أو في مواجهتهم للثورات التي تلت ثورة الإمام الحسين عليه السلام، كثورة التوابين، وثورة ابن الزبير، وثورة أهل المدينة، وثورة المختار، حيث نشاهد أنّ ثلّة كبيرة من الأُمة وقفت في وجه هذه الثورات، وأطاحت بالكثير منها وأخذتها.

كما أنّه لا يمكن أن ندّعي وجود الإحباط والعجز كمرض متجذّر في الأُمة، بحيث لا يمكن علاجه إلّا بإراقة دماء صفوة البشرية وخيرة أبنائها؛ فإنّه لو كان كذلك لما أمكن علاجه بهذه الطريقة التي يدّعيها صاحب النظرية، بحيث بمجرد أن قُتل الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه عادت الروح في هذه الجماعة،

ونمت فيها الإرادة والعزم حتى نهضت بثوراتها في أماكن مختلفة من البلاد الإسلامية، بل تغيير مرض كهذا والقضاء عليه يحتاج إلى زمان طويل؛ لأنك لا تريد أن تعالج شخصاً حتى يقال: إن شفاؤه يحتاج إلى سنة - مثلاً - بل تريد أن تعالج مجتمعاً بأسره، تعالج ظاهرة اجتماعية متفشية ومتجذرة، فلا يمكنك أن تحقق ذلك بهذه العجالة، بحيث نرى أن أهل مكة خرجوا من إحباطهم وعجزهم، وتشافوا من مرضهم، واتصفوا بالعزم والإرادة بمجرد أن سمعوا بشهادة الإمام الحسين عليه السلام ودعاهم ابن الزبير إلى الثورة.

وخلال سنة من الزمن نشط أهل المدينة من عقاهم وثاروا ضد من كانوا يخشونه ويحذرونه، وهكذا أهل الكوفة، بل لا بد أن يكون الإصلاح الذي قصده الإمام الحسين عليه السلام شيئاً آخر أكثر انسجاماً مع حركته عليه السلام، وخطاباته، والمرحلة التي كان يعيشها عليه السلام.

سادساً: الثقافة المشوّهة من وجهة نظر أنثروبولوجية

ذهب صاحب كتاب (الأنثروبولوجيا الاجتماعية الثقافية لمجتمع الكوفة) إلى أن مشكلة المجتمع في زمن الإمام الحسين عليه السلام هي مشكلة ثقافية بنيوية؛ فإن طبيعة المجتمع - لا سيّما المجتمع الكوفي - مبنية على طاعة الحاكم وقائد الجيش ورئيس القبيلة؛ بسبب تركيبة المجتمع القبلية العسكرية، وعدم نظرها إلى الجانب العقائدي أو العلمي أو الاجتماعي للمعسكر الآخر الذي تناوئه؛ لكونهم خاضعين للقيادة العسكرية أو القبلية، والتي لها مفهوم واحد وهو الطاعة، ومصدق واحد وهو التنفيذ، حتى لو كان الأمر الصادر إليهم هو مقاتلة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولذلك سعى الإمام الحسين عليه السلام إلى تحرير هذه العقول من الانقياد الأعمى للحاكم، والنظر في كون هذه الأوامر هل تصبّ في طاعة الله أم في معصيته؟ وهل

فيها صلاح الأمة أم فسادها؟

وهناك عامل ثقافي آخر له أثر كبير في بناء ثقافة الأمة، وهو عامل التحريف والتشويه الفكري الذي مارسه السلطة في زمن معاوية، من وضع الأحاديث وتزييف الحقائق والمفاهيم الإسلامية.

بالإضافة إلى تسفيه بعض المقدسات الإسلامية والاستهانة بالقيم، من قبيل: تولية أبناء البغايا، وقتل الشرفاء، وزرع ثقافة عدم المبالاة بالمقدسات والتجروء عليها.

ثم يقول السيّد نبيل الحسني صاحب الكتاب المذكور: وهذه الأسباب كفيلة بتحقيق نتائجها من الخروج على ابن بنت النبي ﷺ وقلته والتمثيل به، في أيّ مجتمع وجدت فيه، وليست مختصة بالكوفة، بل لو وجدت في مكة والمدينة لأعطت نفس النتائج، بل أشد^(١).

وقد قام الباحث بدراسة علمية موضوعية متينة في معرفة ثقافة مجتمع الكوفة التي أدت إلى خروجهم ضدّ الإمام الحسين عليه السلام.

ولكن يمكن أن نلاحظ عليه أنّه تغافل في بحثه أنّ الكوفة هي المجتمع الوحيد الذي نصر الإمام الحسين عليه السلام، وأنّ ما ذكره من بحوث ودراسات جميلة لا تنطبق على مجموعة كبيرة من المجتمع الكوفي الذين نصروا الإمام وبأيعوه، وتحملوا في هذا السبيل القتل والسجن والاضطهاد ما لم يُقدّم عشر معشاره أيّ مجتمع آخر من المجتمعات التي لم توجد فيها الظروف الأثروبولوجية هذه، كمجتمع مكة والمدينة. مضافاً إلى أنّ ما ذكره من الظروف غير مختصّ بالكوفة، بل كانت سياسة الدولة آنذاك مع المجتمع الإسلامي أجمع.

(١) أنظر: الحسني، نبيل، الأثروبولوجيا الاجتماعية الثقافية لمجتمع الكوفة عند الإمام الحسين عليه السلام: ص ١٢.

ولا نريد بهذا أن ننقد الباحث لعدم ذكره المجتمعات الأخرى؛ لكونه عقدَ البحث لدراسة المجتمع الكوفي فقط، ولكن من الجدير به أن يشير إلى الصمت المطبق في سائر أرجاء الدولة الإسلامية، بل قد اشتركوا ضده، كما سنوضح ذلك فيما سيأتي.

والمهم في البحث أن نشير إلى أن الباحث لم يستثنِ طائفة كبيرة من المجتمع الكوفي التي لم تخذل إمامها مع انطباق الظروف الأثروبولوجية عليها، أو لا أقل من عدم اشتراكها في الحرب ضده رغم كل الإجراءات التعسفية التي اتخذتها السلطة آنذاك لإجبار الناس على الاشتراك في الحرب ضد الإمام عليه السلام، وهروب البعض من الجيش في منتصف الطريق، أو اتخاذه وسيلة للالتحاق بالإمام كما تقدم في مناقشة النظرية الأولى، بل جعلهم في ميزان واحد من مبايعة الإمام والإصرار عليه بالقدوم ثم خذلوه، بل قتلوه.

مضافاً إلى أن بعض الشواهد التي استدلل بها تدلّ على عكس ما يروم إثباته، من قبيل دعواه بأن المجتمع الكوفي مجتمع عسكري تحكمه الطاعة للحاكم، بأن أمير المؤمنين عليه السلام في حرب الجمل لم يقدم إلى الكوفة ويدعو الناس، بل اكتفى بإرسال مبعوث من قبله وهو الإمام الحسن عليه السلام، والصحابي الجليل عمار بن ياسر رضي الله عنه، فاستطاعا بأقل الكلمات أن يجمعوا الجند، حتى اجتمع لهما سبعة آلاف رجل أو أقل من ذلك^(١).

وهذا الشاهد لو غرضنا النظر عن بعض الإشكالات التاريخية فيه، فإن استجابة سبعة آلاف لا يدلّ على إطاعة المجتمع الكوفي، والذي هو - بحسب

(١) أنظر: الحسني، نبيل، الأثروبولوجيا الاجتماعية الثقافية لمجتمع الكوفة عند الإمام الحسين عليه السلام: ص ٣٠.

الفرض - عبارة عن عسكر تحكمه القوانين العسكرية؛ لأنّ عداد الجيش الكوفي في تلك الحقبة قرابة الـ ١٠٠ ألف مقاتل، كما يذكر البلاذري^(١)، أو الـ ٦٥ ألف مقاتل، كما يذكر المؤلف نفسه^(٢). فمن هذا العدد الكبير يستجيب سبعة آلاف مقاتل فقط أو ستة آلاف وخمسمائة وستون رجلاً فقط، فأيّ طاعة واستجابة هذه؟!

(١) جاء في أنساب الأشراف: «معك أربعون ألف مقاتل من أهل الكوفة كلهم يأخذ العطاء، وهم على أبواب منازلهم، ومعهم مثلهم من أبنائهم وأتباعهم». البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٣، ص ٤٨.

(٢) أنظر: الحسيني، نبيل، الأنثروبولوجيا الاجتماعية الثقافية لمجتمع الكوفة عند الإمام الحسين عليه السلام: ص ٣٤.

المبحث الثاني

تحقيق المسألة

لا ريب أنّ أهل البيت عليهم السلام لهم مكانةٌ مرموقةٌ جداً في الوسط الإسلامي بشكل عام لا سيّما الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام، فهما أبناء رسول الله ﷺ، وأبناء فاطمة بضعة رسول الله ﷺ، وقد سمع المسلمون - مباشرةً أو من الصحابة - أنّ الرسول ﷺ قد قال فيها أحاديث كثيرة، من قبيل: «الحسنُ والحسينُ إمامان إن قاما وإن قعدا»^(١)، «حسينٌ منّي وأنا من حسين، أحبّ الله من أحبّ حسيناً»^(٢)، «ريحانتي من الدنيا»^(٣)، «سيداً شباب أهل الجنة»^(٤).

وأنّه ﷺ كان يرعاهما رعاية خاصّة؛ إذ يحملهما على كتفه ويلاعبهما، وكان يُكثر من تقبيلهما ولثمهما، وفي بعض الأحيان يقطع خطبته وينزل من على منبره ليحملهما ثمّ يعود ليكمل خطبته. وغيرها من المواقف والسلوكيات النبوية تجاههما، بحيث ترسّخ ذلك في نفوس الصحابة، وحتى الخلفاء. فقد روى المؤرخون أنّ عمر بن

(١) ابن عقدة الكوفي، أحمد بن محمد، فضائل أمير المؤمنين عليه السلام: ١٦٨. وقد وصفه السيّد الميلاني بأنّه من الأحاديث المتفق عليها، وذكر جملة من علماء الجمهور ممّن رواه. أنظر: الميلاني، علي، الأئمة الاثنا عشر: ص ٣٧.

(٢) ابن حنبل، أحمد، مسند أحمد: ج ٤، ص ١٧٣. القزويني، محمد بن يزيد، سنن ابن ماجه: ج ١، ص ٥١. الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي: ج ٥، ص ٣٢٤. ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ص ١١٦.

(٣) البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري: ج ٤، ص ٢١٧. الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي: ج ٥، ص ٣٢٢.

(٤) ابن حنبل، أحمد، مسند أحمد: ج ٣، ص ٣.

الخطاب «أمر حسين بن علي أن يأتيه في بعض الحاجة، فأتاه حسين، فلقيه عبد الله بن عمر، فقال له حسين: من أين جئت؟

قال: قد استأذنتُ على عمر فلم يُؤذن لي. فرجع حسين، فلقيه عمر، فقال له: ما منعك يا حسين أن تأتيني؟

قال: قد أتيتُك ولكن أخبرني عبد الله بن عمر: إنّه لم يُؤذن له عليك، فرجعتُ. فقال له عمر: وأنت عندي مثله؟! وهل أنبت الشعرَ على الرأس غيركم!«^(١). وفي يوم كان عمرو بن العاص جالساً في ظل الكعبة، فرأى الحسين عليه السلام مقبلاً فقال: «هذا أحبُّ أهل الأرض إلى أهل السماء»^(٢).

كما روي عن أبي المهزم، قال: «كنا مع جنازة امرأة ومعنا أبو هريرة فجيء بجنازة رجل فجعله بينه وبين المرأة فصلّى عليهما، فلما أقبلنا أعيّا الحسين فقعد في الطريق، فجعل أبو هريرة ينفض التراب عن قدميه بطرف ثوبه، فقال الحسين: يا أبا هريرة، وأنت تفعل هذا؟ قال أبو هريرة: دعني، فوالله لو يعلم الناس منك ما أعلم لحملوك على رقابهم!«^(٣).

وقد قال عثمان بن عفان في الحسن والحسين عليهما السلام وعبد الله بن جعفر، لسائل: «ومن لك بمثل هؤلاء الفتية؟ أولئك فطموا العلم فطماً، وحازوا الخير والحكمة»^(٤). وغيرها من المواقف التي تدلّ على موقعية الإمام الحسين عليه السلام ومكانته عند الصحابة والمسلمين عامّة.

(١) ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج ١٤، ص ١٧٥.

(٢) المصدر السابق: ج ١٤، ص ١٧٩.

(٣) المصدر السابق: ج ١٤، ص ١٨٠.

(٤) الكوفي، إبراهيم بن محمد الثقفي، الغارات: ج ٢، ص ٦٩٥. الصدوق، محمد بن علي، الخصال: ص ١٣٦.

وحتى شَبَّثَ بن ربيعي الذي اشترك في قتل الإمام الحسين عليه السلام، كان يقول: «إنَّا قاتلنا مع علي بن أبي طالب، ومع ابنه من بعده، آل أبي سفيان خمس سنين، ثُمَّ عَدَوْنَا على ابنه، وهو خير أهل الأرض، نقاتله مع آل معاوية، وابن سمية الزانية، ضلال يا لك من ضلال!»^(١).

ومع كل هذا التعظيم للحسين عليه السلام من قبل المسلمين، ومعرفة مكانته وحقه، ولكن لم يخرج لنصرته ومساندته في مقارعة الظلم المنصب عليهم إلا شيعته من أهل الكوفة.

ولا يمكننا أن نمرَّ مروراً عابراً على هذه الظاهرة التي ألحقت بالأمة كل هذا البلاء والتراجع واضمحلال التمسك بالشرعية، أو ننبري لشتم أهل الكوفة الذين دعوهم وخذلوه، ونحلل شخصيتهم وأسباب تراجعهم بشيء من السطحية، بل لا بد أن نقف وقفة تأمل ودراسة لظاهرة عدم دعوته من قبل البلدان الأخرى.

لماذا بقيت البلدان الإسلامية وأهلها متفرجة ساكتة لم تنصر الحسين عليه السلام وهو يدعوهم قرابة خمسة أشهر، بل قرابة الستين؟ لأن النصوص التاريخية تشير إلى أن الإمام الحسين عليه السلام دعا المسلمين - لا سيما الصحابة - في موسم الحج أيضاً في أيام معاوية قبل هلاكه بسنة أو ستين أي سنة ٥٩ أو ٥٨ هـ، حيث جمع الإمام الصحابة في موسم الحج فاجتمع له بمضى أكثر من ٧٠٠ من المسلمين، ٢٠٠ منهم من الصحابة، فخطبهم بقوله: «أما بعد، فإن الطاغية قد صنع بنا وبشيعتنا ما قد علمتم ورأيتم وشهدتم وبلغكم، وإني أريد أن أسألكم عن أشياء، فإن صدقتُ فصددوني، وإن كذبتُ فكذبوني، اسمعوا مقالتي، واكتبوا قولي»^(٢)، ثُمَّ ارجعوا إلى أمصاركم وقبائلكم، مَنْ أمتموه ووثقتم به فادعوه إلى ما تعلمون؛ فإني أخاف أن يندرس هذا

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣٣٢.

(٢) وفي البحار: (واكتبوا قولي). المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٣٣، ص ١٨٢.

الحق ويذهب ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(١)، فلم يحبوه ولم ينصروه.

ومن هنا لا بدّ من طرح المسألة بنحوٍ آخر، بأن تُصاغ على شكل سؤالين:
السؤال الأول: لماذا لم تستجب للإمام الحسين (عليه السلام) سائر الشعوب والبلدان غير الكوفة؟

السؤال الثاني: لماذا فشل الكوفيون في استمرار النصرة مع أنهم أجابوه ونصروه في بادئ الأمر؟

لماذا لم ينصر المسلمون الإمام الحسين (عليه السلام)؟

إنّ عدم نصرة الإمام الحسين (عليه السلام) من قبل المسلمين من الصحابة والتابعين، أو ما يُعبّر عنهم بالسلف الصالح، مسألةٌ تحتاج إلى دراسة وكثير تأمل؛ لأنّ عدم نصرة الإمام إمّا لعدم حقّانية الدعوة، أو لعدم حقّانية الداعي من وجهة نظرهم، أو أنّ المدعويين ليسوا بمستوى المسؤولية، أي لم يكونوا أهلاً لنصرة الحقّ.

أمّا الاحتمال الأوّل، وهو عدم حقّانية الدعوة، فلا يمكن الركون إليه؛ لأنّ عدم حقّانيتها إمّا ناشئ من كونها لا تدعو إلى الحقّ، بل تستبطن الباطل، أو لأنّ الحكومة القائمة آنذاك حكومة عادلة تحقّق مطالب الأُمّة على جميع المستويات، بحيث يكون المسلمون في جميع بلدانهم وبمختلف انتماءاتهم وقومياتهم يعيشون المساواة والتمتّع بكامل الحقوق. وكلا الأمرين غير متوفّر، فالحاكم ظالم والحقوق مسلوّبة.

وأما الاحتمال الثاني، فغير مقبول أيضاً؛ لأنّ الداعي إلى الإصلاح هو الحسين بن عليّ وفاطمة، ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وهو من قال فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله): «حسين منّي وأنا من حسين، أحبّ الله من أحبّ حسيناً»، وهو سيّد شباب أهل الجنة، وقال فيه

(١) الصف: آية ٨.

(٢) الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج ٢، ص ١٩. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٣٣، ص ١٨٢. ج ٤٤، ص ١٢٧. البروجردي، حسين، جامع أحاديث الشيعة: ج ١، ص ٢٣٢.

وفي أخيه الحسن: «إمامان إن قاما وإن قعدا».

وهذا ما لا ينكره مسلم، فلا يبقى إلا الاحتمال الثالث وهو عدم أهلية المخاطبين، أي إن المسلمين الذين هم يومذاك الصحابة والتابعون، لم يكونوا أهلاً لنصرة الحق المتمثل بالحسين عليه السلام ودعوته.

ولنقف عند هذا الشق لتتعرف على الأسباب التي أوصلت المسلمين إلى هذا الحد، بحيث أصبحوا بعيدين عن الحق والالتفاف حوله والقيام بحقه. وهذا ما يحتاج إلى قراءة المجتمع الإسلامي من زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وحتى الحقبة التي عاصرها الحسين عليه السلام وأعلن ثورته فيها.

إن المسلمين في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله كانوا جديدي عهد بالإسلام وتعاليمه، ولم يصلوا إلى درجة الانصهار به؛ فإن كل عقيدة أو ثقافة لا تكون ثقافة أمة حتى يمر عليها عقود من الزمن بحيث يهرم عليها الكبير ويشب عليها الصغير. وهذا ما لم يتحقق للمجتمع الإسلامي آنذاك؛ فإن النبي صلى الله عليه وآله بدأ بناء مجتمعه الجديد في المدينة المنورة ومارس عليهم التجربة الإلهية الحديثة لمدة عشر سنوات فقط أو أقل، واجه فيها ظروفاً قاسية مختلفة، من حروب ومعارضة خارجية يقودها أهل الكتاب والمشركون، وداخلية يقودها المنافقون من خلال التشكيك وبث الشبهات وزرع روح التمرد على تعاليم النبي صلى الله عليه وآله.

ومع كل هذا استطاع رسول السماء صلى الله عليه وآله بناء ثلثة صالحة من المجتمع تعيش الإسلام وتتلّمس مبادئه وتستضيء بهديه، وقد سطرّوا للدنيا مواقف عجز عن وصفها البيان، وانحسر عن بيانها البنان.

إلا أن هذا البناء لا يُعدّ بناء مجتمع، بل هو في طريقه لبناء مجتمع، بمعنى أن النبي صلى الله عليه وآله خطا خطوات كبيرة في هذا المجال ولكنه لم يبلغ الغاية التي يمكن أن نقول عنها: أصبح عندنا مجتمع إسلامي بما للكلمة من معنى، بل يمكننا أن ندّعي

أنَّه ﷺ استطاع أن يربِّي ثلَّة كبيرة من المجتمع تُعدّ اللبنة الأساس للمجتمع المنشود. هذا كلُّه في المدينة.

أمَّا القبائل القاطنة أطراف المدينة وأطراف الدولة الإسلامية زمان النبي ﷺ، فلا أظنَّها بلغت هذا القدر ممَّا بلغه مجتمع المدينة إلَّا على نحو الأفراد، تختلف نسبتهم من قبيلة لأخرى ومن منطقة لأخرى.

وقد أراد النبي ﷺ لأُمَّته أن تبلغ الهدف الذي ينشده من خلال استمرار منهجه عن طريق الخليفة الذي يعيَّنه هو ﷺ بأمر السماء، ولكنَّ الخلايا النائمة في وسط الأُمَّة من اليهود والمنافقين وسعيهم في مخالفة أوامر المصطفى ﷺ ووقوفهم دون بلوغ أهدافه، لم تكن لتسكت عن هذا الأمر الذي يهدّد مستقبلهم ويسدّ الطريق عليهم.

وكانت هناك مساعي لهم في هذا الطريق، فقد كانوا يخالفون النبي ﷺ في حياته، ويعارضونه في أوامره، ويبثّون روح التمرد والتشكيك في حقانيته ونبوته، بل سعوا إلى القضاء عليه وتصفيته جسدياً، كما في حادثة ليلة عقبة أرشي^(١)، ودسّ

(١) روى علي بن إبراهيم: أنَّ النبي ﷺ لَمَّا قال في مسجد الخيف في أمير المؤمنين عليه السلام ما قال، ونصبه يوم الغدير، قال أصحابه الذين ارتدّوا بعده: قد قال محمد في مسجد الخيف ما قال، وقال هاهنا ما قال، وإن رجع إلى المدينة يأخذنا بالبيعة له. فاجتمعوا أربعة عشر نفرًا وتأمروا على قتل رسول الله ﷺ، وقعدوا له في العقبة، وهي عقبة أرشي بين الجحفة والأبواء، فقعدوا سبعة عن يمين العقبة، وسبعة عن يسارها، لينفروا ناقة رسول الله ﷺ، فلَمَّا جنَّ الليل تقدّم رسول الله في تلك الليلة العسكر، فأقبل ينعس على ناقته، فلَمَّا دنا من العقبة ناداه جبرئيل عليه السلام: يا محمد، إنَّ فلاناً وفلاناً قد قعدوا لك، فنظر رسول الله ﷺ، فقال: مَنْ هذا خلفي؟ فقال حذيفة اليباني: أنا يا رسول الله، حذيفة بن اليمان. قال: سمعتُ ما سمعتُ؟ قال: بلى. قال: فاكم. ثمّ دنا رسول الله ﷺ منهم، فناداهم بأسمائهم. فلَمَّا سمعوا نداء رسول الله ﷺ فرّوا، ودخلوا في غمار الناس، وقد كانوا عقلوا رواحلهم، فتركوها. ولحق الناس برّسول الله وطلبوهم، وانتهى رسول الله ﷺ إلى رواحلهم فعرفهم، فلَمَّا نزل قال: ما بال أقوام تحالفوا في الكعبة: إنَّ أمات الله محمداً أو قتله ألا يردّوا هذا الأمر في أهل بيته أبداً؟! فجاءوا إلى رسول الله ﷺ، فحلفوا أنّهم لم يقولوا من ذلك

السم إليه في ذراع شاة^(١).

ولما بلغهم الخبر بأن النبي ﷺ قارب على الرحيل، وتوديع هذه الأمة، فما كان منهم إلا أن ضاعفوا الجهود لمنع هذا المشروع الذي يسعى إلى تجذيره رسول الرحمة في جعل الإمامة في مستحقّيها لسدّ الأبواب على الطامعين.

فكانت النتائج أن بدأت التحالفات، وتشتت الرأي، فصارت المعارضة علنية بحيث مُنِع النبي في عاصمة سلطانه، بل في بيته، من الكتابة، ولم يُمثّل أمره في جيش أسامة، وتضعيف إيمان الأمة بنبِيِّها من خلال اتهامه بالهجر، وتشكيكها بموته، حيث أشاعوا بأنّه لم يمت وإنّما ذهب لميقات ربّه كموسى، حتى وصل أحلافهم من قبيلة أسلم إلى المدينة، وملؤوا شوارعها يحملون السلاح^(٢)، فانبرى

شيئاً، ولم يريدوه، ولم يهّموا بشيء من رسول الله. فأنزل الله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [من قتل رسول الله ﷺ] وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَوِلُوا يُعَذِّبْهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿التوبة: آية ٧٤﴾. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٣١، ص ٦٣٣. المجلسي، محمد باقر، مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول: ج ٢٦، ص ٣٢. أنظر أيضاً: ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال: ج ٢، ص ٢٥٠.

(١) أنظر: البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري: ج ٧، ص ٣٢. المسعودي، علي بن الحسين، التنبيه والإشراف: ص ٢٢٣.

(٢) ورد في تاريخ الطبري: «قال أبو مخنف: فحدثني أبو بكر بن محمد الخزاعي أن أسلم أقبلت بجاعتها حتى تضايق بهم السكك، فبايعوا أبا بكر، فكان عمر يقول: ما هو إلا أن رأيت أسلم فأيقنت بالنصر». الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٢، ص ٤٥٨.

قال أحمد حسين يعقوب: «إنّ عمر بن الخطاب كانت له علاقة وطيدة مع المرتزقة من الأعراب، روى الطبري في تاريخه: (إنّ أسلم أقبلت بجاعتها حتى تضايق بهم السكك، فكان عمر يقول: ما هو إلا أن رأيت أسلم فأيقنت بالنصر)، فلو لم تكن علاقته وطيدة بهم، أو على اتفاق معهم فكيف عرف أتهم معه بمجرد رؤيته لهم؟ هذه الشبكة الهائلة من العلاقات والمعتقدات، مكّنت زعامة الأكثرية من اختراق وحدة القلة المؤمنة، ومن إيجاد شرخ فيها،

أبو بكر، وأعلن بأن النبي مات، وقال: «مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ رَبَّ مُحَمَّدٍ فَإِنَّهُ حَيٌّ لَا يَمُوتُ». ويوحون إلى بعض الشخصيات بأن تصدّي للخلافة، كما حصل في ثلثة الأنصار؛ فإنّ الباحث يجد تسابقاً في جهة الأنصار على السلطة، ف عقدوا اجتماعاً لذلك، والنبي ﷺ بعد لم يوار الثرى^(١).

ولم تكن هذه المؤامرة بخافية على الطامعين من المهاجرين، حيث جعلوا العيون لرصد الأخبار؛ ولذا بمجرّد وقوع الاجتماع جاء رجلاّن من الأنصار أحدهما من الأوس والآخر من الخزرج فوشيا بالخبر لأبي بكر وعمر^(٢) لا غير، والسؤال هنا لماذا لهذين دون غيرهما؟! ممّا يجعلنا أمام شكّ عريض.

وكان صوت المعارضة مدوّياً حاضراً في عاصمة الدولة الإسلامية في زمن

ومكّنت عمر بن الخطاب من تكوين جبهة عريضة تتكوّن من الأكثرية التي كانت مشركة ثمّ أسلمت، ومن المرتزقة من الأعراب، بل واقتطع معه فريقاً من القلة المؤمنة. هذه الجبهة العريضة كانت متفقة على الحيلولة بين آل محمد وبين رئاسة الأُمّة، وبين سُنّة الرسول المتعلقة بنظام الحكم وبين التطبيق. لقد تمكّنت زعامة بطون قريش والأكثرية الساحقة بفضل عمر بن الخطاب من تكوين حكومة ظلّ تنتظر موت النبي بفارغ الصبر لتنقض على السلطة وتستولي على ملك النبوة، ولم ترّ زعامة بطون قريش بأساً من أن يتولّى الخلافة بعد موت النبي عمر بن الخطاب أو غيره من المهاجرين، الذين لعبوا دوراً مميزاً بتسهيل مهمّة زعامة بطون قريش والأكثرية التي تؤيّدّها على اعتبار أنّ الجميع فريق واحد، وأنّ من الأنسب أن يتناوب أصحاب الرسول على الرئاسة خلال فترة انتقالية، ثمّ تعود رئاسة الأُمّة الجديدة لزعامة بطون قريش الجاهلية المسترة بثوب الإسلام، وهكذا كان». يعقوب، أحمد حسين، أين سُنّة الرسول وماذا فعلوا بها؟: ص ١١٤.

(١) أنظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٢، ص ٤٥٥.

(٢) وهما: معن بن عدي وعويم بن ساعدة. أنظر: ابن عبد ربه الأندلسي، أحمد بن محمد، العقد الفريد: ج ٤، ص ٢٥٧. المظفر، محمد رضا، السقيفة: ص ١٢٠. قال ابن أبي الحديد: «كان هذان الرجلان ذوي حبٍّ لأبي بكر في حياة رسول الله ﷺ، واتفق مع ذلك بغض وشحناء، كانت بينهما وبين سعد بن عبادَةَ». ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ٦، ص ١٩.

النبي ﷺ، بحيث لم يُمثّل أمره في الالتحاق بجيش أسامة، بل في بيته ﷺ حيث مُنِع من الكتابة للأمة بما يعصمها عن الضلالة^(١).

وهذا ليس بالأمر السهل؛ فإنّ النبيّ أراد أن يضمن مستقبل أمته، ولو لم تكن المعارضة قويةً بحيث خشي الرسول ﷺ الفتنة لما كفّ عن كتابته وهو بهذه الأهمية. وأخذ التشكيك مسراه بحيث اتهم النبيّ ﷺ بالهجر والهديان النافين للعصمة، بحيث فقد الكتاب قيمته حتى لو كتبه عليه السلام.

ثم بدأ التهريج الذي يزعزع الإيمان والوصول إلى قرار، فأخذوا يصيحون: لم يمت رسول الله!.. بل ذهب إلى ربّه كذهاب موسى لميقات ربّه، وهددوا كلّ من يقول بموته.

وبذلك استطاع القرشيون أن يكسبوا الصولة من خلال التحالف وتضعيف الجهة المنافسة، من خلال تشتيت الرأي وتشكيك الأمة بنبيّها وإعلان حالة التمرد والعصيان لأوامره.

وفي النهاية، فإنّ المشروع المحمدي الذي يرنو لتربية المجتمع إسلامياً بنظامه وسلوكه، لم يكن ليتحقّق؛ إذ المرئيّ فقد من دون أن يستلم خليفته مكانه ليسير

(١) روى الفريقان أنّه: «لَمَّا حَضَرَتْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوَفَاةَ، قَالَ: هَلَمْ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَنْ تَضَلُّوا بَعْدَهُ. وَفِي الْبَيْتِ رَجَالٌ فِيهِمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ غَلَبَهُ الْوَجَعُ، وَعِنْدَكُمْ الْقُرْآنُ، حَسْبُنَا كِتَابُ اللَّهِ! قَالَ: فَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْبَيْتِ، فَاخْتَصَمُوا؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: يَكْتُبُ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ قَالَ: قَرَّبُوا يَكْتُبُ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: مَا قَالَ عُمَرُ. فَلَمَّا أَكْثَرُوا اللَّغْطَ وَالْاِخْتِلَافَ، وَغُمَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَوْمُوا عَنِّي. فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: إِنَّ الرِّزْيَةَ كُلَّ الرِّزْيَةِ مَا حَالَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيْنَ أَنْ يَكْتُبَ لَهُمْ ذَلِكَ الْكِتَابَ مِنْ اخْتِلَافِهِمْ وَلَغْطِهِمْ». ابن حنبل، أحمد، مسند أحمد: ج ١، ص ٣٢٥. أنظر أيضاً: البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري: ج ٤، ص ٣١. ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب: ج ١، ص ١٩٩.

بنفس منهجه، بل انتقلت الحكومة إلى غيره من الطامعين، فتبدلت الاستراتيجيات في قيادة الدولة الفتية، وأخذوا يسوسون الأمة على غير المبادئ التي كان الرسول ﷺ يسير عليها، وعطلوا الثقافة التي سعى الرسول لنشرها وترسيخها في وجدان الأمة وغرسها في عالم اللاوعي للمجتمع، من خلال منع الحديث وحرقه ومعاقبة من يخالف، واستبدالها بثقافة أخرى يترأسها الذين أسلموا من اليهود، فدخلت الثقافة اليهودية إلى الفكر الإسلامي من أوسع أبوابه.

فهل من الصدفة يا ترى أن يصعد مجموعة من المسلمين إلى الحكم، ويُفتح الباب أمام مسلمة اليهود ليحدثوا أمة محمد ويعلموها بمعالم دينها؟! وهل من الصدفة أن يعلن النصارى نبوءاتهم في فترات متقاربة كمسيلمة وطليحة وسجاح؟! و

أم أن ذلك كان تتمّة لمسلسل التغيير الجذري، والقضاء على مشروع السماء بمثل ما جرى على الأمم السابقة.

والنتيجة: أن المسلمين من الصحابة والتابعين قد ابتعدوا عن تعاليم الإسلام من خلال حجبهم عن المربي الذي يأخذ بأيديهم فكرياً وسلوكياً نحو تعاليم الإسلام، ولم يبقَ في أيديهم إلا النصّ القرآني تحت ذريعة (حسبنا كتاب الله)؛ ليقوموا بتأويله متى ما احتاجوا إلى ذلك.

وأخذ السيف مكانه من رقاب المسلمين، إذا ما خالفوا التعاليم الجديدة المخالفة لسنة المصطفى ﷺ. وقد تُقطّع الرقاب، وتُنتهك الأعراض تحت ذريعة حروب الردّة عن الدين، التي يشكك في أصل وجودها بعض المحققين، فما كانت ردّة عن الدين، بل هي ردّة عن التعاليم الجديدة^(١).

(١) قال الشيخ النجفي في كتابه (أضواء على الصحيحين): «بعد وفاة الرسول ﷺ أبى بعض المسلمين المعتقدين بوجوب أحكام الدين وضروريّاته، كالزكاة، أن يدفع الزكاة إلى أبي بكر.

والحقّ لأنّهم ما كانوا يعترفون بخلافة أبي بكر على أنّها خلافة شرعية؛ ولذلك حاربهم أبو بكر، فقتل رجالهم وسبى نساءهم وأطفالهم. ولمّا رأوا فضاغة ما فعلوه عمدوا إلى إلباسه لباس الشرعية؛ ليحصّنوا بذلك شرف الخليفة من النقد والاستنكار، ويبرؤونه من وصمة العار، ولذلك سمّوا مانعي دفع الزكاة إلى الخليفة بالمرتدين، وبذلك اشتهروا وصيّروا في قائمة الكفّار، مثل: مسيلمة وطليحة اللذان حاربا الإسلام في عهد رسول الله ﷺ.

بينما الروايات والتاريخ يدفعان هذا الاتهام والوصمة بالارتداد عن هذه الفئة، وينفيانه عنها، وتبرئ أولئك من هذه الفرية. ومن الأحاديث التي تكشف عن واقعية هذه القضية وحقيقتها هو ما أخرجه البخاري ومسلم في كتابيهما، حيث كشفا عن جوانب جزئية من هذه القصة تنطرق إلى نقل خلاصة القضية من الناحية التاريخية: أخرج الشيخان عن أبي شهاب، أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أنّ أبا هريرة قال: لمّا توفّي النبي ﷺ، واستخلف أبو بكر، وكفر من كفر من العرب، قال عمر: يا أبا بكر، كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله)؟ قال أبو بكر: والله، لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة؛ فإنّ الزكاة حقّ المال. والله، لو منعوني عناقاً كانوا يؤدّونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. قال عمر: والله، ما هو إلا أن رأيت أنّ قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنّه الحقّ.

أقول: إنّ الجملة الأولى من هذه الحكاية (وكفر من كفر من العرب)، كما يظهر من ظاهرها، ليست إلّا كذباً وتدليساً، وما هي إلّا ذريعة التمسوها لتوجيه القتل والغارات والتنكيل بالمسلمين التي وقعت بأمر من الخليفة أبي بكر.

وما يشهد على زيف دعواهم ما جاء في الفقرات الأخيرة من القصة البخارية:

١. ورد في جواب أبي بكر لعمر: (إني أقاتل من فرق بين الصلاة والزكاة). وهذه العبارة إنّما تدلّ بوضوح على إيمانهم وإقامتهم الصلاة، وليس فيها ما يمتّ إلى كفرهم.
٢. فلو فرضنا أنّهم مرتدّون فإنّ اعتراض عمر على الخليفة حينئذٍ يكون باطلاً، حيث إنّهُ استنكر عمل الخليفة وانتقده، واستدلّ في استنكاره بحديث يبيّن فيه تعاليم الإسلام في بيان مصونية مال المسلمين ودمائهم.

قال ابن رشد: وقد بقي من أحكامه حكم مشهور، وهو ماذا حكم من منع الزكاة ومن لم ييحد وجوبها؟

فذهب أبو بكر إلى أنّ حكمه حكم المرتد. وبذلك حكم في مانع الزكاة من العرب، وذلك إنّهُ قاتلهم وسبى ذريّتهم، وخالفه في ذلك عمر، وأطلق من كان استرق منهم. ويقول عمر قال الجمهور.

وكانت حروب الردّة - كما يصطلحون عليها - منحصرةً في جبهتين: في جبهة حضر موت، ضدّ قبائل كندة ومأرب، وكان أمير العسكر الخلفي عكرمة بن أبي جهل. وفي جبهة أطراف المدينة، ضدّ قبائل عيس وذيبيان وبني كنانة وغيرها، بقيادة خالد بن الوليد. وهؤلاء الرجال الذين قُتلوا بسيف المسلمين بقيادة عكرمة وخالد، لم يرتدّوا، ولم يكونوا منكري وجوب الزكاة، بل هم مسلمون وكانوا يقولون:

أطعننا رسول الله ما دام وسطنا فيا قوم ما شأني وشأن أبي بكر

بعضهم كانوا يقولون لممثل الخليفة: إنك تدعو إلى طاعة رجل لم يُعهد إلينا ولا إليكم فيه عهدٌ.

وتارة كانوا يقولون لهم: أنظروا في شأن عترة النبي ﷺ فما كان من أمرهم؟! وهم الأولى بتسنّم خلافة الرسول فأقصيتهم... والله تعالى يقول: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾.

قال ابن كثير: وجعلت وفود العرب - بعد خلافة أبي بكر - تقدّم المدينة، يُقرّون بالصلاة ويمتنعون عن أداء الزكاة، ومنهم من امتنع عن دفعها إلى الصديق أبي بكر. وقال العقّاد: أمّا القبائل وراء ذلك، فكان لكلّ منها نصيب من التقليل يناسب نصيبها من القرب والبعد والمودة والجفاء، فأقربهم إلى مهد الإسلام كانوا يخلصون للنبي ﷺ ويخرجون على من ولي الحكم بعده:

أطعننا رسول الله مذ كان بيننا فإلّا لعلّ الله ما لأبي بكر

وأناس منهم آمنوا بالزكاة ولم يؤمنوا بمن يؤدونها إليه. وقال الأستاذ محمد حسنين هيكل: جمع أبو بكر كبار الصحابة يستشيرهم في قتال الذين منعوا الزكاة، وكان رأي عمر بن الخطاب وطائفة من المسلمين معه ألا يقاتلوا قوماً يؤمنون بالله ورسوله، وأن يستعينوا بهم على عدوّهم، ولعلّ أصحاب هذا الرأي كانوا أكثر الحاضرين، في حين كان الذين أشاروا بالقتال هم القلة.

وأغلب الظن أنّ المجادلة بين القوم في هذا الأمر البالغ الخطر طالت واحتدمت أليماً احتدام، فقد اضطر أبو بكر أن يتدخل بنفسه فيها يؤدّ القلة. ولقد اشتدّ في تأييد رأيه في ذلك المقام، يدلّ على ذلك قوله: والله، لو منعوني عقلاً كانوا يؤدّونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه.

أقول: وقصة التشاور بين أبي بكر وبلاطه نقلها السيوطي والبلاذري وابن الأعمش الكوفي، وقال الأعمش: وإنّ جملة: (والله، لو منعوني عقلاً) قالها أبو بكر في جواب عمر عندما رآه يعارض

فأطراف الدولة الإسلامية لا يعلمون عن الإسلام إلا بعض تعاليمه، وقد جاءهم من يناغمهم بما يعلمون، ويُملي عليهم بما لا يعلمون تحت بريق السيف وتغيير الثقافة.

فاستمرت هذه السياسة ٥٠ سنة تعمل جاهدة لتركيز دعائمها، إلا أربع سنوات في أيام أمير المؤمنين عليه السلام لم يكن متفرغاً فيها لبسط ثقافته التي يؤمن بها، ثم عادت جذعة - كما يقال - ليستمر الخط المناوئ لثقافة السماء بتوسعة ثقافته وتغيير معالم ثقافة السماء بما يحلو له، إلا بعض الأفراد الذين بقيت لهم خيوط اتصال بمن يحمل فكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعملون سرّاً - في غالب أيامهم - على نشر ثقافة الإسلام، وفكر المصطفى ما ساعدهم الظرف.

وهذا يعني أن ما يحمله المسلمون من فكر لا يتمتع بجذوة الإيمان الصافي الذي يحث أهله على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل قد تغير معنى المعروف والمنكر عندهم في ثقافتهم الجديدة، واصطف الأكرية إلى جانب الحيادية الخائفة التي يصفها الإمام الحسين عليه السلام: «ألا ترون الحق لا يُعمل به، والباطل لا يُتناهى عنه»^(١).

ثقافة تغير فيها الكثير مما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حتى أنهم نسوا صلاة رسول

فكرة قتال المسلمين.

وعلى أي حال يتضح مما ذكرناه ونقلناه عن ابن كثير وسائر المؤرخين، ومن كلام أبي بكر أن السبب والباعث الرئيسي وراء قتاله هؤلاء القوم لم يكن ارتدادهم وتراجعهم عن الإسلام، أو إنكارهم لإحدى الضروريات الدينية - أي الزكاة - بل الباعث في قتالهم هو أنهم امتنعوا عن أداء الزكاة لأبي بكر كما كانوا يؤدونها لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم قال: الحروب التي شنت على القبائل المختلفة، وقُتل فيها رجالها، وسُبيت النساء والأطفال، لم يكن سببها في الواقع هو ارتدادهم عن الدين، وخروجهم عن الإسلام كما اتهموا بها، وإنما السبب الواقعي هو امتناعهم عن أداء الزكاة للخليفة لأبي بكر. النجمي، محمد صادق، أضواء على الصحيحين: ص ٣٧١ - ٣٧٥.

(١) ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب: ج ٣، ص ٢٢٤.

الله ﷺ؛ ولذا روى البخاري: «عن عمران بن حصين، قال: صَلَّى مع عليٍّ ﷺ بالبصرة، فقال: ذَكَّرْنَا هذا الرجل صلاةً كُنَّا نُصَلِّيها مع رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم. فذكرَ أَنَّهُ كان يُكَبِّرُ كلِّما رفع وكلِّما وضع»^(١).

وروى ابن ماجه: «عن يزيد بن أبي مريم، عن أبي موسى، قال: صَلَّى بنا عليٌّ يوم الجمل صلاةً ذَكَّرْنَا صلاة رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم. فإِذَا أن نكون نسيناها. وإِذَا أن نكون تركناها»^(٢). وهذا يعني أَنَّ مَنْ كان قبله لم يكن يصلي بالناس صلاةً تشبه صلاة رسول الله ﷺ.

ثقافة غاب فيها معنى الإمام، وكثير من عقائد الإسلام؛ ولذا نرى الإمام الحسن ﷺ يصيح في أمة جدّه أمام معاوية وقومه من أهل الشام، ليعرفهم معنى الإمام، بقوله: «يا معاوية، إِنَّ الخليفةَ مَنْ سار بسيرة رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم، وعمل بطاعته، وليس الخليفةَ مَنْ دان بالجور، وعطل السنن، واتخذ الدنيا أمّاً وأباً»^(٣).

وهو نفس المعنى الذي أشار له أمير المؤمنين ﷺ وبينه للأمة بقوله: «وقد علمتم أَنَّهُ لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل، فتكون في أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيضللهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الخائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع، ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة»^(٤).

كما جاء الإمام الحسين ﷺ ليوضح لهم بثورته الإصلاحية نفس ذلك المفهوم حين يقول: «لعمري ما الإمامُ إِلَّا العامل بالكتاب، القائم بالقسط، الدائن بدين الحق،

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري: ج ١، ص ١٩٠.

(٢) ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه: ج ١، ص ٢٩٦.

(٣) الطبري، أحمد بن عبد الله، ذخائر العقبى: ص ١٤٠.

(٤) نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي لخطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ (تحقيق محمد عبده)، الخطبة القاصعة: ص ١٤.

الحابس نفسه في ذات الله»^(١)؛ لأنَّ معنى الإمام عندهم - بحسب ثقافتهم الجديدة التي تربّوا عليها - هو مَنْ جلس على العرش، وإن كان يفعل الحرام، ويصلي بالناس - سكراناً - صلاة الصبح أربع ركعات، كما فعلها الوليد بن عتبة لما كان والياً من قبل عثمان على الكوفة^(٢).

فالأمة تعيش الضياع الفكري والعقائدي والسلوكي، وتفتشت فيها العقائد المنحرفة، والمذاهب الباطلة، والسلوك المحرّم. فكيف يُرتجى من أمة كهذه أن تقوم بنصرة الإمام الحسين عليه السلام، وتقف إلى جنبه في نصره الحق؟! في

والخلاصة: أن الإمام الحسين عليه السلام خرج من المدينة في يوم ٢٧ من شهر رجب عام ٦٠ من الهجرة، فدخل مكة في اليوم الثالث من شهر شعبان، وبقي فيها أربعة أشهر وأياماً، وكانت مكة في تلك الأوقات تعجّ بزائريها من الوافدين لأداء مناسك العمرة والحج؛ فإنَّ مكة في هذه الأشهر أكثر ما تكون مكتظة بالوفود منها في سائر الأشهر.

واستمر عليه السلام من ٣ شعبان إلى يوم ٨ ذي الحجة، أي ١٢٥ يوماً تقريباً، وهي مدة طويلة نسبياً، خصوصاً إذا نظرنا إلى أنَّ قائد هذا الحراك هو شخصية مثل الإمام الحسين عليه السلام، والتي يصف المؤرخون حالته عليه السلام تلك الأيام بأنَّ مجلسه يزدحم بأهل مكة وزوّارها صباحاً ومساءً، حتى أنَّ عبد الله بن الزبير فقدَّ جمهوره، فاضطرَّ إلى مساورة الناس والذهاب إلى مجالسة الإمام الحسين عليه السلام، وهكذا ما فتى الإمام عليه السلام يدعو الأمة من الصحابة والتابعين من مختلف البلاد الإسلامية إلى مناصرة الحقّ ونبذ الباطل.

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٦٢. ابن نما الحليّ، محمد بن جعفر، مشير الأحزان: ص ١٧.

(٢) أنظر: النسائي، أحمد بن شعيب، السنن الكبرى: ج ٣، ص ٣٤٨.

إلا أنّ ما يثير الاستغراب هو أنّ الأُمّة لم تحرّك ساكناً، وبقيت متفرّجة فقط! مع أنّ الظلم استشرى بها لا يطاق، وأنّ المنادي بالقيام والنهوض هو أعظم شخصية على وجه الأرض آنذاك، وهو سبط الرسول، ووارث علمه وسيد شباب أهل الجنة، الذي لا يُداني في علم ولا تقوى ولا حكمة ولا حسن إدارة.

وهذا ما دعا بعض علمائنا أن يقفَ عند هذه الظاهرة الخطيرة في تاريخ الأُمّة الإسلامية^(١)، والتي نخرها الظلم، وكدّها الجوع، وهي تنظر إلى لقطاء الأُمّة وطلقائها ينهبون الثروات، ويزهقون الأنفس بأنفثه الأسباب، ومع ذلك يدعوهم السيّد العظيم وابن بنت الرسول فلا ينصرونه لأنفسهم!!

وإذا كانوا لم يستجيبوا للحسين عليه السلام وهو بهذه المرتبة، فكيف يستجيبون لغيره؟! فالأُمّة تعاني من مرض خطير يحتاج إلى علاج، ولكن بعد تشخيص المرض. نعم، يُستثنى من ذلك بعض أبناء المجتمع الكوفي الذين حملوا راية الثورة بكلّ إصرار، فبمجرّد أن سمعوا بامتناع الحسين عليه السلام عن البيعة وخروجه إلى مكة، قاموا إليه وكتبوه وأرسلوا إليه الوفود.

وحتى اليمن التي صارت محطّ نظر الناصحين للإمام عليه السلام لم نجد أهلها قد أبدوا استعدادهم لنصرة الحسين عليه السلام، مع علمهم بخروجه، بل لا نشكّ في حضورهم في مكة للحج، ومع ذلك لم نرَ منهم أيّ حراك أو لا أقلّ من دعوة الإمام الحسين عليه السلام إلى ديارهم والدفاع عنه، ولم يرسلوا وفداً للإمام، مع أنّ المسافة بين اليمن ومكة أقلّ من المسافة بين مكة والكوفة أو مساوية لها. بخلاف الكوفة التي بايعت بأرقام هائلة وكبيرة، حيث كتب الآلاف منهم، كما يذكر المؤرخون.

ولم يسجّل لنا التاريخ رسالة واحدة أو صوتاً يُذكر لأهل اليمن أو غيرها من حواضر المسلمين وبواديها، حتى بعد مقتل الإمام الحسين عليه السلام.

(١) تقدّم بحثه في المبحث الأوّل من الفصل الثالث.

فكيف يحقّ لنا أن نشير على الإمام الحسين عليه السلام أن يترك شيعته في الكوفة الذين كاتبوه، ويذهب إلى مَنْ لم يوجّه أيّ دعوة له، كما في أهل اليمن؟!

أهل الكوفة ونصرة الإمام عليه السلام

لا يخفى على مَنْ طالع كتب التاريخ أنّه لم يكن هناك مجتمع من المجتمعات الإسلامية تمخّس واشتدّ لنصرة الإمام الحسين عليه السلام غير المجتمع الكوفي. فلم يحدثنا التاريخ بوجود حركة - ولو ضعيفة - لنصرة الإمام في المدينة أو في مكة أو غيرهما، كمصر والطائف واليمن والبحرين وبلاد فارس، وباقي بلاد المسلمين.

فالمجتمع الوحيد الذي حصلت فيه حركة عنيفة، أخذت منه حركة الإمام مأخذاً عظيماً هو مجتمع الكوفة، فقد قدّموا للإمام الحسين عليه السلام قبل هلاك معاوية، وكان الإمام يأمرهم بالتريّث. فلمّا هلك معاوية وعلموا بخروج الإمام نحو مكة ولم يبايع يزيد، كتبوا إليه، وأخذت الوفود تترى نحو مكة مقبلة من الكوفة، وهي تحمل كتب القوم حتى بلغ عدد الكاتبين إليه ثمانية عشر ألف رجل.

فالإمام بقي في مكة أربعة أشهر وعدة أيام، لم يأتِه خلالها وفد من غير الكوفة، بينما جاءته من الكوفة ثلاثة وفود تدعوه للقدوم إليها وتعهده بالنصرة.

ومن هنا يحقّ لنا أن نسجّل تساؤلاً في هذا الصدد، مفاده: هل يمكن أن نأخذ بالاستشارات والنصائح التي قدّمها البعض للإمام الحسين عليه السلام، بأن يسير إلى اليمن أو غيرها من البلاد؟

لم يكن الإمام الحسين (روحي فداه) لاجئاً سياسياً فرّ من القتل والاضطهاد، بل هو قائد يبحث عن أنصار، فكيف يذهب إلى قوم لم يُعربوا له عن استعدادهم لنصرته، ويترك مَنْ ألحوا وأصرّوا على مناصرته؟!

وهذا ما حدث، فبعث إليهم خبير المرحلة ثقته مسلم بن عقيل عليه السلام، وبقي في

الكوفة يتابع أوضاعها، ويتفحص نباتها، ويختبر رجالها، سبعة وثلاثين يوماً تقريباً^(١)، ثم كتب بعد ذلك للإمام عليه السلام بأن أقبل فقد بايعني ثمانية عشر ألفاً، أو اثنا عشر ألفاً كما في بعض النصوص التاريخية.

وهذا يعني أن هناك بيعة واقعية؛ إذ لا يمكن أن ينطلي الزيف على مثل مسلم عليه السلام، ولم يكن مسلم يُطلق الكلام جزافاً، وهو يعلم بأن المسألة مسألة دم وثورة قد تؤدي بحياة أغلى إنسان على وجه الأرض بالنسبة إليه، وهو الإمام الحسين عليه السلام.

يقول الشيخ باقر شريف القرشي في صدد بيان مفاد رسالة الإمام الحسين عليه السلام التي أرسلها لأهل الكوفة مع مسلم بن عقيل عليه السلام:

«وحفلت هذه الرسالة - حسب نص الطبري - بالأمور التالية:

١. توثيق مسلم، والتدليل على سمو مكانته، فهو ثقة الحسين.

٢. تحديد صلاحية مسلم باستكشاف الأوضاع الراهنة، ومعرفة التيارات السياسية، ومدى صدق القوم في دعواهم. ومن الطبيعي أنه لا تنأط معرفة هذه الأمور الحساسة إلا بمن كانت له المعرفة التامة بشؤون المجتمع وأحوال الناس.

٣. أنه أوقف قدومه عليهم بتعريف مسلم له بإجماع الجماهير ورجال الفكر على بيعته، فلا يقدم عليهم حتى يُعرفه سفيره بذلك^(٢).

وما نريد الاستشهاد به هو الفقرة الثانية والثالثة، حيث يشير الله إلى كون مهمة مسلم هي: استكشاف الأوضاع الراهنة، ومعرفة التيارات السياسية، ومدى صدق

(١) دخل مسلم عليه السلام الكوفة في الخامس من شوال عام ٦٠ هـ، واستشهد يوم ٨ أو ٩ من ذي الحجة سنة ٦٠ هـ. وكتب بكتابه للإمام عليه السلام قبل شهادته بسبعة وعشرين يوماً، أي في اليوم ١٢ من ذي القعدة تقريباً، فالمجموع (من ٥ شوال إلى ١٢ ذي القعدة) سبعة وثلاثون يوماً تقريباً.

(٢) القرشي، باقر شريف، حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ٣٤٠.

القوم في دعواهم، وتعريف الإمام بصدق نيتهم، بحيث لا يقدم الإمام الحسين عليه السلام إلى الكوفة، ولا يسير بركبه إلا إذا كتب له ثقته مسلم عليه السلام بذلك.

وهناك نص لابن مسكويه في (تجارب الأمم)، يقول فيه: «وأنفذ مسلم بن عقيل بن أبي طالب إليهم، وقال له: اذهب فاعرف أحوال الناس، وانظر ما كتبوا به، فإن كان صحيحاً قد اجتمع عليه رؤساؤهم، وتابعهم من يوثق به، خرجنا إليهم»^(١). فحركة الحسين عليه السلام متوقفة على خبرة مسلم وحنكته ووعيه للمرحلة. وإذا بثقة المعصوم والخبر الهاشمي يكتب لإمام زمانه بأن القوم صادقون في بيعتهم وبذل أنفسهم دونك.

فكيف يكتب بذلك، مع عدم وثوقه من صدقهم وثباتهم؟! كما أن الذين بايعوا الإمام لم يكونوا من النكرات؛ فإنه مما لا شك فيه أن نصف العدد أو ثلثه أو رבעه^(٢) كانوا من شيعته المخلصين الذين يوثق بهم، وهذا المقدار من الأنصار كافٍ في تحقيق نتائج إيجابية لحركته عليه السلام.

وهنا لا بد لنا من وقفة إتماماً للفائدة، نتعرف من خلالها على الفوارق بين كتاب الإمام الحسين عليه السلام لأهل الكوفة، وبين كتابه عليه السلام لأهل البصرة؛ فإن التأمل في الكتابين يجد الفرق واضحاً بينهما، فقد جاء في كتابه لأهل الكوفة:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ حُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ إِلَى الْمَلَائِكَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ هَانِئًا وَسَعِيدًا قَدِمَا عَلَيَّ بِكُتُبِكُمْ - وَكَانَا آخِرَ مَنْ قَدِمَ عَلَيَّ مِنْ رُسُلِكُمْ - وَقَدْ

(١) ابن مسكويه الرازي، أحمد بن محمد، تجارب الأمم: ج ٢، ص ٤٠. أنظر أيضاً: المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ٣٩. ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب: ج ٣، ص ٢٤١.

(٢) فعلى القول بأن عدد المبايعين هو ١٨ ألف رجل، فإن نصفهم ٩ آلاف، وثلثهم ٦ آلاف، وربعمهم أربعة آلاف ونصف. وعلى القول الثاني من أن عددهم ١٢ ألف، فنصفهم ٦ آلاف، وثلثهم ٤ آلاف، وربعمهم ٣ آلاف.

فَهَمْتُ كُلَّ الَّذِي اقْتَصَصْتُمْ وَذَكَّرْتُمْ، وَمَقَالَه جُلَّكُمْ: إِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْنَا إِمَامٌ فَأَقْبِلْ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَجْمَعَنَا بِكَ عَلَى الْهُدَى وَالْحَقِّ. وَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ أَخِي وَابْنَ عَمِّي وَثِقْتِي مِنْ أَهْلِ بَيْتِي مُسْلِمَ بْنِ عَقِيلٍ^(١). وَأَمَرْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ إِلَيَّ بِحَالِكُمْ وَأَمْرِكُمْ وَرَأْيِكُمْ. فَإِنْ كَتَبَ إِلَيَّ: أَنَّهُ قَدْ أَجْمَعَ رَأْيَ مَلَئِكُمْ، وَذَوِي الْفَضْلِ وَالْحِجَى مِنْكُمْ، عَلَى مِثْلِ مَا قَدِمْتُ عَلَيْكَ بِهِ رُسُلُكُمْ، وَقَرَأْتُ فِي كُتُبِكُمْ، أَقْدِمُ عَلَيْكُمْ وَشَيْكَاً إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَعَمْرِي مَا الْإِمَامُ إِلَّا الْعَامِلُ بِالْكِتَابِ، وَالْأَخْذُ بِالْقِسْطِ، وَالدَّائِنُ بِالْحَقِّ، وَالْحَاسِبُ نَفْسَهُ عَلَى ذَاتِ اللَّهِ، وَالسَّلَامُ^(٢).

أما كتابه عليه السلام لأهل البصرة فهو:

«أما بعد، فإن الله اصطفى محمداً ﷺ على خلقه، وأكرمه بنبوته واختاره لرسالته ثم قبضه الله إليه، وقد نصح لعباده، وبلغ ما أُرسل به ﷺ، وكنا أهلَه وأولياءه وأوصيائه وورثته، وأحقَّ الناس بمقامه في الناس. فاستأثر علينا قومنا بذلك، فرضينا وكرهنا الفرقه، وأحببنا العافية. ونحن نعلم أننا أحقَّ بذلك الحقَّ المستحقَّ علينا ممن تولاه... وقد بعثتُ رسولي إليكم بهذا الكتاب، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ؛ فإنَّ السُّنَّةَ قد أُمِيتَتْ، وإنَّ البدعة قد أُحْيِيَتْ. وإن تسمعوا قولي، وتطيعوا أمري أهدكم سبيل الرشاد. والسلام عليكم ورحمة الله»^(٣).

ومن خلال قراءة كلا الكتابين يمكننا أن نسجّل الملاحظات التالية:

١. إنَّ كتاب الإمام الحسين عليه السلام لأهل البصرة يتضمن بيان الاعتقاد الصحيح في النبوة، وأنَّ أولى الناس به هم أهلُه، فهم أوصيائه وأولياؤه وورثته؛ فهم أحقَّ الناس بمقامه وخلافته.

(١) قوله: (مسلم بن عقيل) لم يرد في تاريخ الطبري.

(٢) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ٢٦٣. ابن أعثم الكوفي، أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ٣٠.

(٣) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٦٦. وانظر أيضاً: الأمين، محسن، أعيان الشيعة: ج ١، ص ٥٩٠.

٢. كما تضمّن كتابه عليه السلام لأهل البصرة اغتصاب قريش لحقّ أهل البيت عليه السلام، فتحمل آل النبي صلى الله عليه وآله الأذى وصبروا عليه؛ لحفظ وحدة المسلمين وعدم تعريضهم للحروب الداخلية.

٣. أنّه عليه السلام بيّن سبب بعث الكتاب إليهم، وهو دعوتهم للرجوع إلى كتاب الله وسنة نبيه؛ فإنّ السنة قد أُميتت، والبدعة قد أُحييت. ثمّ قال لهم: «وإن تسمعوا قولي وتطيعوا أمري أهدكم سبيل الرشاد».

أمّا كتابه لأهل الكوفة، فيختلف جذرياً عمّا كتبه لأهل البصرة؛ فإنّه عليه السلام لم يدع الكوفيين إلى نصرته، ولا إلى كتاب الله وسنة نبيه، بل امتدحهم بأنهم المؤمنون، وأنهم شيعته المبادرون إلى نصرته وبيعته، واسترداد حقّه من عدوّه. وإنّا بعث إليهم ثقتهم مسلم بن عقيل ليرى مدى تطابق مضامين الكتب مع نيات القوم، وهل أنّ أهل الحجى والرأي والفضل مجمعون على بيعته ونصرته أم لا؟

فإن كتب مسلم بذلك تمّ العهد، ووعدهم بالتحرك نحوهم بأسرع وقت. وهذا إن دلّ على شيء دلّ على أنّ الإمام الحسين عليه السلام - وهو المعصوم - ينظر إلى أهل الكوفة بنظرة تختلف عن نظرتهم إلى سائر البلدان بما فيها البصرة. والسؤال المهمّ الذي يستحقّ البحث هو: كيف تغيّر الوضع في الكوفة؟ ولماذا فشل الكوفيون في نصره إمامهم الذي دعوته إلى بلدهم لينصروه؟

فشل المجتمع الكوفي في استمرارية النصرة

لا يمكن إطلاق الكلام في اتهام أهل الكوفة بعدم نصره الإمام الحسين عليه السلام، بعد العلم بأنّ لا ناصر للإمام غير هؤلاء، فلا بدّ من التأمل والبحث في أسباب هذا الانهيار الذي حلّ بالمبايعين، والذي أدّى إلى ما جرى من مأساة مسلم وهانئ وما جرى في كربلاء من مأساة سوّدت وجه التاريخ، ولم تشهد الأرض مثلاً.

ونحن هنا نريد أن نسلط الأضواء على جانبيين مهمين في البحث، هما: تركيبة المجتمع، وعوامل الفشل.

أولاً: تركيبة المجتمع الكويتي

إذا أردنا أن نعرف سبب الفشل الذي مُنيت به ثورة الكويت المنصورة لأهل البيت (عليه السلام) فلا بدّ أن نعرف تركيبة المجتمع؛ لمعرفة عدد الشيعة، ونسبتهم بالقياس إلى غيرهم، وما هي إمكاناتهم الاقتصادية والعسكرية التي تؤهلهم للقيام. يتكوّن المجتمع الكويتي من عدة أطياف متباينة دينياً وثقافياً واقتصادياً يمكن تصنيفهم إلى ستة أصناف. فلا بدّ من معرفة كلّ صنف، ومدى تأثيره في حركة المجتمع الكويتي؛ لمعرفة شيء من أسباب فشل الحراك الثوري والسياسي لشيعة الكوفة.

الصنف الأول: محبّو أهل البيت (عليه السلام)

وهؤلاء ينقسمون إلى ثلاث طوائف بحسب الروايات الواردة عن أهل البيت (عليه السلام)، قال الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) لرجل ادّعى محبّتهم: «من أيّ محبّينا أنت؟ فسكت الرجل، فقال له سدير: وكم محبّوكم يابن رسول الله؟ فقال (عليه السلام): على ثلاث طبقات: طبقة أحبّونا في العلانية ولم يحبّونا في السرّ، وطبقة يحبّونا في السرّ ولم يحبّونا في العلانية، وطبقة يحبّونا في السرّ والعلانية، هم النمط الأعلى، شربوا من العذب الفرات، وعلموا تأويل الكتاب، وفصل الخطاب، وسبب الأسباب. فهم النمط الأعلى. الفقر والفاقة وأنواع البلاء أسرع إليهم من ركض الخيل، مسّتهم البأساء والضراء وزلزلوا وفُتتوا، فمن بين مجروح ومذبوح متفرقين في كلّ بلاد قاصية، بهم يشفي الله السقيم ويغني العديم، وبهم تُنصرون وبهم تُمطرون، وبهم تُرزقون، وهم الأقلّون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً وخطراً.

والطبقة الثانية - النمط الأسفل - أحبّونا في العلانية وساروا بسيرة الملوك،
فألستهم معنا وسيوفهم علينا.

والطبقة الثالثة - النمط الأوسط - أحبّونا في السرّ، ولم يحبّونا في العلانية. ولعمري،
لئن كانوا أحبّونا في السرّ دون العلانية، فهم الصّوامون بالنهار، القوّامون بالليل، ترى
أثر الرهبانية في وجوههم، أهل سلم وانقياد»^(١).

وهنا أمور يمكن تسجيلها لمعرفة هذه الثّلة:

أولاً: أنّ هذه الثّلة قليلون جداً، خصوصاً الطائفة الأولى منهم التي عبّرت
عنها الرواية المتقدّمة بالنمط الأعلى، كما ذكر الإمام الصادق عليه السلام؛ بسبب الممارسات
السياسية الحاكمة ضدّهم من القتل والتهجير والسجون «مستهم البأساء والضراء
ورُزّلوا وفُتّنوا، فمن بين مجروح ومذبوح متفرقين في كلّ بلاد قاصية».

قال ابن أبي الحديد المعتزلي: «روى أبو الحسن علي بن محمد بن أبي سيف المدائني
في كتاب الأحداث، قال: كتب معاوية نسخة واحدة إلى عمّاله بعد عام الجماعة»^(٢): (أن
برئت الذمة ممّن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته). فقامت الخطباء في كلّ
كورة وعلى كلّ منبر يلعنون عليّاً ويبرؤون منه، ويقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشدّ
الناس بلاءً حينئذٍ أهل الكوفة؛ لكثرة ما بها من شيعة علي عليه السلام، فاستعمل عليهم زياد
بن سُميّة، وضمّ إليه البصرة، فكان يتبع الشيعة وهو بهم عارف؛ لأنّه كان منهم أيام
علي عليه السلام، فقتلهم تحت كلّ حجر ومدرّ وأخافهم، وقطع الأيدي والأرجل، وسمل
العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم وشرّدهم عن العراق، فلم يبقَ بها
معروف منهم...

(١) ابن شعبة الحراني، الحسن بن علي، تحف العقول: ص ٣٢٥.

(٢) عام الجماعة: هو عام الصلح الذي تمّ بين الإمام الحسن عليه السلام وبين معاوية عليه السلام.

ثم كُتِبَ إلى عمّاله نسخة واحدة إلى جميع البلدان: انظروا من قامت عليه البيّنة أنّه يحب عليّاً وأهل بيته، فاحموه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه. وشفع ذلك بنسخة أخرى: (مَن اهتمّموا بموالاته هؤلاء القوم، فنكّلوا به، واهدموا داره). فلم يكن البلاء أشدّ ولا أكثر منه في العراق، ولا سيّما الكوفة، حتى أنّ الرجل من شيعة علي عليه السلام ليأتيه من يثق به، فيدخل بيته، فيلقِي إليه سرّه، ويخاف من خادمه ومملوكه، ولا يحدّثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمنّ عليه... فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن علي عليه السلام، فازداد البلاء والفتنة، فلم يبقَ أحد من هذا القبيل إلّا وهو خائف على دمه، أو طريد في الأرض»^(١).

فما أعظم الجرائم التي ارتكبت في حقّ الشيعة، التي يدلّ عليها هذا النص، لا سيّما شيعة الكوفة؛ فإنّ هذا النص يدلّ على عدة أمور ارتكبتها معاوية وولاته في حقّ شيعة أهل البيت عليه السلام، وهي:

١. براءة الذمة منه، بمعنى كون دمه هدراً.

٢. سلّط عليهم أقسى وأظلم وولاته، وهو زياد بن سمية.

٣. قتلهم تحت كلّ حَجَرٍ ومدر.

٤. قطع أيديهم وأرجلهم.

٥. سَمَل عيونهم.

٦. صلبهم على جذوع النخل.

٧. طردهم وشرّدهم من العراق.

٨. محآ أساءهم من الديوان.

٩. أسقطَ عطاءهم ورزقهم.

(١) ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ١١، ص ٤٤.

١٠. نكّل بهم.

١١. هدم دورهم.

١٢. وضع الجواسيس عليهم حتى داخل بيوتهم، بحيث يخافون من الخدم أن يشوا بهم.

وبعد هذا الظلم الذي لا يُطاق، يقول المؤرخون كما في النصّ المتقدّم: فلم يبقَ بها (أي الكوفة) معروف منهم (أي من الشيعة)، فهم بين قتل وسجين ومهجر وهارب.

ثم قال: «فلم يكن البلاء أشدّ ولا أكثر منه في العراق، ولا سيّما الكوفة، حتى أنّ الرجل من شيعة علي عليه السلام ليأتيه من يثق به، فيدخل بيته، فيلقِي إليه سرّه، ويخاف من خادمه ومملوكه، ولا يحدّثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمنّ عليه».

ثم ازداد البلاء فوق ما تقدّم عندما مات الإمام الحسن عليه السلام، ولذا يقول: «فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن علي عليه السلام، فازداد البلاء والفتنة، فلم يبقَ أحد من هذا القبيل إلّا وهو خائف على دمه، أو طريد في الأرض».

ولا أدري كيف يزداد البلاء بما هو أكثر من ذلك؟!

ثانياً: ليس لديهم مناصب في الدولة، كما لا يحظون بمقامات قبلية على الأعم الأغلب؛ لأنّ رؤساء القبائل محكومون بالانتماء للدولة ولو ظاهراً، وإلّا فمصيرهم معلوم؛ لأنّ شخصيات كهذه تكون مرصودة ومراقبة.

ثالثاً: الضعف الاقتصادي المفروض عليهم من السياسة الحاكمة.

رابعاً: ضعف الجانب التنظيمي والإداري؛ لأنّهم عبارة عن أشخاص من قبائل عدة لا يمكنهم الاجتماع المستمر خشية علم الحكومة بهم.

خامساً: التخفي وعدم إعلان تشيعهم، يقول المعتزلي صاحب شرح النهج

- كما تقدّم نقله :- «فلم يبقَ بها معروف منهم»؛ ولذا نرى عبيد الله بن زياد - مع فطنته وعلمه بأبناء المجتمع - لم يكن يعلم بتشيع البعض. وهذا ينطبق - بحسب ظني - على كثير من الشخصيات أمثال هانئ بن عروة رضي الله عنه؛ ولذا زاره عبيد الله بن زياد في بيته، ولو كان معروفاً بتشيعه لما اطمأنّ له وزاره، وهو يعلم الخطر في تلك الأيام من أتباع مسلم، وكالمختار الثقفي. وقد ذهب بعض المحققين إلى أنّ زهير بن القين من هؤلاء^(١).

ومن هنا نجد غياب الحركة الاجتماعية لأصحاب الإمام الحسين عليه السلام، حتى أمثال حبيب ومسلم بن عوسجة وأضرابهم، ممّن لا يُشكّ بإخلاصهم، فلا تجد لهم ذكراً إلا في التحركات السرية بعد هلاك معاوية، وما يرتبط بالبيعة للإمام الحسين عليه السلام. أمّا بالنسبة للتحرك الجماهيري فلم يكن لهم؛ لعدم كونهم من ذوي المناصب الاجتماعية المؤثرة، كالتي كانت للمختار وهانئ رضوان الله عليهم جميعاً.

الصنف الثاني: أتباع الحكم الأموي

يشكّل هذا الصنف النسبة الأكبر في المجتمع الكوفي وغيره؛ وذلك لأسباب: (أ) طول فترة الحكم الأموي نسبياً؛ فإنّ حكم معاوية منذ استلامه السلطة العامة وحتى هلاكه، دام عشرين عاماً. وخلال هذه الفترة وبسبب سياسته الخاصة من الترغيب والترهيب المفرطين نشأت أجيال على ولائه والميل إليه خوفاً أو طمعاً؛ بحكم كون مقادير الأمور بيده، فمن أراد الدنيا لا يجدها إلا بين يديه.

(ب) انضمام أغلب رؤساء القبائل إليهم؛ وذلك لأنّه إذا كان الأفراد الاعتياديون لا يسلمون من سطوة الترغيب والترهيب، فما بالك بالوجهاء من قبيل زعماء القبائل وكبرائها، مضافاً إلى مطامع هؤلاء الخاصة؟!

(١) أنظر: جمال أشرف، علي، علويّ خرج يتلقّى الحسين زهير بن القين.

(ج) إدارة البلد جميعها بيد هؤلاء، بحسب النظام الدقيق المتبع آنذاك، من الوالي ورؤساء الأرباع ثم العرفاء. وكان كل واحد منهم مسؤولاً عما تحته، بحيث يعرف كل واردة وشاردة عنه، ويكتبون عن كل مولود يُولد له، ومن يهاجر أو يدخلها وعمله وولائه و... .

(د) قادة الجيش والشرطة لا يكونون إلا منهم.

(هـ) القوة الاقتصادية، فبينما يموت الشعب جوعاً، تجدهم ينعمون بالثراء الفاحش، وكانوا يغدقون بالعطاء لمن ينضم إليهم ويذكر فضائلهم، وينقل لهم الأخبار.

وهذه العوامل توفر قوة كبيرة لهذه الشريحة الاجتماعية في كل مجتمع، حتى وإن كانوا قليلين بحسب العدد، فكيف بهم إذا كانوا يمثلون النسبة الاجتماعية الأكبر في البلد؟ يقول ابن أبي الحديد: «حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه؛ لِمَا كان بيعته إليهم معاوية من الصّلات والكساء والحباء والقطائع، ويفضيه في العرب منهم والموالي، فكثر ذلك في كل مصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملاً من عمّال معاوية، فيروى في عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقربه وشفعه، فلبثوا بذلك حيناً»^(١).

مضافاً إلى أن معاوية قام بتهجير خمسة وعشرين ألف عائلة من الكوفة، وأسكن في بيوتهم خمسة وعشرين ألف عائلة من أتباعه ومن يميل إليه بالولاء^(٢).

(١) ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ١١، ص ٤٤.

(٢) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٢، ص ٥٠٠. وانظر أيضاً: ابن خلدون، عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون: ج ٢، ص ٧٣.

الصنف الثالث: الخوارج

من جملة التيارات التي لها وجودها وحضورها في الكوفة هم الخوارج؛ لما تقدّم من قدرتهم البيانية الخادعة والمزيفة للحقائق، بحيث يتمكّنون من قلب الأمور وتحشيد المجتمع لصالحهم. وبسبب قدرتهم هذه، استطاعوا أن يؤلّبوا الجيش ويقودوا ثورةً ضدّ أمير المؤمنين عليه السلام، فواجههم في النهروان، وألحق بهم هزيمة قصمت ظهورهم، فلم يبقَ منهم إلّا عشرة تقريباً لاذوا بالفرار، ولكنهم بعد أربع سنين أو خمس استطاعوا أن يعيدوا تشكيلاتهم ويقوموا بثورة عارمة ضدّ معاوية سنة ٤٣هـ، فقمعهم على يد زياد ابن أبيه.

ثمّ في سنة ٥٨هـ - أي قبل هلاك معاوية بسنتين - قاموا بثورة أخرى بعد هلاك زياد ابن أبيه، فقمعهم مرّة أخرى، وهذا يعني أنّهم يتهيّؤون لثورة أخرى متى ما سنحت لهم الفرصة.

فلما جاءهم نبأ هلاك معاوية الذي ضيق عليهم وجدوا فرصتهم الذهبية، خصوصاً وأنّ الثورة يقودها غيرهم، ويساعدهم في تسهيل العقبات أمامهم، فهم لا يحتاجون إلى بذل ذلك الجهد لتحشيد الأمة ضدّ آل أمية، فركبوا الموج، وانضمّوا إلى جانب الثورة. ولكن بمجرد أن بانت علائم قوة الحكم السفيفاني الذي ذاقوا وابل قسوته مراراً، آخرها قبل هذا الحراك بسنتين أي سنة ٥٨هـ، انضمّوا إلى جانب الدولة ليدركوا ثأراً آخر لهم أسهل عليهم من الأوّل، وهو الثأر من آل علي عليه السلام، الذي أفنى جمعهم في النهروان، خصوصاً وأنّ الحسين عليه السلام كان ممّن أعمل سيفه فيهم وناصر أباه مع أخويه الحسن عليه السلام ومحمد عليه السلام.

وبذلك تكون قوة أتباع الحكم الأموي قد تضاعفت بانضمام الخوارج إليهم، وأصبح موقف الثوّار المناوئين لهم حرجاً.

الصنف الرابع: اللاأباليون

يمكن تقسيم اللاأباليين إلى قسمين، فهم بين نفعيين يميلون حيث تميل بهم مطامعهم ومكاسبهم، فلا شك أنهم ينقلبون إلى الجهة الأقوى، وما دام أن الحكومة قد استعادت عافيتها وشحذت سيفها، وفتحت أكياس دنائرها ودراهمها لمن أعانها ولو بكلمة أو مساهمة في تخذيل شخص، فلا شك أنهم سيميلون إلى هذه الجهة ويخدمونها بكل ما لديهم.

وهناك قسم آخر من هؤلاء، وهم طلاب العافية والسلامة، فهم يرون الحق مع آل علي عليه السلام، ويرغبون في تغيير حكومة بني أمية ولكن بأيدي غيرهم.

يقول محمد بن بشر لبعض من سألته عن موقفه حين اجتمع مسلم بن عقيل عليه السلام بشيعته من أهل الكوفة، فقال: «إن كنت لأحب أن يعز الله أصحابي بالظفر، وما كنت لأحب أن أقتل، وكرهت أن أكذب»^(١).

وبعض هؤلاء لا يقفون مع الحكومة أيضاً، فهم يرون أن الحكومة ترضى عنهم ولو بالابتعاد عن المخالفة وعدم نصره أعدائها؛ ولذا يحدثنا التاريخ بأن ابن زياد كان يبعث الجيش مع رجل وتعدادهم ألف مقاتل لمحاربة الإمام الحسين عليه السلام فلا يصل إلى كربلاء إلا ثلاثمائة.

يقول البلاذري: «وكان الرجل يُبعث في ألف فلا يصل إلا في ثلاث مائة وأربع مائة وأقل من ذلك؛ كراهة منهم لهذا الوجه»^(٢)، أو في بعض العبائر إلا أقل القليل. يقول ابن قتيبة: «وكان ابن زياد إذا وجه الرجل إلى قتال الحسين في الجمع الكثير، يصلون إلى كربلاء ولم يبق منهم إلا القليل، كانوا يكرهون قتال الحسين، فيرتدعون، ويتخلفون»^(٣).

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٢٦٤.

(٢) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٣، ص ١٧٩.

(٣) ابن قتيبة، أحمد بن داود، الأخبار الطوال: ص ٢٥٤.

الصنف الخامس: الديانات الأخرى

لم تكن الكوفة موطناً للمسلمين خاصة، بل كان يقطنها عدد من أهل الديانات الأخرى من اليهود والنصارى والمجوس^(١)، ولم يكونوا قليلين، بل لهم وجودهم في الكوفة، وإن كانوا هم الأقلية مقابل التجمعات الأخرى، وكان لهم تأثير في ثقافة المجتمع. ولذا ينقل المؤرخون أنّ بانقيا - وهي قرية قريبة من الكوفة - أكثر سكّانها اليهود^(٢). وذكر البعض أنّ عمر بن الخطاب أجلى أهل الكتاب من نجران إلى الكوفة^(٣).

الصنف السادس: الحمراء

وهم الموالي من الفرس وذراريهم، وكانوا يشكّلون نسبةً عالية في المجتمع، وكانت الحكومة آنذاك تستفيد منهم في الشرطة، كما كان يفعل زياد ابن أبيه، حيث استعملهم في اضطهاد شيعة أهل البيت عليه السلام.

يقول آية الله الشيخ راضي آل ياسين رحمته الله: «وهم عشرون ألفاً من مسلحة الكوفة (كما يحصيهم الطبري في تاريخه). كانوا عند تقسيم الكوفة في السبع الذي وضع فيه أحلافهم من بني عبد القيس، وليسوا منهم، بل ليسوا عرباً، وإنّما هم المهجّنون من موالٍ وعبيد، ولعلّ أكثرهم من أبناء السبايا الفارسيات اللائي أُخِذْنَ في (عين التمر) و(جلولاء) من سنة ١٢ - ١٧. فهم حَمَلَة السلاح سنة ٤١ وسنة ٦١ في أزمات الحسن والحسين عليه السلام في الكوفة (فتأمل). والحمراء: شرطة زياد الذين فعلوا الأفاعيل بالشيعة سنة ٥١ وحواليها. وكانوا من أولئك الذين يحسنون الخدمة حين يغريهم السوم، فهم

(١) أنظر: ابن النجار البغدادي، محمد بن محمود، الرد على أبي بكر البغدادي: ص ٦٧.

(٢) ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ١٤، ص ٢٩.

(٣) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٢٩٤. الذهبي، محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام: ج ٣، ص ٢٠٠. وج ٢٢، ص ١٠٧.

على الأكثر أجناد المتغلبين، وسيوف الجبابرة المنتصرين. وقويت شوكتهم بما استجابوا له من وقائع وفتن في مختلف الميادين التي مرّ عليها تاريخ الكوفة مع القرن الأوّل. وبلغ من استفحال أمرهم في الكوفة أن نسبوها إليهم، فقالوا: كوفة الحمراء. وكان في البصرة مثل ما في الكوفة من هؤلاء المهجّنين الحمر. وخشي زياد (وكان والي البصرة إذ ذاك) قوّتهم فحاول استئصالهم، ولكنّ الأحنف بن قيس منعه عمّا أراد.

ووهم بعض كتّاب العصر؛ إذ نسب هؤلاء إلى الشّيع، أبعد ما يكونون عنه آثاراً ونكالا بالشّيعيين وأئمتهم. ولا ننكر أن يكون فيهم أفراد رأوا الشّيع، ولكنّ القليل لا يقاس عليه^(١).

وهكذا استفاد منهم عبيد الله بن زياد في حرب الإمام الحسين عليه السلام في الجيش؛ لأنّ هؤلاء لا يربطهم بالمجتمع شيء، لا أعراف ولا قبلية ولا وطنية، بل يرون المجتمع ظالماً لهم، قد حرّمهم من أبسط حقوقهم، فينضمّون إلى الدولة لسدّ هذا النقص.

ومن هنا نخلص إلى نتيجة مهمّة وهي: أنّ المجتمع الكوفي نسيج غير متجانس في أخلاقياته وعقائده وميوله وطموحاته وتركيبته الاجتماعية وولائه.

وهذا يعني أنّ الكوفة ليست شيعة لعليّ وأولاده عليهم السلام، نعم شيعة عليّ عليه السلام يتواجدون فيها، بل مركز التشيع وأغلب الشيعة فيها، ولكنّ هذا لا يعني كون أهل الكوفة جميعهم شيعة، بل وليسوا هم الأكثر فيها، فهم أقلّ من أتباع الدولة الأموية كما أسلفنا، بالإضافة إلى وجود تيارات أخرى كالخوارج؛ إذ قد تكون نسبتهم أكثر من نسبة الشيعة في الكوفة أو مساوية.

وعليه؛ فيمكن أن تكون نسبة الشيعة في الكوفة قرابة ٤٠٪ أو ٣٠٪ أو ٢٠٪.

(١) آل ياسين، راضي، صلح الحسن عليه السلام: ص ٧٢.

من السكان، وهذه النسبة القليلة يُكال عليها الظلم والقتل والسجن والتهجير والحرمان من كل جانب.

ومع ذلك، فقد أبلوا بلاءً حسناً في نصرة أهل البيت عليه السلام، ولم ينصر أهل البيت مجتمعٌ آخر بعُشر ما قدّمه شيعة الكوفة من نصرة للحسين عليه السلام، وسائر أئمة أهل البيت عليه السلام.

ثانياً: عوامل فشل المجتمع الكوفي

لا شك أنّ مجموعة كبيرة ممّن كاتب الإمام الحسين بن علي عليه السلام لم يف بيعة وعهده بسبب الخوف، أو عدم الإيمان الراسخ، أو طمعاً في المال والجوائز، وما شابه ذلك، ولكن هذه الفروض لا يمكن تعميمها على جميع ممّن بايع وكاتب، خصوصاً ونحن نعلم أنّ في الكوفة رجالات كبيرة أمثال المختار، وهو ممّن يوثق به من الشيعة؛ فإنّ الإمام الحسين عليه السلام أمر مسلم بن عقيل أن ينزل في دار أوثق شيعة، فاختار مسلماً دار المختار^(١). ومسلم ممّن لا تخفى عليه مثل هذه الأمور، وليس ببعيد عن شيعة من زمن عمّه أمير المؤمنين عليه السلام، حيث كان من قادة جيشه^(٢)، وبقي يعيش عصره وشيعته حتى جاءهم في سفارة الحسين عليه السلام.

(١) أنظر: ابن أعثم الكوفي، أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ٣١. ابن حبان، محمد، الثقات: ج ٢، ص ٣٠٧. النيسابوري، محمد بن الفثال، روضة الواعظين: ص ١٧٣.

(٢) جاء في مناقب ابن شهر آشوب في حديثه عن معركة صفين: «ثم عبأ عسكره، فجعل على ميمنته الحسن، والحسين، وعبد الله بن جعفر، ومسلم بن عقيل، وعلى ميسرته محمد بن الحنفية، ومحمد بن أبي بكر، وهاشم بن عتبة المرقال، وعلى القلب عبد الله بن العباس، والعباس بن ربيعة بن الحارث، والأشتر، والأشعث، وعلى الجناح سعد بن قيس الهمداني، وعبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي، ورفاعة بن شداد البجلي، وعدي بن حاتم، وعلى الكمين عمار بن ياسر، وعمر بن الحمق، وعامر بن واثلة الكناني، وقبيصة بن جابر الأسدي». ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب: ج ٢، ص ٣٥٢.

وفي الكوفة ميثم وهانئ وسليمان بن صرد وحبيب وعابس... وكثير من رجالات الشيعة؛ فإنَّ من بين ثمانية عشر أو اثني عشر ألف شخص ممَّن كاتب الإمام عليه السلام لا نشك بأنَّ بينهم ربع هذا العدد أو ألفاً أو أكثر أو أقلَّ من هذا العدد بقليل ممَّن يوثق بهم ويُعتمد عليهم.

وهنا لا بدَّ أن نبحت عن الأسباب التي أفشلت هذه الثلَّة، ومنعتهم من نصره إمامهم، إلَّا أقلَّ القليل ممَّن تمكَّن من اللحق بإمامه، وهم مئة شخص أو ما يقرب من ذلك، فأين الباقيون من شيعته؟!

وإذا رجعنا إلى كتب التاريخ التي تعرَّضت لظروف أهل الكوفة في زمن النهضة نجد عدَّة أمور:

أولاً: أنَّ الكوفة كانت تموج بنشاط النهضة، وتعجَّ بالولاء للإمام الحسين عليه السلام، وكانوا على استعداد تام لخوض المعركة معه، بحيث كان ذلك هو الرأي السائد المسيطر على أهل الكوفة، ممَّا أخرس الأحزاب الأخرى المناوئة لشيعة الحسين عليه السلام.

ثانياً: كان مسلم وشيعته يتأهبون لخوض الحرب، ويعدِّون لها العدة من شراء الأسلحة، وجمع الأموال التي يحتاجونها للحرب؛ ولذا ينصَّ بعض المؤرخين بأنَّ مهمة قبض الأموال وشراء السلاح كانت على عهدة أبي ثمامة الصائدي عليه السلام. قال الطبري: «وهو [أبو ثمامة] الذي كان يقبض أموالهم، وما يعين به بعضهم بعضاً يشترى لهم السلاح وكان به بصيراً، وكان من فرسان العرب ووجوه الشيعة»^(١). وكان البعض منهم يرى الهجوم على القصر وطرد الوالي إلى الشام^(٢).

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٧١. أنظر أيضاً: الميلاني، علي، مَن هم قتلة الإمام الحسين عليه السلام: ص ٣٣٧.

(٢) أنظر: المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ٣٧. النيسابوري، محمد بن الفتال، روضة الواعظين: ص ١٧٢.

ثالثاً: كانوا يحرصون على سرّية العمل من إخفاء مخازن الأسلحة، وإخفاء مكان القائد السفير، ومكان اجتماعاتهم، بحيث إنّ السلطة لم تتعرّف على مكان مسلم إلّا من خلال الجواسيس، وحتى بعد ذلك؛ فإنّ ابن زياد زار دار هانئ مع أنّ مسلماً فيها، ولو كان يعلم بوجوده فيها لم يزرها، أو لحاصرها؛ لأنّه يبحث عنه، ووضع الجائزة لمن يدلّه عليه^(١).

رابعاً: خوف السلطة المحليّة من المواجهة العلنية، سواء كان في زمن النعمان بن بشير أم بداية مجيء عبيد الله بن زياد عليه السلام.

خامساً: استعمال العنف بأبشع ألوانه بشكل مفاجئ فور وصول الوالي الجديد، حيث بدأت الاعتقالات والقتل والتعذيب لمن يُشكّ بتعاونه مع مسلم بن عقيل عليه السلام.
سادساً: اتخاذ إجراءات أمنية مشدّدة لمنع حدوث الثورة من خلال الخطوات التالية:

١. فرض طوق أمني حول الكوفة، بحيث منع الدخول والخارج، بأمر من يزيد عليه السلام، كما جاء في كتابه لابن زياد: (وإنّه قد بلغني أنّ الحسين بن علي قد توجه نحو العراق، فضع المناظر والمسالح، واحترس على الظن، وخذ على التهمة)^(٢)، وبسبب ذلك أمسكوا بحامل رسالة الحسين عليه السلام إلى مسلم وشيعته وهو قيس بن

(١) لا بدّ من التوجّه إلى أنّ عمرو بن الحجاج الزبيدي من رؤساء مذحج والمنافس لهانئ فيها، كان مع محمد بن الأشعث وأسماء بن خارجة - كما ذكر ذلك الطبري والمفيد وجملة من أصحاب المقاتل والتواريخ - حين ذهبوا لهانئ بأمر من ابن زياد وألحوا عليه ليزور ابن زياد، ولكن لمّا حدث ما حدث مع هانئ في القصر قالوا: لمّا بلغ عمرو بن الحجاج قتل هانئ جاء بمذحج وحاصر القصر، مع أنّه كان معهم، إلّا أن يكون ضمن خطة مرسومة بأن يوصل هانئ ثم يخرج فيترقب الأخبار ويتنظر الأوامر، إلى أن جاءه الأمر جاء بمذحج وهو على رأسهم، فلمّا خرج إليه شريح أمر القبيلة بالانصراف؛ لكيلا يقود حركة مذحج غيره، ولئلا يستغل الموقف مسلم المتواجد في بيت هانئ، أي في قلب الحدث.

(٢) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٩٥.

مسهر الصيدائي، وقتلوه. وكذا بنفس الطريقة قبضوا على رسول مسلم للإمام الحسين عليه السلام وهو عبد الله بن يقطين عليه السلام.

ومن الشواهد على ذلك أيضاً هو كيفية خروج حبيب بن مظاهر الأسدي من الكوفة متخفياً^(١).

وقد اضطر البعض أن يلتحق بجيش ابن زياد من أجل الخلاص من هذا الطوق ليتمكن بعد ذلك من الالتحاق بالإمام الحسين عليه السلام، أمثال: القاسم بن حبيب الأزدي، وعمرو بن ضبيعة، وعمرو بن عبد الله الجندعي، وضرغام بن مالك، والحلاس بن عمرو الراسبي وأخوه النعمان، ومسعود بن الحجاج التميمي، وولده عبد الرحمن^(٢).

وقد سأل الإمام الحسين عليه السلام بعضهم في الطريق عما يجري في الكوفة، فأجاب: «لا والله ما ندري، غير إننا لا نستطيع أن نلج ولا نخرج»^(٣).

٢. انتشار القوى الأمنية في أزقة الكوفة وشوارعها لرصد حركة الشيعة تحسباً من حدوث الثورة. فأمر ابن زياد الحصين بن تميم أن يمكك بسكك الكوفة، فلا يدع أحد يخرج أو يدخل، بل أمره بمداومة الدور^(٤). فما يرون أحداً يسير في أزقة الكوفة إلا اعتقلوه؛ لذا ينقل المؤرخون أن عمارة بن صلح بن الأزدي عليه السلام كان يريد

(١) السماوي، محمد بن طاهر، إِبصار العين في أنصار الحسين: ص ١٠٢.

(٢) انظر: السماوي، محمد بن طاهر، إِبصار العين في أبصار الحسين عليه السلام: ص ١٣٦، وص ١٩٩،

وص ١٨٧. الميلاني، علي، من هم قتلة الإمام الحسين عليه السلام: ص ٣٥٤.

(٣) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٩٥.

(٤) نقل المؤرخون أن ابن زياد قال للحصين: (وقد سلطتكم على دور أهل الكوفة، فابعث مرابدة على أفواه السكك، وأصبح غدا واستبر الدور وجس خلاها). الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٧٩. المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ٥٧. ابن مسكويه الرازي، أحمد بن محمد، تجارب الأمم: ج ٢، ص ٥٢.

ابن عقيل، وهكذا عبد الأعلى بن يزيد الكلبي، فاعتقلوهما قبل أن يصلا إلى مسلم عليه السلام^(١). ومن الشواهد ما يروونه من أنهم وجدوا رجلاً من أهل الشام قدم إلى الكوفة في طلب ميراث له، فجاءوا به إلى ابن زياد، فأمر به، فضربت عنقه^(٢). وإذا رجعنا إلى عبارة ابن الصباغ المالكي فإنها تشير إلى أن عملية الاعتقالات والإعدامات بدأت فور وصول ابن زياد عليه السلام إلى الكوفة، وليست بعد ثورة مسلم عليه السلام، يقول: «ودخل القصر وبات به، فلما أصبح جمع الناس فصال وجال، وقال فطال، وأرعد وأبرق، وأمسك جماعة من أهل الكوفة فقتلهم في الساعة»^(٣).

٣. بثّ الشائعات المنظمة لزعزعة النفوس الضعيفة، من قبيل قدوم جيش من الشام، وأنه مأمور بعدم الرحمة، وأن لا تدخلوا في هذا النزاع بين السلاطين، وما شابه ذلك^(٤).

٤. تفعيل نظام العرفاء، والعريف أقل رتبة من رئيس القبيلة، ووظيفته إحصاء عدد أفراد القبيلة، ومن ولد فيها، ومن مات، ومن هو في سنّ القتال، ومن لم يشترك فيها. كل ذلك لمعرفة من يستحق العطاء من بيت المال. وكان كل عريف تحت عرافته من عشرين إلى ستين رجلاً مع نسائهم وأطفالهم^(٥). ثم أصدر قانوناً بأن من وُجد في عرافته من يريد الخروج على السلطة صُلب على باب داره، وأُلغيت

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٧٦. شمس الدين، محمد مهدي، أنصار الحسين عليه السلام: ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٢) ابن قتيبة الدينوري، أحمد بن داوود، الأخبار الطوال: ص ٢٥٥. ابن العديم، عمر بن أحمد، بغية الطلب في تاريخ حلب: ج ٦، ص ٢٦٢٧.

(٣) ابن الصباغ المالكي، علي بن محمد، الفصول المهمة في معرفة الأئمة: ج ٢، ص ٧٩٢.

(٤) أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين، مقاتل الطالبين: ص ٧١. المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ٥٣.

(٥) أنظر: الريشهري، محمد، موسوعة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٣، ص ٤٣٦.

تلك العرافة من العطاء^(١).

٥. كسب رؤساء القبائل المواليون للسلطة وتفعيل دورهم بالترغيب والترهيب في دحر الثورة.

٦. وصول عشرة آلاف مقاتل من الشام يوم الثامن من ذي الحجة، صبيحة اليوم الذي قبض فيه على مسلم بن عقيل عليه السلام، ثم قُتل^(٢).

٧. حملة اعتقالات عامة لشيعه مسلم عليه السلام، أمثال المختار، وإبراهيم بن مالك الأشتر، وميثم التمار، وعبد الله بن نوفل، وسليمان بن صرد، وعمارة بن صلخب الأزدي، ورفاعة بن شداد البجلي، ورشيد الهجري، وعبد الأعلى بن يزيد الكلبي، والمسيب بن نجبة، بحيث يذكر بعض المؤرخين بأنها شملت أربعة آلاف وخمسمائة رجل ممن بايع مسلم عليه السلام^(٣)، كما نصّ على ذلك العلامة المامقاني في ترجمته لسليمان بن صرد عليه السلام: «وأما ما نسبته ابن الأثير إليه من تخلفه عن نصرته الحسين عليه السلام وتركه القتال معه، وندمه بعد ذلك، فمن سهو قلمه؛ ضرورة أنّ ممّا اتفقت عليه كتب السير

(١) جاء في الطبري: (ثم نزل فأخذ العرفاء والناس أخذاً شديداً فقال اكتبوا إلى الغرباء ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين ومن فيكم من الحرورية وأهل الرب الذين رأيهم الخلاف والشقاق فمن كتبهم لنا فبرئ ومن لم يكتب لنا أحداً فيضمن لنا ما في عرافته ألا يخالفنا منهم مخالف ولا يبغى علينا منهم باغ فمن لم يفعل برئت منه الذمة وحلال لنا ماله وسفك دمه وأيا عريف وجد في عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه إلينا صلب على باب داره وألغيت تلك العرافة من العطاء وسير إلى موضع بعان الزارة). الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٦٧. وأنظر: المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ٤٥.

(٢) أنظر: لسان الملك، محمد تقي سبهر، ناسخ التواريخ: ج ٢، ص ٢٨٥.

(٣) أنظر: ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ١٥٣. يقول العلامة النازي: (لما اطلع على مكتبة أهل الكوفة إلى الحسين عليه السلام، حبس أربعة آلاف وخمسمائة من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وأبطاله، منهم سليمان هذا وإبراهيم الأشتر وصعصعة وأمثالهم. ولم يكن لهم سبيل إلى نصر الحسين عليه السلام؛ لأنهم كانوا مقيدين مغلولين في الحبس إلى أن سقط يزيد في الهاوية). النازي الشاهرودي، علي، مستدركات علم رجال الحديث: ج ٤، ص ١٣٨.

والتواريخ أن ابن زياد لما اطلع على مكاتبة أهل الكوفة الحسين عليه السلام حبس أربعة آلاف وخمسة رجل من التوابين من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وأبطاله، الذين جاهدوا معه، منهم سليمان - هذا - وإبراهيم بن مالك الأشتر، وابن صفوان، ويحيى بن عوف، وصعصعة العبدى. وغيرهم. وفيهم شجعان وأبطال، ولم يكن له سبيل إلى نصر الحسين عليه السلام؛ لأنهم كانوا مقيدين مغلولين بالحبس، وكانوا يوم يطعمون ويوم لا يطعمون، وهم بالكوفة. فلما التعن يزيد لله وشاع هلاكه في الكوفة، وكان ابن زياد بالبصرة، وثبت الشيعة على دار ابن زياد الملعون بالكوفة، ونهبوا أمواله وخيله، وقتلوا غلمانهم، وكسروا حبسه وأخرجوا منه الأربعة آلاف وخمسة رجل المذكورين، فصمّموا على الأخذ بثأر الحسين عليه السلام»^(١).

وهذا عدد مهول، يضعف الثورة مهما كانت قوتها؛ لأنّ الذين بايعوا هم ثمانية عشر ألفاً أو اثنا عشر ألفاً، وهذا يعني أن ثلث أو ربع المبايعين تقريباً زُجوا في السجون، علماً أنّ الذين سُجنوا هم قادة القوم. بل ذهب بعض المحققين أنّ عدد السجناء بلغ اثني عشر ألفاً من الشيعة^(٢).

ومن تبقى منهم خرج مع مسلم بن عقيل عليه السلام وقتل أو أسر أو بقي حياً وخرج سرّاً لنصرة الإمام الحسين عليه السلام. وبعض من بايع لم يكونوا من الشيعة أساساً، بل من الخوارج أو الشكاك أو أصحاب المطامع أو ممن لا يعتقد في الحسين إلاّ أنّه رجل صالح كسائر المسلمين أو من الشيعة ولكن غلب عليهم الخوف لهول ما رأوا.

٨. إعدام بعض الشخصيات الكبيرة والمؤثرة، أمثال مسلم بن عقيل وميثم

(١) المامقاني، عبد الله، تنقيح المقال: ج ٣٣، ص ١٨٨ - ١٨٩.

(٢) أنظر: الفياض، عباس غيلان، الثائر من أجل الحسين عليه السلام المختار الثقفي: ص ١٧. البدرى، سامي، الإمام الحسين عليه السلام في مواجهة الضلال الأموي: ص ١٧١، نقلاً عن كتاب المختار بن أبي عبيد الثقفي للدكتور الخربوطي.

التمار وهاني بن عروة وقيس بن مسهر الصيداوي - سفير الحسين إلى مسلم - وعبيد الله بن عمرو بن عزي الكندي، وعبد الأعلى الكلبي، وعبيد الله بن الحارث، وعمارة بن صلخب الأزدي، والعباس بن جعدة الجدلي، وعبد الله بن يقطر؛ مما تسبب في شل الحركة؛ لأن الأفراد لا يتحركون من دون تعاليم القيادة المحركة لهم. ومما يشير إلى ضعف جبهة شيعة مسلم بن عقيل عليه السلام بقتل زعمائهم أو زجهم في السجون، أن محمد بن الأشعث طلب من ابن زياد أن يهب له هائناً خوفاً من مذحج؛ لكونه متورطاً في إحضاره إلى القصر، فوعده ابن زياد بذلك. ولكن لما قُتل مسلم وشيعته، وسجن الباكون، ولم يبقَ للشيعة ما يخافه ابن زياد بدا له في أمر هاني فقتله ولم يفِ لمحمد بن الأشعث بما وعده، ولم نرَ اعتراضاً أو تخوفاً لابن الأشعث من مذحج.

سابعاً: كان أتباع أهل البيت عليه السلام يبايعون مسلماً على شكل مجاميع؛ لئلا يُكتشف أمرهم، فكلما جاءت جماعة قرأ عليهم مسلم عليه السلام كتاب الإمام عليه السلام، وهم يكونون فيبايعون ثم يخرجون^(١)، وهكذا.

وهذا يعني أن التواصل بينهم كان ضعيفاً بسبب الوضع الأمني الخانق؛ فإنه من المحتمل جداً - حيثئذ - عدم علم الكثير باعتقال هاني ومقتل مسلم إلا بعد فوات الأوان، وبعد حملة الاعتقالات الواسعة.

ويمكن أن يُستفاد ذلك من قصة المختار؛ فإنه حين سمع بقيام مسلم جاء ومعه ما يقرب من مئتي فارس، ولكن لما وصل قصر الإمارة في الكوفة لم يجد شيئاً، ولم يدرِ ما صنع أصحابه، فبقي متحيراً، فاعترض عليه البعض بقوله: «ما لك! لا أنت مع الناس ولا أنت في رحلك؟»^(٢). فإن هذه الحادثة فيها دلالة واضحة

(١) أنظر: ابن أعثم الكوفي، أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ٣٤. المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢،

ص ٤١. النيسابوري، محمد بن الفثال، روضة الواعظين: ص ١٧٣.

(٢) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٤٤١.

على أنّ بعض الشيعة لم يعلم بما جرى إلّا بعد فوات الأوان.

الأقوال في كيفية اعتقال مسلم عليه السلام

من أهمّ الأحداث التي يجب الوقوف على حقيقة الأمر فيها، هي قضية ثورة مسلم عليه السلام وكيفية اعتقاله، الحدث الذي غير مجرى حركة الإمام الحسين عليه السلام، بل بسبب هذا الحدث صار شيعة الكوفة سبّة على مرّ التاريخ. فلنقف عنده بعض الشيء؛ لمعرفة حقيقة المسألة، وهل أنّ الشيعة تخلّوا عن سيدهم وتركوه في حيرة أزقة الكوفة من دون أن يضربوا معه بسيف، ولم يشاركوه في مكروهه، أم أنّ المسألة بعكس ذلك؟ وممّا لا شكّ فيه أنّ ترجيح أيّ من الاحتمالين يعكس ثقافة معينة تختلف عن الأخرى، كما يعكس ظروفًا مختلفة تحيط بالثورة وقائدها ورجالاتها في كلّ من الاحتمالين.

فعلى الباحث الذي يريد استظهار الواقع أن يقف على هذا الحدث المفصلي في نهضة الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه.

وحين الرجوع إلى المصادر التاريخية التي تتحدّث عن هذه الحقبّة الزمنية من تاريخ النهضة، نجد ثلاث روايات تروي لنا ردّة الفعل التي قام بها مسلم بن عقيل عليه السلام عندما اعتقلت سلطة ابن زياد هانئ بن عروة رضي الله عنه، وتأزّم وضع مسلم بن عقيل عليه السلام وشيعته:

الرواية الأولى: أنّ السلطة لم تمهل مسلم بن عقيل، بل حاصرت دار هانئ، وهجمت عليه، فدارت المعركة في بيت هانئ حتى أثخن مسلم بن عقيل عليه السلام بالجراح، ثمّ أخذ أسيراً^(١).

(١) أنظر: ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة: ج ٢، ص ٥. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ٢٤٣.

الرواية الثانية: أنَّ مسلم بن عقيل عليه السلام استطاع أن يجمع بعض شيعته المحيطين بدار هانئ والقرييين منها، فنهض معه أربعائة رجل، وعلى رواية: ناس كثير^(١)، فحملوا على قصر ابن زياد لعنه الله، ودارت معركة شرسة بين الطرفين، وقتلوا الكثير من أصحاب ابن زياد، ثم انتهت المعركة بجراحة مسلم جراحة ثقيلة وقُتل كثير من أصحابه^(٢)، أو استطاع أن يصل إلى بيت طوعة^(٣)، فأوته إلى الصباح، ثم تقاتل مع جيش ابن زياد صباحاً حتى أُسر^(٤)، فضربوا عنقه ورموه من قصر الإمارة.

الرواية الثالثة: أنَّ مسلماً عليه السلام دعا أصحابه، فنهض معه أربعة آلاف رجل^(٥)، فتقاتلوا مع جيش ابن زياد، وحاصروا القصر، إلّا أنَّ ابن زياد - من خلال الدعاية

(١) أنظر: ابن سعد، محمد، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام من الطبقات: ص ٦٦. وفي الدر النظيم: «وبلغ إلى مسلم خبره، فخرج بمن عنده من الرجال، فرأوا قومهم وأشرفهم عند ابن زياد، فانصرفوا عنه حتى ما أمسى معه إلّا أربعائة، فجاء أصحاب ابن زياد، فقاتلهم مسلم قتالاً شديداً حتى اختلط الظلام، فتركوه وحده، فخرج متوجهاً نحو أبواب كندة، فالتفت فإذا هو لا يحسّ أحداً يدلّه على الطريق، فمضى على وجهه لا يدري أين يذهب حتى خرج إلى دور بني جيلة من كندة، فمضى حتى انتهى إلى باب امرأة يقال لها: طوعة». المشغري، يوسف بن حاتم الشامي، الدر النظيم: ص ٥٤٣.

(٢) أنظر: البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٣، ص ٢٢٤. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٩٤.

(٣) أنظر: ابن سعد، محمد، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام من الطبقات: ص ٦٦. الذهبي، محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام: ج ٤، ص ١٧١.

(٤) وفي الفتوح: «فطعن من ورائه طعنة فسقط إلى الأرض، فأخذ أسيراً». ابن أئثم الكوفي، أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ٥٥.

(٥) وفي نص ابن أئثم: «وبين يديه ثمانية عشر ألفاً أو يزيدون، وبين يديه الأعلام وشاكوا السلاح». ابن أئثم الكوفي، أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ٤٩. وفي البداية والنهاية: «وكان معه المختار بن أبي عبيد، ومعه راية خضراء، وعبد الله بن نوفل بن الحارث براءة حمراء، فرتبهم ميمنة وميسرة، وسار هو في القلب إلى عبيد الله». ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية: ج ٨، ص ١٦٦.

والترغيب والترهيب - استطاع أن يفرّق الجموع، ثم انسحب مسلم ومَنْ بقي معه، فلَمَّا صَلَّى المغرب لم يبقَ معه أحدٌ يدُلُّه على الطريق، فسار إلى دار طوعة، فأوته إلى الصباح، فجاءت جيوش ابن زياد ودارت المعركة حتى أسروا مسلم بن عقيل، ثم رموه من القصر^(١). وذكر بعض هذا الرأي من دون أن يحدّد عدد الذين خرجوا مع مسلم عليه السلام، وإنّما اكتفى بوصفهم بالكثرة^(٢).

ثورة مسلم بن عقيل وشيعته في الكوفة

ومن خلال ما تقدّم يمكننا أن نرسم صورةً عن الأحداث التي جرت في الكوفة من دخول ابن زياد إلى مقتل مسلم بن عقيل عليه السلام من خلال الجمع بين ما ذُكر في المصادر، فنقول:

عندما دخل عبيد الله بن زياد عليه السلام الكوفة ومعه خمسمائة فارس^(٣)، واستولى على السلطة، واستقرّ في قصر الإمارة، ذهب إلى دار هانئ بن عروة لعيادة شريك بن الأعور الذي جاء معه من البصرة، ولكنه مرض في الطريق^(٤)، وكان قد اتفق شريك مع مسلم عليه السلام لقتل ابن زياد، ولكن لما امتنع مسلم عن قتل ابن زياد وأخذ شريك يلحّ ويكرر الكلام الذي اتفقوا عليه ارتاب ابن زياد، وخرج مسرعاً من دار هانئ،

(١) أنظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٧٥. المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ٥٢. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية: ج ٨، ص ١٦٦.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين، مقاتل الطالبين: ص ٧١. ابن مسكويه الرازي، أحمد بن محمد، تجارب الأمم: ج ٢، ص ٤٨. ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٣٠. النويري، أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب: ج ٢٠، ص ٢٩٧. الطبرسي، الفضل بن الحسن، إعلام الوري بأعلام الهدى: ج ١، ص ٤٤١.

(٣) أنظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٦٧. شمس الدين، محمد مهدي، أنصار الحسين عليه السلام: ص ٢٢١.

(٤) أو تمارض من أجل أن يعرقل حركة ابن زياد، ويؤخّره حتى يدخل الحسين عليه السلام الكوفة.

ودعا مولى لهانئ بن عروة كان في الشرطة، فأخبره بوجود مسلم في دار هانئ^(١).
فأرسل ابن زياد عمرو بن الحجاج ومحمد بن الأشعث وأسماء بن خارجة إلى
هانئ، فلمّا جاؤوا به لابن زياد دخل محمد بن الأشعث وابن خارجة مع هانئ على
ابن زياد، وانصرف عمرو بن الحجاج ولم يدخل معهم^(٢).
فلمّا رأى ابن زياد لعنه الله هانئاً لله سألته عن إيوائه مسلم بن عقيل عليه السلام، ودار بينهما
حديث، وامتنع هانئ من تسليم مسلم إليهم، فضرب ابن زياد هانئاً بقضيب فهشم
وجهه، وقيل: ضربه على رأسه فتناثر مخه فمات أو ضرب عنقه^(٣).
وتحسباً من سطوة ابن عقيل وشيعته واستيلائهم على الموقف، قام عمرو بن
الحجاج بدور المدافع عن ابن عمه هانئ، وأخذ بزمام المبادرة، وامتنصّ فورة
مذحج، ثمّ فرقهم؛ لأنّه من زعمائهم، ومسموع الكلمة عندهم^(٤).

(١) وفي الإمامة والسياسة: «وقيل لابن زياد: والله، إنّ في البيت رجلاً متسلحاً». أنظر: ابن قتيبة
الدينوري، الإمامة والسياسة: ج ٢، ص ٤. وقيل: إنّ ابن زياد بعث جاسوساً من قبله اسمه
معل من أهل الشام. وقد ناقش السيّد علي جمال أشرف هذه القصة مفصّلاً في كتاب مستقل
تحت عنوان: مسلم بن عقيل (قصة معل).

(٢) وهذا يثير تساؤلاً كبيراً: لماذا لم يدخل ابن الحجاج مع ابن عمه هانئ إلى قصر ابن زياد؟ ولعلّ
ذلك من ضمن الاتفاقية بين ابن زياد وابن الحجاج، لكي يكون ابن الحجاج في وسط قبيلته
ويأخذ بزمام المبادرة ويمتنصّ غضب مذحج، فيطوف بهم شوارع الكوفة ويحاصر القصر، ثمّ
يصرفهم عن القصر بخطة ذكية تُجنّب السلطة المواجهة.

(٣) ابن سعد، محمد، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام من الطبقات: ص ٦٦. ابن قتيبة الدينوري، عبد الله
بن مسلم، الإمامة والسياسة: ج ٢، ص ٥. البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٣،
ص ٢٢٤. الذهبي، محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام: ج ٤، ص ١٧١.

(٤) إنّ ابن زياد لعنه الله لمّا سجن هانئ بن عروة عليه السلام أمر عمرو بن الحجاج أن يقود مذحج إلى القصر،
أي أن يقود الثورة ويسيطر عليها؛ لئتمكّن من إرجاعهم في الوقت المقرّر. وأمّر كثير بن شهاب
- وهو زعيم آخر من زعماء مذحج - أن يخرج بمن أطاعه من مذحج، ويثبّت الناس ويرجعهم
إلى بيوتهم ويأمرهم بطاعة ابن زياد. كما أمر محمد بن الأشعث الكندي ليخرج بمن أطاعه من
كندة ليثبّت الناس أيضاً؛ لأنّ كندة حليفة مذحج، وكانوا يركبون مع هانئ بن عروة.

وأما بالنسبة إلى مسلم عليه السلام - فكما تقدّم - فقد اختلفت الروايات في كيفية أسره، فقد قيل: إنّ السلطة أحاطت بدار هاني وحصلت معركة بينهم وبين ابن عقيل وشيعته، حتى أُنْخِزَ بالجراح وأُخِذَ أسيراً.

وقيل: إنّهُ عليه السلام لَمَّا سَمِعَ بخبر هاني لم يكتفِ بموقف ابن الحجاج، بل نادى بشيعته فاجتمع إليه نفر كثير من الدور التي حوله، ورتّبهم على شكل جيش نظامي، فجعل مسلم بن عوسجة قائداً على ربع مذحج وأسد^(١)، وعبد الله بن عمرو بن عزيز الكندي قائداً على ربع كندة وربيعه^(٢)، وأبا ثمامة الصائدي على ربع تميم وهمدان، وعباس بن جعدة الجدلي على ربع المدينة^(٣).

فسار بهم إلى قصر الإمارة، فتقاتلوا مقاتلة شديدة مع جيش ابن زياد بقيادة محمد بن الأشعث، والقعقاع بن شور، وكثير بن شهاب و...، حتى ضيقوا المنافذ على جيش السلطة وحاصروا القصر. ولكنّ المواجهة لم تنتهِ، واستطاع جيش ابن زياد أن يسدّ الأزقة والطرق لئلا يصل باقي الشيعة لمساندة مسلم، وقد استطاعوا أن يأسروا كلّ مَنْ مَرَّ بهم من شيعة مسلم أمثال: عمارة بن صخلب، وعبد الأعلى بن يزيد الكلبي، واستمرّت المعركة إلى الليل، فُقُتِلَ مَنْ قُتِلَ وَأُسِرَ مَنْ أُسِرَ^(٤).

وبذلك يكون قد أخذ الحيلة الكاملة لمواجهة الثورة بها هي ثأر قبيلة لسيدها؛ لأنّه أمر رؤساءها الآخرين أن يسيروا القبيلة ويمتصوا غضبهم، وأمر رؤساء كندة - حليفة مذحج - أن يسيطروا على أوضاع كندة.

(١) لم يحدثنا التاريخ عن كيفية نجاة مسلم بن عوسجة وأبي ثمامة الصيداوي من تلك المعركة، وكيفية خروجه من الكوفة. ولكنّه التحق فيها بعد بالإمام الحسين عليه السلام واستشهد معه.

(٢) وقع أسيراً في يد جيش ابن زياد، فلمّا قُتِلَ مسلم عليه السلام أمر ابن زياد بضرب عنقه.

(٣) أسروه في تلك المعركة، ثمّ أمر ابن زياد بضرب عنقه بعد شهادة مسلم عليه السلام.

(٤) أغلب الظنّ أنّ أكثر الأسرى من شيعة مسلم عليه السلام وقعوا بيد السلطة في هذه المعركة؛ لأنهم قبل ذلك قد التزموا السريّة، فلم يعلم بهم ابن زياد، ولكن لَمَّا نهضوا لتخليص هاني، وأُحِيطَ بهم، فُقُتِلَ الكثير منهم وأُسِرَ البقية منهم.

ولمّا كانت المعركة في وسط المدينة وداخل أزقتها، فممّا لا شكّ فيه أنّ المكان لا يسع لأن يكون الجميع في مكان واحد، بل المعركة بين كرّ وفرّ، فتكون بشكل طبيعي على شكل مجاميع، وكلّ مجموعة في زقاق أو شارع أو يحول بينهم وبين أصحابهم جيش العدو؛ ممّا يؤدّي إلى التباعّد بينهم وانقطاع أخبار بعضهم عن البعض الآخر.

وقد أثخّن مسلم عليه السلام بالجراح فأسر^(١)، أو استطاع أن ينسلّ تحت جناح الليل حتى وصل إلى دار طوعة. وفي الصباح جاءت الجيوش لتحيط ببيت طوعة تبحث عن القائد الجريح، فلم يمتكّنهم من نفسه، وقتل منهم مقتلة عظيمة، حتى أسروه، وجاؤوا به إلى قصر الإمارة، فضرّبت عنقه ورموا بجسده الطاهر من أعلى القصر. فليست المسألة كما يصوّرها البعض من أنّ مسلم بن عقيل لم ينصره أحد، وأنّه بقي وحيداً لا يجد من يدلّه الطريق، بل قامت معه شيعته، فمنهم من قُتل ومنهم

ومن هنا نعلم لماذا لم يجد زعيم مذحج هانئ من يدافع عنه، لمّا أخذ وقُتل في السوق بناءً على صحّة هذه الرواية؟ ولذا كان عليه السلام ينادي: ولا مذحجاه، ولا مذحج لي اليوم. فقلّبه: (ولا مذحج لي اليوم) قد يُشعر بذلك. فعدم وجود الناصر له قد يكون بسبب أنّ أبناء عشيرته وأنصاره قد تفرّقوا بين القتل والأسر في المعركة التي قادها مسلم عليه السلام لتخليصه من السجن، فخلت الكوفة منهم بين قتيل وأسير وجريح ومشرّد، وبين من شدّت في وجهه الطرق، فلا يعلم حال رئيس قبيلته؛ لأنّ طرق الكوفة وأزقتها - وكما هو معلوم - قد أغلقت وجعلوا عليها العيون، فلا يخرج أحد إلّا وأمسكوا به وألقوه في السجن، بل كانت هناك حملة مدهمات على البيوت كما أوضحنا.

(١) وفي رواية ناسخ التواريخ: أنّ جيش الشام - المكوّن من ١٠ آلاف مقاتل - وصل الكوفة في نفس هذا اليوم، وبذلك قويت شوكة ابن زياد، ودارت الدائرة على مسلم عليه السلام وشيعته، فقتل بعضهم وأُسر البعض الآخر، أو انقطع عن قائده بكثرة الجيوش وغابت عنهم الأخبار. ولا نريد أن ننفي أنّ البعض جبن وفرّ، لكنّ الحديث عن الأغلبية والتي تضمّ في طياتها من لا يُشكّ بشجاعته ووفائه، وهم ليسوا بالقليل. أنظر: لسان الملك، محمد تقي سبهر، ناسخ التواريخ: ج ٢، ص ٢٨٥.

مَنْ أُسِرَ؛ ولذا يشير الفرزدق في قوله للإمام الحسين عليه السلام بأن مسلماً وشيعته قُتِلُوا، ولم يقل له: إِنَّهُ قُتِلَ وحده^(١).

حصول ما تقدم

وبعد هذا الاستعراض السريع لما يمكن تحصيله من كتب التاريخ حول الظروف المحيطة بالمجتمع الكوفي أيام النهضة، وبعدما عرفنا أنه ممّا لا شك فيه بين المؤرخين أن المجتمع الوحيد الذي نصر الإمام الحسين عليه السلام في ثورته ضدّ النظام الأموي الفاسد هو مجتمع الكوفة أو بالأخصّ شيعة الكوفة. نريد أن نبحث عن أسباب فشل الثورة الكوفية المناصرة للإمام الحسين عليه السلام، ذلك الفشل الذريع الذي مُنيت به هذه الشريحة الاجتماعية في وعودها وبيعته، ولم تتمكّن من نصره إمامها الذي دعت به وكاتبته، وكيف تغيّرت الأجواء من شريحة تسيطر على الجوّ العام في الكوفة، إلى هدوء لا تجد لهم حراكاً ولا تسمع لهم صوتاً؟!

هذه ظاهرة تحتاج إلى تأمل ودراسة، ولا يمكن إرضاء البحث العلمي بتسطيح الظاهرة أو إسقاط بعض العينات على شريحة كاملة، فلا بدّ من دراسة الأسباب الموضوعية لظاهرة كهذه؛ لنرى مدى تأثير هذه الأسباب، وهل هي أمراض اجتماعية، أم أخطاء سياسية أو ثورية وقع بها بعض قادة الحراك الثوري، أم هي ظروف قاهرة أهدت بهم أفقدتهم زمام الأمور، أم هذه الأسباب مجتمعة؟

ونحن في هذه الدراسة المتواضعة نريد أن نضع بين يدي الباحثين والقراء الكرام مجموعة من الأسباب؛ ليكون الحكم في النهاية لهم في الأخذ بوجهات النظر

(١) ابن أعثم الكوفي، أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ٧١. الذهبي، محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام: ج ٤، ص ١٧١. الشافعي، محمد بن طلحة، مطالب السؤول في مناقب آل الرسول عليه السلام: ص ٣٩٠. ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ٤٥.

أو رفضها، وذكر غيرها حتى تتظافر الجهود في بيان السبب الحقيقي من وراء ذلك. وأما الأسباب التي يمكن افتراضها فهي:

١- ضعف التنظيم والإدارة، بل انعدامها

تقدّم أنّ الشيعة في كلّ مكان - وخصوصاً في الكوفة - تعيش ظروفًا استثنائية، لم يتمكّنوا بسببها من أن يكون لهم تنظيم وحركة سياسية منظّمة، لها نظامها الإداري الذي يتّين فيه الرئيس من المرؤوس، وما هي المراتب الإدارية التي تربط أفراد هذه الحركة أو التجمّع.

وقد حاول مسلم بن عقيل عليه السلام بحكمته أن يسدّ هذا الفراغ الكبير خلال مدة تواجده في الكوفة، ولكن لا يمكن توقّع تحقيق هذا الإنجاز بفترة قياسية، خصوصاً وهم لم يتخلّصوا بعد من سرّية العمل، والابتعاد عن أنظار السلطة. وفي مقابل هذا التشتّت يتمتّع الطرف الآخر بنظام إداري دقيق قُسمت فيه الأدوار والمسؤوليات، بحيث استطاعوا أن يعيدوا قبضتهم على المجتمع بقوة بمجرد عزل النعمان بن بشير ومجيء ابن زياد.

إنّ ابن زياد لم يفعل المعجزة، كما هو واضح من تصرّفاته عندما استلم الحكم، لم يفعل إلّا أن أجرى النظام والقانون الأموي بحزم وشدة، وإلّا فإنّه لم يأت بقوانين جديدة ولا بمسؤولين جدد، ولا بجيش أو شرطة غير المتواجدة في الكوفة أيام الوالي السابق، إلّا الشيء اليسير في تغيير بعض القادة العسكريين، واستبدالهم بغيرهم بحسب ما تقتضيه المرحلة. وهذا يعني أنّ المنصب الإداري أو العسكري كان موجوداً، فهو لم يأت إلّا بشخص يتناسب مع أهدافهم وتطلّعاتهم.

وهذا عامل مهم يعرفه الذين يباشرون العمل الاجتماعي أو السياسي أو الثقافي؛ فإنّه إن كانت هناك شريحة منظمة لها خطتها الإدارية المحكمة التي تسيّر بها

منتسبها أو أبناء المجتمع من غير المتتسبين، فإنك لا تستطيع أن تواجه شريحة كهذه بواسطة فوضى شعبية إلا في بعض الظروف من قبيل التظاهرات والاعتصامات، لا الثورة التي يراد من خلالها إسقاط حكم يتمتع بكافة الإمكانيات، كما كان عليه الحكم الأموي الذي بسط سلطته على أطراف الدولة الإسلامية منذ عشرين عاماً. ولا يمكن أن يقال بأن حكومتهم قد تضعضعت بموت معاوية، بل هي كما كانت في زمن معاوية، خصوصاً وأن معاوية قد أخذ البيعة لولده من الأمة ومهد الأمور لخلافته في حياته^(١).

فمن أسباب فشل الحركة الكوفية في مناصرة الإمام الحسين عليه السلام هو ضعف اللجنة التنظيمية والإدارية لديهم.

ولعلنا لا نخطئ الظن إن قلنا بأن هذا الخلل توجه إليه قادة الشيعة في الكوفة بعد وقعة الطف الدامية؛ مما جعلهم يسرون نحو تصحيحه، كما نراه في ثورة المختار التي خطط لها لفترة ليست بالقليلة. ولعل مكوثه في السجن مدة طويلة أعطته فرصة كافية ليتأمل في الحراك وإخفاقاته، فبدأ يفكر في علاج ما فات؛ فوفق في ثورته إلى حد كبير.

٢- ضعف الإمكانيات الاقتصادية

يشكل الجانب الاقتصادي عاملاً مهماً في الحركة الاجتماعية والسياسية والثورية، من خلال توفير الجانب المعيشي لعوائل الثوار إذا تركوا عملهم ومصدر رزقهم أو إذا تعرضوا للقتل أو السجن، كما تحتاجه الثورة لتوفير العدة الكافية من الأسلحة والغذاء وغيرها من مستلزمات الحرب.

(١) أنظر: البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٥، ص ١٤٤. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: ج ٥، ص ٣٢٠. أبو الفداء، إسماعيل، المختصر في أخبار البشر: ج ١، ص ١٨٧. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية: ج ٨، ص ١٢٣.

وهذا العامل لم يكن متوفراً لدى جماعة شيعة أهل البيت عليه السلام بسبب السياسة الحاكمة كما أسلفنا فيما سبق، وفي مقابل ذلك وجود الثراء والسيولة المالية التي يتمتع بها أنصار وأعوان الحكم الأموي، فهم لا يصعب عليهم رمي ضرر الدراهم والدنانير على أعوانهم، أو من يريدون استمالته ممن أضربهم الجوع والفقر بحكم سياسة معاوية التي ترفع شعار (جوع كلبك يأتيك).

٣- الترغيب والإغراء

في كل مجتمع هناك نفوس ضعيفة تنحني أمام المال والجاه، وتزيغ أبصارها إذا ما برق لها لمعان الدينار والدرهم، وهذا يشكل تهديداً واقعياً للثورات؛ لأن هذا المرض والضعف سوف يزيد من أعدائهم، خصوصاً أصحاب المناصب الاجتماعية والعسكرية؛ فإن هؤلاء إذا مالوا إلى جهة المال فسوف تميل معهم أفراد كثيرة ممن يأتمرون بأمرهم من أبناء قبائلهم، كما هو ديدن البلدان التي يغلب عليها الطابع القبلي الذي يميل على أفرادها الالتزام بأوامر رئيس القبيلة.

وهذا ما عمله ابن زياد لعنه الله، حيث جمع رؤساء القبائل ووجهاءها والقضاة وغيرهم من ذوي الخطوة، فأغدق عليهم وواعدهم خيراً إذا أجابوا بالسمع وعملوا بالطاعة.

٤- التهديد والترهيب والتهويل

منذ أن استلم معاوية زمام الحكم بدأ يعمل في رعيته السيف ويذقهم السوط، ويسومهم بالبطش، فلا يسلم من بطشه إلا من أعطى من نفسه التسليم لحكومته والعمل تحت مظلته. فعرفت الأمة أليم عذابه وشدة بطشه وسوء مجازاته، خصوصاً بعد شهادة الإمام الحسن المجتبي عليه السلام، حيث اشتد البلاء على أتباع أهل البيت عليه السلام فقد أنهمكهم بتعسفهم، فملاً بهم السجون، وروى من دمائهم السيوف،

وأحوجهم إلى المال، وضيّق عليه السبل، حتى أصبحت سياسته هذه شبحاً مرعباً يلاحق الأمة، فتحسب له ألف حساب.

وبعد هلاكه أراد الناس أن يتخلّصوا من هذا السجن الكبير والهاجس الذي قصّ مضاجعهم، خصوصاً وأنّ الوالي النعمان بن بشير أظهرَ ليناً وضعفاً. ولكن سرعان ما تبدّد الأمل، فجاء ابن زياد، ذلك الشخص الذي يعرفون سطوته وبطشه، ومن قبل علموا ذلك من سيرة أبيه، فخطبهم بما يذكّرهم بعنف معاوية، وشديد بلائه، وشدة إصراره في إهراق الدماء، وهتك الأعراس، ونهب الأموال، وهدم الدور. وتوعّدهم بما لا مزيد عليه ممّا يُطير اللب ويُفرغ الفؤاد، وذكر لهم بأنّ جيش الشام قد زحف نحوهم، فاجتنبوا الخلاف لتأمّنوا الشرّ.

فانكفأ الذين يطلبون السلامة ورغيد العيش، خصوصاً وأنّ شريحةً من الناس الذين بايعوا لا يعرفون أهل البيت (عليه السلام) إلّا أنّهم أناس صلحاء أقاموا العدل بضع سنين لمّا حكموا، ولا يعتقدون لهم بالإمامة الإلهية التي جعلها الله لهم بعد نبيّه، بل هم كسائر الخلفاء بلا فرق من هذه الجهة.

كما وأنّ ابن زياد لم يدع تهديداته مجرد شعارات، بل شهر سيفه فقتل جملة من المسلمين أمام نواظر الأمة؛ ليثبت لهم أنّ الصور الدموية التي رأوها في زمن معاوية لا زالت مستمرة، «ثمّ إنّ ابن زياد استخلف على الكوفة عمرو بن حريث، وأمر القعقاع بن سويد بن عبد الرحمن بن بجير المنقري بالتطواف بالكوفة في خيل، فوجد رجلاً من همدان قد قدّم يطلب ميراثاً له بالكوفة، فأُتي به ابن زياد فقتله، فلم يبقّ بالكوفة محتلم إلّا خرج إلى العسكر بالنخيلة»^(١).

وبدأ حملة اعتقالات واسعة، زجّ خلالها اثني عشر ألفاً من الشيعة في

(١) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٣، ص ١٧٩.

السجون^(١)، وجعل العيون في الأزقة والطرقات، وسد منافذ المدينة على الداخل والخارج، وأعلن براءة الذمة ممن يخالف، فأخذهم بالظنة وقتلهم بالتهمة، كما أمره يزيد بذلك حين ولّاه المصريين.

مضافاً إلى ما ذكره صاحب ناسخ التواريخ^(٢) والسيد الميلاقي من وصول جيش من الشام يتكوّن من عشرة آلاف فارس^(٣)، وصلوا إلى الكوفة صبيحة إعدام مسلم بن عقيل عليه السلام.

(١) أنظر: الخربوطلي، علي حسني، المختار الثقفي مرآة العصر الأموي: ص ٧٤. البدري، سامي، الإمام الحسين عليه السلام في مواجهة الضلال الأموي: ص ١٧١. الفياض، عباس غيلان، الشائر من أجل الحسين عليه السلام المختار الثقفي: ص ١٧.

(٢) أنظر: لسان الملك، محمد تقي سبهر، ناسخ التواريخ: ج ٢، ص ٢٨٥.
(٣) ذكر السيد الميلاقي في كتابه (مَن هم قتلة الإمام الحسين عليه السلام؟): ص ٣٧٠ - ٣٧٥، عدّة أدلة على وجود أهل الشام في الجيش الذي حارب الإمام الحسين عليه السلام:

- ١- ما رواه الكليني في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام: «اجتمع عليه خيل أهل الشام وأناخوا عليه، وفرح ابن مرجانة وعمر بن سعد بتوافر خيل أهل الشام وكثرتها».
- ٢- ما رواه الشيخ ابن بابويه الصدوق: «وحال بنو كلاب بينه وبين الماء». وقوله: «وأقبل سنان بن أنس وشمر بن ذي الجوشن العامري رضي الله عنهما في رجال من أهل الشام».
- ٣- ما رواه الشيخ الطوسي عن الإمام الصادق عليه السلام: «ومن أعانهم على قتل الحسين من أهل الشام».

٤- وجود رجالات معروفين من أهل الشام، أمثال: الحصين بن نمير، وهو من أهل حمص، وأبو الجنوب عبد الرحمن الجعفي، وعمير بن الحباب، وفرات بن سالم، وأمثالهم.

٥- ما رواه ابن سعد في الطبقات وغيره، من أنّ رجلاً من أهل الشام دعا علي بن الحسين الأكبر عليه السلام، فقال: إنّ لك بأمر المؤمنين قرابة ورحماً، فإن شئت آمنّاك، وامض حيث ما أحببت.

٦- ما ذكره الطبري وغيره من وصول جيش من أهل الشام إلى الكوفة صبيحة يوم استشهاد مسلم بن عقيل عليه السلام.

٧- ما ذكره المحدث القمي المعاصر من أنّ جيش الشام لما ورد كربلاء جاؤوا بأمان من يزيد إلى علي بن الحسين عليه السلام.

٨- ما رُوِيَ في المناقب من أنّ خيل شمر - وهم أربعة آلاف - كلّهم شاميون.

وقد أشار إلى ذلك ابن أعثم في فتوحه: «ثم نزل - ابن زياد - عن المنبر ووضع لأهل الشام العطاء، فأعطاهم ونادى فيهم بالخروج إلى عمر بن سعد؛ ليكونوا أعواناً له على قتال الحسين»^(١).

وهذا كله كفيل بتضعيف الثورة من الداخل، فجعلهم يعيشون حالة الانهيار النفسي وانقطاع الأمل بالانتصار.

٥- منع الإمام الحسين عليه السلام من دخول الكوفة

لو قُدِّرَ للإمام الحسين عليه السلام أن يصل إلى الكوفة لتغيّرت جملة من المعادلات التي ظهرت على الساحة. وكانت السلطة تعلم بذلك جيداً، ويعرفون حنكة الإمام عليه السلام، وخبرته في معالجة الظروف التي تقدّم ذكرها بما يرمم النقص ويشحذ الهمم، فيلهب الحمم تحت أقدامهم.

وقد تنبّه لذلك بعض أصحاب الإمام الحسين عليه السلام حين قال له: «إنك - والله - ما أنت مثل مسلم بن عقيل، ولو قدِمَت الكوفة لكان الناس إليك أسرع»^(٢)؛ ولذا عملت الحكومة آنذاك كلّ ما بوسعهم في سبيل منع الإمام من الوصول إلى قواعده الشعبية الثائرة، وذلك من خلال عدة خطوات:

أ) العمل على اغتيال الإمام في مكة كيفما كان وعلى أية حالة كان، كما صرح الإمام الحسين عليه السلام بذلك، حين سأله الفرزدق عن سبب تعجّله الخروج عن مكة وقد بدأ وقت الحج، فقال عليه السلام: «لو لم أعجل لأُخِذْتُ»^(٣)، وفي رواية ابن سعد: «إنّ الفرزدق قال: لقيتُ حسيناً، فقلتُ: بأيّ أنت لو أقمتَ حتى يصدر الناس، لرجوتُ

(١) ابن أعثم الكوفي، أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ٨٩.

(٢) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣٠٠.

(٣) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٩٠. المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد:

أن يتقصّف أهل الموسم معك، فقال: لم آمنهم يا أبا فراس»^(١)، وقوله عليه السلام لبعض مَنْ أشار عليه بعدم الخروج: «لئن أُقتل خارجاً من مكّة بشبر أحبّ إليّ أن أُقتل فيها، ولئن أُقتل خارجاً منها بشبرين أحبّ إليّ من أن أُقتل خارجاً منها بشبر»^(٢).

ب) منع الإمام من الخروج من مكّة بعدة وسائل، فقد توسّلوا ببعض الشخصيات الموالية لهم لمتنع الإمام من الخروج. كما توسّلوا بالشخصيات الموالية للحسين عليه السلام؛ لثنيه عن قصده، أمثال: ابن عباس، وعبد الله بن جعفر، من خلال استغلال حالة خوفهم على الإمام الحسين عليه السلام.

ولمّا عجزوا عن كلّ ذلك استعملوا القوة لمنع الإمام عليه السلام من الخروج وحاصروه عسكرياً؛ ممّا اضطر الإمام عليه السلام لمواجهةهم حتى تضاربوا بالسيّاط فأخلوا سبيله^(٣).

ج - تجهيز جيش بقيادة الحرّ الرياحي ليقطع عليه الطريق قبل تجهيز الجيوش الأخرى لسائر القادة بعدة أيام؛ ليمنعه من دخول الكوفة أو يجبره على دخولها مستسلماً. وبالفعل اقترب الإمام الحسين عليه السلام من الكوفة، وكاد أن يدخلها، حيث بلغ منطقة الرّهيمة^(٤)، التي لا تبعد عن الكوفة إلّا ٣٠ كم فقط. ولكن حال بينه

(١) ابن سعد، محمد، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام من الطبقات: ص ٦٣.

(٢) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٣، ص ١٦٤. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٨٩. القاضي المغربي، النعمان بن محمد، شرح الأخبار: ج ٣، ص ١٤٥.

ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٣٨.

(٣) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٣٩. ابن نهار، محمد بن جعفر، مثير الأحزان: ص ٢٨. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية: ج ٨، ص ١٧٩.

(٤) الرّهيمة: بلفظ التصغير، قرية صغيرة من ضواحي النجف. تقع غرب مدينة النجف الأشرف على طريق الحج البري، تبعد عن النجف حوالي أربعة وعشرين كيلو متراً ونصف. وتسمّى اليوم عرب الرّهيمة. فيها عدّة عيون ماء ويؤمّها الكثير من البدو والأعراب الذين يشكّلون امتداداً عشائرياً في نجد والحجاز. أنظر: الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان: ج ٣، ص ١٠٩. الربيعي، عباس، أطلس الحسين: ص ٢٧٣.

وبين دخولها الحر وجيشه، فأبعدوه عن الكوفة ولم يسمحوا له بالرجوع، فجعجعوا به وبأصحابه حتى أوصلوه كربلاء^(١).

وبذلك كان لهم ما أرادوا، فلم يتمكن الإمام الحسين عليه السلام من دخول الكوفة ليجتمع بشيعته.

والخلاصة: أنّ الحكومة الأموية عملت على عدة محاور: قضوا على الشيعة بين القتل والسجن، ومنعواهم من الخروج للالتحاق بإمامهم، وفرّقوا الناس الذين تعاطفوا معهم، ومنعوا وصول القائد إلى قواعده وأنصاره.

وبذلك يتضح أنّ شيعة الإمام الحسين عليه السلام في الكوفة لم يتخاذلوا أو ينكثوا البيعة، وإنّما حيل بينهم وبين إمامهم بما تقدّم ذكره. ولذا نجد أهل البيت عليهم السلام لم يذمّوا شيعتهم من الكوفة، بل أثنوا عليهم بكلّ جميل، فهذا إمامنا زين العابدين عليه السلام الذي اکتوا بنار كربلاء، وحزن على مجزرتها طيلة عمره، نجده يثني على شيعة الكوفة، فقد روى الكليني أنّ جماعة من الكوفة دخلوا على الإمام السجاد عليه السلام فسألهم: «مِنَ الْقَوْمِ؟ فَقُلْنَا: مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ. فَقَالَ: وَأَيُّ الْعِرَاقِ؟ قُلْنَا: كُوفِيُونَ. فَقَالَ: مَرْحَبًا بِكُمْ يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ، أَنْتُمْ الشَّعَارُ دُونَ الدِّثَارِ»^(٢).

والشعار: هو ما لامس جلد الإنسان من اللباس، وأمّا الدثار: فهو ما فوق الشعار، ممّا يُستدفاً به. تقول: أنت الشعار دون الدثار، لتصفه بالقرب والمودة^(٣).

(١) أنظر: القاضي المغربي، النعمان بن محمد، شرح الأخبار: ج ٣، هامش ص ١٤٨. الصدوق، محمد بن علي، الأمالي: ص ٢١٨. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٣١٤.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٦، ص ٤٩٨.

(٣) أنظر: الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين: ج ١، ص ٢٥١. ابن سلام، القاسم، غريب الحديث: ج ١، ص ٣١١.



الفصل الرابع الأهداف والنتائج

وفيه مبحثان:

- المبحث الأول: أهداف نهضة الإمام الحسين عليه السلام
- المبحث الثاني: النتائج التي حققتها النهضة الحسينية

المبحث الأول

أهداف نهضة الإمام الحسين عليه السلام

تمهيد

تقدّم بيان حالة المجتمع الذي عاصره الإمام الحسين عليه السلام، وما يعانيه من مشكلة دينية واقتصادية واجتماعية وسياسية، وكيف أنّ السلطة الحاكمة حطّمت الأمة الإسلامية في شتى ميادينها الفكرية والعملية وسخرتها لتحقيق مصالحها الخاصة.

ونريد هنا بيان ما يبتغيه الإمام الحسين عليه السلام - وريث المصلح السماوي الأعظم النبي المصطفى ﷺ - في ثورته الخالدة، فقد صرّح عليه السلام بأنّ ثورته هي امتدادٌ للحركة الإصلاحية التي بدأها جدّه المصطفى حين حمل أعباء الرسالة الإلهية المكّملة لحركة جميع الأنبياء عليهم السلام.

فقد أعلنَ عن أهدافه بأنّه لم يخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، فقال: «وإنّما خرجتُ لطلب الإصلاح في أمة جدي».

فلا يريد الحسين عليه السلام ولا يبتغي إلاّ إصلاحَ هذه الأمة التي تكوّنت بجهود الجدّ النبي، وتفسّخت وتهالكت بدهاء الخبث السياسي الذي يريد أن يستلب كلّ شيء، ويختزله لنفسه وخاصته.

وإذا كان الإمام عليه السلام يريد الإصلاح فلا بدّ أن يصبّ إصلاحه على نفس جهات الفساد المتفشية في المجتمع، بمعنى أنّ الفساد لمّا كان في الجوانب الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، فلا بدّ أن يكون مصبّ الإصلاح على نفس هذه الجهات والجوانب.

ومن هنا نقول: إنّ نهوض الإمام الحسين عليه السلام كان نهوضاً لإصلاح الأمة عقائدياً ودينياً وأخلاقياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً.

فالمسبب المصلح أراد هذا الإصلاح الشامل الذي يضمن للأمة كرامتها ومستقبلها، وهو ذات الإصلاح الذي بدأه الجدّ المصلح، وعلى نفس نهجه، كما صرح بروحي فداه: «أريد أن آمر بالمعروف، وأنهي عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي وأبي».

فالإمام يريد الإصلاح، ولكن لا عن طريق التوسل بالأفكار الالتقاطية الطارئة على الفكر الإسلامي من هنا وهناك، بل إصلاحاً عن طريق الفكر السماوي المنزل على جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، كما اشترطها أبوه من قبله، حين جاءه ابن عوف في أيام مرض عمر بن الخطاب، وتعهّد له بالبيعة إن هو قبل بالسير على كتاب الله وسنة نبيه وسيرة الشيخين، فرفض ابن أبي طالب عليه السلام الشرط الثالث؛ لأنّه لا يمثّل الفكر المعصوم المنزل من السماء^(١).

وقبل البدء بالبحث عن أهداف قيام الإمام الحسين عليه السلام، لا بأس أن نبيّن بعض الأمور التي لها دخالة في دراستنا للأهداف.

(١) تكرّرت هذه الحادثة مع أمير المؤمنين عليه السلام عدّة مرات، منها: لما حضرت عمر بن الخطاب الوفاة، وعيّن ستة نفر ليختاروا من بينهم خليفة، فجاء عبد الرحمن بن عوف لأمير المؤمنين عليه السلام وقال له: أبايعك على كتاب الله، وسنة رسول الله، وسيرة الشيخين أبي بكر وعمر. فقال عليه السلام: بل على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيي. فعدّل عنه إلى عثمان، فعرض ذلك عليه، فقال: نعم. فعاد إلى علي عليه السلام، فأعاد قوله، فعل ذلك عبد الرحمن ثلاثاً، فلمّا رأى أنّ عليّاً غير راجع عمّا قاله، وأنّ عثمان ينعم له بالإجابة صفق على يد عثمان.

ومنها: قُبل معركة صفين، حيث جاءه رجل من خثعم، فقال له الإمام علي عليه السلام: بايع على كتاب الله وسنة نبيه، قال: لا، ولكن أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه وأبي بكر وعمر. فقال علي عليه السلام: وما يدخل سنة أبي بكر وعمر مع كتاب الله وسنة نبيه؟ فانصرف الخثعمي ولحق بالخوارج. أنظر: ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٢٥. ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٨٨.

معنى الإصلاح

لمّا رفض الإمام الحسين عليه السلام البيعة ليزيد، وأراد الخروج من المدينة صدر قيامه بعدة كلمات، من جملةها: «إنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي». فلا بدّ أن ننظر في معنى الإصلاح عند العرب؛ لنرى المعنى الذي يقصده الإمام الحسين عليه السلام.

عند الرجوع إلى كتب اللغة نجدهم يذكرون نفس المعنى المستعمل والمتبادر لدينا اليوم أو قريباً منه، يقول الفيومي في (المصباح): «صلح بالضم: لغة وهو خلاف فسد... وأصلح: أتى بالصلاح وهو الخير والصواب، وفي الأمر (مصلحة) أي خير، والجمع (المصالح)»^(١).

وفي (لسان العرب): «الصّلاح: ضدّ الفساد؛ صلح يَصْلَحُ ويَصْلُحُ صلاحاً وصُلُوحاً... والإصلاح: نقيض الإفساد»^(٢).

فالمراد من الإصلاح في الاستعمالات العربية، هو الإتيان بالمصلحة التي تعني الخير والصواب، فما كان إصلاحاً للفكر فهو الصواب، وما كان إصلاحاً للسلوك والعمل فهو الخير.

ومن هنا يتبيّن أنّ الحركة الإصلاحية التي قادها الإمام الحسين عليه السلام هي إصلاح على كلا المستويين، الفكري والعملي، فهو عليه السلام أراد أن يصحّح المفاهيم الفاسدة في ذهن الأمّة التي ركّزها بنو أمية من أجل ترسيخ حكمهم بما ينفع مصالحهم الخاصة. كما أراد أن يُصلح سلوكيات فاسدة، وظواهر اجتماعية سلبية في مسيرة الأمّة؛ نشأت بسبب ظروف وثقافات وسياسات خاصة.

(١) الفيومي، أحمد بن محمد المقرئ، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي: ج ١، ص ٣٤٥.

(٢) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج ٢، ص ٥١٦.

فلا بدّ من تركيز البحث حول الهدف من خروج الإمام عليه السلام، وما هو الإصلاح الذي رفع شعاره؟

مجال الإصلاح

الإصلاح تارةً ينصبّ على الأمة، بحيث يكون اهتمام المصلح والمتبنّي لمشروع الإصلاح هو الأمة، ويغض النظر عن الحكومة، كما نجده في جملة من حركات إصلاحية على مرّ التاريخ، فيحمل على عاتقه إصلاح التعليم في الأمة أو الحالة الاقتصادية أو الاجتماعية وما شابه ذلك، مع بقاء السلطة الحاكمة. وتارةً ينصبّ المشروع الإصلاحي على الحكومة، فيكون همّ الحركة الإصلاحية هو تغيير الحكومة واستبدالها بما هو أصلح. وتارةً ينصبّ الإصلاح على النخبة الواعية من الأمة.

وحيثُ نَسأل: هل أراد الإمام الحسين عليه السلام بحركته إصلاح الأمة بشكل عام أو النخب منها، كما هو الظاهر من قوله: «إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي...»^(١) أم أنّه أراد إصلاح الحكومة من خلال تغيير السلطة الحاكمة، كما هو ظاهر حركته ووقوفه بوجهها، وتحريضه الناس ضدها؟

المتبّع لحركة الإمام الحسين عليه السلام يجد أنّ مصبّ اهتمام الإمام هو كلا الشقين، فهو يريد إصلاح الأمة، وبنفس الوقت يشير في موارد كثيرة إلى لا بدّية تغيير الحاكم الجائر.

فالإمام أراد إصلاح فكر الأمة وسلوكها، أراد لها أن تعي مسؤوليتها، وأنّه ليس لها أن تقف متفرّجة على حقوقها ومبادئها ودينها وعقيدتها يتلاعب بها الولاة وحكّام الجور، يضعون ما يشاؤون، ويزيلون منها ما يشاؤون.

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٣٢٩.

أراد أن يُصلح تفكير الأمة ونظرتها عن الإمام الحاكم، وعن العلاقة بين الأمة ودينها، ونظرتها للحياة الكريمة، وكيفية المطالبة بالحقوق، وما هو التكليف الشرعي للأمة لو تسلط عليها حاكم جائر، وما هو تكليفها تجاه الإمام العادل. فالإمام أراد أن يُصلح طريقة تفكير الأمة، لا الواقع المعاش؛ لأنّ الواقع لا يمكن تغييره إلّا من خلال تغيير طريقة التفكير وبناء الثقافة، والجهة المنفّذة وهي السلطة الحاكمة، ولو بالحكومة النسيبة.

وبما أنّ الإمام عليه السلام يعلم بأنّ حركته لا تصل إلى تغيير السلطة؛ لعلمه باستشهاده، وأنّ الثقافة لا يمكن بناؤها بهذه الفترة الوجيزة التي تمتد إلى خمسة أشهر تقريباً، وهي مدة خروج الإمام من المدينة في السابع والعشرين من شهر رجب، وحتى استشهاده في العاشر من محرم الحرام، وهذه الفترة غير كافية لتغيير ثقافة أمة، فلا بدّ من سلوك سبيل آخر، وهو أن نقول: إنّ الإمام أراد أن يغرس بذور الإصلاح من خلال تغيير طريقة التفكير، والتعاطي مع مسائل العقيدة والسياسة والسلطة.

فليس الدين رمزية وطقوس، بل هو جزء من هوية الفرد والمجتمع، فعلى الأمة الحبيطة عليه، والذّب عنه، وحفظه من كلّ تحريف وتدنيس، ولو استلزم ذلك بذل الدم.

وليست السياسة أن يسوس الحاكم الأمة ليحفظ مصالحه الخاصة ومصالح من يرتبطون به، ولو على حساب مصالح الشعب، بل السياسة أن تسوس العباد لحفظ كرامتهم وعقيدتهم وتوفير رغيد العيش لهم، ودفع كلّ ما يهدّد حياتهم ومبادئهم واقتصادهم.

كما أنّ السلطة والحكومة ليستا شرعة لكلّ أحد، بل هما لمن توفّرت فيه شروط خاصة، كما أشار عليه السلام بكتابه الذي أرسله لأهل الكوفة مع ابن عمّه وثقته مسلم بن عقيل عليه السلام: «لعمري، ما الإمام إلّا العامل بالكتاب، والآخذ بالقسط، والدائن بالحقّ،

والحاجس نفسه على ذات الله»^(١). ومن هذه الركيزة في تحديد الحاكم ينطلق رسول الله ﷺ في قوله: «إنَّ الخلافة محرمة على ولد أبي سفيان»^(٢).

وليس من حقِّ الأمة أن تعتذر بكون ما أَراده الله ونبيُّه لم يتحقَّق، فلا بدَّ من الصبر والسكوت، بل لا بدَّ من انتشار ثقافة: «مَنْ رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله ﷺ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيِّر عليه بفعل ولا قول، كان حقّاً على الله أن يُدخِلَه مُدخِلَه»^(٣).

فحركة الإمام الحسين عليه السلام إصلاحية، ولكن لإصلاح الجذر. وبعبارة أخرى: إنَّ الأمة في أكثر بقاعها فقدت ثقافة الرسالة السماوية التي جاء بها النبيُّ المصطفى ﷺ، بسبب تغيير ثقافة الأمة من قِبَل حكام الجور، فوقف الإمام ليغيِّر طريقة التفكير التي سيطرت على عقول الأمة، ويصبغها بدمه الطاهر الذي لا غبار عليه؛ ليغرسه في عمق وجدان الأمة، بحيث إنَّ ما قام به الإمام من تغيير أثر حتى في أعدائه الذين حملوا السيف في وجهه وقتلوه، وجعلهم يستشعرون عظيم جرمهم، وفضيع حماقتهم عندما تركوا الحسين واصطفوا إلى جنب يزيد؛ ولذا نستمع إلى شَبَث بن ربعي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهو يقول: «ألا تعجبون أنا قاتلنا مع علي بن أبي طالب، ومع ابنه من بعده، آل أبي سفيان خمس سنين، ثمَّ عَدَوْنَا على ابنه، وهو خير أهل الأرض، نقاتله مع آل معاوية، وابن سمية الزانية! ضلال يا لك من ضلال»^(٤).

بل أثر في رأس الهرم بحيث تبرأ يزيد من قتل الإمام الحسين عليه السلام؛ ليتخلَّص من المآزق الذي زجَّ نفسه فيه من حيث يشعر أو لا يشعر بحماقته وسفهه، وهكذا

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٦٢.

(٢) الصدوق، محمد بن علي، الأُمالي: ص ٢١٦.

(٣) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣٠٤.

(٤) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣٣٢.

(٥) أنظر: ابن قتيبة الدينوري، أحمد بن داود، الأخبار الطوال: ص ٢٦١.

يتصاعد التأثير الحسيني ليصل إلى خليفة يزيد وولده معاوية، حيث خلع نفسه عن الخلافة^(١) التي قامت على دماء المظلومين من آل محمد، ودماء سيّد شباب أهل الجنة، وأنّ زوجة يزيد أعولت وأقامت العزاء على الحسين بن علي عليه السلام في قصر يزيد عليه السلام^(٢).

وهكذا شواهد كثيرة تدل على أنّ مطرقة الإصلاح التي رفعها الإمام الحسين عليه السلام أصاب بها الأمة بكل طبقاتها، وأثرت في جميع أصنافها. ولذا بعد سنوات قلائل تحرّكت الأمة، وبدأت نتائج تغيير طريقة التفكير تعطي ثمارها؛ فإنّ الثورة قد اختلفت بعد واقعة الطف، ففي الوقت الذي لم تكن الثورة حاضرة إلّا في الكوفة نجدها بعد مدة من الزمن، وبعد أن أخذ التغيير موقعه في الذهنية الإسلامية، تجتاح المدينة ومكة واليمن ومصر وغيرها حتى بلغت خراسان.

كما أنّ حركة الإمام الحسين عليه السلام الإصلاحية أثّرت على تمحور الأمة على السلطة الحاكمة؛ فإنّ الأمة قبل حركة الإمام وثورته وإن كانت تُكنّ لأهل البيت عليه السلام الاحترام والتقدير - كما أشرنا سابقاً - ولكن لم يكن التعاطف معهم على المستوى الذي نشاهده في زمن الأئمة عليهم السلام من بعده؛ لأنّ واقعة الطف أشعلت وجدان الأمة وجعلتها تنظر إلى أهل بيته وذريته عليه السلام بعين أخرى، عين التناغم العاطفي الذي ركّز عليه الإمام السجاد عليه السلام في حفظ استمرارية مشروع أبيه عليه السلام، والانجذاب شيئاً فشيئاً، حتى استطاع الإمام الباقر وولده الصادق عليه السلام تأسيس جامعة علمية قد يربو عدد طلابها على الأربعة آلاف طالب؛ ممّا كان منطلقاً للتغيير

(١) أنظر: البغدادي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ البغدادي: ج ٢، ص ٢٥٤.

(٢) أنظر: ابن سعد، محمد، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام من الطبقات: ص ٨٣. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٥، ص ١٤٣.

الفكري والثقافي والديني والعلمي الذي كان الإمام الحسين عليه السلام يهدف لتغييره ولو بعد حين، وبعد أن يعطف فكر الأمة من خلال ما قام به من تغيير طريقة التفكير، بحسب ما ذكرناه مفصلاً في موضوع (العقل العملي ودوره في السلوك) من تأثير نوع الثقافة على حركة العقل العملي وتشخيصه للمصالح والمفاسد في الأفعال، فيؤثر بالتالي في صدور الفعل الاختياري أو تركه.

الهدف من الخروج

جاء في مصادر اللغة أن الخروج هو النفاذ عن الشيء، فهو ضدّ الدخول^(١). ولكنّ المراد من الخروج المبحوث عنه في بحوث كهذه - عادةً - هو أحد معنيين: الأول: بمعنى القيام والثورة، فهو بمعنى الخروج على الظلم، والقيام في وجه الظالم، وهو معنى الثورة والنهضة بحسب استعمالها المعاصرة. الثاني: بمعنى الخروج المكاني، والمراد به خروج الإمام الحسين عليه السلام من المدينة أو خروجه من مكة.

فهذان مبحثان مستقلّان، ولكلّ منهما أسبابه الخاصة به، ولا بدّ من تسليط الأضواء في كلّ واحد منهما على أسبابه الخاصة. فلا بدّ أن ننظر أولاً في أسباب قيام الإمام الحسين عليه السلام بثورته وما هي أهدافه منها، ثمّ ننظر في الأسباب التي دعت به إلى الخروج من مدينة جدّه صلى الله عليه وآله ومسقط رأسه. كما يجب أن نبحت بعد ذلك في الأسباب التي من أجلها اختار مكة المكرمة لتكون محطّاً لرحله ومقصداً لسفره، ثمّ ننظر لماذا خرج منها تاركاً إياها بعد ما كانت غايته التي قصدها، ولماذا اختار التوجّه إلى الكوفة بالخصوص؟

(١) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين: ج ٤، ص ١٥٨. ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة: ج ٢، ص ١٧٥.

وهل أن السلطة أدركت خطر ما رامه الإمام من تحرّكه نحو الكوفة، فمنعته من دخولها أو منعه من الخروج من مكة متوجّهاً إليها؟
 إذاً، فهنا أمور: أهداف النهضة، وأهداف الخروج من المدينة والتوجّه إلى مكة، والخروج من مكة والتوجّه إلى الكوفة، وثالثاً استراتيجية الحركة الحسينية. وهذا ما سنسلّط عليه الأضواء في طيّات هذا المبحث؛ إذ من خلالها سنصل إلى تأثيرات النهضة الحسينية على الحركة الثقافية في المجتمع، بل إن الإمام عليه السلام - من خلال الإصلاح الثقافي - استطاع أن يصل إلى ما رامه من الإصلاح في أمة جدّه.

المطلب الأول: دراسة النصّ الحسيني

احتفظ لنا التاريخ بمجموعة من كلمات الإمام الحسين عليه السلام وخطبه وكتبه، في مناسبات متعدّدة، لا شك أنّها تشكّل شيئاً مهماً للباحث ليتعرّف على هدف الإمام من النهضة، فلا أحد أعرف بها منه عليه السلام.

وحين التأمّل في كلماته عليه السلام يمكن أن يُستظهر منها مجموعة أمور، قد تكون متعارضة في بادئ الأمر، وقد تكون تشير إلى عدة أهداف أدّت إلى اختلاف الباحثين في تعيين الهدف من ثورته عليه السلام. ونحن هنا نستعرض ما استظهرناه من مجموع كلماته عليه السلام في المدينة ومكة، وخلال مسيرته إلى العراق حتى يوم عاشوراء. ثمّ نقوم بدراستها علّنا نصل إلى نتيجة نتعرّف من خلالها على فلسفة الخروج وأهدافه^(١).

الأوّل: أساس الفساد هو وجود بني أمية على عرش السلطة، وهو المراد إصلاحه. وهذا ما نجده في جوابه عليه السلام على كتاب معاوية لعنه الله: «فلا أعلم فتنة على

(١) كما سيأتي في نهاية البحث الثاني تحت عنوان (الرأي المختار).

الأمة أعظم من ولايتك عليها، ولا أعلم نظراً لنفسي وديني أفضل من جهادك»^(١). وهذا النص يفسر لنا سبب اهتمام الإمام عليه السلام ببيان شروط الإمام، وبيان فضل أهل البيت عليه السلام في القرآن والروايات النبوية حتى في زمن معاوية، كما جاء في خطابه في مؤتمر الحج قبل هلاك معاوية لعنه الله.

كما نجده في نص آخر من كلام الإمام الحسين عليه السلام. جاء في الفتوح: إن مروان بن الحكم رحمه الله قال للإمام الحسين عليه السلام في صبيحة تلك الليلة التي نهره الإمام فيها في مجلس الوليد: «إني لك ناصح، فأطعني تُرشد وتُسدّد. فقال الحسين عليه السلام: وما ذلك؟ قل حتى أسمع! فقال مروان: أقول: إني أمرك ببيعة أمير المؤمنين يزيد؛ فإنه خير لك في دينك ودنياك. قال: فاسترجع الحسين، وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، وعلى الإسلام السلام؛ إذ قد بُليت الأمة براعٍ مثل يزيد. ثم أقبل الحسين على مروان، وقال: ويحك! أتاُمري ببيعة يزيد، وهو رجل فاسق! لقد قلت شططاً من القول، يا عظيم الزلل! لا ألومك على قولك؛ لأنك اللعين الذي لعنك رسول الله صلى الله عليه وآله وأنت في صلب أبيك الحكم بن أبي العاص؛ فإن من لعنه رسول الله صلى الله عليه وآله لا يمكن له ولا منه إلا أن يدعو إلى بيعة يزيد»^(٢). فهو صريح بأن وجود يزيد على كرسي الحكم سببٌ لضياح الإسلام. كما قد يفسر لنا سبب إصرار الإمام على عدم بيعة يزيد لعنه الله مهما كلف الأمر، وسبب عدم العمل بالتقية.

الثاني: ما يدل على تقاعس الأمة عن نصره الحقّ هو الذي أوصل معاوية وآل أبي سفيان إلى كلّ هذا الظلم والتمادي، ويمكن أن نفهم هذا المعنى من عدة نصوص:

(١) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٥، ص ١٢١.

(٢) ابن أعثم الكوفي، أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ١٧.

١. قوله عليه السلام لمروان بن الحكم لعنه الله: «إليك عني يا عدو الله؛ فإننا أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، والحقّ فينا، وبالحقّ تنطق ألسنتنا، وقد سمعتُ جدّي رسولَ الله يقول: الخلافةُ محرّمةٌ على آل أبي سفيان الطلقاء وأبناء الطلقاء، فإذا رأيتم معاويةَ على منبري فأبقروا بطنه. ولقد رآه أهل المدينة على منبر رسول الله فلم يفعلوا به ما أمروا، فابتلاهم بابنه يزيد»^(١).

٢. شكواه لجدّه عليه السلام حين ودّع القبر، ما تدلّ على خذلان أهل المدينة له، وعدم نصرته: «السّلامُ عَلَيْكَ يا رسولَ الله، أنا الحُسَيْنُ بْنُ فَاطِمَةَ، أنا فَرْحُكَ وابْنُ فَرْحَتِكَ، سِبْطُكَ فِي الْخَلْفِ الَّذِي خَلَفْتَ عَلَى أُمَّتِكَ، فَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ يا نَبِيَّ الله، إِنَّهُمْ قَدْ خَذَلُونِي وَضَيَّعُونِي وَإِنَّهُمْ لَمْ يَحْفَظُونِي، وَهَذَا شَكْوَايَ إِلَيْكَ حَتَّى أَلْقَاكَ»، ثم وثب قائماً وصفَ قدميه، ولم يزل راکعاً وساجداً^(٢). وهذا يدلّ على أنّ أوّل مَنْ خذَلَ الإمام عليه السلام هم أهل المدينة.

الثالث: ما يدلّ على أنّه لا يبايع يزيد لعنه الله حتى لو لم يجد له ملجأً ولا مأوى، كقوله لمحمد بن الحنفية عليه السلام عندما أشار على الإمام عليه السلام بالخروج إلى اليمن، فقال عليه السلام: «يا أخي، والله لو لم يكن ملجأ، ولا مأوى لما بايعتُ يزيد بن معاوية»^(٣).

الرابع: ما دلّ على أنّ خروجه كان بأمر من الله ورسوله صلى الله عليه وآله، وأنّه لم يبيّنه لأحد:

١. قوله لمحمد بن الحنفية: «أتاني رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ما فارقتك، فقال: يا حسين أخرج؛ فإنّ الله قد شاء أن يراك قتيلاً»^(٤).

(١) الخوارزمي، الموفق بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج ١، ص ٢٦٨. وانظر أيضاً: ابن أعثم الكوفي، أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ١٧، مع اختلاف يسير. لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ص ٣٤٧.

(٢) لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ص ٣٤٨.

(٣) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٣٢٩.

(٤) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ٤٠.

٢. قوله لابن عباس: «إني رأيتُ جدِّي رسولَ الله ﷺ في منامي، وقد أمرني بأمرٍ، وأنا ماضٍ لأمره، فعزم الله لي بالخير، إنَّه ولي ذلك»^(١).

٣. قوله لابن عباس أيضاً: «إني رأيتُ رؤيا، ورأيتُ رسولَ الله ﷺ أمرني بأمرٍ وأنا ماضٍ له، ولستُ بمُخبرٍ بها أحداً حتى ألقى عملي»^(٢).

الخامس: أنَّ خروجه ودعوته لأجل الإصلاح، وإحياء سُنَّة جدِّه ﷺ وإبطال البدعة، وذلك من خلال:

١. وصيَّته لأخيه محمد بن الحنفية عليه السلام: «وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنَّما خرجتُ لطلب الإصلاح في أُمَّة جدِّي ﷺ، أريدُ أن آمرَ بالمعروف وأنهي عن المنكر، وأسيرَ بسيرة جدِّي وأبي عليّ بن أبي طالب عليه السلام»^(٣).

٢. ما جاء في وصيَّته عليه السلام لمحمد بن الحنفية أيضاً: «ومن ردَّ عليّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق، وهو خير الحاكمين».

٣. كتابه عليه السلام لأهل البصرة: «وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسُنَّة نبيِّه صلَّى الله عليه وآله وسلم؛ فإنَّ السُنَّة قد أُميتت، وإنَّ البدعة قد أُحييت، وإن تسمعوا قولي وتطيعوا أمري، أهدكم سبيل الرشاد. والسلام عليكم ورحمة الله»^(٤).

٤. قوله عليه السلام للفرزدق: «يا فرزدق، إنَّ هؤلاء قومٌ لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفسادَ في الأرض، وأبطلوا الحُدودَ، وشربوا الخُمورَ، واستأثروا في أموال الفقراء والمساكين...»^(٥).

(١) ابن أعثم الكوفي، أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ٣٠.

(٢) ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية: ج ٨، ص ١٧٦.

(٣) المجلسي، محمد بن محمد، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٣٣٠.

(٤) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٦٦.

(٥) سبط ابن الجوزي، علي بن قزغلي، تذكرة الخواص: ج ٢، ص ١٤٠.

السادس: بيان شروط الإمام الحق، ووجوب محاربة الإمام الجائر، وأنه عليه السلام أحق بالتغيير والإصلاح:

١. ما جاء في كتابه عليه السلام لأهل الكوفة مع مسلم بن عقيل عليه السلام: «لعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب، والآخذ بالقسط، والدائن بالحق، والحابس نفسه على ذات الله»^(١).

٢. خطبته عليه السلام عندما جمع أصحابه وأصحاب الحرّ: «أيها الناس، إنّ رسول الله ﷺ قال: مَنْ رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله ﷺ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله. ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلّوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله. وأنا أحقّ من غير. وقد أتتني كتبكم، وقدمت عليّ رسلكم، بيعتكم: أنكم لا تُسلموني ولا تتخلّوني. فإن تمتمت عليّ بيعتكم تصيبوا رشدكم؛ فأنا الحسين بن علي، وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم فلكم فيّ أسوة»^(٢).

٣. وقال لهم أيضاً: «أيها الناس، فإنكم إن تتقوا الله وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى الله عنكم. ونحن أهل بيت محمد، وأولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجور والعدوان»^(٣).

٤. وخطب عليه السلام بذى حُسم فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إنّته قد نزل من

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٦٢.

(٢) المصدر السابق: ج ٤، ص ٣٠٤. وفي البحار: «وإني أحقّ بهذا الأمر؛ لقرايتي من رسول الله ﷺ».

المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٣٨٢.

(٣) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ٧٩.

الأمر ما قد ترون، وإنّ الدنيا قد تغيّرت وتنگّرت، وأدبرَ معروفها، واستمرّت، فلم يبقَ منها إلّا صباغة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الويل. ألا ترون أنّ الحقّ لا يُعمَل به، وأنّ الباطل لا يُتناهى عنه. ليرغب المؤمنُ في لقاء الله حقّاً؛ فإنّي لا أرى الموت إلّا سعادة، ولا الحياة مع الظالمين إلّا برماً»^(١).

٥. قوله عليه السلام للفرزدق: «وأنا أولى من قام بنصرة دين الله، وإعزاز شرعه، والجهاد في سبيله؛ لتكون كلمة الله هي العليا»^(٢).

السابع: ما يدلّ على أنّه لا يريد القتال، وإنّما خروجه ومطالبته بالإصلاح عن طريق الحركة السلمية والتغيير الثقافي، ولكنّه اضطر للقتال دفاعاً عن النفس:

١. قوله عليه السلام في وصيّته لمحمد بن الحنفية: «أريدُ أن آمرَ بالمعروف، وأنهي عن المنكر، وأسيرَ بسيرة جدّي وأبي عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بالحقّ، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتى يحكم الله بيني وبين القوم بالحقّ، وهو خير الحاكمين»^(٣). فإنّ هذا الخطاب يدلّ على أنّ حركة الإمام سلمية، ولم يرد فيها محاربة أحد، بل هو يريد أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فمن قبل منه ذلك فبها، ومن لم يقبل منه، فإنّه يصبر ويوكل أمره إلى الله، فهو أحكم الحاكمين.

٢. قوله عليه السلام لزهير بن القين رضي الله عنه لما أشار عليه بمقاتلة جيش الحرّ، وأنّ قتالهم أيسر من قتال من يأتي بعدهم، فقال عليه السلام: «فإنّي أكره أن أبدأهم بقتال»^(٤).

٣. قوله عليه السلام لمسلم بن عوسجة رضي الله عنه لما أراد أن يرمي شمر بن ذي الجوشن لعنه الله،

(١) القاضي المغربي، النعمان، شرح الأخبار: ج ٣، ص ١٥٠.

(٢) سبط ابن الجوزي، علي بن قزغلي، تذكرة الخواص: ج ٢، ص ١٤٠.

(٣) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٣٢٩. وأنظر أيضاً: ابن شهر آشوب، محمد بن

علي، مناقب آل أبي طالب: ج ٣، ص ٢٤١.

(٤) ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم، الأخبار الطوال: ص ٢٥٢.

فقال ﷺ له: «لا ترمه؛ فإنِّي أكره أن أبدأهم بقتال»^(١).

٤. خطبته بجيش الحر: «أيها الناس، إنِّي لم آتكم حتى أتتني كتبكم، وقدمت عليَّ رسلُكم: أن أقدم علينا؛ فإنه ليس لنا إمام، لعلَّ الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق. فإن كنتم على ذلك فقد جئتم فأعطوني ما أطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم، وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين انصرفْتُ عنكم إلى المكان الذي جئتُ منه إليكم»^(٢).

ثم لما تهيأوا للصلاة العصر، قام بهم خطيباً، فقال ﷺ: «أيها الناس، فإنكم إن تتقوا الله، وتعرفوا الحق لأهله يكن أَرْضَى الله عنكم، ونحن أهل بيت محمد، وأولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدَّعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بال جور والعدوان. وإن أبيتم إلَّا كراهية لنا والجهل بحقنا، فكان رأيكم الآن غير ما أتتني به كتبكم، وقدمت به عليَّ رسلُكم، انصرفْتُ عنكم»^(٣).

بل أراد ﷺ أن ينصرف ويرجع، ولكنَّ الحرَّ أبى عليه ذلك، حتى قال له الإمام الحسين ﷺ: «ثكلتك أمك، ما تريد؟!»^(٤).

٥. قوله لقرة بن قيس الحنظلي رسول عمر بن سعد لعَلَّه، حين أرسله ليسأل الحسين ما الذي جاء به، فقال له الإمام الحسين ﷺ: «كتب إليَّ أهل مصركم هذا أن أقدم. فأما إذ كرهتموني فأنا أنصرف عنكم»^(٥).

٦. ومما يدلُّ على عدم إرادته القتال ولكنَّه مضطر إليه، أنَّه ﷺ لما كان يكرّر

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٥، ص ٥.

(٢) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ٧٩.

(٣) المصدر السابق: ص ٨٠.

(٤) فقد جاء في الإرشاد: «ثم قال لأصحابه: (قوموا فاركبوا) فركبوا، وانتظر حتى ركب نساؤهم، فقال لأصحابه: (انصرفوا)، فلما ذهبوا لينصرفوا حالَّ القوم بينهم وبين الانصراف، فقال الحسين ﷺ للحر: (ثكلتك أمك، ما تريد؟)». المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق: ص ٨٥.

ليلة العاشر هذه الأبيات:

يادهراً أف لك من خليل كم لك في الإشراف والأصيل
من صاحب وماجد قتيل والدهر لا يقنع بالبديل
والأمر في ذاك إلى الجليل وكل حي سالك السبيل

سمعت السيدة زينب عليها السلام ففهمت منه ذلك فبكت وقالت: «آيست من الحياة؟» فقال لها: «لو ترك القطاً ليلاً لنام»^(١)، قالت: «فإنما تُغتصب نفسك اغتصاباً، فذاك أطول لحزني وأشجى لقلبي»^(٢).

٧. خطابات عليه السلام مع جيش ابن سعد لعنه الله ولعن جيشه، كانت عبارة عن وعظ، وأنه لا يريد قتالهم. وكان عليه السلام ينصحهم بالألا يكونوا أدوات لغيرهم. كما يظهر ذلك أيضاً من خطاب بعض أنصار الإمام عليه السلام، كخطاب سيد القراء برير بن خضير عليه السلام وموعظته لهم يوم عاشوراء، فقد طلب منهم أن يخلوا سبيل الإمام عليه السلام.

٨. يظهر من خطبته عليه السلام صبيحة يوم عاشوراء أنهم مصرّون على قتله، فكان عليه السلام يحذّرهم ويعظّمهم ويذكّرهم بحسبه ونسبه، وما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله فيه ويذكّرهم بكتبهم إليه. ثم قال لهم: «إن كرهتموني فدعوني أنصرف إلى مأمن من الأرض. فقال له قيس بن الأشعث: أو لا تنزل على حكم بني عمك؟ فإنهم لن يروك إلا ما تحب، ولن يصل إليك منهم مكروه.

فقال له الحسين عليه السلام: أنت أخو أخيك، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل. لا والله، لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرّ إقرار العبيد. ثم قال عليه السلام: عباد الله، إني عدتُ برِّي وربكم أن ترجمون، أعوذ برِّي وربكم من كل متكبّر

(١) وهو مثل يُضرب للرجل يُستثار فيُظلم. أنظر: أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله، جهرة الأمثال: ج ٢، ص ١٩٤.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين، مقاتل الطالبين: ص ٧٥.

لا يؤمن بيوم الحساب»^(١).

الثامن: ما دلّ على علمه بمصرعه، حيث أخبر بمصرعه مجموعة من المسلمين، تصرّحاً أو تلميحاً، بل البعض كان يعلم بذلك.

١. إخباره ﷺ أم سلمة رضي الله عنها بمقتله، وقوله لها: «يا أمّ سلمة، إنّي مقتول لا محالة، فأين أفر من القدر والقضاء المحتوم والأمر الواجب من الله سبحانه تعالى؟ قالت: وا عجباه، فأين تذهب وأنت مقتول؟! قال: يا أمّ، إنّي إن لم أذهب اليوم ذهبت غداً، وإن لم أذهب غداً ذهبت بعد غدٍ، وما من الموت مفر. والله يا أمّ، إنّي لأعرف اليوم الذي أقتل فيه، والساعة التي أحمل فيها، والخفرة التي أدفن فيها، وأعرف قاتلي، ومحاربي، والمجلب عليّ، والسائق والقائد والمحرض، ومن هو قاتلي، ومن يحرضه، ومن يقتل معي من أهلي وشيعتي رجلاً رجلاً، وأحصيهم عدداً، وأعرفهم بأعيانهم وأسمائهم وقبائلهم وعشائرهم، كما أعرفك. وإن أحببت أريتك مصرعي ومكاني. فقالت: فقد شئت. فما زاد علي أن تكلم باسم الله، فخضعت له الأرض حتى أراها مضجعه ومكانه، ومكان أصحابه، وأعطاهما من تلك التربة التي كانت عندها»^(٢).

٢. قوله لابن عباس رضي الله عنهما: «هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ، يَا بَنَ عَبَّاسَ! إِنَّ الْقَوْمَ لَن يَتْرُكُونِي، وَإِنَّهُمْ يَطْلُبُونَنِي أَيْنَ كُنْتُ حَتَّى أَبَايَهُمْ كُرْهاً وَيَقْتُلُونِي. وَاللَّهِ، إِنَّهُمْ لَيَعْتَدُونَ عَلَيَّ كَمَا اعْتَدَتِ الْيَهُودُ فِي يَوْمِ السَّبْتِ، وَإِنِّي ماضٍ فِي أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ أَمَرَنِي، وَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»^(٣).

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣٢٣. ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٦٢.

(٢) الخنصبي، الحسين بن حمدان، الهداية الكبرى: ص ٢٠٣. البرسي، رجب، مشارق أنوار اليقين: ص ١٣٣.

(٣) البحراني، هاشم، مدينة المعاجز: ج ٣، ص ٤٨٥. لجنة الحديث في معهد باقر العلوم ﷺ، موسوعة كلمات الإمام الحسين ﷺ: ص ٣٨٩.

فقوله ﷺ: (حَتَّىٰ أَبَايَعَهُمْ كُرْهًا وَيَقْتُلُونِي) يدلّ على أنّهم لَعَلَّاهُمْ يقتلونه حتى لو

بأبيهم.

٣. قوله لعبد الله بن عمر لما أشار عليه بالطاعة وعدم الخروج: «يا عبد الله، أما علمت أنّ من هوان الدنيا على الله أنّ رأس يحيى بن زكريا ﷺ أهدى إلى بغى من بغايا بني إسرائيل! أما تعلم أنّ بني إسرائيل كانوا يقتلون ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس سبعين نبياً، ثمّ يبيعون ويشترون كأن لم يصنعوا شيئاً، فلم يُعجل الله عليهم، بل أخذهم بعد ذلك أخذ عزيزٍ مقتدرٍ ذي انتقام. ثمّ قال له: اتقِ الله يا أبا عبد الرحمن، ولا تدعنّ نصرتي»^(١).

٤. خطبته ﷺ حين أراد الخروج من مكة: «الحمد لله، وما شاء الله، ولا قوة إلاّ بالله. خُطّ الموتُ على وُلدِ آدمَ مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف. وخير لي مصرعُ أنا لاقيه. كأيّ وأوصالي»^(٢) يتقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكرباء، فيملأن منّي أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً، لا محيص عن يومٍ خُطّ بالقلم. رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفّينا أجور الصابرين. لن تشدّ على»^(٣) رسول الله لحمته، وهي مجموعة له في حظيرة القدس، تقرّ بهم عينه، وينجز بهم وعده. من كان باذلاً فينا مهجته، وموطناً على لقاء الله نفسه فليرحل؛ فإنّي راحل مصباحاً إن شاء الله»^(٤).

(١) ابن نيا الحلي، محمد بن جعفر، مثير الأحران: ص ٢٩.

(٢) في بعض المصادر: (بأوصالي). أنظر: الإريلي، علي بن أبي الفتح، كشف الغمّة في معرفة الأئمّة:

ج ٢، ص ٢٣٩. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٣٧٦.

(٣) في بعض المصادر: (عن). أنظر: الإريلي، علي بن أبي الفتح، كشف الغمّة في معرفة الأئمّة: ج ٢،

ص ٢٣٩. الحنفي، محمد الزرندي، معارج الوصول إلى معرفة آل الرسول ﷺ: ص ٩٤.

المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٣٧٦.

(٤) ابن نيا، محمد بن جعفر، مثير الأحران: ص ٢٩.

وعليه؛ فلا يمكن قبول القول بأنه ﷺ لا يعلم بما يؤول إليه الأمر، وأنه لما تغيرت الظروف تغيرت أهدافه. كما يتنافى مع قول من يرى أن الهدف من النهضة هو إقامة حكومة.

التاسع: ما دلّ على أنه خرج اضطراراً، وحفظاً لدمه الشريف:

١. جوابه لأخيه محمد بن الحنفية - لما حذّره من أهل الكوفة - بأنّ خروجه كان خوفاً من أن يغتاله يزيد لعنه الله: «سار محمد بن الحنفية إلى الحسين في الليلة التي أراد الخروج في صبيحتها عن مكة، فقال: يا أخي، إنّ أهل الكوفة من قد عرفت غدرهم بأبيك وأخيك، وقد خفت أن يكون حالك كحال من مضى. فإن رأيت أن تقيم فإنك أعزّ من في الحرم وأمنعه. فقال: يا أخي، قد خفت أن يغتالني يزيد بن معاوية في الحرم، فأكون الذي يُستباح به حرمة هذا البيت»^(١).

٢. قوله لعمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي لما تهيأ الإمام ﷺ للمسير من مكة إلى العراق، فأتاه وأشار عليه بعدم الخروج، فقال ﷺ: «جزاك الله خيراً يا بن عم، فقد والله علمت أنك مشيت بنصح، وتكلّمت بعقل، ومهما يُقضى من أمر يكن، أخذت برأيك أو تركته، فأنت عندي أحمد مشير، وأنصح ناصح»^(٢).

(١) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ٤٠. وقال العلامة المجلسي في البحار: «وروي بالإسناد، عن أحمد بن داود القمي، عن أبي عبد الله ﷺ قال: جاء محمد بن الحنفية إلى الحسين ﷺ في الليلة التي أراد الحسين الخروج في صبيحتها عن مكة، فقال له: يا أخي، إنّ أهل الكوفة قد عرفت غدرهم بأبيك وأخيك، وقد خفت أن يكون حالك كحال من مضى، فإن رأيت أن تقيم فإنك أعزّ من بالحرم وأمنعه، فقال: يا أخي قد خفت أن يغتالني يزيد بن معاوية بالحرم، فأكون الذي يستباح به حرمة هذا البيت». المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٣٦٤.

(٢) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٨٧. والرواية بتمامها هكذا: «عن عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، قال: لما قُدمت كتب أهل العراق إلى الحسين، وتهيأ للمسير إلى العراق، أتيتُه فدخلت عليه وهو بمكة. فحمدتُ الله، وأثنتُ عليه، ثم

فقوله: «ومهما يُقَضَّ من أمرٍ يكن، أخذتُ برأيك أو تركته» صريح في إصرار القوم على قتله عليه السلام، حتى إذا أخذَ برأي ابن عبد الرحمن.

٣. قوله عليه السلام لعمر بن لوذان: «يا عبد الله، ليس يخفى عليَّ الرأي، ولكن الله تعالى لا يُغَلِّبُ على أمره»، ثم قال عليه السلام: «والله، لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العُلُقَةَ من جوفي، فإذا فعلوا سلَّطَ الله عليهم مَنْ يُذِلُّهم حتى يكونوا أَذَلَّ فَرَقَ الأُمَم»^(١).

٤. قوله عليه السلام في منطقة الثعلبية لرجل يُدعى أبا هرة، حين سأله عن سبب خروجه من حرم الله وحرم رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال عليه السلام: «يا أبا هرة، إن بني أُمَيَّة أخذوا مالي فصبرتُ، وشتماوا عرضي فصبرتُ، وطلبوا دمي فهربتُ. وأيم الله، يا أبا هرة لتقتلني الفئةُ الباغية! وليلبسهم الله ذلاً شاملاً، وسيفاً قاطعاً، وليسلَّطَنَّ الله عليهم مَنْ يذللهم، حتى يكونوا أَذَلَّ من قوم سبأ؛ إذ ملكتهم امرأة منهم، فحكمت في أموالهم وفي دمائهم»^(٢).

قلتُ: أمَّا بعد، فإنِّي أتيتُك يابن عم لحاجة، أريد ذكرها لك نصيحة، فإن كنتَ ترى أنَّك تستنصحنني وإلا كففتُ عمَّا أريد أن أقول. فقال: قل، فوالله ما أظنُّك بسيء الرأي، ولا هوى القبيح من الأمر والفعل. قال: قلتُ له: إنَّه قد بلغني أنَّك تريد المسير إلى العراق، وإنِّي مشفق عليك من مسيرك؛ إنَّك تأتي بلدًا فيه عماله وأمرأؤه، ومعهم بيوت الأموال، وإنَّما الناس عبيدٌ لهذا الدرهم والدينار. ولا آمن عليك أن يقاتلك مَنْ وعدك نصره، ومَنْ أنت أحبُّ إليه ممَّن يقاتلك معه. فقال الحسين: جزاك الله خيرًا يابن عم، فقد - والله - علمتُ أنَّك مشيتَ بنصح، وتكلَّمتَ بعقل، ومهما يُقَضَّ من أمرٍ يكن، أخذتُ برأيك أو تركته؛ فأنت عندي أحمد مشير، وأنصح ناصح. قال: فأنصرتُ من عنده، فدخلتُ على الحارث بن خالد بن العاص بن هشام، فسألني: هل لقيتَ حسينًا؟ فقلتُ له: نعم. قال: فما قال لك وما قلتُ له؟ قال: فقلتُ له: قلتُ: كذا وكذا، وقال: كذا وكذا. فقال: نصحتَه وربُّ المروة الشهباء، أمَّا وربُّ البنية إنَّ الرأي لما رأيته، قبله أو تركه. ثم قال:

رُبَّ مستنصَح يُغَشِّ وِبردى وظنَّينٌ بالغيب يلفي نصيحا^(١).

(١) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ٧٦.

(٢) ابن أعثم الكوفي، أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ٧١. ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ٤٤.

٥. قوله لمن أشار عليه بعدم الذهاب للكوفة: «إِنَّ هَؤُلَاءِ أَخَافُونِي، وَهَذِهِ كُتِبَ أَهْلُ الْكُوفَةِ. وَهُمْ قَاتِلِي، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ وَلَمْ يَدْعُوا اللَّهَ مُحَرِّمًا إِلَّا أَنْتَ كُفُوهُ، بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ مَنْ يَقْتُلُهُمْ»^(١).

٦. دعاؤه في عُذْبِ الهجانات: «قَدْ أُخْرِجْنَا وَأُزْعِجْنَا وَطُرِدْنَا عَنْ حَرَمِ جَدِّنا، وَتَعَدَّتْ بَنُو أُمِّيَةِ عَلَيْنَا، فَخُذْ لَنَا بِحَقِّنَا، وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»^(٢).

٧. عند خروجه من المدينة كان يقرأ قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾^(٣)،

وهي الآية التي تدل على وجود مؤامرة من قبل الجهاز الحاكم لقتل موسى على نبينا وآله وعليه السلام، كما جاء في الآية السابقة عليها^(٤). قال الطبري في تاريخه: «فلَمَّا

سار الحسين نحو مكة قال: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»^(٥)،

فلَمَّا دخل مكة قال: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدِينُكَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾^(٦)»^(٧).

مما يدل على أَنَّ الإمام عليه السلام يشير إلى وجود مؤامرة من قبل السلطة لقتله عليه السلام. ولعلهم أرادوا قتله في نفس ليلة وصول خبر هلاك معاوية إلى المدينة، قبل أن يعلم الناس بمعارضته وعدم بيعته ليزيد؛ لئلا يُفْسِدَ عليهم الرأي العام.

٨. أقواله الدالة على أَنَّهُ خرج لئلا تُسْتَبَاحَ حرمة الكعبة، كقوله لابن عباس:

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٣٦٨.

(٢) الخوارزمي، محمد بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج ١، ص ٣٣٧.

(٣) القصص: آية ٢١.

(٤) وهي قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنَّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾. القصص: آية ٢٠.

(٥) القصص: آية ٢١.

(٦) القصص: آية ٢٢.

(٧) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٥٤. وانظر أيضاً: ابن أعثم الكوفي،

أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ٢٢. الطبرسي، الفضل بن الحسن، إعلام الوري بأعلام الهدى: ج ١،

ص ٤٣٥. ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ١٧.

«لَئِنْ أُقْتِلَ وَاللهِ بِمَكَانٍ كَذَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُسْتَحْلَلَ بِمَكَّةَ، وَهَذِهِ كُتُبُ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَرُسُلُهُمْ وَقَدْ وَجِبَ عَلَيَّ إِجَابَتُهُمْ، وَقَامَ لَهُمُ الْعُذْرُ عَلَيَّ عِنْدَ اللهِ سُبْحَانَهُ»^(١).

٩. قوله عليه السلام لابن عباس رضي الله عنهما: «ما تقول في قوم أخرجوا ابن بنت نبيهم عن وطنه وداره وقراره وحرم جدّه، وتركوه خائفاً مرعوباً، لا يستقر في قرار، ولا يأوي إلى جوار، يريدون بذلك قتله وسفك دمائه، ولم يُشرك بالله شيئاً، ولم يرتكب منكراً ولا إثماً؟!»^(٢).

١٠. ويدلّ على ذلك أيضاً رسالة ابن عباس ليزيد لعنه الله: «مهما أنسى من الأشياء فلست أنسى تسييرك حسيناً من حرم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى حرم الله، وتسييرك إليهم الرجال وإدساسك إليهم: (إن هو نذر بكم فعاجلوه)^(٣). فما زلت بذلك حتى أشخصته من مكة إلى أرض الكوفة، تزار إليه خيلك وجنودك زئير الأسد؛ عداوة مثلك لله ولرسوله ولأهل بيته. ثم كتبت إلى ابن مرجانة يستقبله بالخيال والرجال والأسنة والسيوف. ثم كتبت إليه بمعاجلته، وترك مطاولته، حتى قتلتته ومنّ معه من فتيان بني عبد المطلب؛ أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. نحن أولئك، لا كآبائك الأجلاف الجفاة أكباد الحمير»^(٤).

العاشر: عدم سماحه لشيعة في الكوفة بالقيام وأخذ زمام المبادرة:

١. جاء في بعض المصادر أنّ الإمام الحسين بن علي عليه السلام بعث مسلم بن عقيل عليه السلام مع قيس بن مسهر الصيدائي، وعمارة بن عبد السلولي، وعبد الرحمن بن

(١) لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ص ٣٨٩.

(٢) البحراني، هاشم، مدينة المعاجز: ج ٣، ص ٤٨٤.

(٣) هكذا في المصدر، ولعلّ الصحيح: (نزل بكم). وفي مجمع الزوائد: (أن يديركم فعاجلوه).

(٤) الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير: ج ١٠، ص ٢٤٢. وانظر أيضاً: الهيثمي، علي بن أبي

بكر، مجمع الزوائد: ج ٧، ص ٢٥١.

عبد الله الأرحبي، وأمره بتقوى الله، وكتان أمره، واللفظ^(١).

٢. كتب لشيعته في الكوفة مع قيس بن مسهر الصيداوي الأسدي^(٢) لِمَا بلغ الحاجز أو الحاجر من بطن الرّمة: «... فإذا قَدِمَ عليكم رسولي فانكمشوا»^(٣) في أمركم وجدّوا؛ فإنّي قادم عليكم في أيامي هذه إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله»^(٣).

المطلب الثاني: أهداف النهضة بحسب آراء العلماء والمفكرين

إنّ حركة الإمام الحسين^(عليه السلام) ونهضته الإصلاحية وقيامه في وجه الظلم أمر إسلامي خطير؛ لما يمثله الإمام الحسين^(عليه السلام) من ثقل، باعتباره إماماً معصوماً، فعله وقوله وتقريره حجة، كما يعتقد به شيعته. وبما يمثله من مكانة خاصة في نظر عامّة المسلمين، بأنّه سبط النبي، وأنّه سيّد شباب أهل الجنة، وأنّه إمام قام أو قعد. لذا صار موقفه هذا وخروجه محل نظر العلماء والمفكرين. وهناك عدة نظريات في تصوير الهدف الذي قام من أجله الإمام الحسين^(عليه السلام)، نستعرض بعضها بحسب اطلاعنا على ما وصل إلينا منها:

الأول: نيل مقام الشهادة

ذهب عدة من العلماء والمفكرين القدماء والمتأخرين إلى أنّ هدف الإمام الحسين^(عليه السلام) من حركته وقيامه هو نيل مقام الشهادة، وإن اختلفوا في تصوير ذلك.

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٦٣. المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ٣٩.

(٢) انكمش في الحاجة: أي انقبض، يقال: انكمشت الجلدة أي تقيضت. أنظر: ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم، غريب الحديث: ج ٢، ص ٣١٧. ابن الأنباري، محمد بن القاسم، الزاهر في معاني كلمات الناس: ص ٥١١.

(٣) النويري، أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب: ج ٢٠، ص ٤١٢.

فقد ذهب السيّد ابن طاووس رحمته الله إلى أنّ الإمام الحسين عليه السلام مكلف بذلك، وقيامه تعبّد بتكليف شرعي موجه إليه بالخصوص ^(١). بينما صوّر الشهرستاني رحمته الله تعبديّة النهضة بأنّ الإمام الحسين عليه السلام علّم أنّه مقتول على كلّ حال، بايع أو لم يبايع، فهو بين خيارين إمّا أن يبايع ويُقتل أو يواجه القوم ويُقتل. ولا شك أنّه إذا بايع فإنّه سيُقتل ويفقد مجده وجهوده وجهود آبائه، وسيكون مُلاماً من قبل المجتمع الذي دعاه للنهضة. بينما إذا لم يبايع وقاوم وجاهد هذه العصاة المنافة فإنّه سيُقتل فقط، ولا يفقد غير ذلك. فوازن عليه السلام بين بقاء نفسه المقدّسة وضياع الأمّة، وبين أن يضحيّ بنفسه أمراً بالمعروف؛ ليُحيي أمّة جدّه، فاختار الشهادة ^(٢).

وأما الدكتور شريعتي، فقد ذهب إلى هذه النظرية أيضاً، ولكن بتصوير مختلف يمكن إجماله في نقاط:

١. لم يقم الإمام الحسين عليه السلام من أجل إدانة يزيد وإقامة حكم مقابل الحكم القائم آنذاك؛ لأنّ القرائن تشهد أنّ الإمام الحسين عليه السلام لا يمكنه أن يتصر على القوة العسكرية التي حطّمت إمبراطورية الروم وفارس وقبرص.
٢. إنّ عليه السلام يعلم جيداً بأنّ حكومة بني أمية ستقطع عليه طريقه، ولا يسمحون له أن يدخل الكوفة ويجمع بشيعته وأصحابه.
٣. اختلاف موقف الإمام الحسن عليه السلام وموقف الإمام الحسين عليه السلام تجاه الحكم يكشف عن اختلاف في طبيعة النظام بين الحكمين، لا اختلاف في مواصفات الحسين عليه السلام.

٤. حينما يستعرض الإمام الحسين عليه السلام المسلمين من الصحابة وغيرهم، يجد بعض كبار القوم في القصر الأخضر مع الخليفة، وبعضهم في قصر الإمارة مع

(١) أنظر: ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ١٨.

(٢) أنظر: الشهرستاني، هبة الله، نهضة الحسين عليه السلام: ص ٤٢ - ٤٧.

الولادة، وبعضهم عرف الحق وتحرق له، فراح يعص يد الحسرة، والبعض الآخر اختار السكوت الآمن.

٥. حينها اختار أن يترك شعيبة الحج، ويهجم على الموت مع أهله وأقربائه وأصحابه؛ ليكون أعظم مغلوب منتصر في التاريخ^(١).

يقول: «وما دام [الحسين عليه السلام] لا يستطيع تغيير النظام الحاكم، ولا إقامة الحكم الذي يريد، ولا استلام زمام القيادة شخصياً، فليهوِ إذًا - بهذا اللواء على هامة العدو ويهشمها، ولو كلفه ذلك التضحية بكل شيء. وبهذا يؤدّي دوره كواحد من الأمراء المكلفين بحمل اللواء في تاريخ الإنسان»^(٢).

وهذه النظرية تصوّر لنا أنّ الإمام عليه السلام أراد إصلاح الأمة من خلال إراقة دمه الشريف. ولكن قد يرد عليها مجموعة من الإشكالات، وبعضها ترد على بعض تصورات النظرية دون البعض الآخر. وأهم ما يرد على هذه النظرية هو عدم وجود شاهد صريح من كلمات الإمام الحسين عليه السلام عليها، بل الشواهد على خلاف ذلك، من قبيل قوله عليه السلام: «إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي».

ومن الواضح أنّ كلامه هذا - خصوصاً المقطع الأخير - لا ينسجم مع هذه النظرية، وهكذا كلامه مع الشخصيات التي التقى بها في طريقه، أو خطابه مع جيش ابن سعد أو مع جيش الحر؛ فإنّها جميعاً تدلّ على أنّه لا يريد من حركته الشهادة. كما لا نجد لها شاهداً في كلمات المعصومين عليه السلام، بل الموجود أنّ الظالمين لعلّهم مصرّون على قتله وأرادوا التشفّي منه. نعم، هو يعلم بذلك، ولا ملازمة بين العلم بالشيء وبين إرادته.

(١) شريعتي، علي، الحسين وارث آدم: ص ٢٧١ - ٢٨٤.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٨٩.

الثاني: إرجاع المجتمع إلى الخط الصحيح من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

في البدء استعرض صاحب هذه النظرية نظريتين مشهورتين، وردّ عليهما، وهما:

١. القيام من أجل إقامة الحكومة. ويرد عليه: أن مَنْ يريد إقامة الحكومة عليه دراسة المقدمات والمعطيات، فحين يرى عدم إمكانية ذلك عليه الرجوع وعدم الاستمرار^(١).

٢. نيل الشهادة، بمعنى أن الإمام عليه السلام قام بنهضته من أجل أن يكون شهيداً وينال هذا المقام السامي يوم القيامة. ويرد عليه: بأن الشهادة بحدّ ذاتها لا بدّ أن تكون من أجل هدف، وليست هي هدفاً يُقصد، ولا يوجد في الآيات والروايات ما يدلّ على جواز تحرّك المكلف نحوها إلّا لأجل هدف مقدّس.

يقول سماحة السيّد الخامني: إنّ أصحاب هذين القولين خلطوا بين الهدف والنتيجة.

ثمّ يخلص إلى أن الهدف هو إعادة الإسلام والمجتمع الإسلامي إلى الخط الصحيح، أو القيام ضدّ الانحرافات الخطيرة التي استشرت في المجتمع الإسلامي. وهو هدف عظيم وواجب كبير. وهذا الهدف نتيجه إمّا النصر وإقامة الحكومة أو نيل الشهادة^(٢).

وفي محاضرة أخرى أشار إلى أن المضامين الواردة في زيارة الأربعين تشير إلى

(١) يمكن أن يقال: إنّ لو غضضنا الطرف عن خصوصية العصمة وعلم الغيب وتعاملنا مع الإمام عليه السلام بأنّه شخص يتعامل مع الأمور من خلال الظواهر لا الغيبات، فيمكن أن يقال: إنّ عليه السلام حين تبيّن له عدم إمكانية النصر وإقامة الحكومة أراد الرجوع، ولكنّ جيش الحر منعه، ثمّ كرّر الطلب مع عمر بن سعد فرفض عبيد الله بن زياد ذلك، وصمّم على إجباره على البيعة أو الحرب. وهو قريب ممّا ذهب إليه نجفی آبادي، كما سيأتي.

(٢) محاضرة قائد الثورة الإسلامية السيّد الخامني تحت عنوان: هدف الثورة الحسينية هو إعادة المجتمع الإسلامي إلى الخط الصحيح. موقع khaminey.ir بتاريخ ١٢/٩/٢٠١٨.

معنى عميق، حيث ذكر فيها: «وبذل مهجته فيك؛ ليستنقذ عبادك من الجهالة، وحيرة الضلالة... قد توازرَ عليه مَنْ غرّته الدنيا وباعَ حظَّه بالأرذل الأدنى»^(١). فالثورة بظواهرها ضدّ يزيد ومقارعتة، ولكن واقعتها ضدّ جهل الإنسان وضلالته وانحطاطه.

إلا أنّ هذا الهدف عام يمكن تحقيقه من خلال الشهادة، أو من خلال إقامة الحكومة، أو من خلال الوعظ والخطاب الديني الصادق أو... ولم يبيّن عليه السلام الطريقة التي أراد الإمام الحسين عليه السلام تحقيق أهدافه بها. وبعبارة أخرى: أنّ هذه النظرية تنسجم مع النظريات الأخرى، وليست مباينة لها، ولا في عرضها.

الثالث: الأهداف المتعددة المتوازية

يرى الشهيد المطهري أنّ الثورة قد يكون لها هدف، وقد لا يكون لها هدف، بل هي مجرد ردّة فعل على الظروف والسياسات القائمة. وأمّا الثورة الواعية فلا بدّ لها من هدف، ولكن ليس بالضرورة أن يكون هدفها واحداً، بل قد يكون لها أهداف متعددة. وهكذا نهضة الإمام الحسين عليه السلام وخروجه كان له عدة أهداف.

كما أنّ هذه الأهداف ليست على نحو التبادل أو على نحو المرحلية كما سيأتي في بعض النظريات، بل كلّها مرادة لصاحب النهضة وإمامها. وقد أشار عليه السلام إلى ثلاثة أهداف، وقال بأنّ هذه الأهداف الثلاثة جميعها مرادة ومقصودة للإمام الحسين عليه السلام في نهضته المباركة، وهي:

١. رفض بيعة يزيد. إنّ خروج الإمام الحسين عليه السلام من المدينة المنورة كان لغرض الابتعاد عن السلطة في المدينة التي أرادت من الإمام أن يبايع أو يُقتل. ولا يمكن لمثل الإمام الحسين عليه السلام أن يبايع بيعة كهذه؛ لأنّها لم تكن بيعة عادية، بل بيعة

(١) الطوسي، محمد بن الحسن، مصباح المتعبد: ص ٧٨٨.

لشخص متجاهر بالفجور والرذيلة وقتل النفس المحترمة، بخلاف مَنْ سبقه من الحكّام، هذا من جهة.

ومن جهة ثانية أنّ هذه البيعة تُعتبر تأسيساً لنظام الوراثة في الحكم. وهو تأسيس لمبدأ جديد في الحكومة الإسلامية، فلا هو على المبدأ الصحيح من التنصيب الإلهي، ولا هو على مبدأ القوم الذي جاؤوا به بعد رسول الله ﷺ من الشورى، أو التنصيب من قبل الحاكم السابق ولا بالانتخابات، بل هو مبدأ الملك. ولا يمكن للإمام أن يمتنع عن البيعة إلا بالخروج.

٢. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا أيضاً من الأهداف التي صرّح بها الإمام الحسين عليه السلام، وهو القيام بهذا الواجب والشعيرة المقدسة لإصلاح الأمة.

٣. إجابة دعوة أهل الكوفة. فإنّ الإمام عليه السلام بعد أن استقرّ في مكة مدة من الزمن علّم به أهل الكوفة، فكتبوا إليه ودعوه إلى القدوم، وتعهّدوا له بالنصرة. وبذلك يكون الإمام قد توفّرت له ظروف القيام، فلا بدّ أن يقوم بالأمر، ولو لم يقم لكانت الناس - وحتى نحن عبر الزمن - نقول: لماذا لم يجيهم مع كثرتهم وخلوص نواياهم^(١)؟!

ويمكن تسجيل بعض الملاحظات على هذه النظرية فيما ذكّرت من أهداف، والإشكال الرئيس عليها أنّها ذكّرت سلوكيّات الإمام الحسين عليه السلام أو الوسائل التي استعملها، تحت عنوان أهداف، والحال أنّ السلوك ناشئ عن الهدف وليس هو الهدف.

بمعنى أنّ رفض الإمام عليه السلام لبيعة يزيد لعنه الله ليس هدفاً، بل هو سلوك وموقف سجّله الإمام الحسين عليه السلام قبل خروجه من المدينة، وبعد موقفه هذا بدأ التحرك نحو

(١) المطهري، مرتضى، ماهيّت نهضت إمام حسين عليه السلام (حقيقة نهضة الإمام الحسين عليه السلام): ص ٩ -

النهضة. والأمر بالمعروف هو وسيلةٌ لتحقيق الهدف المنشود. وأمّا استجابته لدعوة أهل الكوفة فلا يمكن أن يكون هدفاً بدعوى أنه لو لم يجبهم لصار مورداً للوم الآخرين؛ فإنّ الإمام الحسين عليه السلام لا تحرّكه أمور كهذه، كما أنّها لا تشنيه، فقد نهاه ثلاثة كبيرة من المسلمين ولم يثنّ أمام نهيهم وإصرارهم.

وقد ذهب إلى هذه النظرية بعض الباحثين المعاصرين أيضاً، ولكن مع فوارق في تحديد الأهداف، فقد ذكر مجموعةً من الأمور التي تصلح - بنظره - أن تكون أهدافاً للإمام الحسين عليه السلام في نهضته^(١):

١. الوقوف بوجه الجور والظلم.
٢. إتمام الحجّة على مَنْ كتب له.
٣. حماية الإسلام؛ فإنّ يزيد كان عازماً على محو الإسلام، والدليل على ذلك قوله:

لَعِبْتُ هَاشِمَ بِالْمَلِكِ فَلَا خَبْرَ جَاءَ وَلَا وَحْيَ نَزَلَ

٤. تطهير الخلافة من أرجاس بني أمية؛ ولذا قال: «فلعمري ما الإمام...».
٥. تحرير إرادة الأمّة، وبث روح العزة والكرامة والجهاد في نفوس أبنائها.
٦. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا ما صرّح به في وصيّته لأخيه محمد بن الحنفية.

ويمكن أن يناقش هذا الرأي بأنّه مجرد جمع للأقوال في الموضوع، مع أنّ بعض ما ذكره ليس هدفاً، بل وسيلة كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبعضها نتيجة، وبعضها لا يمكن اعتباره هدفاً؛ لعدم تحقّقه، وإلّا لزم فشل النهضة.

(١) مقال تحت عنوان: ما هي أهداف الحسين بن علي من ثورته الدامية؟ للشيخ صالح الكرباسي، موقع مركز الإشعاع الإسلامي للدراسات والبحوث، ٤/١٢/٢٠١١م.

الرابع: مرحلة النهضة

تقوم هذه النظرية على فرضية أنّ هدف خروج الإمام الحسين عليه السلام ومقتله ومقتل أهل بيته وخيرة أصحابه، لا يمكن أن يكون هو الشهادة أو فضح بني أمية وإحياء الإسلام؛ لأنّه غير معقول أوّلاً، وغير واقع ثانياً. ومن هنا يرى أصحاب هذه النظرية أنّ نهوض الإمام الحسين عليه السلام مرّ بمراحل بحسب ما انكشف له من الأمارات. وممن ذهب لهذا الرأي علّم الهدى السيّد المرتضى رحمته الله، وتلميذه شيخ الطائفة الطوسي رحمته الله، حيث قسّم المراحل التي مرّت بها الحركة الحسينية إلى أربع مراحل:

ففي المرحلة الأولى لما كان قد غلب على ظنّه أنّ النصر حليفه، وأنّ القوم سينصرونه، تحرّك نحو الكوفة مُعلنًا المواجهة.

وفي المرحلة الثانية لما انكشف له حالهم ومقتل مسلم عليه السلام أراد الرجوع، إلّا أنّ أبناء عقيل منعه من ذلك، فقرّر دخول الكوفة.

وفي المرحلة الثالثة لما حبسه الحر بن يزيد ومنعه من دخول الكوفة ومن الرجوع إلى المدينة أو مكة، وأنّ ابن زياد لعنه الله مصرّ على إذلاله، فاختر عليه السلام طريقاً إلى الشام؛ لأنّه يعلم بأنّ يزيد - مع خبثه - أرأف به من ابن زياد.

وفي المرحلة الرابعة لما قطعوا عليه طريقه، ولم يسمحوا له بالذهاب إلى الشام، وأصرّوا عليه أن يبايع ابن زياد أو يُقتل، وأنّه حتى لو بايع ابن زياد لقتله فيما بعد، صمّم على مقاتلتهم حتى قُتل هو وأصحابه^(١).

وقريب من رأي السيّد المرتضى وتلميذه ما ذهب إليه آية الله صالح نجف آبادي رحمته الله، حيث ذهب إلى أنّ نهوض الإمام عليه السلام مرّ بأربع مراحل:

(١) المرتضى، علي بن الحسين، تنزيه الأنبياء: ص ٢٢٧ - ٢٢٩. الطوسي، محمد بن الحسن، تلخيص الشافي: ج ٤، ص ١٨٢ - ١٨٨.

المرحلة الأولى: مرحلة الصمود والمقاومة، وتبدأ من خروجه عليه السلام من المدينة إلى أن قرّر الخروج من مكة. وفي هذه المرحلة قام الإمام عليه السلام بدراسة توافر القوة القتالية اللازمة لإقامة الحكومة الإسلامية.

المرحلة الثانية: مرحلة الدفاع والمقاومة، وتبدأ هذه المرحلة منذ اتخاذه قرار ترك مكة - بعد مبايعة أهل الكوفة له - وإلى أن التقى بالحر بن يزيد الرياحي. وفي هذه المرحلة اتخذ الإمام قرار النهوض من أجل إقامة الحكومة الإسلامية؛ لتوفر شروطها.

المرحلة الثالثة: مرحلة المقاومة والحفاظ على الواقع الدفاعي، حيث تغيرت الظروف في العراق. وتبدأ من حين مواجهته للحر بن يزيد وإلى أن بدأت المعركة.

المرحلة الرابعة: مرحلة المواجهة العسكرية، وهي المرحلة الأخيرة من حركة الإمام الحسين عليه السلام، بعد أن يؤس من جميع المحاولات للحفاظ على السلم من دون تنازل وتخلي عن المقاومة ورفض البيعة.

فحركة الإمام الحسين عليه السلام لها هدف مشترك في جميع مراحل نهضته، وهو المقاومة والتصدي لعدوان الحكومة الظالمة على الإمام عليه السلام، ولكن في المرحلة الثانية أضاف عليه السلام هدفاً ثانياً وهو إقامة الحكومة العادلة بعد توفر شروطها.

ثم ذكر عليه السلام مجموعة من الأدلة والشواهد التاريخية والعقلية والنصوص الماثورة عن الإمام الحسين عليه السلام، وعن الشخصيات المعاصرة له من المؤيدين والمحيدين والأعداء التي تدعم نظريته هذه.

والنتيجة التي ينتهي إليها صالحى نجف آبادي: أنّ الإمام الحسين عليه السلام كانت له ثلاثة أهداف بحسب مراحل نهضته، فالهدف بالدرجة الأولى كان النصر العسكري الذي من خلاله يتمكن من إقامة الحكومة الإسلامية العادلة. وبالدرجة الثانية الصلح المشرف والسلام الشجاع. وبالدرجة الثالثة هو المواجهة حتى نيل الشهادة

في سبيل الله^(١).

إنَّ أهمَّ ما يمكن تسجيله على هذه النظرية هو: أنَّ ما ذُكر فيها - في حقيقة الأمر - هو الأساليب التي اتخذها الإمام الحسين عليه السلام في حركته الإصلاحية، وكيفية مواجهة أعدائه، وليست أهدافاً لنهضته؛ فإنَّ الإمام الحسين عليه السلام تحرَّك في المدينة بغير ما تحرَّك به في مكة، وبغير ما استخدمه حين اضطرَّ للخروج منها، وهكذا في مخاطبته لجيش الحر أو جيش ابن سعد؛ فإنَّ ذلك كلُّه ليس تغييراً للأهداف. مضافاً إلى أنَّها تُشعر - بل هو صريح - بعدم معرفة القائد المصلح بمجريات الأمور أو ما تؤول إليه.

الخامس: نظرية التوليف

تعتمد هذه النظرية على التوليف والدمج بين عدة نظريات، بعد أن قام صاحبها باستعراض مجموعة من تلك النظريات، فناقش بعضها، وقبِلَ بعضاً آخر، ثمَّ حاول أن يدمج بين ما ارتضاه من نظريات^(٢)، هي^(٣):

١. طلب الشهادة: وقد فسَّرت هذه النظرية بعدة تفاسير:

أ) الشهادة التكليفية: بمعنى أنَّها تكليف إلهي بالقتال والاستشهاد، خاص بالإمام الحسين عليه السلام، وقد مال لهذه الرأي جملة من العلماء استناداً لبعض الروايات^(٤).

(١) صالحى نجف آبادي، نعمة الله، الشهيد الخالد: ص ١٣٧ - ١٧٤.

(٢) مقال تحت عنوان: نظريات في أهداف الثورة الحسينية، للشيخ منصور إبراهيم الجبيلي، مجلة رسالة القلم، عدد ٤٧، ٥/ ١٠/ ٢٠١٦ م.

(٣) أوردنا أصل النظريات في المتن، وأمَّا ما ذكره من الردود عليها فارتأينا إيرادها في الهامش؛ لأجل عدم تشويش المطالع على القارئ الكريم.

(٤) ناقش الكاتب هذا الرأي بأربع مناقشات: ١. استلزامه الجبر. ٢. علم الإمام الغيبي بما سيجري لا ينافي الاختيار، ولا يستلزم عدم إمكان الاقتداء به. ٣. كون قيام الإمام عليه السلام له حكمة غائبة عنَّا لا يمنع من التفكير في الأهداف والحكم المعلنة أو التي يمكن استنتاجها. ٤. لا دليل على أنَّ ثورته عليه السلام من القضاء والقدر المنهي عن الخوض فيه.

أقول: إنَّ المناقشات التي سجَّلها الشيخ الجبيلي على هذه النظرية، لا ترد على لبَّ النظرية وحقيقتها، وإنَّما ترد على التفريعات التي ذهب إليها بعض العلماء.

(ب) شهيد الفداء: والمراد من هذا التفسير هو أنّ الإمام الحسين عليه السلام أراد أن يستشهد حتى ينال مقام الشفاعة الكبرى، فيتمكّن من تطهير الأُمَّة من ذنوبها، فيدخلون بشفاعته إلى الجنة^(١).

(ت) الشهادة السياسية: فإنّ الإمام سواء بايع أم لم يبايع سيُقتل، فاختار الشهادة عن طريق الثورة من أجل الدفاع عن الدين وبقائه، وصيانة بيضة الإسلام من شرّ الجاهلية الجهلاء المتمثلة في بني أُمّية الذين أرادوا محو الدين. وهذا التفسير مألّ إليه الكاتب، ولكن ذكر بأنّ هناك تفسيراً أفضل منه سيأتي.

(ث) الشهادة الأسطورية: إنّ تأثيرها خارج أفق الزمان والمكان، ولا يمكن تقييدها بفترة أو زمن أو بلاد. وليس المراد منها أنّها خارج المعقول أو المدرك^(٢).

٢. إقامة الدولة: بمعنى أنّ الإمام عليه السلام خرج من أجل إقامة الحكومة العادلة، والقضاء على حكومة بني أُمّية^(٣).

٣. المحافظة على النفس: وأنّه عليه السلام خرج من المدينة إلى مكة، ومن مكة إلى العراق حفاظاً على نفسه من القتل^(٤).

(١) ناقش الكاتب هذه النظرية بأنّها: ١. شبيهة بفكرة المسيح... ٢. لا مستند لها من النصوص.

٣. أنّ الإمام عليه السلام شفيح كسائر الأئمة حتى لو لم يُستشهد. ٤. فيها خلط بين الأهداف والآثار.

(٢) وقد أورد عليها بأنّه لا دليل عليها من النصوص. مضافاً إلى أنّها خلط بين الآثار والأهداف. كما أنّ استفادة جميع الفئات وفي كافة الأزمنة منها لا يجعلها أسطورية.

(٣) ناقش الكاتب هذه النظرية بثلاث مناقشات: ١. أنّها تخلط بين الأمنية وبين الواقع. ٢. لم تأخذ النظرية علم الإمام عليه السلام بما يجري عليه بعين الاعتبار. ٣. مخالفة للروايات الكثيرة الواردة عن الإمام الحسين عليه السلام، حيث يُنْجَر بعدم تحقّق هذه الغاية، وأنّه مقتول لا محالة.

(٤) وقد ردّ عليها بأنّ هذا خلاف سيرة الإمام عليه السلام وأسلافه عليه السلام، بل وخلاف سيرة المصلحين والقادة العظماء.

ولكن يمكن أن يدافع عنها: بأنّ المراد هو حفظ النفس لمدة أطول لكي يؤدّي وظيفته بشكل أوسع، وقد كان له ذلك، فلو بقي في المدينة فإنّهم سيقتلونه بمجرد رفضه للبيعة، ولو بقي في مكة فكذا يُقتل قبل أن يحقّق ما يريد.

٤. نظرية الجمع: ومرادهم التوليف بين النظرية الأولى والنظرية الثانية، فهو عليه السلام يطلب الشهادة، وبنفس الوقت يريد إقامة الدولة. ولها عدة تفاسير:

(أ) تحقيق الهدف على مراحل، بمعنى أن الإمام عليه السلام في المرحلة الأولى كان يريد إقامة دولة، ولكن بعد شهادة مسلم عليه السلام صار هدفه الشهادة^(١).

(ب) القصد المباشر وغير المباشر، بمعنى أن القصد المباشر كان الشهادة، وأمّا الحكم فهو قصد غير مباشر، فالشهادة كالجسر للحكم^(٢).

(ت) إقامة الحكم مع العلم بالشهادة، بمعنى أن الإمام عليه السلام عازم على إقامة الحكم وإن استلزم ذلك الشهادة، فهو يعلم بالشهادة ومع ذلك أقدم على إقامة الحكم^(٣).

(ث) الظاهر والباطن، فهو عليه السلام - بحسب الظاهر - يريد إقامة الحكومة ودعا الناس إلى ذلك، ولكنّ مطلبه الواقعي هو طلب الشهادة؛ لعلمه بأنّه يُقتل قبل تحقّقه^(٤).

ثمّ يجمع الكاتب بين التفسير الثالث من القول الأوّل، مع التفسير الأخير للقول الرابع: بأن نفترض كون الدعوة لإقامة الحكم ظاهريّة، وأنّ مراده الواقعي هو الشهادة، ولكنّ طلب الشهادة ليس مطلوباً بنفسه، بل من أجل الإصلاح.

(١) وقد ناقشه بأنّ هذا التفسير يستلزم عدم علم الإمام بما سيجري عليه، والحال أنّه عالم بكلّ ذلك.

(٢) ويرد عليه ما يرد على النظرية الثانية (إقامة الدولة).

(٣) وأورد عليه بأنّه كيف يُقدم عليه السلام على هدف يعلم بعدم تحقّقه؛ فإنّ ذلك لا يصدر من العاقل فضلاً عن المعصوم عليه السلام. وقد يُجاب عنه بأن يراد به إقامة الحكم ولو بعد حين، بمعنى أن هدفه ليس إقامة الحكومة على يديه، بل ولو على يدي غيره.

(٤) وقد ناقش الكاتب فيه بأنّ الشهادة لا يمكن أن تكون هدفاً إلّا إذا قصد بها أن الشهادة تُحقّق الإصلاح. ويمكن أن نضيف للكاتب بأنّ القائلين بهذه النظرية يقرّون بعلمه عليه السلام بالشهادة، وهذا يعني أنّ قصده لها لا يؤثّر، فهو مقتول لا محال، فلا يمكن أن تكون الشهادة مطلبه الواقعي؛ لأنّه أشبه بتحصيل الحاصل.

وحفظ الإسلام. ثم يفترض الشيخ أنّ هذا الجمع يصلح أن يكون جمعاً بين جميع الآراء المتقدمة.

ويرد عليه بأنّ ما ذكره مع هذا التطويل، هو نفس ما ذهب إليه السيّد الشهرستاني والدكتور شريعتي، فيرد عليه ما أوردناه هناك.

السادس: العمل بالتكليف

من جملة النظريات المطروحة في تفسير أهداف النهضة الحسينية أنّ الإمام عليه السلام قام بنهضته من باب العمل بالتكليف. فقد ذكر الشيخ بيشوائي^(١) أنّ فلسفة النهضة الحسينية اختلّف التعبير عنها والتفسير لها بحسب اختلاف المباني الفكرية. وأهمّ هذه المباني ستة:

١. أصحاب التفسيرات الدنيوية الظاهرية.
 ٢. العرفاء والصوفية.
 ٣. المفكّرون المسيحيين.
 ٤. أنّه عليه السلام ظهر لطلب الشهادة.
 ٥. لتشكيل الحكومة.
 ٦. خرج لأداء تكليفه.
- ثمّ ذكر أنّ دراسة أهداف الثورة وفلسفتها لا بدّ أن يكون من الداخل لا من الخارج، بمعنى أنّ كلّ ثورة لا بدّ أن تُدرّس من خلال دراسة شخصية قائدها وأقواله وخطبه ورسائله وسلوكه قبل الثورة^(٢).

(١) بيشوائي، مهدي، تاريخ إسلام أز سقيفه تا كربلا (التاريخ الإسلامي من السقيفة إلى كربلاء): ج ٢، ص ٤٧٢.

(٢) وقد ذكر الشيخ البيشوائي بأنّ النصوص الواردة عن الإمام الحسين عليه السلام خالية من التصريح بإقامة حكومة أو الانتصار المادي الفعلي.

ومن هنا قام المؤلف بدراسة جملة من أقوال الإمام الحسين عليه السلام كمقدمة لأخذ النتيجة:

(أ) كلامه في مؤتمر الحج قبل هلاك معاوية بسنة، حيث ورد فيه أنه لم يقيم من أجل التنافس على الملك، بل الهدف هو إصلاح أمور الحكومة، وإنقاذ المظلومين، وإقامة الفرائض والسنن^(١).

(ب) ما كتبه عليه السلام لأخيه محمد من أنه خرج للإصلاح في أمة جده عن طريق الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والسير بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله، وسيرة أمير المؤمنين عليه السلام.

(ت) لما دخل مكة كتب لرؤساء قبائل البصرة: أنه يدعوهم لإحياء سنة رسول الله وإبطال البدعة.

(ث) لما التقى بجيش الحر ذكر لهم ما سمعه عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَنْ رَأَى سُلْطَانًا جَائِرًا مُسْتَحِلًّا لِحَرَمِ اللَّهِ... وَلَمْ يَغَيِّرْ عَلَيْهِ بِفِعْلٍ وَلَا قَوْلٍ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخُلَهُ مَدْخَلُهُ»^(٢).

(ج) في منطقة ذي حُصم ذكر فلسفة ثورته، وأن سببها هو ترك المعروف، وعدم ترك الباطل.

ثم استنتج المؤلف من جميع ذلك أن هذه النصوص تدلّ على أن الهدف هو العمل بالتكليف، وهذا هو الهدف من الثورة التي قادها عليه السلام.
ثم ذكر جملة من الآثار الاجتماعية والسياسية للثورة:

(١) ولكنّ المتأمل في خطاب الإمام الحسين عليه السلام في مؤتمر الحج لا يرى فيه دعوة لتغيير حكومة ولا إصلاحها، ولا إقامة فريضة أو سنة، بل كان كلامه عليه السلام يصب في بيان فضل أهل البيت عليهم السلام ومقامهم من خلال الآيات والأحاديث النبوية.

(٢) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣٠٤.

١. غضب وتنفر الأمة من بني أمية ومن الجيش الذي قاتل الإمام الحسين عليه السلام.
٢. فضح بني أمية، وقطع نفوذهم الديني.
٣. إحياء سنة الشهادة.

ويرد عليه أنه ذكر أن خروج الإمام الحسين عليه السلام وثورته من باب العمل بالتكليف، وهذا مما لا يختلف فيه أحد، إلا أن البحث حول الهدف من هذا التكليف ما هو؟ فهل تكليفه هذا يهدف للإطاحة بحكومة بني أمية واستلام زمام الأمور، أم أن الهدف هو الشهادة فقط، أم يهدف إلى شيء آخر؟

السابع: تخلص الدولة الإسلامية من الاستعمار الرومي

يقدم الشيخ فاضل الفراقي رحمه الله محاولة لبيان أهداف نهضة الإمام الحسين عليه السلام^(١)، حيث ذكر بأن ثورة الإمام الحسين عليه السلام لا يمكن حصر هدفها بفضح بني أمية؛ فإن انحلالهم وفسادهم كان واضحاً عند المسلمين. وقد أورد مجموعة شواهد على كون بني أمية لا يحتاجون إلى فضح، منها:

(أ) رؤيا النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن بني أمية ينزون على منبره، وقد نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾^(٢).

(ب) أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعن أبا سفيان وولديه يزيد ومعاوية ويزيد بن معاوية، كما لعن مروان وأباه^(٣).

(١) هيئة محمد الأمين الثقافية، الإمام الحسين عليه السلام من الميلاد وحتى الاستشهاد: ص ١٨١.

(٢) الإسراء: آية ٦٠.

(٣) يمكن المناقشة في هذه النقطة والتي قبلها بأنه لا يمكن الجزم بوضوح ذلك وشيوعه بين المسلمين، بعد أن منعت الحكومات أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم لمدة قد تصل إلى خمسين سنة قبل قيام الإمام الحسين عليه السلام، مضافاً للتضليل الإعلامي الذي مارسه حكومة معاوية. فالأجيال التي عاشت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخصوصاً في المدن النائية عن ثقافة علي عليه السلام وشيعته، فإنه لا يمكن إحراز معرفتها بهاتين النقطتين.

ت) اعترض المسلمون على معاوية حين أراد تنصيب يزيد، حتى مروان بن الحكم اعترض^(١)، وما ذلك إلا لوضوح فسق يزيد، وعدم لياقته لهذا المنصب^(٢).

(١) قال ابن قتيبة في الإمامة والسياسة: «ثم لم يلبث معاوية بعد وفاة الحسن رحمه الله إلا يسيراً حتى بايع ليزيد بالشام، وكتب بيعته إلى الآفاق، وكان عامله على المدينة مروان بن الحكم، فكتب إليه يذكر الذي قضى الله به على لسانه من بيعه يزيد، ويأمره أن يجمع من قبله من قريش وغيرهم من أهل المدينة، ثم يبايعوا ليزيد...»

فلما قرأ مروان كتاب معاوية أبى من ذلك، وأبته قريش. فكتب لمعاوية: إن قومك قد أبوا إجابتك إلى بيعتك ابنك، فأرأ رأيك. فلما بلغ معاوية كتاب مروان عرف أن ذلك من قبله. فكتب إليه يأمره أن يعتزل عمله، ويخبره أنه قد ولي المدينة سعيد بن العاص. فلما بلغ مروان كتاب معاوية، أقبل مغاضباً في أهل بيته، وناس كثير من قومه، حتى نزل بأحواله بني كنانة، فشكا إليهم، وأخبرهم بالذي كان من رأيه في أمر معاوية، وفي عزله واستخلافه يزيد ابنه عن غير مشورة مبادرة له. فقالوا: نحن نَبُك في يدك، وسيفك في قرابك. فَمَن رَمِيَتْ بنا أصبناه، وَمَن ضربَتْ بنا قطعناه. الرأي رأيك، ونحن طوع يمينك. ثم أقبل مروان في وفد منهم كثير، مَن كان معه من قومه وأهل بيته حتى نزل دمشق، فخرج فيهم حتى أتى سدة معاوية، وقد أذن للناس. فلما نظر الحاجب إلى كثرة مَن معه من قومه وأهل بيته، منعه من الدخول، فوثبوا إليه، فضربوا وجهه، حتى خلى عن الباب، ثم دخل مروان، ودخلوا معه، حتى إذا كان من معاوية بحيث تناله يده. قال: ... فأقم الأمر يا بن أبي سفيان وأهدئ من تأميرك الصبيان، واعلم أن لك في قومك نظراً، وأن لهم على مناوأتك وزراً... فغضب معاوية من كلامه غضباً شديداً، ثم كظم غيظه بحلمه، وأخذ بيد مروان، ثم قال: ...، فقد ولّيتك قومك، وأعظمتنا في الخراج سهمك، وأنا مجيز وفدك، ومحسن رفدك، وعلى أمير المؤمنين غناك، والنزول عند رضاك. فكان أول ما رزق ألف دينار في كل هلال، وفُرض له في أهل بيته مئة مئة». ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٥١. وانظر أيضاً: الأُميني، عبد الحسين، الغدير: ج ١٠، ص ٢٣٨.

(٢) ومن الشواهد التي يمكن تأييد هذا الرأي بها كلام يزيد بن مسعود النهشلي مع قومه حين جاءته رسالة الإمام الحسين عليه السلام، حيث قال لهم: (فقال: إن معاوية مات...، وقد قام ابنه يزيد شارب الخمر، ورأس الفجور، يدعي الخلافة على المسلمين، ويتأمر عليهم بغير رضا منهم، مع قصر حلم، وقلة علم، لا يعرف من الحق موطئ قدمه. فأقسم بالله قسماً مبروراً، لجهاده على الدين أفضل من جهاد المشركين). فهي صريحة بأن حال يزيد غير خافٍ على الأمة.

(ث) لم تكن سمعة معاوية بأفضل من سمعة ولده يزيد عليه السلام. ويدل على ذلك أقوال ابن عباس، وقيس بن سعد، وصعصعة وكثير من المسلمين، سواء في حرب صفين أم بعدها، مضافاً إلى كتب أمير المؤمنين والإمام الحسن والإمام الحسين عليهم السلام، وهي كتب مشتهرة بين المسلمين^(١).

وبعد هذه المقدمة يقول: إنَّ الخطر أكبر من بني أمية؛ فإنَّ هناك الدولة الرومانية، وإثم استطاعوا أن يتغلغلوا في الدولة الإسلامية عن طريق الكتاب والصنّاع والمنجمين والأطباء... وأنَّ بني أمية من حيث يعلمون أو لا يعلمون كانوا ينفذون مخطّط تلك الدولة.

مضافاً إلى جذور أخرى للقضية تقوّي هذا الاحتمال؛ فإنَّ هناك وشائج لبني أمية مع الروم، يمكن الإشارة لها إجمالاً:

١. عبد شمس جدّ بني أمية لم يكن عربياً، بل هو عبد رومي^(٢).
٢. اختلف أمية بن عبد شمس مع هاشم بن عبد مناف، فهاجر أمية إلى الشام، وسكنها ٢٠ عاماً.

٣. لمّا ولي عمر بن الخطاب الخلافة اختار أولاد أبي سفيان يزيد وأخاه معاوية

(١) ويمكن تأييد الشيخ الفراتي رحمته الله في كون بني أمية معلومين للأمة ولا يحتاج فضحهم وبيان واقعهم إلى إرافة دماء مقدّسة كالدماء التي أسيلت في كربلاء، بأنَّ النبي صلى الله عليه وآله طرد مروان مع أبيه الحكم إلى الطائف، وبقي فيها إلى حين خلافة عثمان، وهي قضية شاع صيتها بين المسلمين. مضافاً إلى قوله صلى الله عليه وآله حين جيء له بمروان وهو رضيع، فقال: ... الوزغ ابن الوزغ... علاوة على ذلك فإنَّ الأمة جرّبت حكومة بني أمية في خلافة عثمان بن عفان، وقد نعمت عليه، واثارت عليه وقتلته. وهي حكومة اشترك فيها جميع بني أمية ولمدة إحدى عشر سنة أو أكثر.

(٢) لم أجد ما يؤيد كون عبد شمس عبداً رومياً، نعم قال أبو القاسم الكوفي في الاستغاثة: «وكان عبد شمس بن عبد مناف أخا هاشم بن عبد مناف قد تبنّى عبداً له رومياً، يقال له: أمية، فنسبه عبد شمس إلى نفسه. فنسب أمية بن عبد شمس فدرج نسبه كذلك إلى هذه الغاية. فأصل بني أمية من الروم ونسبهم في قریش». أبو القاسم الكوفي، علي بن أحمد، الاستغاثة: ج ١، ص ٧٦.

لولاية الشام^(١).

٤. إنّ زوجة معاوية أمّ يزيد لعنه من قبيلة مسيحية.

٥. إنّ يزيد بن معاوية تربى عند أخواله المسيحيين.

٦. كما أنّ يزيد بن معاوية لما أراد معلماً لولده خالد اختار له معلماً مسيحياً.

كما ذكر الشيخ الفراتي مجموعة أمور تبين تأثر الحكومة الأموية بالإمبراطورية الرومانية، منها:

(أ) أنّ توارث الملك من سنن الروم الواضحة؛ ولذا قالها صراحة عبد الرحمن بن أبي بكر^(٢).

(ب) أوّل ما تسلّم معاوية السلطة سنة ٤٢ هـ صالح الروم.

(ت) معاوية أوّل من استعمل النصارى في دولته.

(ث) أوّل من لبس لباس القياصرة وبنى بناءهم واستعمل الخصيان.

(ج) ملك الروم يساعد معاوية في القضاء على الإمام الحسن عليه السلام. وليس ببعيد أنّ لهم دخلاً في قتل أمير المؤمنين عليه السلام، خصوصاً وأنّ عبد الرحمن بن ملجم^(٣) كان

(١) تقدّمت الإشارة إلى أنّ هناك ارتباطاً بين هذه الولاية المهداة وبين وصول عمر وأبي بكر للسقيفة، مع كونهما من أقل قبائل قريش شأنًا، ودفاع أبي بكر عن أبي سفيان، ولماذا ثار أبو سفيان عليهما في بداية الأمر ثمّ سكت عنهما.

(٢) المغربي، القاضي النعمان، شرح الأخبار: ج ٢، ص ١٥٨. ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج ٣٥، ص ٣٥.

(٣) عبد الرحمن بن ملجم التجوي الحميري لعنه من اليمن، سكن أجداده مع بني مراد قرب نجران ونُسبوا إليهم. ثمّ هاجر ابن ملجم لعنه إلى المدينة، وتعلّم القرآن عند معاذ بن جبل المعادي لعلي بن أبي طالب عليه السلام. ثمّ شهد فتح مصر، واستقرّ بها. فكتب عمر بن الخطاب إلى واليه في مصر عمرو بن العاص لعنه أن يقربه ويوسّع داره ويجعلها قرب المسجد؛ ليتعلّم الناس منه القرآن. ثمّ جاء الكوفة أيام صفين، فصار مع الخوارج. ولكنّ الإعلام الأموي والعباسي لا يفتأ يتهم شيعة الكوفة، بحيث يُصوّر للأذهان أنّ ابن ملجم من شيعة الكوفة. أنظر: السمعاني، عبد الكريم بن

يهودياً بحسب رواية النبي ﷺ، وكذا يدلّ عليه قول أمير المؤمنين عليه السلام: «قتلني ابن اليهودية»، وأن معاوية هو الذي دبّر المكيدة لقتله عليه السلام على بعض الأقوال. وأنّ قطام التي أعانت ابن ملجم هي الأخرى يهودية أيضاً.

ومن جميع ما تقدّم يرى الشيخ فاضل الفراتي رحمه الله أن هدف الثورة الحسينية ليس فضح بني أمية؛ فإنّ الأمة تعرفهم حق المعرفة، وإنّما الهدف من خروجه عليه السلام هو إنقاذ الحكومة الإسلامية من الاستعمار الروماني واستيلائهم قبل أن يستحذوا على الدولة بأكملها، وبذلك لا يبقى من الإسلام شيء يُذكر.

إنّ ما ذكره الشيخ الفراتي على دقته وتضمّنه أموراً مهمّة، لكنّه خالٍ من الشواهد على كون خروج الإمام عليه السلام كان لتخليص الدولة الإسلامية من الخطر الروماني، ولا توجد حتى إشارة، ولو من بعيد إلى ذلك.

مضافاً إلى أنّ الهدف من حركة الإمام الحسين عليه السلام لو كان هو الوقوف في وجه الخطر الخارجي الرومي، لكان الأولى له والأفضل أن يصرح عليه السلام بذلك، ويضع الخطة لدفعه، وأنّ يوجّه فكر الأمة نحو هذا الهدف، حتى يكون القتال مع الأجنبي، وليس قتالاً داخلياً يُضعف الأمة، وينهك قواها، فتكون لقمة سائغة أمام عدوها الرومي.

الثامن: نشر أحاديث النبي ﷺ وسنته

قدّم السيّد سامي البدري مقدّمةً تبينّ الوضع السياسي والاجتماعي قبل بيان

محمد التميمي، الأنساب: ج ١، ص ٤٥١. ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، اللباب في تهذيب الأنساب: ج ١، ص ٢٠٩. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، لسان الميزان: ج ٣، ص ٤٤٠. الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس: ج ١، ص ٣٢٠. العاملي، جعفر مرتضى، الصحيح من سيرة النبي الأعظم ﷺ: ج ٢٣، ص ٢١٦. الكوراني، علي، مع عبد الهادي الربيعي، قبيلة حمير القحطانية: ج ٩، ص ٧.

نظريته في تحديد أهداف الثورة الحسينية، خلاصتها^(١): «أنَّ النبي ﷺ جاء بمشروع إلهي لإصلاح المجتمع وهدايته، ومن أجل حفظ المشروع وضمان استمراريته رفع شعار: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي»؛ فإنَّها دعامة المشروع وأساسه. فالكتاب يمثل الدستور، وأهل البيت ﷺ يمثلون المفسر والمنفذ له؛ لتمتعهم بخصائص لم تكن لغيرهم.

إلا أنَّ قریشاً - والتي تُكنُّ العداوة لعبد المطلب وأولاده - لم يرق لها ذلك، فأخذت تخطط لمشروع يحفظ لها مكانتها، ويقضي على مشروع النبي ﷺ (مشروع آل عبد المطلب بحسب فهمها)، فرفعت (حسبنا كتاب الله) شعاراً لها في مقابل شعار رسول الله ﷺ، ومنعت تفسير القرآن بحسب ما ورد عن النبي ﷺ. وبذلك أغلقت الباب أمام السلطة التنفيذية والتفسيرية.

ثم فتحت الباب للخليفة القرشي أن يشرع ما يراه، وجعلوا سننه وسيرته من مصادر التشريع، وألزموا من يأتي بعده بالعمل بها؛ ولذا اشترطوا ذلك على أمير المؤمنين ﷺ بعد خلافة عمر، فرفضها^(٢)، ولم يعطهم المشروعية فيها. فلمَّا وصل الدور إلى الخليفة القرشي الثالث أضاف تشريعات جديدة، من أهمها وأخطرها غرس بني أمية في كافة مفاصل الدولة، فأصبح شبانهم وسفهاؤهم ولاة رغم فسقهم، ورغم طرد رسول الله ﷺ لبعضهم من مدينته، ورغم خلوهم من الخبرة وسائر المواصفات التي تؤهلهم لإدارة البلاد.

فكان على الإمام الحسين ﷺ - الوارث الشرعي لرسول الله ﷺ - أن يواجه هذا

(١) البدرى، سامي، الإمام الحسين ﷺ في مواجهة الضلال الأموي: ص ٧٨.

(٢) حيث قال عبد الرحمن بن عوف لأمر المؤمنين ﷺ: أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه وسيرة الشيخين. فجعلها من مصادر التشريع، فرفض أمير المؤمنين ﷺ ذلك، وقال: على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

المشروع، ويوقف حركته المتسارعة، وينصر مشروع السماء، ويصلح ما أفسده حزب الشيطان الطلقاء.

فكان عمله ﷺ على مرحلتين:

المرحلة الأولى (في زمن معاوية): وتتمثل هذه المرحلة بالعمل السري، وتوصية أصحابه بذلك، كقوله لهم: «... فألصقوا بالأرض، وأخفوا الشخص، واكتموا الهوى، واحترسوا من الأظاء ما دام ابن هند حياً...»^(١). فكان أصحابه وشيعته يختلفون إليه، فيأخذون منه معالم دينهم ودنياهم، كما تشير الشواهد الكثيرة إليه، وكما يدل عليه مؤتمر الحج الذي عقده الإمام الحسين ﷺ قبل هلاك معاوية بسنة أو سنتين.

المرحلة الثانية (بعد هلاك معاوية): العمل العلني برفض بيعة يزيد، والتحدث بالروايات النبوية، وكسر قانون حظرها. وكان أفضل مكان لممارسة هذه المهمة هو مكة في موسم العمرة والحج.

وهذه المرحلة تحتاج إلى حفظ حياة الإمام الحسين ﷺ وحمايته لفترة من الزمن؛ ليتمكن من إيصال رسالته إلى أكبر عدد ممكن من المسلمين، والحفظ متوفر في حضور بني هاشم حول الإمام الحسين ﷺ. كما يحتاج إلى تهيئة قاعدة جماهيرية تحتضن مشروع الإمام ﷺ وترحب به، وقد توفر له من خلال قواعده وشيعته في الكوفة.

فتحرك ﷺ إلى مكة ليسمع العالم الإسلامي برمته من خلال الاستفادة من موسم الحج، فلما أحس بالخطر خرج إلى قواعده في الكوفة بعد دعوتهم له، وأخذ البيعة منهم عن طريق سفيره مسلم بن عقيل ﷺ.

(١) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٣، ص ١٥٢.

وهو - مع كل ذلك - عالمٌ بنتيجة حراكه هذا، وقد أطلع الخواص على النتيجة الحتمية لحركته وقيامه، وهي الشهادة.

فبحسب نظر السيّد البدري أنّ الهدف من قيام الإمام الحسين عليه السلام - في كلا المرحلتين - أمران:

١. كسر الطوق المفروض على أحاديث النبي صلى الله عليه وآله في أهل بيته عليه السلام.

٢. إفهام الأمة بعدم لزوم طاعة بني أمية.

وقد تحقّق كلا الأمرين له عليه السلام، حيث شاعت أحاديث النبي صلى الله عليه وآله التي نقلها الإمام عليه السلام، وأصبحت على كلّ لسان من خلال نقل تفاصيل حركة الإمام، وأقواله وخطبه وكتبه. كما علمت الأمة بأنّ ما يدعى لبني أمية من كونهم خلفاء النبي صلى الله عليه وآله لم يكن صحيحاً؛ فإنّهم طلقاء هذه الأمة، وإنّهم نواصب حيث قتلوا ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله التي أمر النبي بحبهم ومودتهم، ولا يجب الخضوع والطاعة لهم، ولا يجوز تكفير من خرج عليهم بعد أن خرج عليهم ابن بنت رسول الله وسيد شباب أهل الجنة.

ويرد على هذه النظرية أنّ الأمر الأوّل - بحسب نظر السيّد البدري - يُعدّ أهمّ آثار صلح الإمام الحسن عليه السلام، فكيف جعلها مرّة أخرى أهمّ نتيجة لشهادة الإمام الحسين عليه السلام؟ مضافاً إلى أنّه لم يذكر شاهداً واحداً على ذلك؛ فإنّ الأئمة من ولد الحسين عليه السلام كانوا محاصرين يعملون بالتقية، ولم يكن متاحاً لهم ولا لشيعتهم التحدّث بهذه الأحاديث. وأمّا الأحاديث التي تُروى أثناء حركة الإمام الحسين عليه السلام فهي مجموعة قليلة جداً قد لا تتجاوز عشر روايات نبوية إن بالغنا فيها.

وأمّا الأمر الثاني، فلا يمكن جعله من أهداف النهضة التي ضحّى الإمام الحسين عليه السلام من أجلها بنفسه وخيرة أهل الأرض من أهل بيته وشيعته؛ فإنّ المسلمين جميعاً يعلمون ذلك من خلال القرآن وسنة النبي صلى الله عليه وآله. ولو فرضناه هدفاً

فأين تحقق؟! فإنَّ أهل المدينة ثاروا بعد سنتين من مقتل الإمام الحسين عليه السلام بسبب تحريض ابن حنظلة. وثورة أهل مكة بتحريض من عبد الله بن الزبير، وكلا الثورتين غير مؤيدتين عند أئمة أهل البيت عليه السلام.

وأما شيعة أهل البيت عليه السلام في الكوفة، فهم متحمسون قبل موت معاوية، وكان الإمام الحسين عليه السلام يأمرهم بالصبر إلى أن مات معاوية، وهكذا فهي مستمرة.

التاسع: إصلاح النظام الإسلامي السياسي والفكري والاقتصادي

تبدأ النظرية التي طرحها الدكتور المصري بمقدمة، خلاصتها^(١): أنَّ الإسلام هو دين العدالة، بل العدالة تُمثِّل الأصل الأساس في الدين الإسلامي، فهو دين سماوي جاء لبسط العدالة التي هي إعطاء كل ذي حقَّ حقه، وحينئذٍ حتى التوحيد إنما يرجع إلى العدالة؛ لأنَّه إعطاء الباري تعالى حقه، بخلاف الشرك فإنَّه ظلم له ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(٢). وهكذا سائر الأصول والفروع.

وهناك آيات وروايات تدلُّ على ذلك، منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكُؤُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾^(٣)، وجاء في وصية أمير المؤمنين عليه السلام لولديه الحسن والحسين عليه السلام: «كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً»^(٤)، ولم يقل: كونا للكافر خصماً

(١) محاضرة للدكتور أيمن المصري، ألقاها في مؤسسة وارث الأنبياء للدراسات التخصصية في النهضة الحسينية، تحت عنوان: المبادئ العالمية في النهضة الحسينية نحو خطاب حسيني عالمي، بتاريخ: ٢٠١٥/١٠/٧م.

(٢) لقمان: آية ١٣. ولا شك أنَّ أصالة العدالة للتوحيد، وكونها أصله بحسب مبادئ العقل العملي القائمة على التحسين والتقيح، لا بحسب مبادئ العقل النظري القائمة على البداهة، والتي يتفرَّع عليها العقيدة؛ فإنَّ التوحيد - حينئذٍ - هو الأصل لجميع العقائد.

(٣) هود: آية ١١٣.

(٤) نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي لخطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام (تحقيق محمد عبده): ج ٣، ص ٧٦.

وللمسلم عوناً. وكذا الرواية التي تتحدث عن ظهور الإمام الحجة عليه السلام، تقول: «يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، بعدما مُلئت ظلماً وجوراً»^(١).

فالإسلام جاء لمحاربة الظلم ومواجهته، وبسط العدل وإقامته، كما هو مدلول آيات وروايات كثيرة، وأن أعداءه هم الظلم والظالمون.

ولذا نجد أن الأساس لمذهب أهل البيت عليهم السلام هو إقامة العدل ومحاربة الظلم، حتى حرّموا على أتباعهم إعانة الظلمة ومنّ والاهم، ففي مضامين بعض الروايات أن بني أمية لو لم يجدوا من يصلي خلفهم، ويرفع راياتهم، ويجبي لهم الزكاة، ما غصبونا حقنا^(٢).

بخلاف المذاهب الأخرى؛ فإن الأصل عندهم هو محاربة الكفر لا الظلم؛ لذا لا تجد عندهم حرجاً في مساعدة الظالم والانتفاء إليه ما دام هو الحاكم، ولم يخرج

(١) أنظر: الصدوق، محمد بن علي، كمال الدين وتمام النعمة: ص ٢٢.

(٢) عن علي بن أبي حمزة قال: «كان لي صديق من كتاب بني أمية فقال لي: استأذن لي عن أبي عبد الله عليه السلام، فاستأذنت له عليه فأذن له، فلما أن دخل سلّم وجلس، ثم قال: جُعِلْتُ فداك، إني كنتُ في ديوان هؤلاء القوم، فأصبْتُ من دنياهم ما لا كثيراً، وأغمضْتُ في مطالبه. فقال أبو عبد الله عليه السلام: لولا أن بني أمية وجدوا من يكتب لهم، ويجبي لهم الفسيء، ويقاتل عنهم، ويشهد جماعتهم، لما سلبونا حقنا. ولو تركهم الناس وما في أيديهم ما وجدوا شيئاً إلّا ما وقع في أيديهم. قال: فقال الفتى: جُعِلْتُ فداك فهل لي مخرج منه؟ قال: إن قلتُ لك تفعل؟ قال: أفعل، قال له: فاخرج من جميع ما اكتسبت في ديوانهم، فمَن عرفت منهم رددت عليه ماله، ومَن لم تعرف تصدّقت به، وأنا أضمن لك على الله عز وجل الجنة. قال: فأطرق الفتى رأسه طويلاً، ثم قال: قد فعلتُ جُعِلْتُ فداك. قال ابن أبي حمزة: فرجع الفتى معنا إلى الكوفة، فما ترك شيئاً على وجه الأرض إلّا خرج منه، حتى ثيابه التي كانت على بدنه. قال: فقسمتُ له قسمة، واشترينا له ثياباً، وبعثنا إليه بنفقة. قال: فما أتى عليه إلّا أشهر قلائل حتى مرض، فكنّا نعوّده. قال: قد خلتُ عليه يوماً وهو في السوق، قال: ففتح عينيه، ثم قال لي: يا عليّ، وفي لي - والله - صاحبك، قال: ثم مات، فتولّينا أمره، فخرجتُ حتى دخلتُ عليّ أبي عبد الله عليه السلام، فلما نظر إليّ قال: يا عليّ، وفينا - والله - لصاحبك. قال: فقلتُ: صدقتُ جُعِلْتُ فداك، وهكذا والله قال لي عند موته». الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٥، ص ١٠٦.

عن الدين. وكلّ مَنْ أرادوا محاربته اتهموه بالكفر أولاً، ثمّ أفتوا بمحاربته. بعد هذه المقدّمة، يقول الدكتور أيمن: إنّ الإمام الحسين عليه السلام نهض بشورة إصلاحية، تحمل شعار: «إنّما خرجتُ لطلب الإصلاح في أمة جدي رسول الله ﷺ». وهذا يعني أنّ الإمام عليه السلام يرى وجود فساد وانحراف عميق في الأمة، يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أقسام:

الأول: تحريف النظام السياسي للإسلام، ويتمثّل بأُمور، منها:

١. إقصاء الحاكم الشرعي المكلف من قبل الباري تبارك وتعالى بتطبيق الشريعة والنظام الإسلامي.

٢. ترسيخ أنظمة عشوائية في تعيين الخليفة بعد رسول الله ﷺ، فالخليفة الأوّل جاء بما يسمّونها بنظرية الفلّة، والثاني جاء بالتنصيب، والثالث بالشورى. ثمّ قامت الأمة بثورة وانقلاب عسكري ضدّ ظلم الثالث، فقتلوه ثمّ أجبروا أمير المؤمنين عليه السلام ليتسلّم زمام الأمور، فصار هو الخليفة الرابع. ولا يوجد نظام سياسي موحد يبيّن كيفية تعيين الخليفة، بل توجد أنظمة عشوائية.

٣. فصل الدين عن السياسة. وعلّته إمّا الجهل بمعنى الدين، أو الجهل بمعنى السياسة. فقد فسّروا الدين بالمراسم والطقوس العبادية، وفسّروا السياسة بالسلطة، وكيفية الوصول إليها والحفاظ عليها. فرسّخوا مبدأ العلمانية إلى يومنا هذا، وسلّبوا أهمّ حقّ من حقوق الحاكمية عن الباري تبارك وتعالى، وهو حقّ تعيين الحاكم الذي يطبّق شريعته على المجتمع.

أمّا إذا فسّرنا الدين والسياسة بما هو الحقّ، من أنّ الدين: هو عبارة عن منظومة العدالة الإلهية، والسياسة: هي تدبير المجتمع على أساس العدالة، فلا فصل بينهما؛ فإنّ أحدهما يمثل التشريع، والآخر يمثل التطبيق، فهما شيء واحد.

الثاني: تحريف النظام الاقتصادي بعيداً عن المقاصد الشرعية العادلة في توزيع الثروة، من خلال استباحة بيت المال لهم، وللخواص من ذويهم، ولمن يعمل لمصالحهم، وحرمان سائر أبناء الأمة منه. وقد ظهر بأبرز حالاته في زمن الخليفة الثالث.

الثالث: تحريف النظام الفكري والثقافي، وهو أخطر الثلاثة، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال أمور:

١. محاربة العقل وإيجاد الضدية بين العقل والدين، بحيث تكونت ثقافة عامة على ذلك، وقد أدى إلى ظهور التيارات العقلانية في الأمة الإسلامية، وعلى رأسها التيار الأشعري الذي شرعن للظلم، والتيار الصوفي الذي أسقط المسؤولية الدينية، فصار أفيوناً للشعوب.

٢. منع التفسير الصحيح للقرآن الكريم، ومنع السؤال عنه. روى المتقي الهندي أنه جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، ما (النازعات غرقاً)^(١)؟ فقال عمر: مَنْ أنت؟ قال: امرؤ من أهل البصرة من بنى تميم، ثمّ أحد بنى سعد. قال: من قوم جفاعة، أما إنك لتحمّلنّ إلى عاملك ما يسوؤك. ولهزه حتى فرت قلنسوته، فإذا هو وافر الشعر، فقال: أما إنّي لو وجدتُك مخلوقاً ما سألتُ عنك. ثمّ كتب إلى أبي موسى: أمّا بعد، فإنّ الأصبع بن عليم التميمي تكلف ما كُفّي، وضيّع ما ولي، فإذا جاءك كتابي هذا فلا تباعوه، وإن مرض فلا تعودوه، وإن مات فلا تشهدوه^(٢).

وقال معاوية لابن عباس: إنّنا كتبنا في الآفاق ننهي عن ذكر مناقب عليّ فكُفّ لسانك، قال: أفنتهاننا عن قراءة القرآن؟ قال: لا، قال: أفنتهاننا عن تأويله؟ قال:

(١) يريد قوله تعالى: ﴿وَالْتَرَعَتِ غَرْقًا﴾. النازعات: آية ١.

(٢) المتقي الهندي، علي بن حسام الدين، كنز العمال: ج ٢، ص ٣٣٧.

نعم، قال: أفنقرأه ولا نسأل؟! قال: سل عن غير أهل بيتك. قال: إِنَّهُ مُنَزَّلَ عَلَيْنَا
أَفَنَسْأَلُ غَيْرِنَا؟! أَتُنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ؟! فَإِذَا تَهَلَّكَ الْأُمَّةُ. قال: اقرؤوا ولا ترووا ما
أنزل الله فيكم^(١).

٣. منع كتابة حديث النبي ﷺ وسُنَّتِهِ والحديث عنها. وقد استمر ذلك ١٥٠
سنة تقريباً.

وهذا يعني منع مصادر التشريع كلّها من العقل والنقل.

٤. تغليب منطق القوة على منطق العقل، وتغليب المبادئ الانتهازية على
المبادئ الإنسانية.

٥. غياب البرنامج التربوي والتعليمي للحاكم، مع أنّه وظيفة الحاكم
الأساسية؛ ولذا يقول القرآن الكريم: ﴿وَيُزَكِّهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ﴾^(٢)، وقال
النبي ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا»^(٣)، «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(٤). وهذا هو
المتفق عليه عند الحكماء.

أمّا الذين جاؤوا بعد رسول الله ﷺ فلم يكن لهم أيّ دور، بل كانوا حكاماً
عسكريين وسياسيين، ولذا كان جُلُّ اهتمامهم بحفظ حكومتهم والانشغال
بافتوحات.

فالإمام الحسين عليه السلام نهض لإصلاح جميع هذه الأمور في الأقسام الثلاثة؛
للتحقّق العدالة.

(١) أنظر: ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب: ج ٢، ص ١٧٤.

(٢) آل عمران: آية ١٦٤.

(٣) الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن، سنن الدارمي: ج ١، ص ١٠٠.

(٤) الطبرسي، الفضل بن الحسن، تفسير مجمع البيان: ج ١٠، ص ٨٦. أنظر أيضاً: المازندراني، محمد
صالح، شرح أصول الكافي: ج ٨، ص ٣٢. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢١٠.

ومن خلال ما تقدّم نعرف الربط بين ما جاء به النبي ﷺ وما قام به الإمام الحسين عليه السلام وما سيأتي به الإمام المهدي عليه السلام؛ فإنّ الجميع لهم مشروع واحد وهو بسط العدالة وتطبيقها بأفضل صورها على المجتمع الإنساني أجمع، وإنّ العدالة متمثلةٌ بالشريعة الإسلامية التي جاء بها النبي ﷺ ورضيها الله لعباده يوم الغدير، حيث قال: ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١).

ونفس هذه الشريعة المرضية ستكون هي الحاكمة في دولة الإمام المهدي المنتظر عليه السلام، حيث نخبرنا القرآن الكريم عن ذلك بقوله: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ (٢)، فإنّ دينهم هو نفسه الدين الذي ارتضاه المولى تبارك وتعالى في الآية المتقدمة التي تتحدّث عن واقعة الغدير.

ولكن يبقى أنّ هذه النظرية ساكتة عن كيفية تحقيق هذا الإصلاح، ولم تبين الهدف من نهضته، فهل نهض الإمام عليه السلام لإقامة الحكومة أو أراد أن يحقق الإصلاح بوسيلة أخرى؟

الرأي المختار

ولعلّ ما يمكن الانتهاء إليه والخلود له هو أنّ الهدف من خروج الإمام الحسين عليه السلام هو الإصلاح. وأنّ هذا الإصلاح يراد له أن يكون شاملاً لجميع مجالات الحياة التي عجت بالفساد، فهو إصلاحٌ من سنخ الإصلاح الذي جاء به رسول الله ﷺ؛ ولذا قال عليه السلام: «وأسير بسيرة جدّي رسول الله وأبي عليّ بن أبي طالب»، وإصلاح رسول الله ﷺ كان منصباً على فكر الأمة وثقافتها - كما تقدّم بيانه

(١) المائدة: آية ٣.

(٢) النور: آية ٥٥.

في المبحث الثاني من الفصل الأوّل - فأمنت به أُمّته، وبها أسّس دولته.
وعليه؛ فأساس الإصلاح هو الإصلاح الثقافي والفكري للأمة المؤدّي بطبيعة الحال إلى الإصلاح السلوكي.

وهذا هو المراد تحقّقه في نهضة الإمام الحسين عليه السلام؛ فإنّ جميع تحركاته عليه السلام وخطبه وكلماته تنسجم مع هذا التفسير منذ بداية إرهابات التغيير المنشود، الذي يمكن تحسّسه من المؤتمر الذي عقده في مكة، في موسم الحج قبل هلاك معاوية، حيث جمع الصحابة والتابعين الذين يوثق بهم، وكان تعدادهم سبعمائة شخص، مضافاً إلى بني هاشم ومواليهم، حتى أوصلهم البعض إلى أكثر من ألف^(١).

وهكذا عدد هو - في الحقيقة - جيش إعلامي كبير لا يمكن الاستهانة به، خصوصاً وأنّهم من بلاد شتى.

فيأخذ الإمام عليه السلام هذا الجيش الإعلامي ويوصيهم بالحذر والحيلة، ثمّ يأمرهم أن يكتبوا كلامه ويحفظوه، ثمّ ليبلّغوه إلى سائر المسلمين ممّن يثقون بهم حين رجوعهم إلى بلدانهم.

ثمّ يبيّن عليه السلام لهم المادة الإعلامية التي يُراد لها أن تنتشر، وتصل إلى كافة مناطق العالم الإسلامي.

وهذا حدث كبير يحتاج إلى وقفة تأمل وبحث ودراسة، فهو حدثٌ يشكّل منعطفاً في مسيرة أهل البيت عليه السلام مع الحاكم الظالم.

(١) قال الشيخ الطبرسي رحمه الله: «فلما كان قبل موت معاوية بستين حجّ الحسين بن علي عليه السلام، وعبد الله بن جعفر، وعبد الله بن عباس معه. وقد جمع الحسين بن علي عليه السلام بني هاشم، رجاءهم ونساءهم، ومواليهم، وشيعتهم، من حجّ منهم ومن لم يحجّ، ومن الأنصار ممّن يعرفونه، وأهل بيته. ثمّ لم يدع أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن أبنائهم والتابعين، ومن الأنصار المعروفين بالإصلاح والنسك إلّا جمعهم؛ فاجتمع عليه بمنى أكثر من ألف رجل». الطبرسي، الفضل بن الحسن، الاحتجاج: ج ٢، ص ١٨.

فالإمام عليه السلام يجلس في صحراء منى، حيث يجتمع جميع حجاج بيت الله، لا يشدّ منهم أحد، فيجتمع له هذا العدد الكبير، ثم أخذ يحدثهم.. فما هو المضمون الذي طرحه عليهم والذي أوصاهم بكتابته وتبليغه؟ ما هو المضمون الذي طرحه ليعالج به المشكلة التي افتتح بها كلامه: «فإنّ هذا الطاغية قد فعل بنا وبشيعتنا ما قد رأيتم وعلمتم وشهدتم». فما هو الحل لهذه المشكلة؟

وإذا بالحلّ هو أن تدعوا الناس إلى ما تعلمون من حقّنا. فإن لم تفعلوا: «فإني أتخوّف أن يدرّس هذا الأمر ويذهب الحق ويغلب، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون». تقول الرواية: فلم يدع شيئاً ممّا ذكره القرآن والنبي ﷺ في أهل البيت عليه السلام إلا ذكره وأشهدهم على سماعه، فشهدوا بأجمعهم بأنّهم سمعوه من رسول الله ﷺ، وشهد التابعون أنّهم سمعوه ممّن يثقون به. ثم قال لهم: «أنشدكم الله إلا حدّثتم به من يثقون به وبدينه».

ويستفاد من خطاب الإمام الحسين عليه السلام في مؤتمر الحج:

١. جمع الإمام الحسين عليه السلام بني هاشم رجالاً ونساء ومواليهم، ودعا الصحابة والتابعين الذين يوثق بهم، فكانوا سبعمائة نفر أو أكثر من ألف نفر على قول آخر.

٢. افتتح عليه السلام كلامه بتذكيرهم بما فعله الطاغية بأهل البيت عليه السلام وشيعتهم، ولم يذكر لهم شيئاً آخر.

٣. أكّد عليه السلام عليهم أن يستمعوا جيداً لما يقول فيصدّقونه إن صدق، وينكروا عليه غير الصدق.

٤. أكّد عليه السلام أن يدوّنوا ما يسمعون منه.

٥. أقسم عليهم أن إذا عادوا إلى بلادهم أن يدعوا من يثقون به من أهلهم وأصحابهم وعشيرتهم، وأن يعرفوهم بهذا الأمر وبفضل أهل البيت عليه السلام.

٦. أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يترك آيةً من كتاب الله تدلّ على فضل أهل البيت عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا تلاها على مسامعهم، وعَرَّفَهَا لهم. كما لم يدع حديثاً عن رسول الله ﷺ في فضلهم ومقامهم وخلافتهم، وبيان حال أعدائهم وخبثهم ونفاقهم وكفرهم إِلَّا وأورده.

فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ اختار موسم الحج؛ لأنّه مجمع المسلمين من كلّ البلاد وبأعداد كبيرة، مضافاً إلى ما تعيشه النفوس من حالة القرب والخشوع. وهذا بحدّ ذاته ثورة ثقافية سريعة المفعول مترامية الأطراف، بحيث شملت جميع بلاد المسلمين، كما حدّد لهم المشكلة وأعطاهم المادة التبليغية، بحيث ذكّروهم بجميع الآيات والروايات الدالة على فضلهم وإمامتهم. واعتبر ذلك هو الردّ المناسب للمشكلة التي طرحها في مستهل حديثه، وهي فعل طاغية الشام لعنه الله بأهل البيت عَلَيْهِ السَّلَامُ وبشيعتهم، كما هو كسر للطوق المفروض على أحاديث النبي ﷺ، وتزييف لما يرويّه رواة السوء المأجورين ضدّ أهل البيت عَلَيْهِ السَّلَامُ وتفضيل غيرهم، وبخطوة سريعة وواسعة النطاق.

فالإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ يريد نشر ثقافة غير الثقافة التي عملت السلطات على تكريسها في ذهن الأمّة، ثقافة أريد لها النسيان والخبول بعد ما أكّد عليها النبي ﷺ، وأنّ هذه الثقافة هي أساس الخير، ومنشأ كلّ صلاح منشود، وهي ثقافة أنّ السلطة التشريعية والتنفيذية منحصرة فيمن يختاره الله تبارك وتعالى بعلمه وحكمته، وأنّه لا يختار لهم إِلَّا ما فيه مصلحتهم ممّن اجتمعت فيه كلّ صفات الخير والكمال من العلم والحلم والحكمة والشجاعة والتقوى والزهد في الدنيا.

فعلى الأمّة أن تلتفت حول من نصبه الله تعالى لهم، وأن ينصروا أولياء الله. روى الشيخ الصدوق رحمه الله في علله عن الإمام أبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: «خرج الحسين بن عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ على أصحابه فقال: أيّها الناس، إنّ الله جلّ ذكره ما خلق العباد إِلَّا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه. فقال له

رجل: يابن رسول الله، بأبي أنت وأُمِّي، فما معرفةُ الله؟ قال: معرفةُ أهل كلِّ زمانٍ إمامهم الذي يجب عليهم طاعته»^(١).

وهكذا يمكن قراءة هذا المعنى بوضوح من حركة الإمام عليه السلام وخطاباته في المدينة، وفي مكة، وفي الطريق، ومع جيش الحر، ومع جيش ابن سعد، وفي كتبه إلى رؤساء قبائل البصرة، وإلى أهل الكوفة. خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار أنَّ الإصلاح الحسيني مستمرٌّ، وليس مقيّداً بزمانه عليه السلام؛ ولذا حمل الأئمة من ولده صوت نهضته. فجميع كلماته عليه السلام تدور حول محور أساسي، وهو الالتفات إلى رأي الإسلام في الحاكم، وأنَّ الأئمة لا بدَّ أن تحمل هذه الثقافة حول مَنْ يحكمها، وتدافع عنه بكلِّ ما استطاعت، وألاَّ يسمحوا بتبديلها وفق الرغبات والأهواء الشخصية.

لقد حاول الإمام الحسين عليه السلام أن يوصل فكرته ويجعلها ثقافة اجتماعية، بمعنى أنَّه أراد لها أن تتحوَّل إلى معتقدات وعادات وطقوس وفن، وهذا هو معنى الثقافة. فقد أكمل عليه السلام الفكرة الإصلاحية، واستطاع أن يوصلها إلى مسامع أكبر عدد من أبناء الأئمة، ثمَّ خطَّط لها لتبقى بعده حية تمارس دورها، فختمها بالشهادة المروعة؛ ممَّا أدَّى إلى أن تبرز الفكرة بالعاطفة، وتنسجم العقيدة مع العادات والتقاليد والفن، فتشكل نهضة الحسين كثقافة في مسيرة الأئمة الإسلامية، بل في مسيرة الإنسانية.

فهي تحمل معتقد الإمامة وعادات إقامة المآتم، وعاطفة البكاء وفن الشعر والرثاء وغيرهما من الفنون؛ ممَّا حفظ لها الحياة والاستمرار. فشقت نهضة الحسين عليه السلام طريقها في وسط الأئمة حتى استطاع قائدُها أن يجعل منها تياراً على مرَّ الدهور يمارس دوره الإصلاحية، ويسقي ثقافته فيجعلها حية لا تموت، ولا تبرد حرارتها.

(١) الصدوق، محمد بن علي، علل الشرائع: ج ١، ص ٩.

وهذا يعني أنّ الإمام الحسين عليه السلام خطّط لمشروعه الإصلاحية الثقافي وخطّط لانتشاره في حياته، وبعد شهادته.

بل يمكن أن يقال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله خطّط لبقاء شريعته ورسالاته وليحفظها من الموت والتحريف، فكانت الخطة المرسومة أن تمرّ بمحطات عصيّة على التحريف، فمن هذه المحطات شهادة الزهراء فاطمة عليها السلام التي بقيت شاهد صدق لا يمكن إنكاره على أنّ الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله هو الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام دون غيره. ومن هذه المحطات، بل من أبرز المحطات الحافظة للرسالة هي حركة الإمام الحسين عليه السلام وشهادته.

وحينئذٍ تكون النهضة الحسينية حركةً إلهية، كما أخبر عليه السلام وحكى لنا من أنّ الله شاء أن يراه قتيلاً؛ ليحفظ بقتله الإسلام، الدين الحقّ الذي يحمل العدالة بأوسع معانيها للبشرية جمعاء، من كلّ تحريف وإماتة. وكان قائد هذه الحركة - امتداداً لمشروع رسول الله صلى الله عليه وآله غير منفصل عنه، ولا شاذّاً عن جادته - يجسّد قول جدّه صلى الله عليه وآله: «حسين منّي وأنا من حسين»^(١).

المطلب الثالث: الهدف من خروجه من المدينة المنورة

ليس من الضروري أن يترك الثائر والخارج على السلطة مدينته ومسقط رأسه، إلّا إذا كانت هناك أسباب أمنية أو سياسية أو اجتماعية أو ما شابه ذلك، تضطرّه إلى الخروج، أو يكون الخروج خيراً له من البقاء فيها. فما هي الأسباب التي دعت الإمام الحسين عليه السلام لترك مسقط رأسه.. مدينة جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله؟

وبحسب تتبع كلمات المؤرخين والعلماء نجد أنّ الأسباب المحتملة لخروج الإمام عليه السلام أحد أمور أو مجموعها، وهي:

(١) القزويني، محمد بن يزيد، سنن ابن ماجه: ج ١، ص ٥١.

(١) خروجه عليه السلام لدفع خطر القتل عن نفسه

فإنَّ السلطة كانت عازمة على قتل الإمام الحسين عليه السلام إذا لم يبايع. فقد كتب يزيد رضي الله عنه للوليد بن عتبة ابن عمّه وواليه على المدينة: «إذا أتاك كتابي فأحضر الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير، فخذهما بالبيعة لي، فإن امتنعا فاضرب أعناقهما، وابعث لي برؤوسهما، وخذ الناس بالبيعة، فمن امتنع فأنفذ فيه الحكم، وفي الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير. والسلام»^(١).

يقول الشيخ باقر شريف القرشي رحمته الله: «وأرسل الوليد في منتصف الليل عبد الله بن عمرو بن عثمان، وهو غلام حدث، خلف الحسين عليه السلام وابن الزبير. وإنما بعثه في هذا الوقت لعلّه يحصل على الوفاق من الحسين ولو سراً على البيعة ليزيد، وهو يعلم أنّه إذا أعطاه ذلك فلن يخيس بعده، ولن يتخلف عن قوله. ومضى الفتى يدعو الحسين وابن الزبير للحضور عند الوليد، فوجدهما في مسجد النبي صلى الله عليه وآله، فدعاهما إلى ذلك فاستجابا له، وأمرهما بالانصراف. وذعر ابن الزبير، فقال للإمام الحسين عليه السلام: ما تراه بعث إلينا في هذه الساعة التي لم يكن يجلس فيها؟!

[فقال عليه السلام]: أظنّ أنّ طاعتهم - يعني معاوية - قد هلك، فبعث إلينا بالبيعة قبل أن يفسدوا بالناس الخبر.

قال: وأنا ما أظنّ غيره، فما تريد أن تصنع؟

فقال عليه السلام: أجمع فتياي الساعة، ثمّ أسير إليه، وأجلّسهم على الباب.

قال: إنّي أخاف عليك إذا دخلت.

فقال عليه السلام: لا آتيه إلّا وأنا قادر على الامتناع.

(١) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ٢٤١. أنظر أيضاً: القرشي، باقر شريف، حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ٢٤٧. نقلاً عن تاريخ اليعقوبي.

وانصرف أبيّ الضيم إلى منزله فاغتسل، وصلى ودعا الله، وأمر أهل بيته بلبس السلاح والخروج معه، فحقّوا محدقين به، فأمرهم بالجلوس على باب الدار، وقال لهم: إنّي داخل فإذا دعوتكم أو سمعتم صوتي قد علا فادخلوا عليّ بأجمعكم. ودخل الإمام الحسين عليه السلام على الوليد، فرأى مروان عنده وكانت بينهما قطيعة، فأمرهما الإمام بالتقارب والاصلاح، وترك الأحقاد، وكانت سجية الإمام عليه السلام التي طُبِعَ عليها الإصلاح حتى مع أعدائه وخصومه، فقال عليه السلام لهما: (الصلة خير من القطيعة، والصلح خير من الفساد، وقد آن لكما أن تجتمعا، أصلح الله ذات بينكما). ولم يجيباه بشيء فقد علاهما صمت رهيب. والتفت الإمام عليه السلام إلى الوليد، فقال له: هل أتاك من معاوية خبر؟ فإنّه كان عليلاً وقد طالت علته، فكيف حاله الآن؟

فقال الوليد بصوت خافت حزين النبرات: أجرك الله في معاوية، فقد كان لك عمّ صدوق، وقد ذاق الموت، وهذا كتاب أمير المؤمنين يزيد.

فاسترجع الحسين، وقال له: لماذا دعوتني؟
فقال: دعوتك للبيعة.

فقال عليه السلام: إنّ مثلي لا يبايع سراً، ولا يُجْتَزَأُ بها منّي سراً، فإذا خرجت إلى الناس ودعوتهم للبيعة، دعوتنا معهم، كان الأمر واحداً.

لقد طلب الإمام الحسين عليه السلام تأجيل الأمر إلى الصباح، حتى يُعقد اجتماع جماهيري، فيدلي برأيه في شجب البيعة ليزيد، ويستنهض همّ المسلمين على الثورة والإطاحة بحكمه. وكان الوليد - فيما يقول المؤرخون - يحب العافية ويكره الفتنة، فشكر الإمام الحسين عليه السلام على مقالته، وسمح له بالانصراف إلى داره. وانبرى الوغد الخبيث مروان بن الحكم وهو مغيط محنق، فصاح بالوليد: لئن فارقت الساعة ولم يبايع لا قدرت منه على مثلها أبداً حتى تكثر القتل بينكم وبينه، احبسه، فإن بايع وإلا ضربت عنقه.

ووثب أبي الضيم إلى الوزغ ابن الوزغ فقال له: يا بن الزرقاء، أنت تقتلني أم هو؟ كذبت والله ولؤمت.

وأقبل على الوليد فأخبره عن عزمه وتصميمه على رفض البيعة ليزيد قائلاً: أيها الأمير، إنا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة ومحل الرحمة، بنا فتح الله، وبنا ختم. ويزيد رجل فاسق، شارب الخمر، قاتل النفس المحترمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبيع مثله، ولكن نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرون أيُّنا أحق بالخلافة والبيعة^(١).

فلا بد للإمام أن يدفع عن نفسه الخطر، بعد أن صرح لهم بعزمه على رفض البيعة؛ لأن حفظ النفس واجب، بالإضافة إلى أنه يحمل مشروعاً إصلاحياً فيجب حفظ نفسه حتى يوصل صوته للأمة؛ ليبيّن مشروعه لها، وإلا فإنه سيقتل من دون تحقيق الفائدة المرجوة.

لا يقال بأن هذا خلاف علمه بأنه سيقتل في كربلاء؛ لأن شهادته في كربلاء لها أسبابها، ومن أهم أسبابها أنه عليه السلام حفظ نفسه من القتل في المدينة ومكة، يصدق بمشروعه وفكره طيلة هذه المدة، حتى وصل كربلاء.

(٢) إعلان الرفض

إن خروج الإمام عليه السلام من المدينة، وعدم اشتراكه في مراسم البيعة، هو نوع من التعبير عن الرفض لحكومة يزيد، وهذا النوع من الرفض له صدهاء إعلامي المؤثر في الوسط الجماهيري الذي يختلف عن الرفض اللفظي والتصريحات الكلامية، بل هو رفض شديد للغاية، بحيث إن ابن رسول الله ﷺ لشدة رفضه للبيعة خرج من

(١) القرشي، باقر شريف، حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ٢٥٣ - ٢٥٥. أنظر أيضاً: ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ١٥. ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتل الطفوف: ص ١٧.

وطنه ولم يبايع؛ إذ ليس من السهل أن يترك المرء وطنه، خصوصاً إذا كان له ثقله فيه، فتبدأ الأمة تتساءل عن أسباب الخروج.

٣) الانتقال إلى موقع إعلامي أهمّ

من أسباب خروج الإمام عليه السلام من المدينة متوجّهاً إلى مكة هو كون مكة تُعدّ المركز الأوّل لتجمّع المسلمين، حيث يتقاطر عليها المسلمون من كلّ مكان للحج أو العمرة، فهي المكان الأفضل والأنسب لبيان المشروع الكبير الذي يحمله الإمام الحسين عليه السلام، خصوصاً في مثل هذه الفترة.

المطلب الرابع: أهداف ترك مكة وقصد الكوفة

دخل الإمام الحسين عليه السلام مدينة مكة المكرمة في الثالث من شهر شعبان سنة ستين للهجرة، فالتفّ حوله أهل مكة والوافدون إليها، فكانوا يجتمعون عنده كلّ يوم صباحاً ومساءً.

واستمرّ التجمّع حول الإمام الحسين عليه السلام المؤهّل للخلافة، بل هو الخليفة بحسب نص المعاهدة بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية رضي الله عنه، والتي علم بها المسلمون ولم تحفّ عليهم.

وأخذ الإمام يبيّن لهم موقفه من خلافة يزيد، وأنّه لا يبايع مهما كلفه الأمر، وهو صريح في رفض البيعة ليزيد رضي الله عنه.

إلا أنّ البقاء في مكة بعد إعلان الرفض من خلال الخطب التي ألقاها الإمام بالحجيج وأهل مكة، أصبح يهدّد حياة القائد؛ إذ أرسلت الحكومة آنذاك أجندها لاغتيال الإمام الحسين عليه السلام^(١). فلا بدّ من اختيار مكان آخر للحركة الإصلاحية التي يقودها ابن بنت النبي المصطفى صلّى الله عليه وآله.

(١) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ٦٧.

فاختار الإمام عليه السلام الكوفة لتكون منطلق حركته؛ باعتبارها مركزاً من مراكز القوة في الحكومة الإسلامية، إن لم نقل هي الأقوى بين الولايات الإسلامية. فالسيطرة عليها يعني إضعاف الدولة الحاكمة من جهة، وضمان القوة الكافية لإسقاط النظام الأموي من جهة أخرى. خصوصاً إذا علمنا بأن سقوط الكوفة يعني سقوط الأهواز وبعض بلدان فارس؛ لكونها تابعة إدارياً للكوفة، كما يؤثر بقوة على سقوط البصرة وبعض البلدان المجاورة^(١).

بالإضافة إلى أن مقرّ شيعة الحسين عليه السلام ومركزهم الأساس وثقلهم هو الكوفة، وقد طالبوا بالخروج على سلطان بني أمية في أيام معاوية، فأمرهم الإمام بالصبر والتريث، فهم يعيشون أمل الثورة ضدّ بني أمية. وقد تحقّق هذا الأمل بهلاك معاوية، فلمّا سمعوا بخروج الإمام خرجوا إليه وكتبوه وبايعوه على ما تقدّم في الفصل الأوّل من بيان.

فالتوجّه نحو الكوفة هو الخيار الأمثل للإمام الحسين عليه السلام، بل الوحيد؛ لما تقدّم، ولكونها الحاضرة الوحيدة التي أبدت استعدادها لقبول الإصلاح الذي أعلنه الإمام والاستماع إليه، دون سائر الحواضر الإسلامية رغم مخاطبة الإمام لهم. بالإضافة إلى وجود خصائص لشيعة الكوفة، فقد كانوا أهل دين، كما جاء في رسالة أمير المؤمنين عليه السلام لمعاوية رضي الله عنه: «وليس أهل الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة»^(٢). وكما وصفهم معاوية بالوفاء لأمر المؤمنين عليه السلام تارةً، حيث قال: «والله، لو فاءؤكم له بعد موته أعجب من حبّكم له في حياته!»^(٣)، وبالجراة

(١) الخللخالي، حسن عطا الله، مقال: (تساؤلات حول القضية الحسينية)، مجلة الولاية، الصادرة عن العتبة العلوية على شبكة الإنترنت.

(٢) نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي لخطب أمير المؤمنين، علي بن أبي طالب عليه السلام: ج ٣، ص ١٧.

(٣) ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج ٩٦، ص ١٦٧.

أخرى، حين قال: «لقد لمّظكم»^(١) ابنُ أبي طالب الجرأة على السلطان»^(٢)، وثالثة وصفهم بالعلم بقوله: «هيهات والله يا أهل العراق! فقّهم عليّ فلن تُطاقوا»^(٣). بل كان أهل البيت عليهم السلام يحبّون الكوفة وشيعتها، فقد ورد عن الإمام الحسن عليه السلام حين خرج عنها بعد الصلح أنّه قال شعراً يخاطب فيه الكوفة:

ولا عن قِليّ فارقتُ دارَ معاشري همُ المانعون حوزتي وذماري^(٤)

كما رُوِيَ عن الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام قوله فيهم: «هذه مدينتنا ومحلّتنا ومقرّ شيعتنا»^(٥). وقال فيهم الإمام زين العابدين عليه السلام: «مرحباً بكم يا أهل الكوفة، أنتمُ الشّعارُ دون الدّئار»^(٦).

كما كانوا على اتصال مستمرّ بإمامهم الحسين عليه السلام قبل هلاك معاوية، حتى خاف منهم والي المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، فمنعهم عن ذلك، فقال له الإمام الحسين عليه السلام: «يا ظالماً لنفسه، عاصياً لربه، علامَ تحوّل بيني وبين قوم عرفوا من حقّي ما جهلته أنت وعمك؟!»^(٧).

فهذه الأسباب من أهمّ الأمور التي يمكن أن تُذكر لخروج الإمام الحسين عليه السلام من مكة وتوجّجه نحو الكوفة، دون غيرها من البلدان الإسلامية. أمّا البلدان الأخرى، فلم يحدثنا التاريخ عن أيّ حراك أو استعداد لنصرة الإمام الحسين عليه السلام، حتى على المستوى الفردي، فضلاً عن الاستعداد الجماعي.

(١) التَّلْمُظُ: التدوَّق، وَلَمَظَ الماءُ: ذاقه بطرف لسانه. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج ٧، ص ٤٦٢.

(٢) ابن طيفور، أحمد بن أبي طاهر، بلاغات النساء: ص ٣٢.

(٣) الباعوني، محمد بن أحمد الدمشقي، جواهر المطالب في مناقب الإمام علي عليه السلام: ج ٢، ص ٢٤١.

(٤) ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ١٦، ص ١٦.

(٥) المصدر السابق: ج ٣، ص ١٩٨.

(٦) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٦، ص ٤٩٨.

(٧) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٣، ص ١٥٦.

المطلب الخامس: الشريحة المستهدفة بالإصلاح

إنَّ الشريحة المحتمل استهدافها بالإصلاح الحسيني إمَّا السلطة، باعتبار أنَّ السلطة الحاكمة المتمثلة بحكومة بني أمية سلطَةً جائرة يقوم نظامها على الاستحواذ على كلِّ خيرات البلاد، وجعلها حكرًا على بني أمية وأتباعهم وأعوانهم، ومنَّ يجلب نفعاً لهم، وحينئذٍ لا بدَّ أن يُفسَّر الإصلاح الحسيني بتغيير النظام الحاكم واستبداله بنظام آخر يقوم على أسس شريعة السماء وسيرة المصطفى ﷺ ووصيِّه بالحق ﷺ.

وهذا احتمال قوي جداً لا يمكن التَّنكُّر له؛ فإنَّ الإمام الحسين ﷺ لو تهيَّأت له الظروف بأن وصل إلى شيعته المتفضة في الكوفة لاستطاع أن يزلزل أركان الحكم الأموي؛ وذلك لأسباب:

١. كانت الجماهير مهياة أكثر من أيِّ وقت مضى للانقلاب على بني أمية؛ لأنَّها قد عرفت مكرهم وطبيعة حكمهم واكتوت بنار جورهم بما لا مزيد عليه. وقد حدَّثنا التاريخ بظهور بعض الأصوات لمواجهة حكومة بني أمية في أيام معاوية، وقد التجأوا للإمام الحسين ﷺ ولكنَّه صبرهم وأمرهم بالانتظار، فكيف بهم وقد زال كابوس معاوية وبرز يزيد على الساحة؟

٢. تخلخل الدولة بموت معاوية: عرف المسلمون المناهضون لحكومة بني أمية أنَّ موت معاوية فرصة مؤاتية جداً للانقلاب على الحكم؛ لأنَّ موته يعني انتقال الحكم إلى يزيد الذي يتمتع بشخصية هزيلة لاهية بعيدة عن دهاء الحكم الذي كان لدى معاوية، خصوصاً وأنَّ انتقال الحكم إليه لا زال في بداياته، فلم يحكم سيطرته بعد على ولاته في البلدان. مع الأخذ بنظر الاعتبار أنَّ بعض الولاة لا يرغبون بحكومته^(١)، حتى من

(١) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ٢٢٠.

داخل العائلة، أمثال: مروان بن الحكم، ممّا جعل معاوية يعزله عن ولاية المدينة^(١).
 ٣. ما تقدّم من كون الكوفة مركزاً من مراكز القوة في الحكومة الإسلامية، إن لم نقل هي الأقوى بين الولايات الإسلامية. وهذا يعني وجود القاعدة الكافية عدّة وعدداً التي تُمكن القائد من المضيّ بها نحو هذا الهدف من إسقاط النظام واستبداله. فليس من المستبعد أن يكون المستهدف بالإصلاح الحسيني هو نفس الحكومة، ومَن يجلس على عرشها، خصوصاً إذا علمنا أن الإصلاح التام لا يكون بإصلاح النظام قانوناً، فلا يمكن إصلاح الوضع السياسي ولا الاقتصادي ولا الاجتماعي بمعناه التام... إلّا من خلال تغيير القانون الفاسد الحاكم على الأمة، ومَن يقوم بتنفيذه وإجرائه على الأمة. وهذا ما لا يتمّ إلّا بالتغيير الجذري للحكم.
 فالإصلاح لا يتمّ إلّا بتغيير النظام القائم آنذاك، واستبداله بنظام آخر يقوم على أساس العدالة ونظام الإسلام.
 وإمّا أن يكون المستهدف بالإصلاح هو النخبة المؤثرة في المجتمع المتمثلة بالصحابة والتابعين ورؤساء القبائل وقادة الجيش والوجهاء؛ لأنّه بصلاحيّ هؤلاء يمكن التأثير على حركة الأمة، بل والتأثير على السلطة؛ لأنّه ستكون في الأمة قوة اجتماعية عريضة ذات كلمة مسموعة يمكنها إسقاط النظام أو زعزعته على أقلّ التقادير؛ ولذا نجد الإمام الحسين عليه السلام يركّز على هذه الثلة، حيث يجتمع بالصحابة والتابعين البالغ عددهم ٧٠٠ نفر.

كما أنّه راسل رؤساء القبائل في البصرة ووجهائها، وبعث وأوفد إلى الكوفة.. إلى رؤساء قبائلها ووجهائها. ويمكن استكشاف ذلك من خلال تتبع الإمام بعض الوجهاء في الطريق واللقاء بهم ومحاولة استمالتهم إليه، وقد نجح في إقناع بعضهم.

(١) ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٥١، وص ١٩٧. الأميني، عبد الحسين، الغدير: ج ١٠، ص ٢٣٨.

كما إنّه حاول التأثير على قادة الجيش، وعقد عدة جلسات مع عمر بن سعد رضي الله عنه، وعرض عليه أن يعطيه أموالاً كعوضٍ، فيما لو خسر أمواله بسبب معارضته لنبى أُمّية ونصرته للإمام الحسين عليه السلام.

وإصلاح هؤلاء إنّما يكون بتنبيههم على الخطأ الذي هم سائرون عليه، وبيان الحق الذي ينجيهم إن تمسكوا به، وإلفات نظرهم إلى عظيم ما هم فيه من الغفلة والسكوت عن الظلم مع أنّ مقاليد الأمور بأيديهم، وبيان الإمام الحقّ من الباطل، بالإضافة إلى أنّ التحرك العملي نحو ذلك قد يزيد في عزيمة البعض ويجعله يلتحق بالإمام عليه السلام.

وأما إن كان المستهدف هو الأمة، فهذا ما يستدعي بيان الحقّ والباطل مفهوماً وسلوكاً، ونهياها عن التبعية العمياء التي يكون مصيرها غضب الجبار. ومن خلال استعراض هذه الاحتمالات الثلاثة، يمكن الاطمئنان إلى أنّ النهضة الحسينية المباركة تهدف إلى الإصلاح بمعناه الواسع الذي يشمل الجهات الثلاث.

فهي تهدف لإصلاح الحكم - نظاماً وتنفيذاً - من خلال إسقاط النظام القائم، واستبداله بحكومة يقودها خليفة الله تعالى. وقد سعى الإمام الحسين عليه السلام إلى ذلك من خلال بياناته وتحركاته السياسية والعسكرية الثورية التي سجّلها على متن الواقع، والتي يمكن إجمالها بما يلي:

١. رفضه عليه السلام بيعة يزيد، وبيان أسباب الرفض.
٢. الخروج من المدينة إلى مكة حيث مركز الحجيج، وإعلانه الرفض.
٣. دعوة رؤساء القبائل إلى الجهاد.
٤. إرسال مسلم بن عقيل عليه السلام لتنظيم الأمور وأخذ البيعة.
٥. الإسراع في التحرك نحو الكوفة.

٦. دعوته قادة الجيش لترك معسكر يزيد والالتحاق به.

ولكنّ هذا لا يعني أنّه ﷺ خرج من أجل تحقيق هذا الأمر في زمانه ﷺ، كيف وهو يعلم بأنّ الظروف لا تسمح بذلك، بالإضافة إلى علمه بشهادته دون تحقّق ذلك، وإخبار رسول الله ﷺ بذلك. ولكن سعى لذلك بالتأسيس والثقيف له^(١).

كما أنّ النهضة تهدف إلى إصلاح النخبة، ورسم معالم حركتها، وبيان ما ينبغي لها وما يجب عليها تجاه خلفاء النبي الواقعيين، وتجاه الأمة التي تكنّ لهم الاحترام، فقد جاء في خطابه ﷺ لهم سنة ٥٨ أو ٥٩ بيان تفاصيل ذلك، وبيان الخلل في حركتهم وأداء واجباتهم تجاه الله وخلفائه والأمة.

وأنّه ﷺ كان يستهدف الأمة بشكل عام من خلال بيان واجباتها تجاه الشريعة، وتجاه شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتجاه الحاكم الظالم والعاقل. كما بيّن لهم مواصفات الحكماء الذين يجب على الأمة نبذهم والوقوف في وجههم، والحكماء الذين يجب الالتفاف حولهم ومناصرتهم.

(١) تقدّم في بداية المبحث الأوّل من الفصل الرابع تحت عنوان (مجال الإصلاح)، وسيأتي أيضاً في الخاتمة تحت عنوان (في زمن يزيد) زيادة توضيح للمبحث.

المبحث الثاني

النتائج التي حققتها النهضة الحسينية

بعد هذه الرحلة مع نهضة الإمام الحسين عليه السلام، ومنذ انطلاقتها الأولى، وقبل هلاك معاوية، وحتى اللحظات الأخيرة لحياة قائدها العظيم الحسين بن علي عليه السلام، نقف عندها، ونرى هل كُتِبَ لهذه النهضة تحقيق نتائجها أم أنها كسائر الثورات الأرضية التي تنتهي بمقتل قادتها، وانحراف مسيرتها؟

إن حركة الإمام الحسين عليه السلام وكلماته كانت تهدف إلى إصلاح ثقافة واستبدالها بأخرى، ولو جمعنا كلماته عليه السلام وتأملناها لوجدناها ترسم ثقافة إسلامية منبعها الإسلام المستفاد من سيرة المصطفى صلى الله عليه وآله ومعجزته الخالدة.

وفي الختام تحتم علينا أن نذكر بعض المفاهيم والأسس التي روج لها الإمام عليه السلام؛ لتكون لبنات الثقافة التي يحملها في نهضته الإصلاحية:

١. إحياء شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

فإنه لا يخفى ما لهذه الشعيرة من أهمية قصوى ودور فاعل في عملية الإصلاح، ومدى تركيز الشريعة عليها، حتى أن القرآن الكريم امتدح الأمة الإسلامية عليها، وجعل سبب وصفها بكونها خير أمة هو محافظتها على أداء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(١)، وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ

(١) آل عمران: آية ١١٠.

وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ^(٤) أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾؛ فَإِنَّ نَفْسَ إحياء هذه الشعيرة وإرجاعها في وسط الأمة كفيل بتغيير ثقافة الأمة وتغيير حركتها وواقعها المريع؛ لكونها من أبرز أدوات تغيير الثقافة وبالتالي تغيير الواقع.

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «إِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ سَبِيلُ الْأَنْبِيَاءِ وَمَنْهَاجُ الصَّالِحِينَ. فَرِيضَةٌ عَظِيمَةٌ بِهَا تُقَامُ الْفَرَائِضُ وَتَأْمَنُ الْمَذَاهِبُ، وَتَحِلُّ الْمَكَاسِبُ، وَتُرَدُّ الْمَظَالِمُ، وَتُعْمَرُ الْأَرْضُ، وَيُنْتَصَفُ مِنَ الْأَعْدَاءِ، وَيُسْتَقِيمُ الْأَمْرُ»^(٢)، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لَا يَكُونَنَّ أَفْضَلُ مَا نَلْتَمَسُ مِنْ دُنْيَاكَ بُلُوغَ لَذَّةٍ وَشِفَاءَ غِيظٍ، وَلِيَكُنْ إِحْيَاءُ حَقٍّ وَإِمَاتَةُ بَاطِلٍ»^(٣)، وقال عليه السلام: «رَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً أَحْيَا حَقًّا، وَأَمَاتَ بَاطِلًا، وَدَحَضَ الْجَوْرَ، وَأَقَامَ الْعَدْلَ»^(٤).

وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله كلمة العدل عند السلطان الجائر من أفضل الجهاد؛ لأنها وسيلة لردعه، وتشجيعاً لأهل الحق على رفض الباطل وعدم الرضوخ للظلم، فقال عليه السلام: «أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»^(٥).

وقال عليه السلام: «سَيِّدُ الشَّهَدَاءِ: حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلُبِ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ، فَفَتَلَهُ»^(٦).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «فَرَضَ اللَّهُ الْإِيمَانَ تَطْهِيراً مِنَ الشَّرْكِ... وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ مَصْلَحَةٌ لِلْعَوَامِّ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ رَدْعٌ لِلْسَفَهَاءِ»^(٧).

(١) التوبة: آية ٧١.

(٢) الفيض الكاشاني، محمد حسن، الوافي: ج ١٥، ص ١٧٠.

(٣) اللبيبي الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ: ص ٥٢٥.

(٤) المصدر السابق: ص ٢٦١.

(٥) ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجة: ج ٢، ص ١٣٢٩.

(٦) الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، المستدرک علی الصحیحین: ج ٣، ص ١٩٥.

(٧) نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي لخطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام (تحقيق محمد عبده)، الخطبة القاصعة: ج ٤، ص ٥٥.

وقال ﷺ: «مَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ شَدَّ ظَهْرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَنْ نَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ أَرْغَمَ أَنْوْفَ الْفَاسِقِينَ»^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»^(٢).

وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ حَتَّى يَرَوْا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ، وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يَنْكَرُوهُ فَلَا يَنْكَرُوهُ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَذَّبَ اللَّهُ الْعَامَّةَ وَالْخَاصَّةَ»^(٣).

وقال أمير المؤمنين ﷺ: «وَإِنَّ عِنْدَكُمْ الْأَمْثَالَ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَقَوَارِعِهِ، وَأَيَّامِهِ وَوَقَائِعِهِ، فَلَا تَسْتَبْطِئُوا وَعِيدَهُ جَهْلًا بِأَخْذِهِ، وَتَهَؤُنَا بِبَطْشِهِ وَيَأْسًا مِنْ بَأْسِهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَلْعَنِ الْقَرْنَ الْمَاضِيَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إِلَّا لَتَرْكِبِهِمُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَلَعَنَ اللَّهُ السُّفَهَاءَ لِرُكُوبِ الْمَعَاصِي وَالْخُلَمَاءَ لِتَرْكِ التَّنَاهِي»^(٤).

فلا بدّ من تجذير هذه الظاهرة - ظاهرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - في وسط الأمة؛ لتكون جزءاً من ثقافتها وسلوكها، وبذلك تكون مفاتيح الإصلاح الشامل قد تركزت وتجدّرت فيها.

إنّ اختيار الإمام الحسين ﷺ - وريث الإصلاح السماوي - للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليكون شعاراً لنهضته الإصلاحية يعني الشيء الكثير، فمن

(١) المصدر السابق.

(٢) المتقي الهندي، علي بن حسام، كنز العمال: ج ٣، ص ٦٨.

(٣) ابن المبارك، عبد الله، مسند ابن المبارك: ص ٤٢.

(٤) نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي لخطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ (تحقيق محمد عبده)، الخطبة القاصعة: ج ٢، ص ١٥٦.

خلاله يمكن النهوض بالأمة وإصلاحها، وبه يتم تقوية القانون الذي يحمي مبادئ الأمة وعقائدها وأخلاقها وآدابها، ومن خلاله تُحفظ الحقوق وتُستردّ المظالم.

فهذه الشعيرة تربّي الفرد وبالتالي المجتمع على الشعور بالمسؤولية، وإذا تحقّق الشعور بالمسؤولية تحرّكت الأمة نحو أداء وظيفتها والتي منها إعانة أهل الحقّ وقادة الإصلاح والخير ليصلوا إلى زمام الأمور، فيحقّقوا العدالة الاجتماعية المغيّبة بسبب جور الطغاة.

ولا يمكن لنا إحصاء المنافع المترتبة على إحياء شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيها تُفند الأباطيل والضلالات، وتُحيى العقائد الحقّة، وبها يُبنى المجتمع النظيف سلوكياً وفكرياً، بحيث يأنس بالطاعة والفضيلة، ويشمّر من المعصية وكلّ ما يشين؛ فتكون الطاعة محبة إلى القلوب وتكون المعصية مبغوضة لها؛ فإنّ الكثير من السلوكيات انتشرت وتفشّت في مجتمعنا - بعد ما لم تكن فيه - بسبب الأنس بالمعصية وعدم التنفّر منها.

من هذه النقطة يبدأ الصراع بين قوى الخير وقوى الشر؛ فإنّ قوى الخير وجنود الرحمن يريدون أن يزيّنوا الخير في قلوب الأمة، وينفّروهم عن المعاصي، قال المولى تبارك وتعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ﴾^(١)، بينما يريد جنود الشر والشيطان أن يزيّنوا المعصية والرذيلة في قلوب الأمة، وينفّروهم عن الطاعة والإيمان وفعل الخير، وهذا ما أشارت إليه جملة من الآيات المباركة لتُصوّر لنا أسلوباً من أساليب الحرب الثقافية بين الفريقين، يقول تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾^(٢)، ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ

(١) الحجرات: آية ٧.

(٢) البقرة: آية ٢١١.

حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴿١﴾، ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ
أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ﴾ ﴿٢﴾، ﴿وَإِذْ زَيْنٌ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ ﴿٣﴾، ﴿بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ ﴿٤﴾، ﴿أَفَمَن زَيْنٌ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ ﴿٥﴾.

فالقرآن ينسب انتشار المعصية والجنوح عن الإيمان والحق إلى تزيين شياطين
الجن والإنس لأفعال الشرِّ في أعين الناس. ولا يقف أمام هذه الظاهرة إلا الأمرُ
بالمعروف والنهي عن المنكر، بحيث يُرجع الأمور إلى نصابها، فتأس النفوس بما
يوافق فطرتها فكرياً وسلوكياً، وتنفر وتبغض كل ما يخالف الفطرة السليمة، حتى
تصبح هي الحالة السائدة في المجتمع.

٢. بيان معنى الخلافة والإمامة

إنَّ من أهمِّ المسائل التي ركَّز عليها الإمام الحسين عليه السلام في حركته هي بيان معنى
الإمامة والخلافة التي جاء بها الإسلام، ومن منظار إلهي سماوي، وأنها ليست هي
الحكم كيف ما كان، بل هناك شروط في الخليفة، وهناك مهام ومسؤوليات ملقاة
على عاتقه. يقول المولى تبارك وتعالى في كتابه الخالد: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ
فَاتَّمَنَّهُ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٦﴾.

فلم تكن الإمامة والخلافة شرعةً لكلِّ أحد في حكمة الله تبارك وتعالى، كما
يقول في موضع آخر: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ

(١) آل عمران: آية ١٤.

(٢) الأنعام: آية ١٣٧.

(٣) الأنفال: آية ٤٨.

(٤) الرعد: آية ٣٣.

(٥) فاطر: آية ٨.

(٦) البقرة: آية ١٢٤.

وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا^(١)، حيث بين شرائط الحكم وأسسها التي يرتضيها، وأن كل حكم لا يكون مرضياً لله تعالى ما لم يكن مأخوذاً من تعاليمه ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْتِكَ اللَّهُ﴾.

كما يشترط في الحكومة المستندة إلى السماء، بحيث يقال عنها: خلافة الله وخلافة رسوله، ألا تكون عوناً للخائنين. كما يبين القرآن الكريم في موضع آخر أن الحكم لا بد أن يكون بالعدل، مجاناً للظلم: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(٢).

وهذا ما تشير إليه جملة من الروايات، كقول الإمام الحسين عليه السلام: «ولعمري، ما الإمام إلا العامل بالكتاب، القائم بالقسط، الدائن بدين الحق، الحابس نفسه في ذات الله»^(٣). وعن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «إن الإمامة زمام الدين، ونظام المسلمين، وصلاح الدنيا، وعز المؤمنين. إن الإمامة أس الإسلام النامي، وفرعه السامي. بالإمام تمام الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد، وتوفير النفيء والصدقات، وإمضاء الحدود والأحكام، ومنع الثغور والأطراف. الإمام يُحلّ حلال الله، ويُحرّم حرام الله، ويقيم حدود الله، ويذبّ عن دين الله، ويدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة والحجة البالغة»^(٤).

وعن الإمام الحسن السبط عليه السلام يخاطب معاوية رضي الله عنه: «يا معاوية، إن الخليفة من سار بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعمل بطاعته، وليس الخليفة من

(١) النساء: آية ١٠٥ - ١٠٦.

(٢) المائدة: آية ٤٢.

(٣) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٦٢. ابن نهار الحلي، محمد بن جعفر، مشير الأحزان: ص ١٧.

(٤) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٢٠٠.

دان بالجور، وعطّل السنن، واتّخذ الدنيا أمّاً وأباً»^(١).

وعليه؛ فالإمامة وقيادة المجتمع هي التي ترسم مسيرة الأمة نحو الخير أو الشر، ولا يمكن تأمين مستقبل الأمة ما لم تُؤمن الإمامة، وتوضع في موضعها الصحيح؛ ولذلك يشدّد النبي ﷺ على هذه النقطة: «مَنْ رَأَى سُلْطَانًا جَائِرًا مُسْتَحِلًّا لِحَرَمِ اللَّهِ، نَاكِثًا لِعَهْدِ اللَّهِ، مُخَالِفًا لِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، يَعْمَلُ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، ثُمَّ لَمْ يُغَيِّرْ بِقَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ مَدْخَلَهُ»^(٢).

فالأمة الساكنة عن جور الطغاة لا تُعذر، بل ليس ذلك فحسب، وإنما تستحق نفس العذاب الذي يجازى به السلطان الجائر الذي أذاقها الظلم. فأهمية هذا المنصب في إصلاح الأمة باعتباره المخطّط لمشروعها الثقافي والتعليمي والسياسي والقانوني والاقتصادي والاجتماعي، ممّا لا يحتاج إلى استدلال، بل يكفي التأمل في الأمور التي يمكن أن يُنجزها أو يأمر بها لمعرفة عظم ذلك. ومن خلال النظر في تاريخ الأمم السالفة والحاضرة يمكننا إدراك ذلك بدقّة، فكم رأينا من الدول التي سادت إنّما سادت بجهود قائدها ورئيسها، وكيف أنّها نهضت ببركة جهود رؤسائها؛ وهذا يعني أنّ الخليفة له الدور الأكبر في تغيير ثقافة المجتمع وواقعه.

٣. التأكيد على دور الأمة في عملية الإصلاح

هناك أهمية قصوى لصوت الأمة في رسم مفاصل الحياة السياسية والنظم الاجتماعية وترسيخ قوانين الديانات السماوية؛ فإنّ القوة الضاربة التي ترغم السلطة على التناحي أو تلبية المطالب، فلا يفسح المجال أمام الجبابة بأن يفعلوا ما يحلو لهم.

(١) الطبري، أحمد بن عبد الله، ذخائر العقبى: ص ١٤٠.

(٢) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣٠٤.

فواحدة من وظائف الأمة هي الدفاع عن المستضعفين وحمايتهم من جور الظلمة، يقول تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾^(١).

وهناك وظائف أخرى للأمة، من قبيل: الإصلاح بين الفئات المتنازعة، والوقوف إلى جانب أهل الحق، ومحاربة أهل الباطل، والمحافظة على نزاهة المجتمع، وعدم شيوع الرذيلة والأفكار الباطلة من خلال تفعيل شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن الباطل.

ومن الوظائف الملقاة على عاتق الأمة أيضاً النظر إلى أفراد المجتمع المعوزين، وتأمين ما يحتاجون إليه من مأكّل وملبس، من خلال تفعيل مشروع الزكاة والخمس والصدقات المستحبة. فلا بدّ من نشر ثقافة: «مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبَعَانِ وَجَارُهُ جَائِعٌ. قَالَ: وَمَا مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ يَبِيتُ وَفِيهِمْ جَائِعٌ يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢)، كما قال رسول الله ﷺ.

ومن وظائفها: متابعة الحاكم ومحاسبته إن لم يُقم الحق ولم يترك الظلم، وفيما لو أضاع الحقوق، وترك السُّنة، وأحيا البدعة.

وعليه؛ فالدور الذي تلعبه الأمة في رسم مسيرتها نحو التقدّم موقوفٌ على ثقافتها التي أراد الإمام إصلاحها.

فمن جملة الأمور والمسائل التي أراد الإمام الحسين عليه السلام إصلاحها، بحيث تؤثر على ما يرنو إليه من حركة إصلاحية كبرى، هي مسألة بيان الوظيفة العملية للمؤمنين والمسؤولية الملقاة على عاتقهم؛ فإنّ الكثير من أبناء الأمة لا يعرفون

(١) النساء: آية ٧٥.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٦٦٨.

وظائفهم ومسؤولياتهم، مما يسبب التقصير؛ لأنّ أداء الوظيفة فرع العلم بالوظيفة والمسؤولية. وهذه المشكلة قائمة إلى حدّ كبير بين أبناء أُمّنا حتى في زمننا الحاضر، فالكثير لا يعرف مسؤوليته، فيتصور نفسه أنّه لا تكليف له، وأنّه مجرد ناقد للوضع؛ ولذا نرى كثرة النقاد والمتحدثين الذين يلقون اللوم على غيرهم وكأنّهم لا مسؤولية لهم، ولا وظيفة تجاه مأساة الأُمّة، والحال أنّ هذا أخطر الأمراض التي تبتي بها الأُمّة. فالإمام عليه السلام أراد أن يرفع هذه الشبهة ويبيّن للأُمّة وظيفتها ومسؤوليتها، وأنها تتحمل القسط الكبير من أسباب المعاناة التي ترفل تحت وطأتها. فكلّ مؤمن في نظر الإسلام هو مسؤول عن:

١. دينه وعقيدته

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١). وقد بيّن الإمام الحسين عليه السلام وظيفة المؤمنين تجاه دينهم وإمامهم وما يلقيه الإمام من جور الطغاة، فقال عليه السلام: «ألا وإنّ الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين: بين السِّلّة والذلة، وهيهات منّا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون...»^(٢).

٢. أُمّته ومستقبلها وهمومها

قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٤).

(١) النحل: آية ١٢٥.

(٢) ابن نما الحلي، محمد بن جعفر، مثير الأحزان: ص ٤٠.

(٣) آل عمران: آية ١٠٤.

(٤) الحجرات: آية ١٠.

٣. حياة المؤمنين وحالتهم الاقتصادية والاجتماعية و...

قال المصطفى ﷺ: «ليس بمؤمن من بات شعبان ريان، وجاره جائع ظمآن»^(١)، وقال أيضاً: «مَنْ أَصْبَحَ لَا يَهْتَمُّ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ»^(٢)، وقال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٣)، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾^(٤).

٤. المسؤولية تجاه القائد الصالح

في كيفية إيصاله إلى السلطة أو مساعدته للوصول، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^(٥)، وقد قال إمامنا زين العابدين عليه السلام لعمه محمد بن الحنفية: «لو أن عبداً زنجباً تعصب لنا أهل البيت، لوجب على الناس مؤازرته...»^(٦). فهناك مسؤولية للأمة وهي أن تكون مع الإمام الحق الصادق، ولا يحق لها أن تعيش حالة اللامبالاة تجاه المتنافسين على قيادة الأمة والتسلط عليها من الصالحين والطالحين.

٥. المسؤولية تجاه السلطان الجائر

هناك مسؤولية جعلها الدين الإسلامي على المؤمنين تجاه السلطات الجائرة

(١) النوري، حسين، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل: ج ٨، ص ٤٢٨.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ١٦٣.

(٣) النساء: آية ١١٤.

(٤) التوبة: آية ٧١.

(٥) التوبة: آية ١١٩.

(٦) ابن نما الحلي، جعفر بن محمد، ذوب النضار: ص ٩٧. الخوئي، أبو القاسم، معجم رجال الحديث:

والمجتمعات الجائرة، سواء كان الجور على مستوى الفكر أم السلوك، وهي أن يقفوا بوجه الظلم، ويستأصلوه ولو كان ذلك يستلزم رفع السلاح والقتال، حتى يزيلوا الظلم وأهله، ويمكنوا القائد العادل من قيادتهم للإطاحة برؤوس الظلم.

فالزعامة والإمامة هي حق للعادل فقط، كما قال الإمام الحسين عليه السلام: «لعمري، ما الإمام إلا العامل بالكتاب، والآخذ بالقسط، والدائن بالحق، والحابس نفسه على ذات الله»^(١). قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَكُونُوا تَأْمِنُهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَدْ نِلُوا أَلِيمَةً الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ﴾^(٢)، وقال: ﴿أَلَا تَقُولُونَ قَوْمًا نَزَّلُوا آيَاتِنَاهُمْ وَهَكُمُوبًا خَرَجَ الرَّسُولُ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَئِكَ مَرَءَاتُ أَنْخَسُونَهُمْ فَاَللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٣)، وفي آية أخرى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا قِنْدِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٤)، وقال أيضاً: ﴿وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٥).

وقال الإمام الحسين عليه السلام راوياً عن جده عليه السلام: «مَنْ رَأَى سُلْطَانًا جَائِرًا، مُسْتَحَلًّا لِحَرَمِ اللَّهِ، نَاكِثًا لِعَهْدِ اللَّهِ، مُخَالِفًا لِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، يَعْمَلُ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، فَلَمْ يُغَيِّرْ عَلَيْهِ بِفِعْلٍ وَلَا قَوْلٍ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ مُدْخَلَهُ»^(٦).

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٦٢.

(٢) التوبة: آية ١٢. عن ابن عباس رضي الله عنهما: «إِنَّ أُمَّةَ الْكُفْرِ هُمْ: أَبُو سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ، وَالْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ، وَسَهِيلُ بْنُ عَمْرٍو، وَعُكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَسَائِرُ رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ الَّذِينَ نَقَضُوا الْعَهْدَ، وَهُمْ الَّذِينَ هُمُوبًا خَرَجَ الرَّسُولُ عليه السلام». أنظر: العيني، محمود بن أحمد، عمدة القاري: ج ١٨، ص ٢٦٣.

(٣) التوبة: آية ١٣.

(٤) التوبة: آية ١٢٣.

(٥) الأنفال: آية ٢٥.

(٦) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣٠٤.

٦. مسؤولية الولاء

من جملة وظائف الأمة ومسؤولية المؤمنين أن تكون موالاتهم لأهل الإيمان والحق، ولا يحق لهم أن يوالوا أعداء الله مهما كانت صلة القرابة بينهم، قال تعالى:

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١).

وقال تبارك وتعالى أيضاً: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٢)، وقال عز من قائل: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٣)، وقال في موضع آخر: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٤).

وقال في سورة التوبة: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(٥).

(١) المجادلة: آية ٢٢.

(٢) التوبة: آية ٢٣.

(٣) المائدة: آية ٥١.

(٤) المائدة: آية ٥٧.

(٥) التوبة: آية ٢٤.

وكما نلاحظ فإنّ جميع هذه الوظائف الست ناطرةً إلى الجانب الثقافي للأُمَّة، فالإمام أراد بذلك إصلاح ثقافة الأُمَّة التي بدورها ستكون إصلاحاً لما تعاني منه الأُمَّة من مشاكل متكاثرة.

وخلاصة ما نريد الوصول إليه: أنّه ممّا لا شك فيه أنّ المتبّع لتحركات الإمام الحسين (عليه السلام) وخطاباته وكتبه، يجد أنّ الإمام (عليه السلام) يركّز على هذه الوظائف بشكل واضح، فهو يريد إحياء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لكي يُحيي - من خلاله - السُنّة التي أُميتت، والمفاهيم الإسلامية التي حُرّفت، ويقتلع جذور الفساد التي نمت وأُحييت في فكر الأُمَّة وسلوكياتها، كمفهوم الإمامة وما هو المراد منه إسلامياً، كما يركّز على تعريف الأُمَّة بمسؤوليتها تجاه دينها ومبادئها، ومصالحها ومستقبلها، وتجاه الحاكم الظالم، وتجاه الخليفة العادل، ويحيي في نفوس أبناء الأُمَّة مسألة التبرّي والتوليّ.

وهذا هو قمة الإصلاح، حتى على فرض عدم الوصول إلى السلطة وإصلاح الواقع مباشرة بنفسه من خلال إقامة الحكم المستلزم لإقامة الحقّ وإبطال الباطل في شتى المجالات، حتى مع فرض عدم تحقق ذلك؛ فإنّ ما يصبو إليه الإمام الحسين (عليه السلام) من الإصلاح يمكن تحقّقه من خلال تغيير ثقافة الأُمَّة؛ فإنّ الأُمَّة لو شعرت بمسؤوليتها، وعرفت واجبها الذي يُحتم عليها نصرّة أئمة الهدى، ومواجهة أئمة الجور، وإعلان الولاء لمن أمر الله بتوليّه، والتبرّي من أمر الله بالبراءة منه، وممارستها لوظيفتها الكبرى من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإنّه ممّا لا شك فيه سوف يحصل تغيير جذري في مفاصل الأُمَّة سياسياً واجتماعياً واقتصادياً ودينياً.

فلا يعود الدين غريباً.. ولا الجائر مطاعاً.. ولا المؤمن مشرداً.. ولا الجائع مهتوكاً.. ولا الأُمَّة مسلوقة الحقوق.

فالإصلاح الذي يقصده الإمام في نهضته الإصلاحية هو الإصلاح الثقافي للأمة الذي يستتبع كلّ خير، فيستتبع إصلاح الواقع المرير الذي تعاني منه الأمة الخاملة التي تجهل ما لها وما عليها، وتجهل كيف يتمّ تغيير الواقع. وهو ما يؤدي إلى ضياع حقوقها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية.

وليس هذا ببعيد عن معاناة واقعنا المعاصر، ولا الحسين عليه السلام بخارج عن دائرة إصلاحنا. فمن أراد الإصلاح الحقيقي لما نعانيه اليوم فلينظر إلى الخطوات التي قام بها الإمام المعصوم المصلح، حين وضع يده على الجرح وشخص العلاج.

كما أنّ هذا يفسّر لنا وحدة الحركة عند أئمة الهدى عليهم السلام، فإذا قلنا: إنّ الخلل كان في الثقافة التي تحملها الأمة تجاه دينها وقادتها، وما تحمله من مفاهيم خاطئة عن الحكومة الإسلامية، وكيفية التعامل مع الحكّام، وما هي وظائفها تجاه مسألة التوليّ والتبرّي، نجد أنّ مسيرة الأئمة عليهم السلام كلّها تصب في هذا الهدف؛ لتخرج العباد من حيرة الضلالة المقيّنة والجهالة المتجذرة التي تقود الأمة إلى مصير مجهول (ليستنفذ عبادك من الجهالة، وحيرة الضلالة) ^(١).

ولكنّ الأساليب المتبعة في رفع مستوى الثقافة وإصلاحها تختلف بحسب اختلاف الظروف المتاحة التي يمكن للإمام عليه السلام التحرك فيها، فتارةً الخطاب، وتارةً استلام الحكومة، وتارةً الخروج على الظالم، وتارةً أخرى تأسيس مدرسة تؤصّل الفكر الثر الصحيح، وتنشئة حملة العلم لتوسيع حركة النهضة الإصلاحية.

يقول جوزيف الهاشم في وصف ما قام به الإمام الصادق عليه السلام في تلك الحقبة: «لم يكن الإمام الصادق عليه السلام صامتاً محايداً فأعرض عن الحرب كما اتهموه، وعن إنقاذ أساس العقيدة والتشريع. لقد شتّها حرباً بلا هوادة على المراطقة والطغاة والملاحدين،

(١) مقطع من زيارة الأربعين. أنظر: الطوسي، محمد بن الحسن، مصباح المتعجب: ص ٧٨٨.

وامتشق السلاح الأمضى في معمرة الانحراف الديني والخلقي، فأنشأ جيشه المظفر، جيش الأربعة آلاف طالب؛ يعدّه حارساً أميناً للكيان الإسلامي، وجيلاً سياسياً صالحاً مهياً لتسلم مقاليد الدولة، وصيانة حقّ الشعب في مواجهة الغوغائيين والانتهازيين^(١).

فتكون حركتهم عليه السلام سلسلةً متصلةً تهدف إلى تحقيق هدف السواء في الأمة، وهو صلاحها وهدايتها، من خلال تغيير الثقافة البائسة واستبدالها بالثقافة الهادفة التي تسير بصاحبها نحو الهدفية وصلاح الفرد والمجتمع في شتى المجالات. كما يفسّر لنا ذلك سرّ إصرار الأئمة عليهم السلام على إحياء ذكرى الإمام الحسين عليه السلام ومصيبته الدامية؛ لأنّها إحياء لكلّ هذه المسيرة الإصلاحية على مرّ الأيام. ومن جميع ذلك نستنتج أنّ الهدف الأساس لخروج الإمام الحسين عليه السلام هو الإصلاح الثقافي؛ وذلك لعدّة أسباب:

١- أنّ الإصلاح الأتمّ هو الإصلاح الجذري، والذي يهدف إلى إصلاح واقع الإنسان والمجتمع، بحيث يتحمل مسؤوليته تجاه المولى تبارك وتعالى وتجاه العباد. وهذا لا يتمّ إلّا من خلال إصلاح الثقافة التي يحملها المجتمع؛ لأنّه قد تقدّم في الفصل الأوّل أنّ الإنسان إنّما يتحرّك وفق ثقافته، فهي التي تحرّكه. وإذا أردنا تغيير تصرّفات شخص ما أو مجتمع من المجتمعات فلا بدّ من تغيير ثقافته أولاً.

٢- قد يُنسب عدم النجاح إلى الحركة الإصلاحية العسكرية أو السياسية في القضية الحسينية، ولكنّه من غير الممكن أن يُنسب الفشل الثقافي لها، كيف والشواهد لا تُعدّ ولا تحصي على الأثر البالغ، والبالغ جداً للنهضة الحسينية في نفوس الشرائع الثلاث المستهدفة، فعلى مستوى الحكومة يمكن قراءة ذلك من طبيعة تصرّفاتنا وتصريحاتها، حيث كانت في بادئ الأمر تُصرّ على قتل الإمام

(١) الأميني، محمد أمين، الإمام الصادق عليه السلام رمز الحضارة الإسلامية: ص ٢٨.

الحسين عليه السلام، ولكنها فيما بعد ندمت على فعلها وحاولت إلقاء اللوم على ابن زياد، ومن خلال الإحسان إلى العائلة الحسينية بعدما كانت تُقدّم لها الإهانة تلو الأخرى، ومن خلال تصريحات بعض قادة الجيش، أمثال شبّث بن ربعي، حيث يقول: «إنّا قاتلنا مع عليّ بن أبي طالب، ومع ابنه من بعده، آل أبي سفيان خمس سنين، ثمّ عدّونا على ابنه، وهو خير أهل الأرض، نقاتله مع آل معاوية، وابن سمية الزانية، ضلال يا لك من ضلال!»^(١).

فإنّ ذلك التغير في المواقف لم يحصل اعتباطاً وصدفة، بل لأنهم رأوا أثر نهضة الإمام الحسين عليه السلام في النفوس، بما أثار الجدل حول تصرفاتهم، بل أثر حتى في نفوس أبناء العائلة الحاكمة، كما في قصة زوجة يزيد^(٢)، وابن معاوية الثاني وتصرّياته التي تنصّ على أحقية أمير المؤمنين عليه السلام من معاوية، وعدم أهلية يزيد للخلافة^(٣).

وهكذا نجد الأثر واضحاً على النخبة في تصريحات كثير من الصحابة والتابعين، أمثال: الحسن البصري، ومصعب بن الزبير، وكثير من الذين ندموا على عدم نصرتهم للإمام الحسين عليه السلام، والذي دعا الكثير منهم للالتحاق بثورة سليمان بن صرد، ولعلّ سبب تسميتها بثورة التوابين لكثرة من ندم وأعلن التوبة، مع عدم تقصير البعض الآخر في نصره الإمام عليه السلام.

كما أنّ عامة المجتمع قد تأثر بالثقافة التي حملتها النهضة الحسينية، ولذلك نجدهم تحرّكوا على وفق هذا التغير الثقافي فيما بعد، فنجد البعض الذي لم يستجب

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣٣٢.

(٢) أنظر: ابن سعد، محمد، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام: ص ٨٣. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار:

ج ٤٥، ص ١٤٣.

(٣) أنظر: البغدادي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ البغدادي: ج ٢، ص ٢٥٤.

للدعوة في زمن الإمام قد استجاب لها بعد ذلك، والبعض الذي كان يؤمن بأن ما لله الله وما لقيصر لقيصر نجده يشهر السيف في وجه الظلم، كما حدث لأهل المدينة أو الذين التحقوا بالتوايين والمختار، وهكذا.

كما نودّ الإلماح إلى أنّ التغيير الثقافي لا يحصل إلّا بعد مدة من الزمن، ولا زال يعطي ثماره إلى يومنا هذا، فكلّما تركّز التثقيف على مبادئ النهضة وأخلاقياتها ومفاهيمها كلّما ازداد وعي الجماهير لها، وتحوّلت مفاهيمها إلى ثقافة متجدّرة في أوساط الأُمّة.

ولعلّ هذا الإصلاح الثقافي العظيم الذي هو أساسٌ للإصلاح في المجالات الاجتماعية والسياسية وغيرها، هو المقصود للإمام الحسين (عليه السلام) حين يقول: «إنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمَّة جدّي»، ولم يقصد الإصلاح في الأُمّة المعاصرة له فحسب، بل يمتد الإصلاح والتأثير في عمود الزمان ليشمل جميع الأزمنة. ولعلّ هذا هو السبب في تركيز أهل البيت (عليهم السلام) في إحياء هذه النهضة المباركة ومفاصل مظلوميتها.

فالإمام الحسين (عليه السلام) أراد أن يصلح أُمَّة جدّه على مختلف الأصعدة، وسلاح الإصلاح العام الذي كان يتماشى مع الإمام (عليه السلام) في جميع مراحل ثورته هو الإصلاح الثقافي؛ لأنّه منبع كلّ صلاح، كما أوضحنا ذلك فيما سبق.

ومن هنا نؤمن بأنّ الهدف العام لخروج الإمام الحسين (عليه السلام) هو طلب الإصلاح «إنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمَّة جدّي»، والذي تؤكّده كلمة (إنّما) الدالّة على الحصر. وأمّا الأمور الأخرى فهي وسائل تُوصّل الإمام إلى غايته أو من أهداف وغايات مرحلة من مراحل عمر النهضة. فهو يريد الإصلاح في كلّ حركته، فيأمر بالمعروف ليعيده إلى موقعه الصحيح في ذهنية الأُمّة وثقافتها وسلوكها بعد أن بُعد عنها، وينهى عن المنكر ليخرجه من ذهنية الأُمّة وثقافتها وسلوكها بعد أن تجدّر فيها.

ولكنّ هذا تارةً يتحقّق برفض البيعة، وأخرى بالخطب والكلمات العلمية والمعرفية التي تهدف لتوضيح بعض المفاهيم، أو بعض المشاكل التي تعاني منها الأمة والتي تُشكّل سبب معاناتها، كما يوضّح الحلول المقترحة لرفعها. وأخرى يستفيد من الخطب والكلمات الحماسية العاطفية التي تُحرّك النفوس نحو مبدأ معين يحنّ إليه الإنسان بفطرته أو المسلم بعقيدته.

كما يستعمل الإمام أسلوب الوعظ العام تارةً، والوعظ الفردي تارةً أخرى حين يصرّ على لقاء بعض الشخصيات ويسير نحوها إلى حيث تستقر، أو يطلبها ويدعوها إلى حيث يستقر هو عليه السلام؛ لأنّ اللقاءات الخاصة قد تفعل في بعض الشخصيات ما لا يفعله الخطاب العام، خصوصاً في الشخصيات ذات المقامات الاجتماعية أو السياسية أو العسكرية.

وقد يعمل السيف كأداة من أدوات الإصلاح ببعديه: الدفاع عن النفس أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما هو مقتنّ في مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الشريعة.

وحتى التنقل المكاني إنّما هو وسيلة للإصلاح، فمتى ما كانت شروط الإصلاح وقواعده متوفرة في مكة تحرك الإمام نحو مكة، ومتى قضى وطره فيها، وأصبحت مكة تُشكّل خطراً على استمرارية الإصلاح، هجرها وتحرك نحو بلاد أخرى؛ للحفاظ على حياة المصلح أطول مدة ممكنة من أجل استمرارية الحركة الإصلاحية على يدي قائدها.

وبما أنّ الظروف تهيأت بشكل أفضل وذات نتائج أكبر وأهمّ في الكوفة، كانت وجهة القائد العظيم نحوها؛ فإنّه لو قدّر للإمام الوصول إلى مهد شيعته وموطنهم لاعصوب الأمر على السلطة، ولقويت شوكة المؤمنين بقائدهم، وعلا شأنهم من أن يُنال من قبل الظالمين، وبعُدَ على الدولة النيل من الإمام عليه السلام.

وهذا ما يفسّر لنا التسابق نحو الكوفة بين الإمام الحسين عليه السلام وحكومة الشام؛ فإنّ الإمام عليه السلام يعجّل الخروج من مكة ويترك الحج ويحلّ إحرامه، بينما تصدر الأوامر الأموية بمنع الحسين عليه السلام من الخروج من مكة، ويأتي الكتاب من يزيد إلى ابن زياد بأن: أترك البصرة وأسرع نحو الكوفة متى وصلك كتابي، فيسير مصباحاً نحوها.

كما يُصرّ الإمام على الخروج من مكة، وتحصل مشادة بين الطرفين وصلت إلى حدّ التضارب بالسياط في البلد الحرام وفي الشهر الحرام، حتى اضطروا لفسح المجال وإخلاء الطريق، فيسير الإمام نحو الكوفة.

وقد حاول أصحاب الإمام عليه السلام وشيعته اتخاذ نفس الطريق ليعيقوا حركة ابن زياد ويمنعوه من الوصول إلى الكوفة قبل وصول الإمام، فكان البعض منهم يُسقط نفسه من دابته على أمل أن ينتظره ابن زياد أو يبطئ من سرعته، بينما يمارض الآخر، ولكن ابن مرجانة لم يلتفت لأحد خوفاً من سبق الأحداث، بأن يصل الإمام أو يخرج ثقته ونائبه ويعلن الثورة ويأخذ بزمام الأمر، كما إنّه تنكّر حين قرب من الكوفة لئلا يُعرف فيقتل قبل بلوغها.

ولكنّ الظرف يحكم بوصول ابن زياد لعلّ الله إلى الكوفة ومعه خمسمائة فارس^(١)، قبل الإمام؛ لأنّه أقرب مكاناً وأخفّ رحلاً، فالإمام يسير من مكة بصحبة العائلة المخدرة، بينما يسير ابن زياد لعلّ الله من البصرة مع فرسانه.

(١) أنظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٦٧. شمس الدين، محمد مهدي، أنصار الحسين عليه السلام: ص ٢٢١.

خاتمة المطاف

موقف الإمام الحسين عليه السلام

من المشروع الأموي

بعد التتبع لمسيرة الإمام الحسين عليه السلام وأقواله ومواقفه قبل هلاك معاوية وبعد هلاكه، وأقوال العلماء في ذلك، وما استظهرناه من النتائج التي استطاع الإمام المعصوم أن يحققها بحكمته، نودّ أن نلخص حركة الإمام الحسين عليه السلام وما هو المشروع الذي كان يؤسس له؛ ليكون المعلم البارز في أيام إمامته، والوسيلة التي مارسها باعتباره هادياً للأمة. فنقول:

لقد عاصر الإمام الحسين عليه السلام في أيام إمامته حاكمين من حكام بني أمية: الأول: معاوية بن أبي سفيان، مؤسس الدولة الأموية، والثاني: يزيد بن معاوية رضي الله عنهما.

فلا بدّ أن ننظر كيف تعامل الإمام الحسين عليه السلام مع حكومة بني أمية في كلا الفترتين المشؤومتين.

في زمن معاوية

أولاً: الالتزام بالسريّة التامة، وعدم السماح لشييعته بالحرّك العلني، كما يظهر من كتابه الذي أجاب به شييعته من الكوفة، حيث كتب إليهم: «... فَأَلْصِقُوا بِالْأَرْضِ، وَأَخْفُوا الشَّخْصَ، وَاکْتُمُوا الْهَوَى، وَاحْتَرِسُوا مِنَ الْأَطْنَاءِ^(١) مَا دَامَ ابْنُ هِنْدَ حَيًّا، فَإِنْ يَخْذُلْ بِهِ حَدَثٌ وَأَنَا حَيٌّ يَأْتِكُمْ رَأْيِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ»^(٢).

(١) هكذا في المخطوط، وهو الصحيح. وفي المطبوع (الأطباء)، والأطناء: هم المتهمون. أنظر: ابن

منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج ١٣، ص ٢٧٣.

(٢) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٣، ص ١٥٣.

وفي (الأخبار الطوال): «أما أخي، فأرجو أن يكون الله قد وفقه وسدّده فيما يأتي، وأما أنا فليس رأيي اليوم ذلك، فألصقوا رحمكم الله بالأرض، واكمنوا في البيوت، واحترسوا من الظنة ما دام معاوية حياً، فإن يحدث الله به حدثاً وأنا حيّ، كتبت إليكم برأيي، والسلام»^(١).

وهذا يدلّ على صعوبة الوضع السياسي في زمن معاوية، وما عانته الشيعة من تعسف، حيث كان يأخذ البريء بالسقيم، والمقبل بالمدير، ويقتل على الظنة والتهمة. قد عرف الشيعة ذلك؛ فإنّ معاوية بعد شهادة الإمام الحسن عليه السلام بفترة كثر عن أنبيائه، فأخذ شيعة عليّ وعذبهم وقتلهم وسجنهم وصلبهم، ولكن بعد أن يلصق بهم التهم، ويصوّرهم للرأي العام أنّهم خرجوا عليه، وأثاروا الفتنة وشقّوا العصا. هذا وهم لم يفعلوا شيئاً، فكيف لو ظهروا وأعلنوا المخالفة؟

ثانياً: استغلال الفرص المناسبة لفضح مخطط معاوية، وبيان واقعه، وتنديده بسياسته ضدّ المؤمنين كما جاء في كتابه الذي أجاب به على كتاب معاوية: «أو لست المدّعي زياد بن سمية المولود على فراش عبد ثقيف، وزعمت أنّه ابن أبيك، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (الولد للفراش وللعاهر الحجر) فتركت سنة رسول الله صلى الله عليه وآله، واتّبعته هواك بغير هدى من الله، ثمّ سلّطته على أهل العراق يقطع أيدي المسلمين وأرجلهم، ويسمل أعينهم ويصلبهم في جذوع النخل، كأنك لست من هذه الأمّة وليسوا منك؟ أو لست صاحب الحضرميين الذين كتب إليك فيهم ابنُ سمية أنّهم على دين عليّ ورأيه، فكتبت إليه أن اقتل من كان على دين عليّ ورأيه، فقتلهم؟ ودين عليّ - والله - وأولاد عليّ الذي ضرب عليه أبوك، وهو الذي أجلسك هذا المجلس الذي أنت فيه. لولا ذاك لكان أفضل شرفك وشرف أبيك تجشّم الرحلتين اللتين بنا من الله عليكم فوضعها عنكم...

(١) ابن قتيبة الدينوري، أحمد بن داود، الأخبار الطوال: ص ٢٢٢.

أبشر يا معاوية بالقصاص، واستعدّ للحساب، واعلم أنّ الله عز وجل كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها، وليس الله تعالى بناس أخذك بالظنّة، وقتلك أوليائه بالتهمة، ونقلك إياهم من دار الهجرة إلى دار الغربة، وأخذك الناس ببيعة ابنك غلام من الغلمان يشرب الشراب ويلعب بالكعباب. لا أعلمك إلاّ قد خسرت نفسك، وبعث دينك، وغششت رعيك، وأكلت أمانيك، وسمعت مقالة السفية الجاهل، وأخفت التقي الورع الحليم»^(١).

ثالثاً: التنديد بالجرائم التي ارتكبتها بنو أمية في حقّ المؤمنين وخيار المسلمين، أمثال: حُجر بن عدي وأصحابه، وعمرو بن الحمق الخزاعي، كما جاء في نفس الكتاب الذي بعثه لمعاوية: «ألست القاتل حُجر بن عدي أخا كندة، والمصلّين العابدين الذين كانوا ينكرون الظلم ويستعظمون البدع ولا يخافون في الله لومة لائم؟ ثمّ قتلتهم ظلماً وعدواناً من بعد ما كنت أعطيتهم الأيمان المغلظة، والمواثيق المؤكّدة: لا تأخذهم بحدث كان بينك وبينهم، ولا بإخنة»^(٢) تجدها في نفسك. أو لست قاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله، العبد الصالح الذي أبْلثته العبادة فنحل جسمه وصفرت لونه؟ بعدما آمنته وأعطيته من عهود الله ومواثيقه ما لو أعطيته طائراً لنزل إليك من رأس الجبل، ثمّ قتلته جرأة على ربك واستخفافاً بذلك العهد»^(٣).

رابعاً: الاعتراض والرفض لأخذ البيعة ليزيد، وبيان قبح ما فعله معاوية من خداعه الأمة في تحسينه لصورة يزيد، فقد قال عليه السلام لمعاوية لما جاء المدينة وأراد أن يُقنع أهلها ببيعة يزيد، وخاطب الإمام الحسين عليه السلام وابن عباس على انفراد، فردّ عليه الإمام الحسين عليه السلام بقوله: «وفهمتُ ما ذكرتَ عن يزيد من اكتماله، وسياسته لأُمة محمد، تريد

(١) المشغري، يوسف بن حاتم العاملي، الدر النظيم: ص ٥٣٢ - ٥٣٥.

(٢) الإحنة: الحقد في الصدر. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج ١٣، ص ٨.

(٣) الطوسي، محمد بن الحسن، اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي): ج ١، ص ٢٥٥.

أن توهم الناس في يزيد، كأنك تصف محجوباً، أو تنعت غائباً، أو تخبر عما كان مما احتوته بعلم خاص، وقد دلّ يزيد من نفسه على موقع رأيه؛ فخذ ليزيد فيما أخذ فيه، من استقراره الكلاب المهارشة عند التهارش، والحمام السبق لأتراهبن، والقيان ذوات المعازف وضرب الملاهي تجده باصراً، ودع عنك ما تحاول، فما أغناك أن تلقى الله من وزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقية»^(١).

في زمن يزيد

بعد هلاك معاوية لعنه الله استمرّ الإمام الحسين عليه السلام برفضه لبيعة يزيد، وليان حقيقة يزيد وبني أمية. وهذا الموقف من الإمام كلّفه الخروج من وطنه ومسقط رأسه والانتقال إلى بلاد أخرى.

من خلال التأمل بما تقدّم من سياسة معاوية والمشروع الأموي، نعلم أنّ خروج الإمام الحسين عليه السلام كان لمواجهة هذا الانحراف الثقافي المحدث بأمة جدّه، والذي يشير إليه الإمام عليه السلام في وصيته لأخيه محمد بن الحنفية: «إنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي رسول الله ﷺ»، وفي بعض كلماته يشير إلى أنّه أولى بالتغيير من غيره.

أمّا كيفية علاج هذه الظاهرة الثقافية الخطيرة واستبدالها بثقافة إسلامية أصيلة، فلا يمكن إلّا من خلال إسقاط الحكومة الداعمة والمغذية لهذا المدّ الثقافي المسموم، أو من خلال اتباع طريقة الإعلام المضاد ونشر الثقافة البديل.

وإذا تتبّعنا كلمات الإمام الحسين عليه السلام نجدّها تشير بوضوح وفي مواطن مختلفة منذ بداية خروجه وحتى نهاية المطاف، إلى أنّ احتمال إسقاط الحكومة الأموية - أي الاحتمال الأوّل - شيء غير ممكن، وأنّه عليه السلام يعلم علم اليقين أنّه سيقتل، وسيقتل

(١) ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٦١.

معه جميع مَنْ ينصره على هذا الأمر من أهل بيته وشيعته، كما في خطبته في مكة يوم خروجه عليه السلام منها، حيث قال: «مَنْ لحق بي استشهد»، وأن رأسه سيُرفع على رمح ويطاف به في البلدان، ويهدى إلى بغى كما فعلوا ذلك بيحيى بن زكريا عليه السلام.

وعليه؛ فلا يمكن أن يقال بأن الإمام كان يستهدف الإصلاح عن طريق تغيير الحكم، بل لا بدّ من سلوك الطريق الآخر، وهو استبدال الثقافة الفاسدة بثقافة صحيحة من خلال الخطاب والإعلام المضاد.

إلا أن هذا الطريق أيضاً لا يمكن الركون إليه؛ لأنّ الجهاز الحاكم قد سدّ المنافذ الثقافية بشكل تامّ إلا لأفواه أتباعه وأقلامهم، فلا يسمح بالكلام إلا لمن هو في دائرة حزب الدولة. مضافاً إلى أنّ كلمات الإمام عليه السلام تشير إلى أنّه مقتول بلا شك، وأنّ السلطة لا يمكن أن تتحمّل بقاءه طويلاً حتى لو بايع ليزيد: «هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ، يَابْنَ عَبَّاسٍ! إِنَّ الْقَوْمَ لَنْ يَتْرُكُونِي وَإِنَّهُمْ يَطْلُبُونَنِي أَيْنَ كُنْتُ حَتَّى أُبَايِعَهُمْ كُرْهاً وَيَقْتُلُونِي»^(١)، وقوله لأُم سلمة رضي الله عنها: «والله، إنّي مقتول كذلك، وإن لم أخرج إلى العراق يقتلوني أيضاً»^(٢).

وهذا يعني أنّ الإمام الحسين عليه السلام بايع أو لم يبايع فهو مقتول، ولم يبقَ من عمره إلا اليسير، فلا بدّ أن يستغل هذه المدة، ويحاول تمديدتها وإطالتها قدر المستطاع؛ ليوصل صوته إلى أكثر عدد ممكن.

فاتّبع الإمام طريقة التغيير والإصلاح الثقافي عن طريق الإلفات إلى تعاليم الإسلام وثقافته بطريقة إعلامية ملفتة للنظر ومؤثرة، بمعنى أنّ الإمام كان يستفيد

(١) البحراني، هاشم، مدينة المعاجز: ج ٣، ص ٤٨٥. لسان الملك، محمد تقي، ناسخ التواريخ: ج ٢، ص ١١٨. الحائري، محمد مهدي، معالي السبطين: ج ١، ص ٢٤٩. لجنة الحديث في معهد الإمام

الباقر عليه السلام، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ص ٣٨٩.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤، ص ٣٣٢.

من جميع الظروف التي تساعده في نشر ما يرنو إليه في أوسع مساحة وأقصر مدّة ممكنة، فكانت الظروف التي استفاد منها عليه السلام كالتالي:

١. أنّه عليه السلام أراد أن يستفيد من أكثر مدة زمنية ممكنة؛ لذا نراه رفض البيعة، وأوصل رفضه إلى مسامع الأمة بطريقة تحفظ دمه الطاهر من دون أن يتنازل عن مبادئه. فمع أنّ يزيد لعنه الله أمر والي المدينة بأن يأخذ البيعة من الحسين بن علي وإلّا فليضرب عنقه، ولكن الإمام عليه السلام استطاع ألاّ يبايع ولا يمكنهم من قتله. وذلك بأن لم يبيّن لخصومه عدم البيعة في بادئ الأمر، حتى اعترض عليه مروان بن الحكم لعنه الله، عندها أشار الإمام عليه السلام إلى مشروعه بقوله: «ومثلي لا يبايع مثله، ولكن نصيح وتصبحون وننظر وتنظرون أيّنا أحقّ بالخلافة؟». ولم يكن صريحاً في الرفض للبيعة؛ ولذا لم يفهم الوليد منه الرفض، وإلّا لوجب عليه إجباره بحسب الأوامر الموجهة إليه من يزيد لعنه الله.

٢. خروجه عليه السلام من المدينة مع عياله في وقت لم يكن وقت حج، وفي وقت كانت الحكومة قد طلبت من الأمة البيعة للقيطهم الجديد؛ ممّا أثار خروجه - بظروف كهذه - ضجة كبيرة في المجتمع.

٣. اتخاذه الطرق العامة، ولم يرصّ بأن يسير متخفياً كما فعل ابن الزبير لعنه الله.
٤. اصطحاب العائلة معه، بحيث صار خروجه حركة ملفتة للنظر؛ لِمَا صاحبه من وداع وبكاء، فضجّت بيوت الهاشميين ومن يتصل بهم بنسب أو سبب أو ولاء.
٥. اختياره مكة محطة لرحلته، حيث يتوافد عليها المسلمون من كافة البلاد الإسلامية للعمرة، ثمّ سيتوافدون عليها للحج، فبقي فيها أربعة أشهر وأياماً.

وهذه العوامل أدّت إلى انتشار خبر رفضه وتقبّضه عن بيعة يزيد بشكل واسع، فعلمت به الكوفة، وصارت تبعث إليه الرسائل والوفود، ثمّ أرسل لهم ابن عمه وثقته مسلم بن عقيل، ممّا زاد في الحراك في الكوفة وأطرافها، وعلمت سائر البلدان

بجدية دعوته وقيامه، وأخذت تتطّلع إلى أخبار النهضة وأقوال قائدها ومواقفه ومواقف أصحابه، والأهداف التي خرج من أجلها.

وهذا هو ما يريده الإمام الحسين عليه السلام من إطلاع الأمة على مشروعه والمفاهيم التي يحملها، وإذا بهذا الصوت يكون مدوياً في أركان الدولة بعد أن مُزج بتلك الدماء الزاكيات، حتى بلغ من التأثير أن أُقيم له العزاء في قصر طاغية الشام قاتل الإمام الحسين عليه السلام؛ مما يدلّ على تعرّض القاتل للإدانة حتى من قبل بيته وعائلته، فقد روى ابن شهر آشوب أن يحيى بن الحكم أخو مروان بن الحكم قال في مجلس يزيد لعنه الله:

لهامٌ بجنبِ الطفِّ أدنى قرابةً من ابنِ زيادِ العبدِ ذي الحسبِ الوغلِ
سميةُ أمسى نسلها عددَ الحصى وبنْتُ رسولِ الله أمست بلا نسل^(١)

كما قد أعطى أثره في ذرية يزيد لعنه الله، حيث يُنقل أن ولده معاوية الثاني تأثر بذلك وتعاطف مع أهل البيت عليه السلام وصار معتقداً بحبهم، وتبرأ من أبيه وصنيعه، ورفض الخلافة حين وصلت إليه، فقد روي أنه قام خطيباً فقال: «أيها الناس، ما أنا بالراغب في التأمر عليكم، ولا بالأمن لكرهتكم، بل ثلينا بكم وبليتم بنا، إلا أن جدّي معاوية نازع الأمر من كان أولى بالأمر منه في قدمه وسابقتة علي بن أبي طالب، فركب جدّي منه ما تعلمون، وركبتم معه ما لا تجهلون، حتى صار رهين عمله، وضجيع حفرته، ثم صار الأمر إلى أبي، ولقد كان خليفاً أن لا يركب سنه؛ إذ كان غير خليق بالخلافة، فركب ردعه، واستحسن خطأه، فقلت مدته، وانقطعت آثاره، وخمدت ناره، ولقد أنسانا الحزنُ به الحزنَ عليه، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون»^(٢).

(١) ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب: ج ٣، ص ٢٦٠.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٦، ص ١١٨.

كما أثر مشروع الإمام الحسين عليه السلام على مجتمع الشام وبطانة يزيد الناقمين على آل علي؛ فإنهم لمّا سمعوا بمقتل الإمام الحسين عليه السلام من لسان ولده الإمام السجاد عليه السلام وإذا بهم يضجّون بالبكاء والعويل، وحصلت همهمة حتى خاف يزيد الفتنة، بحيث جعلت الدولة تحذّر المساس بأهل البيت عليهم السلام، وأظهروا لهم المحبة والاحترام والتبرّي من قتل الإمام، ورمي الجريمة في عاتق ابن مرجانة لعنه الله. وهذا هو الذي دعا يزيد لعنه الله أن يوصي مسلم بن عقبة بالإحسان للإمام السجاد عليه السلام في واقعة الحرة، فأظهر له كامل الاحترام، وقال فيه: «هذا الخير الذي لا شرف فيه»^(١).

فزرع الإمام ثقافته الإسلامية الأصيلة من رفض الظلم ومقاومة الطاغية في الذهنية الإسلامية، لا سيّما الجيل الجديد الذي نشأ في ظلّ بني أمية، وتحت وطأة إعلامهم.

٦. استقباله الزائرين في بيته في مكة بشيء منقطع النظر؛ لكثرتهم، بحيث لم يبقَ في مكة أحد إلا وهو يأتي الحسين عليه السلام كلّ يوم، حتى اضطر ابن الزبير أن يزوره بين كلّ يوم أو يومين^(٢).

إلا أنّ التاريخ لم يرو لنا ما كان يجري من كلام ومواقف بين الإمام عليه السلام ومن يفد إليه في مكة.

٧. خطبته في مكة وإعلانه الخروج على المألأ العام، ودعوته لهم لنصرته والاستبسال في رفض الظلم وإن كلفهم الموت.

٨. اختيار وقت ملفت للنظر لخروجه من مكة، وهو يوم التروية، اليوم الثامن من ذي الحجة، الذي يتوجّه فيه الحجّيج إلى عرفة، ليتهيؤوا للمناسك الحجّ التي تشرع يوم التاسع من ذي الحجة. فخروجه في هذا الوقت ومعه جميع أهل بيته وأنصاره، إعلان

(١) أنظر: الإريلي، علي بن أبي الفتح، كشف الغمة في معرفة الأئمة: ج ٢، ص ٣٠١.

(٢) أنظر: البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٣، ص ١٥٦.

صارخ بأن ابن رسول الله وجميع أهل بيته وشيعته تركوا الحج وتوجهوا للعراق؛ مما أثار دهشة الجهاز الحاكم آنذاك، فحاول صرف الإمام عن نيته من خلال إعطائه الأمان فلم ينفع ذلك، فأمر جيشه بمواجهة الإمام بالقوة ومنعه عن الخروج، ولكن الإمام عليه السلام أصرَّ على الخروج حتى تضاربوا مع جيش الوالي بالسياط.

٩. كان عليه السلام خلال مسيره إلى الكوفة يسير في الطرق العامة، ويقصد من يقع في طريقه أو يبعث إليه ويدعوه إلى اللحاق به.

١٠. خطابه الكثيرة والمتعددة في جيوش أعدائه، فقد روى المؤرخون أنه خطب بجيش الحر عدة مرات؛ بين فيها فضله وفضائل أهل بيته عليه السلام، وأتهم أولى برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. كما ركز على مثالب آل أبي سفيان ويزيد بالخصوص، وظلمهم للأمة بجميع أطرافها، وبين لهم أن له حقاً عليهم فيجب عليهم نصرته.

ونفس هذه الخطابات تجدها مع جيش ابن سعد إلى آخر لحظات حياته، وبعد مقتل أصحابه وأهل بيته، مع أنه يعلم بعدم نصرتهم له، وأنهم لا يتركوه حتى يقتلوه. وهذه كلها مؤثرات شديدة جداً في تعزيز قوة الخطاب، وسعة انتشاره في وسط الأمة. خصوصاً إذا عرفنا أن من يستمع إليه هم جيش الدولة الأموية من جميع أقطارها؛ فإن الجيش لم يكن من بلاد واحدة، بل كانوا من الكوفة والشام ومصر واليمن^(١).

وقد أحسَّ أمراء الجيش بخطر تأثير خطابات الإمام عليه السلام؛ ولذا أمروا الجيش بالضجيج عندما يتكلم معهم الإمام عليه السلام لئلا يسمعه فيتأثروا به^(٢).

(١) أنظر: ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، الاستيعاب: ج ١، ص ٣٩٤. وفي بعض نسخه (مضر) بدلاً من (مصر). أنظر: ابن العديم، عمر بن أحمد العقيلي، بغية الطلب في تاريخ حلب: ج ٦، ص ٢٥٧١.

(٢) أنظر: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ١١، ص ٦٢٤.

ومّا يؤيّد أنّ هدف الإمام الحسين عليه السلام هو الإصلاح الثقافي، أنّه إلى يوم عاشوراء، وبعد مقتل بعض أصحابه، كان يدعوهم إلى الكفّ عنه؛ ليذهب إلى بلاد الله الواسعة وهم يرفضون؛ لمعرفتهم بخطر دعوته وتأثيرها؛ ولذا لمّا تقدّم ابن سعد إلى عبيد الله بن زياد رضي الله عنه ببعض الخيارات، ومنها ترك الحسين بن علي عليهما السلام ليعود من حيث أتى، أو ليذهب إلى بعض البلاد البعيدة، وافق ابن زياد، ولكنّ الشمر اللعين رفض وخوّف ابن زياد بأنّه لو تُرك لكان أولى بالقوة وتجمع إليه شيعته وأتباعه، فتنّبّه ابن زياد وقال: نعم ما رأيت^(١).

وهذا التفسير لأهداف النهضة وأنّه عليه السلام خرج بمشروع إصلاح يهدف إلى إصلاح ثقافة الأمة ولو على المدى البعيد، بأن يزرع بذور الثقافة الصالحة في زمانه فتؤتي ثمارها بعد حين، يفسر لنا أيضاً سبب اصطحابه العائلة الكريمة معه؛ فإنّها ستكون المكمل لهذا المشروع بحيث تخرج لنشر الوعي والثقافة الإسلامية الأصيلة، وبيان أحقية أئمة الهدى بالخلافة في كافة البلاد التي ستمر بها، تحت غطاء السبي، مضافاً إلى أنّ نفس حمل عائلة النبي صلى الله عليه وآله أسارى سيثير الرأي العام ضدّ الحماقة الأموية. كما يتضح من خلال هذا التفسير مغزى قوله عليه السلام: «قد شاء الله أن يراني قتيلاً»، وقوله عليه السلام: «إنّ الله قد شاء أن يراهنّ سبايا».

والحمد لله ربّ العالمين

والصلاة والسلام على محمد وآله المعصومين المنتجبين

(١) أنظر: ابن مسكويه، أحمد بن محمد، تجارب الأمم: ج ٢، ص ٧٣. ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج ٤٥، ص ٥١. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٣٩٠.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

١. إِبصار العين في أنصار الحسين عليه السلام، محمد بن طاهر السماوي (ت ١٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد جعفر الطبرسي، مركز الدراسات الإسلامية لممثلية الولي الفقيه في حرس الثورة الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٣٧٧ش / شهر رمضان المبارك ١٤١٩هـ.
٢. الاحتجاج، أحمد بن علي الطبرسي (ت ٥٤٨هـ)، دار النعمان للطباعة والنشر، النجف الأشرف - العراق، تعليق وملاحظات: السيّد محمد باقر الخرسان، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م.
٣. الأخبار الطوال، أحمد بن داود الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق: عبد المنعم عامر، نشر دار إحياء الكتاب العربي، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى، ١٩٦٠م.
٤. الاختصاص، محمد بن محمد بن النعمان المفيد (ت ٤١٣هـ)، صحّحه وعلّق عليه: علي أكبر الغفاري، رتّب فهرسه: السيّد محمود الزرندي، انتشارات جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية، قم المقدّسة - إيران.
٥. الأخلاق الحسينية، جعفر البياتي، أنوار الهدى، قم المقدّسة - إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
٦. أخلاق أهل البيت عليهم السلام، مهدي الصدر (ت ١٣٥٨هـ)، دار الكتاب الإسلامي، قم المقدّسة - إيران.
٧. الإدارة في عصر الرسول صلى الله عليه وآله، حافظ أحمد عجاج الكرمي، دار السلام، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.

٨. إرشاد القلوب، الحسن بن محمد الديلمي (ت ق ٨٠هـ)، انتشارات الشريف الرضي، قم المقدّسة - إيران، الطبعة الثانية، ١٣٧٤ ش / ١٤١٥ هـ.
٩. الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، محمد بن محمد بن النعمان المفيد (ت ٤١٣هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليه السلام لتحقيق التراث، نشر دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م.
١٠. أزمة الخلافة والإمامة وآثارها المعاصرة، أسعد وحيد القاسم، الغدير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م.
١١. أساس البلاغة، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، نشر دار ومطابع الشعب، القاهرة - مصر، ١٩٦٠ م.
١٢. الاستغاث، أبو القاسم الكوفي علي بن أحمد بن موسى بن الإمام محمد الجواد عليه السلام (ت ٣٥٢هـ)، مكتبة أهل البيت عليه السلام، الإصدار الثاني، ١٤٣٣ هـ.
١٣. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، يوسف بن عبد الله بن عبد البر (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، الطبعة الأولى، نشر دار الجليل، بيروت - لبنان، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م.
١٤. أسد الغابة في معرفة الصحابة، علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير (ت ٦٣٠هـ)، نشر دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان.
١٥. الإصابة في تميز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الطبعة الأولى، نشر دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان، ١٤١٥ هـ.
١٦. أضواء على الصحيحين، محمد صادق النجمي، ترجمة: الشيخ يحيى كهالي البحراني، مؤسسة المعارف الإسلامية، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ.

١٧. أضواء على عقائد الشيعة الإمامية، جعفر السبحاني، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

١٨. أطلس الحسين عليه السلام، عباس الربيعي (معاصر)، نشر هيئة قوات الشهيد الصدر، بغداد - العراق، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ / ٢٠١٠م.

١٩. إعلام الوري بأعلام الهدى، الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم المشرفة - إيران، الطبعة الأولى، ربيع الأول ١٤١٧هـ.

٢٠. الأعلام، خير الدين الزركلي (ت ١٤١٠هـ)، نشر دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م.

٢١. أعيان الشيعة، السيّد محسن الأمين (ت ١٣٧١هـ)، تحقيق وتخرّيج: حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت - لبنان، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٢٢. الأغاني، أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، دار الكتب المصرية، القاهرة - مصر، ١٩٣٠م.

٢٣. الأغاني، أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

٢٤. إفادات من ملفات التاريخ، محمد سليم عرفة، مركز الأبحاث العقائدية، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.

٢٥. آفاق الحضارة العربية الإسلامية، فاضل محمد الحسيني، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.

٢٦. أقطاب الدوائر في تفسير آية التطهير، العلامة الشيخ عبد الحسين بن مصطفى (ت ١٢هـ)، تحقيق وتخرّيج: علي الفاضل القائني النجفي، منشورات دار القرآن

الكريم، قم - إيران، ١٤٠٣ هـ.

٢٧. الأقوام والشعوب في النقوش الصفوية، (بحث)، د. حسين القدرة؛ د. مهدي عبد العزيز؛ أ.د. سلطان المعاني، معهد الملكة رانيا للسياحة والتراث، الجامعة الهاشمية، الزرقاء - الأردن.

٢٨. الأمالي، الشيخ محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ هـ)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية في مؤسسة البعثة، نشر دار الثقافة، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ.

٢٩. الأمالي، الشيخ محمد بن علي الصدوق (ت ٣٨١ هـ)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، طهران - إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ.

٣٠. الإمام الحسين عليه السلام في مواجهة الانحراف الأموي، سامي البدري، دار الفقه، قم المقدسة - إيران، الطبعة الثانية، ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م.

٣١. الإمام الحسين عليه السلام من الميلاد وحتى الاستشهاد، هيئة محمد الأمين الثقافية، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م.

٣٢. الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه، فضل علي القزويني (ت ١٣٦٧ هـ)، تحقيق: السيد أحمد الحسيني الأشكوري، مجمع الإمام الحسين عليه السلام العلمي لتحقيق تراث أهل البيت عليه السلام، كربلاء المقدسة - العراق، الطبعة الأولى، ١٤٣٧ هـ / ٢٠١٥ م.

٣٣. الإمام الصادق عليه السلام رمز الحضارة الإسلامية، محمد أمين الأميني، الناشر: المؤلف، توزيع: منشورات ذوي القربى، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ.

٣٤. الإمام الصادق عليه السلام، محمد حسن المظفر، دار الزهراء عليه السلام للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٨ م.

٣٥. الإمامة والسياسة، عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ)، تحقيق: الأستاذ علي الشيري

(ماجستير في التاريخ الإسلامي)، انتشارات الشريف الرضي، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٣٧١ش / ١٤١٣هـ.

٣٦. الإمامة والسياسة، عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق: طه محمد الزيني، نشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر.

٣٧. الأنثروبولوجيا الاجتماعية الثقافية لمجتمع الكوفة عند الإمام الحسين عليه السلام، السيد نبيل الحسيني (معاصر)، قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة، كربلاء المقدسة - العراق، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م.

٣٨. الانحرافات الكبرى، سعيد أيوب، دار الهادي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

٣٩. أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى البلاذري (ت ٢٧٩هـ)، تحقيق: الدكتور محمد حميد الله، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالاشتراك مع دار المعارف بمصر، ١٩٥٩م.

٤٠. الأنساب، عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني (ت ٥٦٢هـ)، تقديم وتعليق: عبد الله عمر البارودي، دار الجنان للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

٤١. أنصار الحسين عليه السلام، الشيخ محمد مهدي شمس الدين (ت ٢٠٠١م)، الدار الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

٤٢. الأنوار البهية، الشيخ عباس القمي (ت ١٣٥٩هـ)، تحقيق ونشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم المشرفة - إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٤٣. أهداف نهضة سيد الشهداء في كلمات الفقهاء، عبد الرزاق النداوي، مركز الدراسات التخصصية في فكر السيد الشهيد محمد الصدر عليه السلام، قم المقدسة - إيران،

الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.

٤٤. أهل البيت عليهم السلام في آية التطهير، جعفر مرتضى العاملي، المركز الإسلامي للدراسات،

بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، طبعة مزيّدة ومنقّحة، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م.

٤٥. الأئمة الاثنا عشر، علي الميلاني، مركز الحقائق الإسلامية، قم المقدّسة - إيران،

الطبعة الأولى، ١٣٨٥ش / ١٤٢٧هـ.

٤٦. أين سنّة الرسول وماذا فعلوا بها؟ أحمد حسين يعقوب (معاصر)، الدار الإسلامية

للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.

٤٧. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، الشيخ محمد باقر المجلسي

(ت ١١١١هـ)، نشر مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ /

١٩٨٣م.

٤٨. بحوث في تاريخ القرآن وعلومه، مير محمدي زرندي، مؤسّسة النشر الإسلامي

التابعة لجامعة المدرّسين، الطبعة الأولى، جمادي الأولى، ١٤٢٠هـ.

٤٩. البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، تحقيق: علي

شيري، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى،

١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

٥٠. بغية الطلب في تاريخ حلب، عمر بن أحمد بن العديم (ت ٦٦٠هـ)، تحقيق وتقديم:

الدكتور سهيل زكار، نشر مؤسسة البلاغ، بيروت - لبنان، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

٥١. بلاغات النساء، أبو الفضل بن أبي طاهر المعروف بابن طيفور (ت ٣٨٠هـ)، نشر

مكتبة بصيرتي، قم - إيران.

٥٢. البلدان، أحمد بن محمد ابن الفقيه الهمداني (ت ٣٤٠هـ)، تحقيق: يوسف الهادي، نشر عالم

الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

٥٣. بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، محمود شكري الألوسي البغدادي (ت ١٩٢٤م)، شرح وتصحيح: محمد بهجة الأثري، المكتبة الأهلية، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٤٣هـ / ١٩٢٥م.
٥٤. تاج العروس من جواهر القاموس، الإمام محبّ الدين أبو فيض السيّد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي (ت ١٢٠٥هـ)، تحقيق: علي شيري، نشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.
٥٥. تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة.
٥٦. تاريخ إسلام أز سقيفه تا كربلا (التاريخ الإسلامي من السقيفة إلى كربلاء)، مهدي بيشوائي، دفتر نشر معارف، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٣٩٣ ش.
٥٧. تاريخ الإسلام، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
٥٨. تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) [قُوبلت هذه الطبعة على النسخة المطبوعة بمطبعة (بريل) بمدينة ليدن في سنة ١٨٧٩م] راجعه وصحّحه وضبطه: نخبة من العلماء الأجلاء، منشورات مؤسّسة الأعلمي، بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
٥٩. التاريخ الأوسط، محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض - السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.
٦٠. تاريخ الخلفاء، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: لجنة من الأدباء، نشر دار التعاون، مكّة المكرّمة.

٦١. تاريخ العرب قبل الإسلام، نواف أحمد عبد الرحمن، الجنادرية للنشر والتوزيع، عمّان - الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م.
٦٢. تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، الدكتور محمد علي أبو ريان، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية - مصر، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.
٦٣. تاريخ المدينة، عمر بن شبة النميري (ت ٢٦٢هـ)، تحقيق: فهم محمد شلتوت، دار الفكر، قم - إيران، ١٣٦٨ش / ١٤١٠هـ.
٦٤. تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي (ت ٢٩٢هـ)، نشر مؤسسة فرهنك أهل بيت عليه السلام، قم - إيران.
٦٥. تاريخ بغداد، أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
٦٦. تاريخ خليفة بن خياط، خليفة بن خياط العصفري (ت ٢٤٠هـ)، تحقيق: الدكتور سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.
٦٧. تاريخ مدينة دمشق، علي بن الحسن المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ)، تحقيق: علي شيري، نشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.
٦٨. تحف العقول عن آل الرسول عليه السلام، الحسن بن علي بن شعبة الحراني (ت ق ٤)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٣٦٣ش / ١٤٠٤ق.

٦٩. تخريج الأحاديث والآثار، عبد الله بن يوسف الزيلعي (ت ٧٦٢هـ)، تحقيق: عبد الله بن عبد الرحمن السعد، دار خزيمة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
٧٠. تذكرة الخواص، يوسف بن قرغلي البغدادي المعروف بـ(سبط ابن الجوزي)، تحقيق: حسين تقي زاده، مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.
٧١. ترجمة الإمام الحسين عليه السلام (من طبقات ابن سعد)، ابن سعد (ت ٢٣٠هـ)، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، قم - إيران، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.
٧٢. تصحيح اعتقادات الإمامية، محمد بن محمد بن النعمان المفيد (ت ٤١٣هـ)، تحقيق: حسين درگاهي، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.
٧٣. التعظيم والمنة في أنّ أبي رسول الله صلّى الله عليه وآله في الجنة، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، حسنين محمد مخلوف، دار جوامع الكلم، القاهرة - مصر.
٧٤. التفسير الأصفي، محمد محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١هـ)، تحقيق: مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية، مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٣٧٦ش / ١٤١٨هـ.
٧٥. تفسير الرازي (التفسير الكبير)، محمد بن عمر التيمي الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.
٧٦. التفسير الصافي، محمد محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١هـ)، انتشارات مكتبة الصدر، طهران - إيران، الطبعة الثانية، ١٣٧٤ش / ١٤١٦هـ.
٧٧. التفسير الوسيط للقرآن الكريم (١٥ جزءاً في ثمانية مجلدات)، محمد سيّد طنطاوي، مطبعة السعادة ودار الرسالة، القاهرة - مصر، الطبعة الثانية، الجزء الثالث، المجلد

الثاني، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٧٨. تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب، محمد بن محمد رضا القمي المشهدي (ت ١١٢٥هـ)، تحقيق: حسين درگاهي، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران - إيران، الطبعة الأولى، ١٣٦٦ ش / شعبان ١٤٠٧هـ.

٧٩. تفصيل وسائل الشيعة، محمد بن الحسن الحر العاملي (ت ١١٠٤هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث بقم المشرقة، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

٨٠. تلخيص الشافي، شيخ الطائفة أبو جعفر الحسن بن محمد الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، تقديم وتعليق السيد حسين بحر العلوم، مؤسسة انتشارات المحبين، ط ١، ١٣٨٢ ش، قم - إيران.

٨١. التنبيه والإشراف، علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦هـ)، نشر دار صعب، بيروت - لبنان.

٨٢. تنزيه الأنبياء عليهم السلام، أبو القاسم علي بن الحسين الموسوي المعروف بالشريف الرضي (ت ٤٣٦هـ)، دار الأضواء، ط ٢، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، بيروت - لبنان.

٨٣. تنقيح المقال في علم الرجال، عبد الله المامقاني (ت ١٣٥١هـ)، مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، ١٤٢٨هـ، قم - إيران.

٨٤. تهذيب الكمال، جمال الدين أبو الحجاج يوسف المزي (ت ٧٤٢هـ)، تحقيق وضبط وتعليق: الدكتور بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م.

٨٥. الثائر من أجل الحسين عليه السلام المختار الثقفي، عباس غيلان الفياض، مركز الرسالة.

٨٦. الثقات، محمد بن حبان بن أحمد أبي حاتم التميمي البستي (ت ٣٥٤هـ - ٩٦٥م)، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن - الهند، الطبعة الأولى،

١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.

٨٧. الثقافة العقلية ودورها في نهضة الشعوب، د. سعد شريف البخاتي، نشر المصطفى،

الطبعة الأولى، قم المقدسة - إيران، ١٤٣٥هـ / ٢٠١٣م.

٨٨. ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، محمد بن علي الصدوق (ت ٣٨١هـ)، منشورات

الرضي، قم - إيران، الطبعة الثانية، ١٣٦٨ش.

٨٩. جامع أحاديث الشيعة، آية الله السيّد حسين البروجردي (ت ١٣٨٣هـ)، قم المقدسة

- إيران، ١٣٩٩ش.

٩٠. جامع السعادات، محمد مهدي النراقي (ت ١٢٠٩هـ)، تحقيق وتعليق: السيّد محمد

كلانتر، تقديم: الشيخ محمد رضا المظفر، دار النعمان للطباعة والنشر، النجف

الأشرف - العراق.

٩١. الجمل، محمد بن محمد بن النعمان المفيد (ت ٤١٣هـ)، مكتبة الداوري، قم - إيران.

٩٢. جواهر التاريخ، علي الكوراني، الباقيات، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.

٩٣. جواهر المطالب في مناقب الإمام علي عليه السلام، محمد بن أحمد الدمشقي الباعوني، تحقيق:

محمد باقر المحمودي، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، قم المقدسة - إيران، الطبعة

الأولى، ١٤١٥هـ.

٩٤. الحاشية على شرح أصول الكافي، بدر الدين بن أحمد العاملي، جمع وترتيب: السيّد

محمد تقي الموسوي (ت ١٠٩٤هـ)، تحقيق: علي الفاضلي، دار الحديث للطباعة

والنشر، قم المقدسة - إيران، الطبعة الأولى، ١٣٨٣ش / ١٤٢٥هـ.

٩٥. الحسين عليه السلام في مواجهة الضلال الأموي، السيّد سامي البدري، دار الفقه للطباعة

والنشر، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٦م.

٩٦. الحسين عليه السلام وارث آدم، علي شريعتي (ت ١٩٧٧م)، ترجمة: د. إبراهيم دسوقي شتا،

دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.

٩٧. حقائق الإيمان، زين الدين بن علي العاملي (الشهيد الثاني) (ت ٩٦٥هـ)، إشراف: السيد محمود المرعشي، تحقيق: السيد مهدي الرجائي، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي العامة، قم المقدسة - إيران، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
٩٨. حياة الإمام الحسين بن علي عليه السلام دراسة وتحليل، باقر شريف القرشي (ت ١٤٣٤هـ)، نشر مطبعة الآداب، النجف الأشرف - العراق، الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.
٩٩. حياة الإمام الحسين دراسة وتحليل، باقر شريف القرشي (ت ١٤٣٤هـ)، تحقيق: الشيخ مهدي باقر القرشي، دار جواد الأئمة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.
١٠٠. الخرائج والجرائح، قطب الدين الراوندي (ت ٥٧٣هـ)، تحقيق: مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام / بإشراف السيد محمد باقر الموحّد الأبطحي، مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام، قم المقدسة - إيران، الطبعة الأولى، كاملة محققة، ذي الحجة ١٤٠٩هـ.
١٠١. الخطط السياسية لتوحيد الأمة الإسلامية، أحمد حسين يعقوب (معاصر)، دار الفجر، لندن - المملكة المتحدة، الطبعة الثانية، رجب ١٤١٥هـ.
١٠٢. دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، دار المعرفة، ١٩٧٣م.
١٠٣. الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ)، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان.
١٠٤. الدرّ النظيم، يوسف بن حاتم الشامي المشغري العاملي (ت ٦٦٤هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قم المشرفة - إيران.
١٠٥. دلائل الإمامة، محمد بن جرير الطبري (من أعلام القرن الرابع)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
١٠٦. دلائل النبوة، أبو نعيم الأصبهاني (ت ٥٣٥هـ)، تحقيق: أبو عبد الرحمن مساعد بن

- سليمان الراشد الحميد، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض - السعودية.
١٠٧. ذخائر العقبي في مناقب ذوي القربى، العلامة أحمد بن عبد الله الطبري (ت ٦٩٤هـ)، نشر مكتبة القدسي، القاهرة - مصر، ١٣٥٦هـ.
١٠٨. ذوب النصار في شرح الثار، جعفر بن محمد بن جعفر المعروف بابن نهار الحلي (ت ٦٤٥هـ)، تحقيق: فارس حسون كريم، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة - إيران، الطبعة الأولى، شوال المكرم ١٤١٦هـ.
١٠٩. ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، جاز الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، تحقيق: عبد الأمير مهنا، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
١١٠. رسائل آل طوق القطيفي، أحمد الشيخ صالح آل طوق القطيفي، (ت ١٢٤٥هـ)، تحقيق ونشر: شركة دار المصطفى ﷺ لإحياء التراث، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.
١١١. روضة الواعظين، محمد بن الفتال النيسابوري (ت ٥٠٨هـ)، تقديم: السيد محمد مهدي السيد حسن الخرسان، منشورات الشريف الرضي، قم - إيران.
١١٢. الزاهر في معاني كلمات الناس، محمد بن القاسم بن محمد بن بشار ابن الأنباري (ت ٣٢٨هـ)، قرأه وعلق عليه: الدكتور يحيى مراد، نشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م.
١١٣. زبدة التفاسير، فتح الله الكاشاني (ت ٩٨٨هـ)، تحقيق ونشر: مؤسسة المعارف الإسلامية، قم المقدسة - إيران، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
١١٤. زهير بن القين علوي خرج يتلقى الحسين ﷺ، السيد علي جمال أشرف الحسيني (معاصر)، دار الأنصار، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.

١١٥. سبل الهدى والرشاد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت ٩٤٢هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

١١٦. السقيفة، الشيخ محمد رضا المظفر (ت ١٣٨٣هـ)، تقديم: الدكتور محمود المظفر، مؤسسة أنصاريان، قم - إيران، الطبعة الثانية، جمادي الثاني ١٤١٥هـ.

١١٧. سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٣هـ)، تحقيق وترقيم وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

١١٨. سنن الترمذي، عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٧٩هـ)، حققه وصححه: عبد الوهاب عبد اللطيف، نشر دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

١١٩. سنن الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي (ت ٢٥٥هـ)، مطبعة الاعتدال، دمشق - سوريا، ١٣٤٩هـ.

١٢٠. السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، نشر دار الفكر.

١٢١. السنن الكبرى، أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن، نشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

١٢٢. سيد المرسلين، جعفر السبحاني، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

١٢٣. سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، إشراف وتخریج: شعيب الأرناؤوط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مأمون صاغر جي، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.

١٢٤. السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي رزق الله أحمد، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض - السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

١٢٥. السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت ٢١٨هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة - مصر، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

١٢٦. شرح أصول الكافي، محمد صالح المازندراني (ت ١٠٨١هـ)، تحقيق: أبو الحسن الشعراي، نشر دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

١٢٧. شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، القاضي النعمان بن محمد المغربي (ت ٣٦٣هـ)، تحقيق: السيد محمد الحسيني الجلاي، نشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرسين، قم المشرفة - إيران، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

١٢٨. شرح المقاصد في علم الكلام، سعد الدين التفتازاني (ت ٧٩٢هـ)، دار المعارف النعمانية، لاهور - باكستان، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

١٢٩. شرح المواقف، علي بن محمد الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، شرح: علي بن محمد الجرجاني، مطبعة السعادة - مصر، مع حاشيتين عليه: أحدهما لعبد الحكيم السيالكوتي، والثانية لمولى حسن جلبي بن محمد شاه الفناري، الطبعة الأولى، ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م.

١٣٠. شرح معاني الآثار، أحمد بن محمد بن سلمة الأزدي الحجري المصري الطحاوي (ت ٣٢١هـ)، تحقيق وتعليق: محمد زهري النجار، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

١٣١. شرح نهج البلاغة، عبد الحميد بن أبي الحديد المعتزلي (ت ٦٥٦هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م.

١٣٢. شيخ المضيرة أبو هريرة، محمود أبو رية (ت ١٣٨٥هـ)، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة.

١٣٣. الشيعة في الإسلام، العلامة السيّد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢هـ)، ترجمة: جعفر بهاء الدين.

١٣٤. الشيعة في الميزان، محمد جواد مغنية (ت ١٤٠٠هـ)، دار التعارف للمطبوعات، بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

١٣٥. صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أحمد بن علي القلقشندي، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، المطبعة الأميرية ودار الكتب المصرية، القاهرة - مصر، ١٣٤٠هـ / ١٩٢٢م.

١٣٦. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، نشر دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

١٣٧. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

١٣٨. الصحيح من سيرة النبي الأعظم ﷺ، جعفر مرتضى العاملي، دار الحديث للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٣٨٥ش / ١٤٢٦هـ.

١٣٩. الصراط المستقيم، علي بن يونس العاملي النباطي البياضي (ت ٨٧٧هـ)، تصحيح وتعليق: محمد الباقر البهبودي، نشر المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية،

- طهران - إيران، الطبعة الأولى، ١٣٨٤ هـ.
١٤٠. صراع قريش مع النبي ﷺ، الشيخ علي الكوراني العاملي (معاصر)، دار الهدى، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م.
١٤١. صلح الحسن ﷺ، راضي آل ياسين (ت ١٣٧٢ هـ)، منشورات الشريف الرضي، قم المقدسة - إيران.
١٤٢. الطبقات الكبرى، محمد بن سعد (ت ٢٣٠ هـ)، نشر دار صادر، بيروت - لبنان.
١٤٣. الطوائف في معرفة مذاهب الطوائف، علي بن موسى بن طاووس، الطبعة الأولى، مطبعة الخيام، قم - إيران، ١٣٩٩ ش.
١٤٤. العرب قبل الإسلام أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم، محمود عرفة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى، ١٩٩٥ م.
١٤٥. عصر الشيعة، علي الكوراني، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ.
١٤٦. العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربّه الأندلسي (ت ٣٢٧ هـ)، ضبط وتصحيح: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة - مصر، الطبعة الثانية، ١٣٦٣ هـ / ١٩٤٤ م.
١٤٧. علل الشرائع، محمد بن علي الصدوق (ت ٣٨١ هـ)، تقديم: السيّد محمد صادق بحر العلوم، منشورات المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف - العراق، ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٦ م.
١٤٨. علم اجتماع المثقفين، د. معن خليل العمر، دار الشروق للنشر والتوزيع، ٢٣ فبراير ٢٠٠٩ م.
١٤٩. علم الفلك صفحات من التراث العلمي العربي الإسلامي، يحيى شامي، دار الفكر العربي، بيروت - لبنان، ١٩٩٧ م.
١٥٠. عمدة القاري، محمود بن أحمد العيني (ت ٨٥٥ هـ)، دار إحياء التراث العربي،

بيروت - لبنان.

١٥١. العوالم (الإمام الحسين عليه السلام)، الشيخ عبد الله البحراني (ت ١١٣٠هـ)، تحقيق:

مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، نشر مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، قم المقدسة، الطبعة الأولى، ١٣٦٥ ش / ١٤٠٧هـ.

١٥٢. العين، خليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ)، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي، الناشر: مؤسسة دار الهجرة، إيران - قم المشرقة، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.

١٥٣. عيون الأخبار، ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، نشر منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.

١٥٤. عيون الأنباء في طبقات الأطباء، أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة الخزرجي (ت ٦٦٨هـ)، تحقيق: الدكتور نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان.

١٥٥. عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمد الليثي الواسطي (ت ٦هـ)، تحقيق: الشيخ حسين الحسيني البيرجندي، دار الحديث، الطبعة الأولى.

١٥٦. الغارات، إبراهيم بن محمد الثقفي الكوفي (ت ٢٨٣هـ)، تحقيق: السيد جلال الدين الحسيني الأرموي المحدث.

١٥٧. الغدير في الكتاب والسنة والأدب، الشيخ عبد الحسين أحمد الأميني النجفي (ت ١٣٩٢هـ)، نشر دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

١٥٨. غريب الحديث، عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق: د. عبد الله الجبوري، دار الكتب العلمية، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

١٥٩. الفاضل، محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥هـ)، تحقيق: عبد العزيز الميمني / رئيس

- القسم العربي بجامعة كراتشي بالباكستان، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م.
١٦٠. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، نشر دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية.
١٦١. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت ١٢٥٥هـ)، عالم الكتب، بيروت - لبنان.
١٦٢. فتوح البلدان، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩هـ)، تحقيق: صلاح الدين المنجد، نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة - مصر، ١٩٥٦م.
١٦٣. الفتوح، أحمد بن أعثم الكوفي (ت ٣١٤هـ - ٩٢٦م)، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.
١٦٤. فرائد السمطين، إبراهيم بن محمد بن المؤيد بن عبد الله الجويني الخراساني (ت ٧٣٠هـ)، تحقيق: محمد باقر المحمودي، مؤسسة المحمودي للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.
١٦٥. فرائد السمطين، إبراهيم بن محمد بن المؤيد بن عبد الله الجويني الخراساني (ت ٧٣٠هـ)، تحقيق: محمد باقر المحمودي، مؤسسة المحمودي للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.
١٦٦. الفرق بين الفرق، عبد القاهر بن طاهر البغدادي (ت ٤٢٩هـ - ١٠٣٧م)، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.
١٦٧. الفصول المهمة في معرفة الأئمة، علي بن أحمد المالكي المعروف بابن الصباغ (ت ٨٥٥هـ)، تحقيق: سامي الغريزي، دار الحديث للطباعة والنشر، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
١٦٨. فضائل أمير المؤمنين عليه السلام، أحمد بن محمد بن عقدة الكوفي (ت ٣٣٣هـ)، تقديم: عبد

٤٢٦ النهضة الحسينية ودورها في الحركة الثقافية

الرزاق محمد حسين فيض الدين، مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، بيروت - لبنان.

١٦٩. في ظلال نهج البلاغة، محمد جواد مغنية، انتشارات كلمة الحق، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.

١٧٠. القاموس الفقهي، سعدي أبو حبيب، دار الفكر، دمشق - سورية، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

١٧١. قواعد المنهج في علم الاجتماع، إميل دوركايم (ت ١٩١٧م)، ترجمة وتقديم: أ. د. محمود قاسم، مراجعة: أ. د. محمد بدوي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية - مصر.

١٧٢. الكافي، محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني (ت ٣٢٨ / ٣٢٩ هـ)، صححه وقابله وعلّق عليه: علي أكبر الغفاري، نشر مؤسسة دار الكتب الإسلامية، طهران - إيران، الطبعة الثانية، ١٣٨٩هـ.

١٧٣. كامل الزيارات، جعفر بن محمد بن قولويه (ت ٣٦٧هـ)، تحقيق: الشيخ جواد القيومي، لجنة التحقيق، مؤسسة النشر الإسلامي، نشر مؤسسة نشر الفقهية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

١٧٤. الكامل في التاريخ، علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير (ت ٦٣٠هـ)، نشر دار صادر للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م.

١٧٥. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل، محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، عباس ومحمد محمود الحلبي وشركاهم - خلفاء، مصر، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م.

١٧٦. كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، علي بن عيسى بن أبي الفتح الإربلي (ت ٦٩٣هـ)، دار الأضواء، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

١٧٧. الكشف والبيان عن تفسير القرآن (تفسير الثعلبي)، أحمد بن محمد الثعلبي

- (ت٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبو محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
١٧٨. كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب (الخصائص الكبرى)، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت٩١١هـ)، دار الكتاب العربي، ٤ رجب ١٣٢٠هـ.
١٧٩. الكليني والكافي، الدكتور الشيخ عبد الرسول عبد الحسن الغفار، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قم المشرفة - إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
١٨٠. كمال الدين وتمام النعمة، محمد بن علي الصدوق (ت٣٨١هـ)، صحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قم المشرفة - إيران، محرّم الحرام ١٣٦٣ش / ١٤٠٥هـ.
١٨١. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علي المتقي بن حسام الدين الهندي (ت٩٧٥هـ)، ضبط وتفسير: الشيخ بكري حياني، تصحيح وفهرسة: الشيخ صفوت السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.
١٨٢. الكنى والألقاب، الشيخ عباس القمي (ت١٣٥٩هـ)، تقديم: محمد هادي الأميني، مكتبة الصدر، طهران - إيران.
١٨٣. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور المصري (ت٧١١هـ)، نشر أدب الحوزة، قم - إيران، ١٣٦٣ق / ١٤٠٥هـ.
١٨٤. ماهيّت نهضت إمام حسين عليه السلام (حقيقة نهضة الإمام الحسين عليه السلام)، الشهيد مرتضى المطهري (ت١٤٠٠هـ)، دفتر انتشارات إسلامي (جامعة المدرّسين في الحوزة العلمية)، قم - إيران، ١٣٦١ش.
١٨٥. متشابه القرآن ومختلفه، محمد بن علي بن شهر آشوب (ت٥٨٨هـ)، مطبعة شركة

- سهامي طبع كتاب، طهران - إيران، ١٣٢٨ هـ.
١٨٦. مثير الأحزان، ابن نما الحلي نجم الدين محمد بن جعفر (ت ٦٤٥ هـ)، منشورات المطبعة الحيدرية في النجف، النجف - العراق، ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م.
١٨٧. مجمع الأمثال، أحمد بن محمد الميداني (ت ٥١٨ هـ)، نشر المعاونة الثقافية للآستانة الرضوية المقدسة، مشهد المقدسة - إيران، ١٣٦٦ ش.
١٨٨. مجمع الزوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي (ت ٨٠٧ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م.
١٨٩. المحاسن والمساوي، إبراهيم بن محمد البيهقي (ت ٣٢٠ هـ)، تحقيق: عدنان علي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م.
١٩٠. مختصر تاريخ دمشق، محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري، تحقيق: روحية النحاس، ورياض عبد الحميد مراد ومحمد مطيع، الطبعة الأولى، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق - سوريا، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٤ م.
١٩١. المختصر في أخبار البشر (تاريخ أبي الفداء)، عماد الدين إسماعيل أبي الفداء (ت ٧٣٢ هـ)، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان.
١٩٢. المخصّص، أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده (ت ٤٥٨ هـ)، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
١٩٣. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، المسمّى بـ (تفسير النسفي)، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (ت ٥٣٧ هـ).
١٩٤. مدينة المعاجز، السيّد هاشم البحراني (ت ١١٠٧ هـ)، تحقيق: لجنة التحقيق برئاسة الشيخ عباد الله الطهراني الميانجي، مؤسّسة المعارف الإسلامية، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ.

١٩٥. مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، محمد باقر المجلسي (ت ١١١١هـ)، دار الكتب الإسلامية، طهران - إيران، الطبعة الثانية، ١٣٦٣ش / ١٤٠٤هـ.
١٩٦. مروج الذهب ومعادن الجوهر، علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦هـ)، تدقيق وضبط: الأستاذ يوسف أسعد داغر أمين، دار الهجرة، قم - إيران، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ / ١٣٦٣ش / ١٩٨٤م.
١٩٧. مسار الشيعة في مختصر تواريخ الشريعة، الشيخ محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (ت ٤١٣هـ)، تحقيق: مهدي نجف، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.
١٩٨. المستجاد من الإرشاد (مجموعة نفيسة)، العلامة الحسن بن يوسف الحليّ (ت ٧٢٦هـ)، مكتب آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم - إيران، باهتمام: السيّد محمود المرعشي، طبعة حجرية، ١٤٠٦هـ.
١٩٩. مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ميرزا حسين النوري الطبرسي (ت ١٣٢٠هـ)، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م.
٢٠٠. المستدرك على الصحيحين، الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥هـ)، إشراف: الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشي، دار المعرفة، بيروت - لبنان.
٢٠١. مستدركات أعيان الشيعة، حسن الأمين (ت ١٣٩٩هـ)، نشر دار التعارف للمطبوعات، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م.
٢٠٢. مستدركات علم رجال الحديث، علي النمازي الشاهرودي (ت ١٤٠٥هـ)، الطبعة الأولى، رجب المرجب ١٤١٥هـ.
٢٠٣. المسترشد، محمد بن جرير بن رستم الطبري (الشيعة) (ت ق ٤)، تحقيق: الشيخ

أحمد المحمودي، مؤسسة الثقافة الإسلامية لكوشانبور، الطبعة الأولى المحققة، ١٤١٥هـ.

٢٠٤. مسند ابن المبارك، عبد الله بن المبارك (ت ١٨١هـ)، تحقيق: د. مصطفى عثمان محمد، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

٢٠٥. مسند أحمد، أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، نشر دار صادر، بيروت - لبنان.

٢٠٦. مشارق أنوار اليقين، الحافظ رجب البرسي (ت ٨١٣هـ)، تحقيق: السيد علي عاشور، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.

٢٠٧. مصباح المتهجد، محمد بن الحسن بن علي بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، مؤسسة فقه الشيعة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٢٠٨. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، أحمد بن محمد المقرئ الفيومي (ت ٧٧٠هـ)، نشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان.

٢٠٩. مطالب السؤول في مناقب آل الرسول، كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي (ت ٦٥٢هـ)، تحقيق: ماجد أحمد العطية.

٢١٠. معارج الوصول إلى معرفة فضل آل الرسول، محمد بن يوسف الزرندي (ت ٧٥٠هـ)، تحقيق: ماجد بن أحمد العطية.

٢١١. معالم الفتن: نظرات في حركة الإسلام وتاريخ المسلمين، سعيد أيوب، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.

٢١٢. معالي السبطين في أحوال الحسن والحسين عليهما السلام، محمد مهدي الحائري المازندراني (ت ١٣٨٥هـ)، انتشارات الشريف الرضي، ط ٢، ١٤٠٩هـ - ١٣٦٧ش، قم - إيران.

٢١٣. معاني الأخبار، محمد بن علي الصدوق (ت ٣٨١هـ)، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم المشرفة - إيران،

- ١٣٣٨ش / ١٣٧٩هـ.
٢١٤. معجم الأفعال المتعدية بحرف، موسى بن محمد الملياني الأحدي، الطبعة الأولى، ١٣٦٩ش / ١٤١٠هـ.
٢١٥. معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.
٢١٦. معجم الفروق اللغوية الحاوي لكتاب أبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري (ت ٣٩٥هـ) وجزء من كتاب السيّد نور الدين الجزائري، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي، قم - إيران، ١٤١٢هـ.
٢١٧. المعجم الفلسفي، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان، ١٩٨٢م.
٢١٨. معجم رجال الحديث، السيّد أبو القاسم الخوئي (ت ١٤١٣هـ)، الطبعة الخامسة، طبعة منقّحة ومزودة، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.
٢١٩. معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، نشر مكتب الإعلام الإسلامي، إيران، ١٤٠٤هـ.
٢٢٠. معرفة الثقات من رجال أهل العلم والحديث ومن الضعفاء وذكر مذاهبهم وأخبارهم، أحمد بن عبد الله بن صالح العجلي الكوفي (ت ٢٦١هـ)، تحقيق: عبد العليم عبد العظيم البستوي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
٢٢١. المغازي، محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧هـ)، تحقيق: الدكتور مارسدن جونس، نشر دانش إسلامي، رمضان ١٤٠٥هـ.
٢٢٢. المغني في أبواب العدل والتوحيد، القاضي عبد الجبار بن أحمد الأسد آبادي (ت ٤١٥هـ)، دراسة وتحقيق: الدكتور خضر محمد نبها، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م.

٤٣٢ النهضة الحسينية ودورها في الحركة الثقافية

٢٢٣. المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد المعروف بالرّاعب الأصفهانيّ (ت ٥٠٢هـ)، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.

٢٢٤. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، دار العلم للملايين، بيروت، مكتبة النهضة، بغداد - العراق، الطبعة الثانية، ١٩٧٨م.

٢٢٥. مقاتل الطالبين، علي بن الحسين أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، نشر مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، قم - إيران، الطبعة الثانية، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م.

٢٢٦. مقال تحت عنوان: العرب قبل الإسلام، ويكيبيديا، نقلاً عن:

The Arabs in antiquity: their history from the Assyrians to the Umayyads, Jan Retsö p.520.

٢٢٧. مقال تحت عنوان: الكتابة والقراءة في جزيرة العرب قبل الإسلام، عبد الجبار محمود السامرائي، مجلة الواحة، العدد (٤٨) ٢٠ / ٥ / ٢٠٠٨م.

٢٢٨. مقال تحت عنوان: تساؤلات حول القضية الحسينية، حسن عطا الله الخلخالي، مجلة الولاية، الصادرة عن العتبة العلوية على شبكة الإنترنت، يونيو ٢٠١٨م.

٢٢٩. مقال تحت عنوان: دولة الغساسنة، قيس الجنابي، اطّلع عليه بتاريخ: ١٢ / ١٢ / ٢٠١٢، www.uobabylon.edu.iq.

٢٣٠. مقال تحت عنوان: عرب الجاهلية كانوا متحضّرين إنسانياً وثقافةً وعمراناً، أحمد فرحات - بيروت (الاتحاد الثقافي)، ١ فبراير ٢٠١٧م.

٢٣١. مقال تحت عنوان: عرب النقوش الصفوية، د. سلطان المعاني، صحيفة الدستور، عمّان - الأردن.

٢٣٢. مقال تحت عنوان: نظريات في أهداف الثورة الحسينيّة، منصور إبراهيم الجبيلي، مجلة رسالة القلم، العدد ٤٧، ٥ / ١٠ / ٢٠١٦م.

٢٣٣. مقتل الحسين، الموفق محمد بن أحمد المكي الخوارزمي (ت ٥٦٨هـ)، تحقيق: الشيخ محمد محمد السهاوي، تصحيح ونشر: دار أنوار الهدى، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٢٣٤. مقتل الحسين عليه السلام المسمّى باللّهوف في قتلى الطفوف، علي بن موسى بن جعفر (ت ٦٦٤هـ)، أنوار الهدى، قم - إيران.

٢٣٥. مقدمة فتح الباري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

٢٣٦. الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ)، تحقيق: محمد سيّد كيلاني، دار المعرفة، بيروت - لبنان.

٢٣٧. من حياة الخليفة عمر بن الخطاب، عبد الرحمن أحمد البكري (معاصر)، الإرشاد للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة السابعة، ١٠ / ٥ / ٢٠٠٢م.

٢٣٨. من لا يحضره الفقيه، محمد بن علي الصدوق (ت ٣٨١هـ)، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قم المقدّسة - إيران، الطبعة الثانية.

٢٣٩. من هم قتلة الإمام الحسين عليه السلام، علي الميلاني، مركز الحقائق الإسلامية، قم المقدّسة - إيران، الطبعة الثانية، ١٤٣٤هـ / ١٣٩٢ش.

٢٤٠. مناقب آل أبي طالب، الإمام الحافظ مشير الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن شهر آشوب (ت ٥٨٨هـ)، قام بتصحيحه وشرحه ومقابلته على عدّة نسخ خطيّة لجنة من أساتذة النجف الأشرف، نشر محمد كاظم الكنتبي صاحب المكتبة والمطبعة الحيدريّة، النجف الأشرف، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م.

٢٤١. المناقب، الموفق بن أحمد بن محمد المكي الخوارزمي (ت ٥٦٨هـ)، تحقيق: الشيخ مالك المحمودي (مؤسسة سيّد الشهداء عليه السلام)، انتشارات مؤسسة النشر الإسلامي

- التابعة لجامعة المدرّسين، قم المشرّفة - إيران، الطبعة الثانية، ربيع الثاني ١٤١٤ هـ.
٢٤٢. المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، راجعه وصحّحه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م.
٢٤٣. منتهى المطلب، الحسن بن يوسف العلامة الحلي (ت ٧٦٢هـ)، طبعة حجرية.
٢٤٤. المنمّق في أخبار قریش، محمد بن حبيب البغدادي (ت ٢٤٥هـ)، صحّحه وعلّق عليه: خورشيد أحمد فاروق، نشر عالم الكتب.
٢٤٥. منهاج الكرامة، الحسن بن يوسف العلامة الحلي (ت ٧٦٢هـ)، تحقيق: عبد الرحيم مبارك، انتشارات تاسوعاء، مشهد - إيران، الطبعة الأولى، ١٣٧٩ ش.
٢٤٦. الموافق، عبد الرحمن بن أحمد الإيجي (ت ٧٥٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجليل، لبنان - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م.
٢٤٧. مؤتمر علماء بغداد، مقاتل بن عطية (ت ٥٠٥هـ)، مراجعة وتحقيق: السيّد مرتضى الرضوي، دار الكتب الإسلامية، طهران - إيران، الطبعة الثانية.
٢٤٨. الموسوعة الفلسفية، لجنة من العلماء والأكاديميين السوفيتيين، بإشراف روزنتال ويودين، ترجمة: سمير كرم، دار الطليعة، بيروت - لبنان.
٢٤٩. موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام، لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام، انتشارات أسوة، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ هـ.
٢٥٠. ناسخ التواريخ - حياة الإمام سيّد الشهداء الحسين عليه السلام، محمد تقي شبر المعروف بلسان الملك (ت ١٢٩٧هـ)، ترجمة وتحقيق: السيّد علي جمال أشرف، انتشارات مدين، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٧ م.

٢٥١. نسب قريش، المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري (ت ٢٣٦هـ)، تحقيق ومراجعة: ليفي بروفسال، نشر دار المعارف، القاهرة - مصر.
٢٥٢. نشأة التشيع والشيعة، محمد باقر الصدر (ت ١٤٠٠هـ)، تحقيق وتعليق: عبد الجبار شرارة، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
٢٥٣. النصائح الكافية، محمد بن عقيل، تحقيق: غالب الشابندر، مؤسسة الفجر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.
٢٥٤. نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت ٧٣٣هـ)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة - مصر.
٢٥٥. النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين المبارك بن أحمد المعروف بابن الأثير (ت ٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، نشر مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع، قم - إيران، الطبعة الرابعة، ١٣٦٤ش.
٢٥٦. نهج البلاغة، الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، جمع وترتيب: محمد بن الحسن الموسوي عليه السلام المعروف بالشریف الرضي (ت ٤٠٦هـ)، تحقيق: الدكتور صبحي صالح، الطبعة الأولى، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.
٢٥٧. نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام، تحقيق وشرح: الشيخ محمد عبده، الناشر: دار الذخائر، قم المقدسة - إيران، الطبعة الأولى، ١٣٧٠هـ.ش / ١٤١٢هـ.ق.
٢٥٨. نهضة الحسين عليه السلام، هبة الله الشهرستاني، منشورات رابطة النشر الإسلامي، كربلاء - العراق، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م.
٢٥٩. النهضة، حافظ صالح.
٢٦٠. النور الساطع في الفقه النافع، علي بن محمد رضا كاشف الغطاء (ت ١٢٥٣هـ)، مطبعة الآداب، النجف الأشرف - العراق، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م.

٢٦١. الهداية الكبرى، الحسين بن حمدان الخصيبي (ت ٣٣٤هـ)، مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

٢٦٢. الوافي بالوفيات، خليل بن آيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت - لبنان، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.

٢٦٣. الوافي، محمد محسن الفيض الكاشاني، وتصحيح وتعليق ومقابلة: ضياء الدين الحسيني الأصفهاني، مكتبة الامام أمير المؤمنين علي عليه السلام العامة، أصفهان - إيران، الطبعة الأولى، أول شوال المكرم ١٤٠٦هـ.

٢٦٤. الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور هاشم يحيى الملاح (أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة الموصل)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١ يناير ٢٠١١م.

٢٦٥. وقعة الجمل، ضامن بن شذقم الحسيني المدني (ت ١٠٨٢هـ)، تحقيق ونشر: السيّد تحسين آل شبيب الموسوي، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

٢٦٦. وقعة صفين، نصر بن مزاحم المنقري (ت ٢١٢هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، نشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٢هـ.

٢٦٧. ينابيع المودة لذوي القربى، سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي (ت ١٢٩٤هـ)، تحقيق: سيّد علي جمال أشرف الحسيني، دار الأسوة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

٢٦٨. اليونان مقدمة في التاريخ الحضاري، لطفي عبد الوهاب يحيى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية - مصر، ١٩٩١م.

المحتويات

الإهداء	٥
مقدمة المؤسسة	٧
مقدمة المؤلف	١٥
مقدمة البحث	١٩
المبحث الأول: التعريف بمفردات البحث	٢١
أولاً: النهضة	٢١
النهضة لغةً:	٢١
النهضة اصطلاحاً:	٢١
ثانياً: الثقافة	٢٢
الظاهرة الاجتماعية	٢٤
ثالثاً: نبذة من حياة سيّد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام	٢٤
المبحث الثاني: أهمية الثقافة	٢٩
أولاً: كيفية تكوّن الثقافة ونشوتها	٢٩
ثانياً: الثقافة بين التراكم والبناء	٣٠
ثالثاً: دور الثقافة في صياغة السلوك	٣٣
رابعاً: العقل العملي ودوره في السلوك	٣٩
الفصل الأول: الثقافة السائدة قبل ثورة الإمام الحسين عليه السلام	٤١

الفصل الأول

الثقافة السائدة قبل ثورة الإمام الحسين عليه السلام

- المبحث الأول: الثقافة السائدة قبل الإسلام ٤٣
- الشعب العربي قبل الإسلام ٤٣
- دول العرب وممالكهم قبل الإسلام ٤٦
١. مملكة معين (١٣٠٠ ق.م - ٦٥٠ ق.م) ٤٦
٢. مملكة حضرموت (١٠٢٠ ق.م - ٢٩٠ ق.م) ٤٧
٣. مملكة سبأ (٩٥٠ ق.م - ١١٥ ق.م) ٤٧
٤. مملكة قتبان (القرن السابع قبل الميلاد - القرن الثاني الميلادي) ٤٨
٥. مملكة حمير (١١٥ ق.م - ٥٢٥ م) ٤٩
٦. مملكة كندة (٢٠٠ ق.م - ٦٣٣ م) ٥١
٧. مملكة تدمر (٢١١ م تقريباً - ٢٧٣ م) ٥٢
٨. مملكة الأنباط (٣٠٠ ق.م - ١٠٦ م) ٥٤
٩. مملكة تنوخ ولخم (الناذرة) (٣٠٠ - ٦٣٣ م) ٥٥
١٠. مملكة الغساسنة (٢٢٠ - ٦٣٨ م) ٥٧
- الثقافة في المجتمع العربي ٥٨
- أولاً: المعتقدات في شبه الجزيرة العربية ٥٩
- معنى الجاهلية ٦٤
- ثانياً: العادات والتقاليد في بلاد العرب ٦٦
- العادات العامة ٦٧
- ثالثاً: العلوم والفنون عند العرب ٧٠
- فنّ العمارة عند العرب ٧٢

المحتويات	٤٣٩
رابعاً: الكتابة والقراءة عند العرب	٧٣
المبحث الثاني: نبي الإسلام ﷺ والإصلاح الثقافي	٨١
المبحث الثالث: الحالة الثقافية بعد رحيل النبي ﷺ	٨٧
البحث الأول: في زمن الخلفاء	٨٩
البحث الثاني: في حكومة أهل البيت 	٩٧
دور أمير المؤمنين  في إصلاح ثقافة الأمة	٩٧
الإصلاحات الإدارية	٩٨
١- الولاة	٩٨
أ) معاقبة الولاة الفاسدين	٩٨
ب) مراقبة الولاة والعمال ومحاسبتهم	١٠٠
٢- حفظ الأمن	١٠٠
٣- العسكر	١٠١
أ) تنظيم الجيش	١٠١
ب) تأسيس قوّات خاصة تسمّى شرطة الخميس	١٠١
ج) حرب الخدعة	١٠٢
د) المسالمة من غير وهن	١٠٢
الإصلاحات الاجتماعية	١٠٣
١- الاقتصادية	١٠٣
أ) استرداد الأموال المأخوذة من بيت المال بغير حق	١٠٣
ب) مراقبة السوق	١٠٤
ج) المساعدة في جباية الخراج	١٠٤
د) عدم تأخير الأموال عن العامة	١٠٥

- ١٠٥ هـ) التوزيع بالسوية
- ١٠٦ ٢ - الثقافية
- ١٠٦ الإمام الحسن عليه السلام يواصل الإصلاح الثقافي
- ١١٧ المبحث الرابع: نفوذ بني أمية إلى الحكم الإسلامي
- ١١٩ الأول: تضعيف الحالة المعنوية لجيش المسلمين
- ١٢٠ الثاني: بث الدعاية ضد النبي صلى الله عليه وآله في المدينة
- ١٢٠ الثالث: محاولة اغتيال النبي صلى الله عليه وآله وقتله في مواطن متعددة:
- ١٢٠ الموطن الأول: القرشيون في معركة هوازن
- ١٢١ الموطن الثاني: حادثة ليلة العقبة
- ١٢١ الموطن الثالث: حادثة عقبة هرشي
- ١٢١ الرابع: إصااق التهم به
- ١٢٣ الخامس: إيذاء أهله في حياته
- ١٢٤ بنو أمية بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله
- ١٣٢ زرع الفتنة بين المسلمين
- ١٣٤ توحيد الصف الأموي
- ١٣٩ التغيير الطارئ على نظام الحكم في الإسلام
- ١٤٣ المبحث الخامس: المجتمع الإسلامي في زمن معاوية
- ١٤٤ البحث الأول: الحالة الدينية
- ١٤٤ الأمر الأول: التنوع العقائدي
- ١٤٤ المرجئة
- ١٤٦ متى ظهرت فكرة الإرجاء؟
- ١٤٧ أثرها على ثقافة المجتمع وسلوكه

المحتويات	٤٤١
المجبرة	١٥٠
متى ظهرت فكرة الجبر ؟	١٥١
أثر فكرة الجبر على ثقافة المجتمع وسلوكه	١٥٦
الخوارج	١٥٧
متى ظهرت فرقة الخوارج ؟	١٥٧
أثرها على ثقافة المجتمع وسلوكه	١٥٨
أتباع السلطة: (العثمانيون - الأميون)	١٦٠
شيعة أهل البيت ﷺ	١٦١
متى بدأت فكرة التشيع ؟	١٦٢
تأثير فكرة التشيع على المجتمع	١٦٥
الأمر الثاني: ضعف الإيمان	١٦٩
تأثير الإيمان على السلوك الفردي والاجتماعي	١٦٩
البحث الثاني: الحالة السياسية	١٧٤
البحث الثالث: الحالة الثقافية	١٧٧
البحث الرابع: الحالة الاجتماعية	١٨٦
التمهيد لبيعة يزيد	١٨٨
التصفية الجسدية للمعارضين	١٩١
يزيد في حُلته الجديدة	١٩٦
تأثيره على الحبح	١٩٧
قيادة جيش القسطنطينية	١٩٧
وضع الأحاديث النبوية في مدح يزيد	١٩٨
كلمات معاوية في مدح يزيد	١٩٩

الفصل الثاني

مقومات النهضة الإصلاحية

تمهيد.....	٢٠٥
المبحث الأول: مقومات النهضة بشكل عام	٢٠٩
الأول: وجود المشكلة	٢٠٩
الثاني: تحديد نوع المشكلة	٢٠٩
الثالث: الإحاطة الكاملة بالحلول	٢١١
الرابع: وجود الخطة اللازمة	٢١٢
الخامس: الإرادة والشجاعة	٢١٣
السادس: المقبولية لدى المجتمع	٢١٣
السابع: قوة الإعلام وتفنّنه	٢١٤
المبحث الثاني: مقومات النهضة الحسينية	٢١٥

الفصل الثالث

أسباب التقاعس عن نصرته الحسين عليه السلام

المبحث الأول: استعراض آراء العلماء في المسألة	٢٣٣
أولاً: فقدان الإرادة	٢٣٤
وقفه	٢٣٦
ثانياً: عقدة الخوف وفقدان روح المقاومة	٢٤٣
ثالثاً: تعسف السلطة الجائرة	٢٤٣
رابعاً: فساد الحاكم	٢٤٥
خامساً: انعدام المجتمع الإسلامي القادر على مواجهة الفساد	٢٤٧

المحتويات	٤٤٣
سادساً: الثقافة المشوّهة من وجهة نظر أنثروبولوجية	٢٤٩
المبحث الثاني: تحقيق المسألة	٢٥٣
لماذا لم ينصر المسلمون الإمام الحسين عليه السلام؟	٢٥٦
أهل الكوفة ونصرة الإمام عليه السلام	٢٦٩
فشل المجتمع الكوفي في استمرارية النصرة	٢٧٣
أولاً: تركيبة المجتمع الكوفي	٢٧٤
الصف الأول: محبّو أهل البيت عليهم السلام	٢٧٤
الصف الثاني: أتباع الحكم الأموي	٢٧٨
الصف الثالث: الخوارج	٢٨٠
الصف الرابع: اللاأباليون	٢٨١
الصف الخامس: الديانات الأخرى	٢٨٢
الصف السادس: الحمراء	٢٨٢
ثانياً: عوامل فشل المجتمع الكوفي	٢٨٤
الأقوال في كيفية اعتقال مسلم عليه السلام	٢٩٢
ثورة مسلم بن عقيل وشيعته في الكوفة	٢٩٤
حصيلة ما تقدّم	٢٩٨
١- ضعف التنظيم والإدارة، بل انعدامها	٢٩٩
٢- ضعف الإمكانيات الاقتصادية	٣٠٠
٣- الترغيب والإغراء	٣٠١
٤- التهديد والترهيب والتهويل	٣٠١
٥- منع الإمام الحسين عليه السلام من دخول الكوفة	٣٠٤

الفصل الرابع

الأهداف والنتائج

المبحث الأول: أهداف نهضة الإمام الحسين عليه السلام	٣٠٩
تمهيد	٣٠٩
معنى الإصلاح	٣١١
مجال الإصلاح	٣١٢
الهدف من الخروج	٣١٦
المطلب الأول: دراسة النصّ الحسيني	٣١٧
المطلب الثاني: أهداف النهضة بحسب آراء العلماء والمفكرين	٣٣١
الأول: نيل مقام الشهادة	٣٣١
الثاني: إرجاع المجتمع إلى الخط الصحيح من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٣٣٤
الثالث: الأهداف المتعددة المتوازية	٣٣٥
الرابع: مرحلة النهضة	٣٣٨
الخامس: نظرية التوليف	٣٤٠
السادس: العمل بالتكليف	٣٤٣
السابع: تخلص الدولة الإسلامية من الاستعمار الرومي	٣٤٥
الثامن: نشر أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسنته	٣٤٩
التاسع: إصلاح النظام الإسلامي السياسي والفكري والاقتصادي	٣٥٣
الرأي المختار	٣٥٨
المطلب الثالث: الهدف من خروجه من المدينة المنورة	٣٦٣
١- خروجه عليه السلام لدفع خطر القتل عن نفسه	٣٦٤
٢- إعلان الرفض	٣٦٦

المحتويات	٤٤٥

٣- الانتقال إلى موقع إعلامي أهم	٣٦٧
المطلب الرابع: أهداف ترك مكة وقصد الكوفة	٣٦٧
المطلب الخامس: الشريحة المستهدفة بالإصلاح	٣٧٠
المبحث الثاني: النتائج التي حققتها النهضة الحسينية	٣٧٥
١. إحياء شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٣٧٥
٢. بيان معنى الخلافة والإمامة	٣٧٩
٣. التأكيد على دور الأمة في عملية الإصلاح	٣٨١
١. دينه وعقيدته	٣٨٣
٢. أمته ومستقبلها وهمومها	٣٨٣
٣. حياة المؤمنين وحالتهم الاقتصادية والاجتماعية و	٣٨٤
٤. المسؤولية تجاه القائد الصالح	٣٨٤
٥. المسؤولية تجاه السلطان الجائر	٣٨٤
٦. مسؤولية الولاء	٣٨٦
خاتمة المطاف: موقف الإمام الحسين عليه السلام من المشروع الأموي	٣٩٥

خاتمة المطاف

موقف الإمام الحسين عليه السلام من المشروع الأموي

في زمن معاوية	٣٩٧
في زمن يزيد	٤٠٠
المصادر والمراجع	٤٠٧
المحتويات	٤٣٧